إدوار الخراط

صخور السماء

مركز الحضارة العربية

صخور السماء

روايـــة

مـركـز
الحضارة العربية

- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها . ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف : ٣١٤٨٠٤٢

إدوار الخراط

صخور السماء

رواية

مركز
الحضارة
العربية

DL

الكتاب : صخور السماء

الكاتب : إدوار الخراط

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠١

رقم الإيداع : ١٦٢٥/ ٢٠٠٠
الترقيم الدولى I.S.B.N.977-291-279-1

تصميم الغلاف : محمود الهندى
جرافيك : أرت سمارت

الإخراج الفنى : وحدة الكمبيوتر بالمركز
تصحيح : كمال عبد الرسول

إهداء

إلى قلته فلتس الخراط

الحكاء العظيم المكافح العظيم

الذى عرف كيف يعيش وكيف يموت

ولد في أخميم في العقد التاسع من القرن التاسع عشر

ومات في الإسكندرية في ليلة ٢٢ ديسمبر ١٩٤٣.

هذا الكتاب تكريما له

إدوار الخراط

الفصل الأول
مارينا

جسده المضنى انحسرت عنه سورات النشوات القديمة، التى لم يعرفها بعد، وكانت كامنة فيه. فجوة واحدة بين صخور الجبل الرمادى الحار، مفتوحة على سماء حجريّة لا استجابة منها، بيضاء غير صافية البياض، مشتعلة. شجرة الدوم نحيلة، عتيقة، عليها طبقة خفيفة من التراب، أغصانها تنوس في نعمتها القاحلة، على الجذع المكين المشقق، يعرف أنه لا حظّ له منها إلا نظرات أخيرة، واهنة، ربما، لكنّ فيها حدة النهايات.

أحس في سمائه الداخلية رفرفة طيور الفراق، مازالت جُثُوماً بعد، فهل هى على أهبة الانطلاق؟

الألم في ضلوع صدره رقيق لكنه لا يريم وفي عينيه سحابات غائبة.

رأى في غَبَش سحابةٍ ملتبسة، الجسم الأنثوى الصغير عارياً، لا مناعة له في الظاهر، لكنه حصين في نعومته، يبدو أنه مُعَرض للبلى سريعاً.

ها هو الآن قد هاله الزمن، يقف أمام نهايته، وبجانبه أسدُ مقتول -- هل قتله أم سوف يقتله؟ - ممدّد الأطراف، مخالبه المقوسة الطويلة ناشبة في تراب الأرض الخام غير المستوية، بلا جدوى، رأسه مثقوب بطلقة رصاص واحدة، شعر لبدته الغزير الثقيل نازل على الكتفين المنهارتين، فيه خصلٌ ملبّدة بالدم، لكن فيه كرامة لا تُنال.

كان كل شئ صامتاً رمادياً أغبر في هذا الفجر الساخن الذى يُخايل بأنه فَجْرٌ صعب المجئ.

صمتُ بدء الخليقة قبل أن تنطلق صرخات الطيور من وكناتها.

فلما عاد إليه ذلك الصباح، رأى بالتأكيد، أنه على بَسْطة السلّم

الحجرى، من غير سياج، ملاصقاً لحائط البيت القديم، تهبط درجاته إلى الفناء الواسع الذى لم تصله أشعة الشمس بعد. رأى نفسه طفلاً، صغير الجسم جداً، يقظ الوعى.

كان جالساً على أرض البسطة الحجرية، بجانب الزير العالى يكاد يلتصق ببطنه الفخارى العتيق المحبب بثغرات دقيقة جداً، مندى ندى خفيفاً بنضح الماء عليه، يعطيه هذا النضح ملاسة وليونة على صلابة جسمه المتين، نصفه منير بوهج الصبح الباكر ونصفه الآخر معتم قليلاً لكنه واضح الاستدارة والكمال.

كان حسه بالطفلة إلى جانبه حساً نقياً. وكان يعرف أن اسمها مارينا.

الأنس بمجرد وجودها معه عاد إليه، بكل قوة الطفولة، أنسٌ يتجاوز الحب أو الشهوة. سوف يعرفهما، الحب والشهوة، بكل عرامتهما وجموحهما وإلحاح نهشهما لروحه - مع هذا الأنس نفسه، بوجود التجسد الأخير لمارينا معه، في الزمن الأخير، لكن حسه بهذا الأنس هذا الصلح، أشمل وأعمق من سورات النشوة القادمة في مقتبل الزمان، أهدأ وأروح وغير موضوعٍ للسؤال أو تقلّب الهواجس.

كانت القصعة المسطحة الواسعة تحت الزير تترقرق بماء صافٍ في مثل صفاء روحه الطفلية، تناثرت فيه حبات قليلة من نوى المشمش، بلونها البنّى الخشبى المرسوم بخطوط منبعجة طولية في غاية الرهافة، يضخم الماء المتموج فوقها من حجمها، بينما كان يعرف أن قعر الزير، من جوّة، قد امتلأ بنوى المشمش، وفصان البلح الصغيرة المستدقة، لأن أباه كان قد رفعه إلى فوهة الزير الواسعة وشال عنها قرص الغطاء الخشبىّ المدوّر إذ أمسك بالعارضة البارزة التى تضم نصفىْ القرص أحدهما إلى الآخر بمسامير خشبية عاشق ومعشوق، أعطاه أبوه قبضة من نوى المشمش الجاف وقال له:

- ازْجُلْ ياسيدى يابن ستى. أزجُلْ النوى في الميه تحصل البركة من يدكْ، ازجُل.

وعندما رمى الحبات في عتمة الزير سمع صدمة طرية إذ سقط النوى في عُمق الماء وسمع له بقبقة سريعة متتالية بانبثاق فقاعات الهواء من على سطح الغمر.

كان باب غرفة النوم الكبيرة مردوداً، خشبه الثقيل قد بهت لونه قليلاً عند حافة احتكاكه بالحائط الحجرى، وكان عالياً جداً في عينى الطفل، يحجز دونهما، هو ومارينا، عالم الكبار الحافل بما هو غير مفهوم وربما غير ضرورى.

كان قد نزل، كاد يتدحرج ويقع من على السرير الضخم الذى تنام عليه أمه وأبوه وهو وعايدة الصغيرة، معاً،، رفع طرف الناموسية البيضاء الكثيفة، وعندما وصل إلى الباب ردّه بجهد وعناء ولكن بفرح التشوف والمغامرة.

(ألم يكن هذا شأنه على الدوام؟)

خرج إلى بسطة السلم فوجد مارينا قد استيقظت قبله، وجلست تحت الشباك الذى تخترق الشمس ما بين أخشاب ضلفتيه، خطوط من النور رفيعة مستقيمة تقع على جانب وجهها وشعرها، وهى متربعة على حجر بسطة السلّم. ساقاها الصغيرتان - حتى في هذه الطفولة - مليئتان ومخروطتان بانسياب، انكشفتا تحت فستانها الخفيف المشجّر بالأحمر والأزرق، يشفّ عن قميص داخليّ ضيق غامض اللون.

هل كان ذلك أول الصبح بدرى بدرى؟ لم يكن في البيت الكبير صوت، لم تدب إليه بعد ضجّة الحياة اليومية المليئة بالأحداث.

كانت أشعة الشمس تسقط على الماء الذى تهتز له مويْجات رفيقة في القصعة العريضة العميقة، تنفذ خيوط الضوء، حادة وناعمة في الوقت نفسه، إلى عمق هذا الماء، وتقع على حبّات نوى المشمش

فتعطيها حياة أخرى وتبدو كبيرة، مليئة بالسرّ.

قطرات الماء تسقط، مدوّرة، ناضجة، كبيرة، واحدة بعد الأخرى، بتمهل.. بين هبوط قطرة الماء وتكوُّن القطرة التالية وانفصالها عن جسم الزير زمنٌ يتصوره طويلاً جداً، ترتطم بسطح الماء المشعّ فتستدير لها موجة دائرية تنداح باتساع وتخفت حدة دورانها حتى تصطدم بحافة القصعة وتذوب بهدوء.

مارينا - دائماً أشجع منه وأقدر على المبادرة - تمد يدها الصغيرة وتلعب بحبات النوى تحت الماء المروَّق الذى سوف نشرب منه.

سمع صرخة ثاقبة.

كان أبوه قد قال له: هذا الصقر، يحلق عالياً جداً في السماء يا ولدى، لكى يحرس أخميم من كل شرّ، هذه صرخته الحادة إذ يلتقط ببصره النافذ تلويات الثعابين على الأرض، فيهرب الثعبان إلى جحره بأسرع ما يستطيع قبل أن ينقضّ عليه الطائر من السماء.

لم تكن الصرخة نذيراً في السماء الساطعة بشمس هذا الصباح، بل لعلها كانت في حسه نوعاً من تأكيد الحس الشامل بالأُنس وبنعمة اليوم الجديد.

لا يستطيع أن ينسى مشهد الماء المهتز على سطح القصعة الفخار الملساء، وفي قاعها العريض العميق وعليها حبات نوى المشمش، تخترق جسم الماء خطوط شمسٍ صبحية أخميم، بنعومةٍ ومضاءٍ معاً.

مرقت أمامهما بسرعة عقربٌ كبيرة متجهة إلى جحر لها في ركن البسطة، كانا يرقبانها بلا قلق، بشئٍ من اللامبالاة، وبفضول. مرّت من أمامهما بسلام.

كان مثول هذا المشهد، ودوامه في روحه، احتفالاً متجدداً بنعمةٍ لا نكران لها حتى إن شابتها وضربتها طعنات كثيرة.

وجه مارينا دمث السمرة، شعرها الأكرت مضفور ضفيرتين

صغيرتين مربوطتين بفيونكة من قماش فزدقي انفكت أطراف عقدتها وتهدلت، عيناها الخضراوان الواسعتان شمسٌ أخرى في هَدأة نصف العتمة نصف النور التى تكسو وتبطن كل شئ بنوع من السكون والصمت لا حاجة فيه للكلام.

(هل يذكر أى كلام دار بينه وبين أُنس العالم في ذلك الصباح؟

لعله لم يكن بحاجةٍ للكلام إلا بعد ذلك بسنوات كثيرة. ليته ما كان بحاجة للكلام)

يعرف أنه إذ يمتع النهار قليلاً وقبل أن تحترق أخميم بصهد الظُهر سوف يخرج إلى سطح البيت الذى عمرته صوامع الغلّة وأبراج الحمام المدهونة بالأبيض، وعشش البطّ والوز والدجاج المختبئ من الحرّ في ظل جدار السطح تنافح عنه الديوك والذكور بفحيحٍ وهجومٍ غير هيابٍ بالمناقير المشرعة.

وبجانب سور السطح ترتفع رَصّة الألواح الخشبية التى يُقرّص عليها العيش الشمسيّ.

كان يصعد إلى السطح، يتدأدأ ويحتمى من الحرّ في ظل صوامع الغلة أو أبراج الحمام، يرقب أقراص العجين على الألواح الخشبية، تسخن تحت الشمس في وقدة السطوع الثابت، قبل أن تُسحب وتوضع في الفرن الذى يوقد ويترك حتى تفتر حرارته، إلى أن ينضج العيش وتفوح له رائحة شهية.

كانت حنينة التى تشتغل عند عمتى ديماريس تعمل في الخبيز بعد الظهر عندما تحمى أقراص العجين ويقب سطحها. أقف بجانبها مفتوناً وهى تبدأ بأن تدخل أقراص الجلّة المدوّرة من الفتحة السفلية على الجانب الأيسر للفرن، وتغذيه دون توقف بحطب القطن الناشف وأعواد الذرة الجافة بعد أن تقصفها إلى أجزاء صغيرة، والفروع الرفيعة الذابلة التى يكسرها لها الولد خلّة ابن روماني من شجرة الجميز

العتيقة، وهى تحرص طول الوقت أن يظل الفرن فاتر الحرارة، يتقد للنار وهيج هادئ له وشيش وفحيح خافت. ومن الفتحة العلوية على أرضية الفرن المسطحة المصقولة السوداء يخرج العيش الشمسى، سطح كل رغيف قبة مدورة ناضجة وفواحة تجره حنينة بعصا معقوفة الطرف من فوهة الشابور الخلفية الذى هدأت ناره الآن بعد أن كانت حنينه تؤرثها بين كل أونة وأخرى.

ياما أكلتنى حنينة البيض المشوى، على مهله، على قرص الفرن الساخن وياما شربت بعده من قسط اللبن الدافئ المحلوب توا من جاموسة ابن عمتى الخواجا شفيق ديمترى.

وكما كنا كلما لبسنا الحذاء أو جلسنا على الكرسى أو تمددنا على سرير - بعد ذلك بسنين - ننظر أولاً بحرص وننفض البنطلون أو الجلابية بقوة، ونستوثق تماماً من أن الفراش أو الملاية أو الشلتة بريئة من العقارب المستكنة في الثنايا، كانت حنينة - يذكر الطفل ذلك ذكرى حادة - في كل مرة توقد الفرن، تنطلق عقرب أو أكثر من قرص الفرن الناعم الصلب، بسرعة خاطفة، وفي كل مرة، والطفل يرجع للوراء خطوتين ثلاثاً ويكتم صرخة تفاجئه هو نفسه، كانت المرأة العجوز القوية على استعداد، ممسكة بالبشكور الطويل الصلب معقوف الطرف الذى تجذب به العيش بعد نضجه، تضرب به العقرب المندفعة شائلة الحمة، ثم تمسح القرص الذى بدأ يدفأ بخرقة نظيفة مندادة بقليل من الماء مسحاً وثيقا وهى تتمتم: «باسم الصليب وشارة الصليب»

يرى الطفل وهو يلتقط حبة نواة المشمش التى استخلصها من قصعة الماء، بتحريض ناعم من شيطانته الصغيرة. بين الشمس والظل يأخذان يحكان قمة النواة بالحائط، حتى تتآكل ويظهر فيها ثقب صغير جدا ينبشان ما بداخل الحبة العنيدة العصية بسن ديوس إنجليزى جاءت به مارينا، ويخرجان فتاتا من قلبها المر العذب معا، حتى إذا فرغ القلب

تماماً، دفعا بالهواء إلى داخله، هي أولاً ثم هو بالدور فتعطي النواة صفيراً حاداً ثاقباً، كأنه استجابة لصرخة الصقر الحارس المحوّم في عين الشمس.

هل كان يحلم، أم كان حقاً مع عمته ديماريس وأمه وماريتا الصغيرة النائمة جنبه وأمها المقدسة كيريا، وأختها سالومة، على الكليم الأسيوطي المفروش على السطح، وقد هدأت الحياة الصاخبة فيه، وإن كان يسمع في نصف النوم نقيق دجاجة خفيض يرد عليه زقاء ديك فخور يظن أن الفجر جاء، أوت الطيور إلى عششها الخشبية وأغلقت عليها الرتاجات، الكبار يتكلمون براحتهم يحكون مع بعضهم بعضاً حكايات الكبار التي لا تثير اهتماماً كبيراً، عندما رأى الشهاب يتوهج في قلب زرقة السماء العميقة المنتثرة بفصوص النجوم الكثيرة المشعة، يسطع وهو يشق صفحة الزرقة الليلية الصافية رأسه مستدير متألق وذيله الطويل يستدق ويخف حتى تلاشى السهم الساقط بناره البيضاء تماماً، وسمع عمته تهمس بصوتها العذب الحنون: «اسم الصليب، حافظك حافظ شعبه لا يغفل ولا ينام ارحمنا يايسوع».

لم تكن الليلة مقمرة، عندما سأل عمته لماذا لا يصعدون للسطح عندما يسطع البدر المستدير، قالت له: «يا وِليدى، دا عين الجَمر في تمامه تفلج الحَجر» وعرف أنهم يتوجسون من سطوة البدر في كمال نوره.

هل كانت سقطته من على هذا السلّم بعد تلك الليلة أم بعد تلك اليقظة الباكرة في الصبح؟

لا يذكر إلا إحساسه بأنه يتدحرج على درجات السلّم الحجرية التي نعّم حوافها الزمن وطول الاستعمال.

السماء الممزقة في نور النهار تسطع في عينيه وتختفي، وهو يتقلب

على الدرجات ويهوى إلى أسفل، تبدو أرض الحوش الترابية بعيدة جداً لا يصل إليها في سقوطه الذى لا ينتهى، أطرافه تتأرجح وتهتز في الهواء لا تمسك بشئ، ليس للسلّم سياج، سمع صرخة أمه الثاقبة كأنها تأتي من بعيد لا تعنيه في شئ، لا علاقة لها به، لم يحس ارتطام جسمه بالأرض. فقط كان الدم ينزّ ببطء من جرح واسع على ركبته اليمنى - مازال أثر هذا الجرح واضحاً حتى الآن، الجلد شف عليه ورقَ، فقد سُمكة ولدونته، وأصبح مشدوداً ورفيع القوام.

كم من مرة سقطتُ على السلالم

كم من مرة أُغلقت دونى البيبان

قضيت ليل عمرى أصارع الملاك تحت السلم

هل هو نفسه التنين؟

صحيح أنه لم يستطع أن يصرعنى، لكننى لم أصرعه، أيضاً.

قلت له، كما يقول يعقوب: «لا أطلقك حتى تُبرئنى» فهل أنا الرجيم أم المغبوط بالنعماء؟

وعلى رغم الأبواب الثقيلة حلقتُ في آفاق لا نهاية لاتساعها وبراحها، اخترقت الطابوهات، عبرتُ من عالم إلى عالم، عرفتُ مذاقات من السُكر نادرة الحدوث، نفخت في مزمار من صنع يدى، وضربتُ صنوج موسيقى الكلم، تمرغت على جسد العالم، أحاطتنى أذرعة أخطبوط الشبق والجنون واعتصرتْ منى نخاع الحلم، شارفتُ القداسة وضربتُ في حمأة الدنس ولوثات هوس النشوات المباحة والمحرمة على السواء.

لعلنى مازلت تدق سمعى صرخات الطاحونة في أخميم أم في تلك البلدة الصغيرة الأخرى التى أعرف الآن أن اسمها أباهور، عندما كنت أعبر النيل على المعدية الحديد، أرقب سلسلتها تغوص في الماء وتطفو فتسحب المعدية بما عليها من ناس كثيرين متزاحمين وبهائم لها رائحة

قوية، ولعلني دخلت الطاحونة مع حنينة أو مسعودة أو ورسانة وقد امتزجن الآن في ذاكرتي الطفليّة وتكونت منهن جميعاً امرأة حنون تفوح من طرحتها رائحة الحلبة المطحونة ودقيق الذرة ووقيد الفرن تمسح لي لقمة العيش الشمسي بالسمن الغني اللامع تغمسها وتؤكّلني، وكأن لها - هذه المرأة - مذاق خصيب في فمي من الخبز الساخن والحنوّ والسمن وفوح الحبّ.

في أول الصبح كان أبي يصنع قهوته على السبرتاية الصغيرة، فرشنا الكليم على بلاط فسحة شقتنا في شارع الكروم، على أطراف غيط العنب، ونحن متحلقون حوله بشغف، أمي وعايدة أختي وهناء وألبير غنّ الصغير.

كان أبي حكّاء من الطراز الأول، يعرف كيف يطرز حكاياته وينمقها ويستثير شوقنا لمعرفة ماذا يحدث، بلهجته الصعيدية التي لم يغيّرها، لم يلحق بها أيّ عوار من شوب لهجة اسكندرية، حتى مات، هذه اللهجة التي يخفق لها قلبي حتى الآن كلما سمعتها من أحد العابرين أو أحد أقاربي الذين نادراً ما ألقاهم، لا أعرف على الإطلاق لماذا هذه اللغوة الأصيلة بعيدة عن لهجة صعايدة التليفزيون من أول حمدي غيث حتى سناء جميل مروراً بأحمد زكي أو يحيى الفخراني. عند أهل التليفزيون أحس بالإتقان المدروس إلى حد الافتعال والزيف، مهما كانت مخارج الحروف سليمة وتقطيع النبرة مضبوطاً، أما عند أهلي فهي العفوية التي لا تعمل فيها ولا إتقان ولا حرص فيها على الدقة وسلامة النطق بل هي تتدفق من الصميم.

حكى لنا أبى إن ابن عمه سلوانس قال له وهو صغير، في أخميم، إنه كان عائداً من الشونة ليلاً، بعد جمع محصول البصل، ورص الشوالات وتشوينها وكتابة الحساب في «دفتر الأستاذ» وكان الوقت قد تأخر عليهم في الشغل ومحاسبة الأنفار ونهو اللازم.

في شارع عزيزة المقفر الخاوى كانت الليلة غير مقمرة، وكانت السماء مضيئة بنورها العميق داكن الزرقة وبما تبعثر على صدرها من حبّات النجوم، نسمة هواء الليل لم تكد تهبّ بعد حرّ النهار الخانق في بؤونة، صادفه عند مفارق درب أشعيا قبل السويقة الكبيرة رجلٌ يبدو أنه عريق في السنّ، صغير الجسم لكنه ممشوق ومتسق الأعضاء، وجهه على شيخوخته وتجاعيده الخفيفة يبدو نضراً وضيئاً، يعتمر عمامة بيضاء مشعثة الأطراف كبيرة كأنها تُخفى وفرة من الشعر الغزير لا يظهر منها شئ، قال أبى إن ابن عمه سلوانس خيل إليه أن أطراف القماش الممزق في العمامة صلب وحاد كأنه أسنان الشوك، وكان يلبس عباءة قاتمة اللون تنسدل على جسمه فلا يبين منه شئ، وكان واقفاً على المفارق وكأنه في بقعة منيرة، بعيداً عن حيطان البيوت، بين تقاطع الشوارع. وقال له بصوت خفيض ولكن فيه عذوبة لا تُتصور ولا مثيل لها:

– ياعم سلوانس ياوليدى، تعالَ، جرّبْ جرُبْ إهْنا

قال له ابن عم أبى، كأنه قد حدس أنه لابد أنْ يكون قد دخل أورشليم وقدّس فيها:

– إنت عمّ بتعرفنى يا مجدّس؟

-بجولّك جرّبْ... ما عُدتش جادر اخطّى خطوة عاد ياوليدى، تجدر تحملنى لغاية آخر الطريج؟

كان سلوانس ابن عم أبى قوياً متين العضل قائم العود وفخوراً بنفسه، فقال له:

- باه يا بوى . . . تعال عادْ

انحنى وبحركة واحدة رفعه إلى كتفيه فجاءت رجلاه على جانبى عنق ابن عم أبى ، وإن كانت العباءة تغطيهما ، بينما كان يسند جسم الشيخ بيديه ، كأنه لا يحمل شيئاً .

كان في خفَة الريشة أو النسمة .

لكنه ما أن سار بضع خطوات حتى أحس الثقل يزداد على كتفيه ، ويزداد ، وتشتد وطأته .

ورأى سلوانس أن مصابيح الغاز المقامة حديثاً على جانبى الشارع تنطفئ واحداً بعد واحد ، كلما تقدم خطوة ، وفي الوقت نفسه يغمر الشارع كله نور غريب ساطع بدائرة وهاجة تحيط به هو وحمله في مركزها .

كان الثقل في كل خطوة يتضاعف ، ويتضاعف حتى لم يعد يُطاق .

ولمح ابن عم أبى قدمى الرجل وقد سقط عنهما مركوبه ، ورأى فيهما ندبة عميقة سوداء نافذة من الظهر للبطن ، كاد يتعثر ، انحنى ، وركع على الأرض وقد أشرق ذهنه فجأة وصاح :

- بجَى لا السما تحملك ولا الأرض تحملك وأنا سلوانس الضعيف الخاطى أجدر على حملك . . . !

وعندئذ لم يحس سلوانس ابن عم أبى إلا بخطفة نور وهاج كأن البرق قد مزّق السماء والأرض ، والصوت العذب يقول له من قلب النور :

- بشراك يا سلوانس بن قلادة هرمينا الخراز ، ونذير . سوف يولد لك ولد يدعى لعازر أغابيوس أبُ المحبة ، سوف تثقل عليه أعباء الحب فلا يستطيع أن يحملها .

قال سلوانس : أنت قلت إنك سراج للعالم . حمْل نورك لا يستطاع .

هكذا حكى لنا أبى وهو يمتص لحسةً من عجينة سوداء صغيرة ، رفعها إلى فمه بعود كبريت ، بعد أن دوّرها وملّسها بأصابعه ثم وضعها تحت لسانه وهو يشرب قهوته السادة الثقيلة .

تحريراً في ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٢

سعد الله صليب الجلاّب تاجر بالمنيا وأخميم

حضرة الأكرم الفاضل قلدس افندي قلادة محترم

بعد مزيد أشواقي إليكم حقاً أوحشتمونا زيادة كما يعلم الرب. حضرنا بالمنيا في يوم الاثنين والبضاعة قليلة جداً وأرجو دواماً تفيدونا بأخباركم ولا تحرمونا من جواباتكم اللطيفة. ومن جهة الذمامات حصلنا فيها البعض وباقي منها البعض. وصرّفنا الذرة الموجودة بطرف عمنا سكرّ وتأجل ثمنها ولم أخذنا منها إلا عشرون قرش صاغ أرباح وللآن محمود طاهر لم استلم الذرة الموجودة وإن شاء الله تكونوا اشتغلتوا بالعمولة مع المحل على حسب اتفاق الخواجا عطا الله معنا بسوهاج وعشمانين ربنا يعدّلها ويلزم تحرروا جواب لأخينا عبد المسيح بأخميم واليوم حررنا جواب لخالنا عبد الشهيد لأنه بلغنى أن الشيخ محمود طاهر حضر لاستلام الغلة، إن شاء الله عند الورود ومحرر لحضرتكم صورة بكشف الباقي وإن شاء الله يكون أخينا مهاود حضر بطرفكم وسلامي الخصوصي لحضرة الخواجا عرفي وجميع من يلوذ بطرف حضرتكم.

سعد الله صليب

ملحوظة: الباقي لغاية تاريخه فقط ستمايه وستة وثمنون قرش صاغ وإن كان ليكم بصارة حرروا لأربابهم جوابات حسب الكشف طيّه لإرسالهم لحضرتكم والرد باسمي بشباك البوسته.

تحريراً بأرمنت الحيط في ١٥ / ١١ / ١٩٢٢

حضرة أخى العزيز قلدس افندى قلادة محترم

بعد تقديم سلماتى القلبية والروحية أتعشم من الله أن تكونوا حايزين كامل الصحة والسرور. عزيزى ورد جوابكم المؤرخ ٢٤ أكتوبر ١٩٢٢ وبكل أسف لم أستلمه إلا يوم ١٢ الجارى وتجدنى متشكر جداً لاعتناكم بنا ونطلب من الله أن لا يحرمنا منك أبداً آمين. سلامى لولدنا أمين أفندى والست قرينتكم. وهنا الست الوالدة بخير تقبل أياديكم وهى موجودة معنا بأرمنت أرجو يا أخى لا تحرمنا مكاتبتكم الشريفة ودمتم لأخيك المخلص

أخيكم

إسحق قلادة

عنوانى هكذا: اسحق قلادة صراف أرمنت الحيط

سيدى الوالد العزيز

من بعد لثم يديكم الطاهرتين والتماس صالح دعواتكم لعلكم والعموم بصحة جيدة كما نحن الذين نتمناها لكم على الدوام.

سيدى الوالد المحترم: من مدة ليست بقصيرة لم ترد من حضرتكم خطابات بها نطمئن على سلامة صحتكم عسى يكون المانع ألف خير، وانشألله تكون متمتع بكمال الصحة والعافية اللتان هما غاية القصد والمراد.

ثم أن مأموريتى للآن لم يحدد الكشف وذهبت يوم الخميس الماضى واليوم فعلمت أن رشوان باشا باسكندرية وربما يحضر الأربع. وعند حضوره سيتم كل شئ بلاشك بإذن المولى وبثمرة دعائكم لأن ربنا عالم بالحال وغنى عن السؤال وهو الكريم الرزاق، وربنا يجازى أولاد الحرام يبقى الباشا قال لمدير المستخدمين: حدد الكشف على طلب أمين فوزى

قلدس لأقرب كشف وحضرته يأخره للآن، دول والله يا سيدى الوالد المسلمين أحسن من النصارى لأنه حضرته نصرانى زينا واترجاه مع أنى معى الحق وكثير من الموظفين ساقهم عليه السكرتير الخاص بتاع الباشا لحد ما قال له السكرتير: الباشا يزعل قال: لما أشوف الباشا يعيَنه فين. المقصود الله موجود حىّ أزلى ويجازى.

ألتمس من حضرة سيدى الوالد وأنا في أشد الخجل من حضرتكم بأن ترسل لى جانب نقدية لأنه لا يوجد عندى نقدية بالمرة ويشهد المسيح على ما أقول وألتمس عدم التأخير.

سيدى الوالد المحترم عند إرسال النقدية ارسلوها مسوكر لأن البوستجى ضيّع خطابات كثيرة مبعوتة عادة.

سلامى للعموم خصوصاً الست خالتنا وأخى منير واقبل فائق احتراماتى

ابنكم المطيع

(إمضاء) أمين فوزى قلدس

تحريراً في ٢٨ يوليه ١٩٢٥ في أخميم

خالى العزيز وسيدى الرشيد أبقاك الله وحرسك

سلامى عليك وتحية لا يقدر لسانى على حصرها. فيا خالى العزيز الشفيق إن ما بنفسى لك من المحبة الصادقة وما بقلبى من العاطفة الخالصة وما انطوت عليه ضلوعى من السرور بوجودك أصبح مشهوراً معروفاً كالشمس لا تخفى بأى مكان أيها الخال الرحيم إن من قام بشكر النعمة فقد استحق دوامها ولكنى مهما سطرت من ضروب الثناء وقمت بواجب الجزاء وكتبت من أصناف الشكر ولم أجحد ما وجب على من الحق فإنى عاجز ضعيف غير قادر على إيفاءك حقك.

خالى العزيز، أمين أفندى بالمنيا مع سته عند خاله فهيم واليوم

حررت له جواب. سلامي لامرأة خالي ومنير أفندى والست عزيزة.
عزمي أن أذهب إلى مدرسة أسيوط الثانوية
سلامنا فرداً فرداً لكم فرداً فرداً

ابنكم
شفيق ديمترى
طالب بالمدارس الثانوية

ركبت المعدية ذات الجنزير الذى يربط بين الشطين، دفعت القرش تعريفه عائداً من سوهاج إلى أخميم.

أمواج النيل تحتضن بعضها بعضاً وتذوب معاً في هذا العناق كأنها على وشك الهجوع في مضاجعة هادئة من غير جموح الشهوات.

بدت لى أخميم من بعيد محاطة بسياج من الأشجار الجاثمة، كأنها العمالقة من عالم لا أعرفه رابضة تحرس البلد من أعداء مخوفين.

ترتفع من هنا وهناك، من بين أحضان هذه التياتين، أشجار النخيل، عرائس إلهية محلولة الغدائر، ويبدو هنا وهناك بصيص من الضوء الباهر يلتمع متشععاً بين دغلات الأشجار المروضة المتلبدة، كأنها أضواء من عيون مرتقبة.

لماذا كل هذا الترصد والتحصن والتمنع على الاقتحام؟

هذه القوى من غير العالم لا تقتحم كيان إنسان ولامنعة مكان، فلم الحرص والترقب؟

بل هى مقتحمة.

لأن الخيانة، هنا كما هى في كل مكان، ماثلة وقائمة ولا نعرفها.

كنت قد تغديت في نادى الموظفين مع رفله افندى الذى كان يكبرنى كثيراً - كان يدرّس الجبر والهندسة في المدرسة الثانوية ودخلت معه

فيلم «انتصار الشباب» دفع لي ثمن التذكرة ثلاثة قروش ضاغ بحالها، ومازلت أذكر بغموض، الاستعراض الأخير وصوت اسمهان البلّوري في قاعة السينما الباردة التي تضرب المراوح الكبيرة هواءها، قبل أن أخرج إلى وهج بعد الظهر، مررت بمكتبة البلدية المغلقة دائماً وحلمت بأن أستعير منها الكتب ذلك الصيف، ولم يحدث، وعندما سرت في الشارع الواسع النظيف تحت المدرسة بدت لي أقرب إلى سجن الحضرة، مسدودة، حجرية، صارمة البناء.

التقيت في سوهاج بأبونا باسيليوس الراهب الذي نزل من الدير الكبير حيث كان أمين مكتبته، في شقة رفله افندي وكانت جميلة واسعة تطل على المنتزة الصغير المعشوشب وأشجاره المشذّبة مقصوصة الجناح.

كان الوقت بعد الغروب بقليل عندما نزلت من المعدية.

أخذت سيارة الأجرة الوحيدة التي كانت منتظرة عند منزَل المعدية على شطّ النيل.

كانت سيارة قديمة لها رائحة خاصة هي مزيج من البنزين واللبن الحامض وعرق الفلاحين ونفحات النساء المتلففات في البرد السوداء السابغة، ولها نافذة خلفية صغيرة بيضاوية الشكل من الزجاج السميك.

جلست بين اثنين مزارعين ميسوري الحال فيما يبدو، الزعابيط الجوخ سابغة عليهما حتى في عز الصيف والشيلان الحرير حول الكتفين، وواحد أفندي يبدو أنه موظف كتابي في المديرية مثلاً، بطربوشه وبدلته حائلة اللون، وكان السائق فتىً معمماً في جلابية مقورة الصدر يبدو من فتحتها العلوية صديري لامع وإن كان قديماً مزرراً بأزرار كثيرة مدورة متتالية.

أما جاري الذي وجدت أنني شبه محشور بينه وبين باب التاكسي

التاريخيّ فقد كان في مثل سنيّ أو لعله أكبر مني بسنة مثلاً (في تلك الأيام كان ذلك مهما . . . لماذا هم دائماً أكبر مني بسنة ؟)

قال لي بلهجته الصعيدية المهذبة ، بتعطيش الجيم :

– حضرتك من المهاجرين ؟

قلت : أيوه من إسكندرية . أبي أهله من هنا ، من زمان ، قلدس قلادة الخراز من أخميم .

– أنعم وأكرم . من خيرة بيوتات أخميم وحضرتك طالب ؟

– في الثقافة . عملت امتحان الجبر والهندسة بعد ليلة الغارة الكبيرة التي راح فيها المئات .

– ربنا يرحمهم ويرحمنا . الرحمة تجوز على الأموات والأحياء كما يقولون أليس كذلك ؟ أنا مصطفى قاسم اسحق ، ابن الطبيب الشرعي في سوهاج . جاي أزور جرايبيني في أخميم . كل الناس يقولون لي : قاسم اسحاق ، لكن اصحابي يعرفون أني مصطفي .

سرعان ما سوف تتوطد بيني وبين مصطفى صداقة نادرة . بعد أيام قلائل لم نكد نفترق ، كما نلتقي كل يوم تقريباً ، على العصرية ، أمام الشونة ، أو في منتزه البلدية ، أو نذهب إلى أباهور معاً .

كان داكن السمرة جداً ، ووسيماً ، مربع الوجه تقريباً ، شعره شديد الجعودة والسواد ، يدهنه بالبريانتين ويلف عليه الفوطة طويلاً ، ويظل أجعد خشناً وأعاكسه به ، كان دمثاً خفيض الصوت لكنه إذا استشاط – كما رأيته بعد ذلك في مناسبات عدة – مقتحم عالي الصوت لا يرعوى عما يراه حقاً ، أو ما يراه من حقه ، وكان قد أدى امتحان التوجيهية في مدرسة أسيوط الثانوية وينتظر ظهور النتيجة وينوى الالتحاق بكلية الحقوق في جامعة فؤاد الأول بالقاهرة ، ولكنه انتهى إلى جامعة فاروق الأول بالإسكندرية ، معي ، واشتركنا بعد ذلك بسنوات قلائل في تأسيس حلقة تروتسكية ثورية ، ولم يعتقل أو يسجن إلا في أيام

الناصرية، بعد أن انضم إلى «حدتو» ونُفي إلى الواحات مع مَنْ نُفي، واشتغل محامياً في أسوان ومات بسرطان في المخ ومازلت أتوقع أن أراه عندما أذهب إلى أسوان.

بعد أن توطدت صداقتنا كانت مشاكل اغتصاب الأرض من الفلاحين، وأنوال الحرير، وحقوق الشغالين عليها، من همومنا في تلك السنوات الباكرة.

وفي غمار ذلك الهمّ عرفنا أن رجلاً فتياً طموحاً صاحبُ عدد كبير من الأنوال قيل لنا إن في فناء بيته نواة لما يمكن أن يصبح مصنعاً للحرير، ولما فتح لنا الباب وجدنا الرجل في نحو الثلاثين من عمره مشمّر الأكمام عن ذراعين مفتولتين يعمل بنفسه في النول بيديه وساقيه في إيقاع منتظم، تهتز له عمامته الصغيرة، وفي الفناء نحو عشرة أو أكثر أنوال يشتغل عليها العمال في طنين متصل.

قام يحيينا ولما استمع إلينا أطرق برأسه متفكرا وقال:

– والله يا فنديه دا كلام معجول، لكن كل وجت وله آذان.

ولم يُزد.

أما في ذلك اليوم، عند عودتي من سوهاج، فقد سارت بنا سيارة الأجرة العتيقة في طريق أخميم وسط الغيطان.

أشجار الصفصاف والجميز والجزورينا والنبق تميل عليه من أحد جانبيه، تتهدل أغصانها الكثيفة حتى تكاد تصل إلى تراب الطريق، عباءات قاتمة من الورق الأثيث الوحيّ... ولما كنت رومانتيكيا جداً فقد قلت عنها «كأنهن ثكالى في ليالي العرس».

كنا في ساعة الغروب وقد استشاط جنون طيور الخضير السوداني وعصافير الجنة والشحارير والقمري في لغط كثيف وحاد ومتصل إذ تأوى إلى وكناتها بين الأشجار وتطير مرفرفة خفاقة الأجنحة بين الأغصان.

أما الجانب الآخر من الطريق فتجرى تحته ترعة صغيرة مياهها متموجة بحمرة صهباء.

ومع سرعة السيارة الهادئة المتحشرجة على المطبات الترابية كان نسيم الغروب مفاجئاً يهب علينا من النافذة المربعة المفتوحة.

قلت لمصطفى، في إحدى المرات، ونحن نتمشى أمام جنينة البلدية:

- كم هو جميل أن أشعر أننى هنا في أعماق مصر الوادعة بعيداً عن الدماء المسفوحة علي شاطئ ذلك البحر البعيد الذى لعنته الآلهة (هكذا قلت) ودنسته جرائم غبى مجنون يسمونه هنا - للأسف - الحاج هطلر الذى شاع أنه مسلم وموحد بالله وضد الكفرة والإنجليز.

أما مصطفى الذى سوف أعرفه بعد ذلك - باستمرار - باسم قاسم إسحق فقد قال لى شيئاً عن الحروب الرأسمالية وتنازع الأسواق العالمية والتفسير الماركسى للتاريخ.

قلت: نعم، ربما، لكن كل شئ هنا وادع هادئ حزين، كل شئ ساحر فاتن جميل.

ألم أقل أننى كنت - ولعلنى مازلت - رومانتيكياً لابرء له؟

نسيت لحظة ضربات الشماريخ على الجماجم، وطلقات البنادق أمَ روحين في عز الظهر أو أنصاف الليالى، ومقاتل العاشقات اللاتى جرفهن الشبق إلى مصارعهن بالسكاكين الطويلة أو بمخانق الأيدى الصلبة المتحجرة على أوهام عريقة.

نسيت لحظة - أو تناسيت - العيون الجائعة والكدّ الطويل في مقابل ما لا يكاد يسد الرمق.

ونسيت فعلاً ما كان قد شاع عما حدث في هذا الطريق نفسه.

كان أحد السواقين يسير بسيارته الأجرة في الظهر، هنا، عندما يصبح الصعيد شعلة ملتهبة. وكان هناك من يتربص بين عيدان الذرة النامية على جانب الطريق، وعندما مرت السيارة، ومع مروقها الخاطف

تعثرت في مطب ترابيّ ، انطلقت الرصاصة وأصابت الراكب إلى جانب السائق في ذراعه ، ومع الدماء المتدفقة منه نزل المصاب من السيارة - أمر السائق بحسم أن يوقفها - ومع الألم الذى كان يحطم ذراعه صوّب الطبنجة التى أخرجها من سيالته ناحية المجرم الذى ظهر ، فلم يسارع بالفرار كما كان منتظراً ، وهدده بأنه سيتحول إلى «كوم لحم» . والمدهش أن صاحب الثأر خرج من الذرة خاض في مياه الترعة وسلّم نفسه لغريمه ، كأنما راحت شربته وطار عقله ، وعندئذ خطَف الراكب ، أغمى عليه ، وذهب به السائق -وهو الذى كان مقصوداً - بالثأر إلى المستشفى الأميرى القريب .

في تلك الأيام كنت أستمتع - وأسأم جداً منها - بفترة من الكسل العقلى والروحى بعد مخض الأحداث المتلاحقة .

كنت أقرأ الأهرام إذ يصل إلينا في حوالى الساعة الخامسة بعد الظهر ، وجدت في شونة الخواجا بقطر كتاب The approach to Shakespeare وقرأت الملخصات التى صنعها شارلس ومارى لام لقصص شكسبير ونصوصاً من مسرحياته . كيف وصل هذا الكتاب إلى الشونة في أخميم؟

انتزعت نفسى من السأم بأن كنت أسهر حتى الثانية أو الثالثة صباحاً أترجم أشعار شيلى وكيتس ووردورث ولونجفيلو ، وأكتب أشعاراً أنثرها تحت الأقدام - كنت أقرأها لمصطفى فيعجب بها جداً كما قال - وأتصور نفسى عاشقاً مستهام اللب مخترم الفؤاد وأفرغ عصارة الجسد المتيقظ المأزوم في عتمة أحلام شبقية مضطرمة منمنمة الحواشى ووثيرة النسيج ، متضخمة الحشو بجسدانية وإن كانت متوهجة إلا أنها تشبه حشو العيش الشمسى الناضج الذى عدت أستطعمه - كما التذذت به منذ سنوات - وأجده أملأ وأمتع بكثير من العيش الفينو صناعة الخواجات الجريج في اسكندرية أو العيش البلدى الملدّن الجاف

وقد كنا نعطى رغيفاً كبيراً محمصاً منه للشحاذ الذى يصعد إلينا سلالم بيت المحمودية في غيط العنب وعلى ظهره شوال منتفخ بالعيش، أخرج إليه، أمد إليه يدى بالرغيف الناشف المقرمش قوى الشكيمة، فيدعو لى بأن يفتح الله علىّ وينورّ طريقى وينولنى مقاصدى.

أما في أخميم فقد كان العيش الشمسى بعد أن يجفف ويُقدد ويتحول إلى ما يشبه البقسماط هو إفطارى مسقياً باللبن البقرى الطازج.

وإذ ترتفع حموة النهار قليلاً، وبعد أن أذهب إلى المركز بالكسوة كما يقول الصعايدة عن البيجاما التى فيها شريط حريرى – لم أكن أتورع عن النزول بالبيجاما في شوارع أخميم – وبعد أن أعود بالتعيين اليومى من الخبز البلدى الذى تصرفه الحكومة للمهاجرين، أذهب أحياناً إلى الشونة وربما وجدت فيها مصطفى فنجلس على كراسى خيرزان في الشارع المظلّل بالشجر أمام الباب الذى تهبّ به نسمة هواء باردة من جوف عتمة الشونة ومن بين رصات شوالات نترات الشيلى الأصلى، والعدس، والبصل، والغلة التى ترتفع حتى السقف العالى.

في الظهر عندما تبلغ الحرارة مداها – وقد تصل إلى ٤٤ أو ٤٦ درجة مئوية بترمومتر الأجزخانة لصاحبها ميساك سيداروس، ابن عمى، وتشتعل السماء والأرض، أعود إلى البيت في درب بطة، أرش بلاط فسحة البيت الصغير بالماء الذى ينزل من الحنفية ساخناً، فإذا بللت مرتبة السرير بدفقة مياه فلابأس سوف يتبخر الماء بعد قليل.

بعد الظهر عندما تخف وطأة الحر أتمشى لغاية المعدية، وأعبر النيل إلى أباهور، أقطع البلدة الصغيرة النائمة بخرائبها وأطلالها وبيوتها القديمة وكنيستها الأثرية حتى بيت ابن عمى اسطفانوس الذى اسمه على اسم ابيه المرحوم اسطفانوس منقريوس ابن عم أبى، وهو في مثل سنى أو أصغر بسنة، وقد حصل على الابتدائية في ذلك العام، ولد عند

موت أبيه باليوم والساعة وقالوا إن روح أبيه هي التي حلت فيه ساعتها، وكان قد جاء بعد ولادة أخته مارينا بسنتين على وجه التمام، في برج الثور، مثل مارينا.

كنت قد استعدت بغموض ذكرى مارينا الطفلة وتحت جنب الزير في بيت عمتي ديماريس، أما الآن فهي قد نضجت ونهد صدرها الصغير وكانت عيناها الخضراوان النجلاوان تضرب قلبي بحب لا يُرد، ولم أكن أتمالك نفسي عن الضحك - مع ذلك - وهي تحاول أن تقلد لهجة أهل البندر في إسكندرية وتقول «نروحوا نلعبوا بأه» بدلاً من «بجه» اللذيذة في فمها، وأحس عندئذ بشيءٍ من التعالي والتفوق لا يخلو من ذكوريَة.

في حوش بيتهم المعتم قليلاً المحاط بجدران عالية مصمتة كأنه بئر واسعة وعميقة تطل عليها مزقة من السماء، وعلى مقربة من الفجوة المسدودة بعوارض خشبية ناحية الحائط الشرقي، أقيمت أرجوحة بين عمودين من الخشب مثبتين في الأرض، أتأرجح عليها أنا مرة، واسطفانوس مرة، ومارينا مرة، على التوالي، وعندما يخلو لنا الحوش نجلس معاً، أنا ومارينا، على خشبة المرجيحة، ملتصقين جنبها إلى جنبي، فخذها إلى ساقي، أحيط خصرها النحيل بذراعي، وتهتز الخشبة ثم تصعد قليلاً وتعود لتهبط وإذ أدفع حركتها بجسمي ترتفع الخشبة وتتوتر الحبال المعقودة بطرفيها ويئز العمودان الخشبيان وتتيقظ ذكورتي ونحن نرتفع حتى نرى الحيطان المحيطة بنا وقد مالت كأنها تسقط ثم اعتدلت ومالت من الناحية الأخرى كأنها تسقط في الاتجاه المضاد، وفي حموة الصعود والهبوط المتسارع المتلاحق أسمع صرخة صغيرة هل هي مارينا أم مزقة السماء التي تميل معنا وتعتدل فوق رأسينا؟ وأحس جسدها المتوفز ينتفض ويزداد التصاقاً بي بينما تتمزق السماء فوقنا وتمتزج بأرض الحوش في نبضات متتالية تأخذ في التراخي

حتى تعتدل خشبة المرجيحة وتهتز تحت ثقل جسمينا المتوهجين بالمغامرة وحس الخطر ومرح الروح وصعود دماء الجسد.

عندما هبطنا، تنهج، كان وجهها الأسيل مضرجاً بدماء داخلية دفاقة وقد التصق فستانها الخفيف بدوران بطنها وما بين فخذيها، وكانت جلابيتى البيضاء قد انحسرت عنى في صعود المرجيحة ثم عادت، أما الآن فقد كانت مرفوعة على هيئة مخروط بين ساقيَّ، وكالعادة في كثير من الأحوال أخذت هى المبادرة وأشارت إلى الانبعاج الواضح الصلب وسألت بمزيج من الفضول والمكر النسائى وباللهجة البحيرية: إيه ده؟ ولم أُجب بالطبع، ولم آخذها في حضنى لأنتى عندئذ كنت مع البنات أكثر بكارة من البنات.

فهل هذا ما كنت أسميه «قليلاً من أنفاس الجمال، رغم كل شئ»؟

عندما فاض الحب بقلبى أخذت أحكى لمصطفى جانباً من مغامرات حبى الساذج، من غير أن أشير ولو بالتلميح إلى سيدة غرامى الصغيرة، حرصت أن أخفى اسمها وكل شئ عنها إلا أننى أحبها، أسميتها «بطتى الصغيرة».

وقال لى بدوره عن حكاية حبه، مألوفة عادية محفوظة، لكنها إذ رواها بحرارة وغرارة الصبا بدت لى خارقة فذة لا مثيل لها.

وتعاهدنا على كتمان أسرار روحينا.

وبكل رصانة الصبا وسذاجته «ومثاليته» فعلنا ما كنا قرأنا مثله في روايات الجيب، وتكريساً لحفظ العهد بل تكريساً للصداقة «الأبدية».

أخرج مصطفى قاسم اسحاق مطواة جيب حادة، كنا اتفقنا بالأمس على أن يأتى بها من «كنوزه» الصغيرة، وعلبة كبريت البنا، كان مصطفى قد بدأ يشرب سيجارة أو اثنتين في اليوم ولكنى كنت أنفر بشدة - وربما أحتقرها قليلاً - من هذه العادة التى أدمنتها بعد ذلك إدماناً.

جمعنا قليلاً من حطب القطن الجاف النظيف وأعواد الذرة الناشفة الذابلة وكومناها، لم نضع فيها شيئاً من نفايات الجلة المتناثرة على الطريق، وأوقدنا ناراً على شط الترعة.

وضع مصطفى سنَ المطواة على النار حتى احمرت وتوقدت، وانتظر قليلاً حتى بردت دون أن تمس شيئاً ووخز شريان معصمه الأيمن بعمق، تقطرت نقطة نزرة من دمه على رسغه، أعطاني المطواة فحمَيتها مرة أخرى ولما بردت قليلاً وخزت رسغي الأيسر وظهر الدم النزر.

وضعنا معصمينا على أحدهما الآخر بكل جدية أداء طقسٍ أو شعيرةٍ حرجة وحاسمة ولما امتزجت دماؤنا رسمتُ بها على أسفل رسغه تحت الكفَ قليلاً رَسْم حرف «م». جاء الرسم غير حاد الخطوط وسال الدم به على الفور تقريباً. وهو أدى نصيبه من الشعيرة فرسم أيضا حرف «م» على رسغي الأيسر، كان رسمه أقوى وأوضح إذ كان الدم قد بدأ يتجلط ويتجمد إلى حد ما.

ضغطنا الذراعين حتى انقطع تقطر الدم
وطوينا المطواة دون أن نقول كلمة
كنا قد أدينا شعيرة الأخوة بالدم، لن ينقضها شئ على طول السنين.
(لكنها - بالطبع - قد انتقضت.
فهل كنا مجرد صبيَين ساذجين نفعل شيئاً مبتذلاً قرأناه في الروايات وتوهمنا أنه جاد وخطير وفي غاية الرصانة بل القداسة؟
أم كان الأمر بالفعل قدسياً، على كل سذاجته؟)

وعند هذا الحد يا عزيزى يمكنك إذا شئت أن تكف عن القراءة وأن تطوى ما بقى من كلام، في هذا الباب، وما يجرى مجراه في سائر الأبواب.

ومع ذلك أزعم لك - أو آمل - أنك سوف تجد في قابل الكلام متعة أو على الأقل حافزاً لإعمال قليلٍ من أمر ثمين نفيس نادراً ما نستخلص نفاسته، هو قليل من التأمل أو التفكير.

فمن لحظة الأُنس بالوجود معاً، فقط، في ذلك الصباح تحت الزير الممتلئ البطن بالماء النيليّ العكر بخصوبته، أمام نوى المشمش في القصعة العميقة العريضة المتموجة بالماء المروّق الصافى، عرفتُ، من غير تحديد قاطع، أن ليس للجسد لغة، وأن الكلام هنا شئ «أجنبى»، غريب، هو بالفعل «شئ» وليس خبرة مباشرة أو تجربة عضوية ولا يمكن أن يكون، وقد تأكد ذلك نهائياً في لحظة الأرجوحة الصاعدة الهابطة بجسدينا معاً.

عرفت أنْ ليس للجسد - ولا للموت - لغة

كلاهما - الجسد والموت - يقع في المنطقة الهيولية التى ليس فيها حدود، أى ليس فيها تحديد قاطع ولا محدودية قاطعة، منطقة العماء قبل أن تتكون منها أية صورة، منطقة الضباب المدوّم اليقظ الصاحى بل العارم، والظلمة الموّارة بالديناميكية، من غير كلمات. فهى ليست خرساء، لأن الخرس يعنى افتراض - ثم افتقاد - المقدرة على النطق، وتلك «مقدرة» أو إمكانية لا ضرورة لها أصلاً هنا وليست محلاً للافتراض ولا للافتقاد.

هذا عن الجسد

أما عن الموت فهى منطقة المجهول المطلق، أظنها منطقة العدم المطلق حيث لا إدراك، لا وعى، لا شئ.

ومهما تكلم علم النفس التحليلى - مثلاً - عن قوى اللاوعى التى يمكن أن تعبر عن نفسها في الحلم، مثلاً، أو عن التحليل، فإن اللاوعى الذى يقع الجسد فيه غير قابل للتفسير، وغير قابل للتجسيد، أى للتعبير، أما ما يحدسه الصوفية بأنه «مالا ينقال» فإذا أمكن أن يُعرف

أو ينعـرف فليـس ذلك عن طريق اللغـة ولا عن طريق التـحليـل ولا عن طريق الرمز حتى أو الإيماء بل هى معرفـة أقرب أو هى تنتسب إلى معرفة غنوصـيـة مـبـاشـرة من غـيـر وسـيط مـتـجـاوزة كل «تـعـريف» لأنهـا إمـا أن «تنعرف» من تلقائـهـا ومن غـيـر أداة ولا ذريعـة ولا وسـيلة، وإمـا أن تـبـقى في عـمـائهـا الجهـول المـوّار بعنفـه الخاص الـفـريد يـتـحـدى «المعلوميّة» كـمـا يدحض كل تكنولوجيا المعلوماتية.

ومن ثم فإنها قابلة لأن يقال عنها (لا أن تقال) بأكثر من لغة كلها لغات غريبة عنها، أجنبية عنها، مستعارة لها، قد تكون نابعة «عنها» أو منبثقة «عنها» - وليس «منها» - على أفضل الأحوال، لكنها ليست هى، هى، ليست هى الجسد، وإذن فليست هى «لغة - الجسد» بل هى «لغةٌ - عن - الجسد» بل قد تكون لغة تشوّه خبرة الجسد، تُغرّبها، تُؤطّرها، وفي كل الأحوال تزيغ عنها.

ذلك ببساطة أن «العبارة» (أى اللغة) إنما هى «تعبير»، فهى «عبور» أى تمرير أو مرور من خبرة مباشرة حيّة بحياتها الفريدة غير قابلة للانتقال إلى وسيط آخر، فكل وسيط آخر له قوانينه الأخرى وشروط وجوده الأخرى، وذلك على الأخص وسيط اللغة.

الخبرة التى يعيشها - أو يعرفها - الجسد ليست حسيةً فقط، بل هى «إدراك» على مستوى أعمق - أى أكثر غوراً - وربما أعرض وأشمل من أى إدراك أو وعيٍ عقلى له، كذلك، أدواته وقوانينه وشروطه الأخرى المغايرة لكل من «الخبرة الحسيّة»، أو «اللغة - عن - الجسد» أو كلتيهما.

الآن أعرف أن «اللغة» لم تكن قط ساحتى، قد تكون بل هى حقاً، ساحة التجلى عندى، لكن ذلك أمر مختلف.

ساحتى هى قلب الحياة التى لا عبور منها ولا عبارة تفى بها. اللغة قد تنصهر بخبرةٍ عن الجسد، أو برؤية عن الكون، أو بعلاقة مع الآخر

أو مع الأخرى - أو حتى «الذات الأخرى»- ولكنها ليست هي نفسها الخبرة في ذاتها، لأن الخبرة تظل عصية على كل تحديد (كل تحديد يُفقرها ويبترها ويُغرّبها) ويظل الجسد بلا لغة ولا حدود.

لكن الشعر ينقذني من هذا المأزق أو يكاد. لأن الشعر، على أنه بالضرورة وبالتعريف لغة، إلا أنه يتجاوز ويدحض «اللغة» ويدخل ساحة الإيحاء والإشارات الإلهية.

الشعر - أعني الشعر الحقّ، وما أغرب اجتماع هاتين اللفظتين: الشعر والحق، وما أجمل وقوعهما معاً - ليس قاطع الحدود طبعاً، ولا هو مغلق على معناه المحدَّد أو المحدَّد، بل هو يومئ، بأكثر من وسيلة للإيماء، إلى ما هو وراء اللغة، بالجرْس الموسيقى، وبالصورة المجازية، وبالتراوح النغميّ، وببنية الحرية المحكومة وبغير ذلك - حتى ليكاد الشعر بذاته أن يكون خبرة حسية - روحية معاً، لكنه بما أنه «ينقال» يظل في أسْر أنه «يكاد» ولا يستحيل إلى تماهٍ كاملٍ أو ذوبان تام في الخبرة ومع الخبرة. لكنه على أى حال يتخطى حدود ساحة اللغة ويكسر محدوديتها ويكاد يكسبها ثراء الخبرة التي لا تنقال.

أليس ذلك كله صخرة غير قابلة للكسر من صخور السماء؟ ●

الفصل الثانى
مرقص

كان البيت الصغير ضيقاً، مبنياً على طراز حديثٍ خاص جداً، من دورٍ علويّ واحد فيه غرفتان، قبلي، وبحري، من ناحية درب بطة، بينهما فسحة صغيرة تصعد إليها السلالم من باب الشارع مباشرة، أما الدور الأرضيّ فهو دكان مقفل لم يفتح قط، خزانة أحلام لم تنضج قطّ، بنى البيت عمّ محمد شندي البقال، وقبل أن يشتغل مات بالتيفود، ولم يسكنه أولاده ولا فتحوا الدكان.

النافذة البحرية-على الدرب الضيق- تطلّ على أرضٍ خلاء شاسعة، ترتفع فيها أشجار الجميز الكثيفة، والنخل العالى، تراكمت بينها أوراق الشجر الجافة وليف النخل وأعشاب الحلْفا الشائكة، وطول الليل ترعى فيها الخنازير التى يربيها عمّ بقطر صاحب الشونة.

من النافذة البحرية جاءه-من بعيد- صوت رقرقة الماء الطريّة الهيّنة، آتيةً من على صفحة النيل العريضة شاسعة الاتساع، لا يراها لكنه يعرفها؛ ليس إلا هذا الصوت. مداعبات أصابع رقيقة أو تلّمسات رتيبة من يدين حانيتين على جسد حابي الأنثويّ الذكوريّ معاً، ناعماً بالإذعان والخضوع وعارماً بالقوة والاقتحام معاً.

هل قالها لنفسه، هل سيقولها؟

-النهر الذى عَبَده أهله، الذي تصلّي له كنيسته حتى الآن، تطلب من يسوع الربّ أن يبارك فيه حتى يفرح وجه الأرض وتمتلئ المخازن والصوامع، كما تضرّع إليه القُدامى أن يتحنن عليهم فيجود ويفيض، لا يضنّ، ولا يغضب بالدفق الكاسح العظيم.

حابي حابي ماذا تفعل بك الآن؟

قد كفرنا بملكوتك بعد أن ضربتنا العزّة الزائفة- أو هي ضرورةٌ قاضية- بأننا قد روّضناك.

حابي ارحمنا ساعة غضبك الآتية بلا ريب

كنت قد أوصيتنا بأن نحفظك، لا تدنّس ماءك الطهور حتى تعطي أشجار الحقل ثمارها، ونلحق بالحصاد والدراس.

ها نحن ننتزع الثمار عنوة بما نحقن أشجارها به من خمائر الخلايا وعصائر الأعصاب ومهادر الهرمونات، فماذا تدبّر لنا أيها الإله الذى يبدو لنا الآن متنيماً راكداً على وجهك طفح «ورد النيل» اللزج، بينما أنت تُجنّ الغلّ العظيم؟

قال: سوف يأتي كل ذلك في قابل الأيام. نبوءات الشرّ لا تخيب. أما الآن فهانذا أراهنّ؛ من غير نبوءةٍ ولا خيال.

مسعودة وزينب ودميانة وهندية وحنينة ومعزوزة، نساء أرضي وبنات عمومتي في هذا الغسق الرماديّ الذى يسبق سطوع الشفق القاسي. هُنّ الكادحات صانعات الخير.

أما ستات البيوت المستورات: سالومة ومارينا اسطفانوس، وفوتنه ومنّة بنات زكري أفندي، ليديا بنت سلوانس، وهيلانة بنت سيداروس، وفيبيا وروما وهنيّة بنات يعقوب، ونظيراتهن حريم محمد بيه نبيه المأمور، وتوفيق بيه وكيل النيابة، والحاج على الطحاوي، فلا يخرجن إلا للزيارة أو أداء واجب العزاء في المآتم وواجب التبريك في الأفراح.

قال: هأنذا الآن أراهُنّ، خارجاتٍ من جدران أبيدوس، يتهادين إلى حرف النهر، مازلن يؤدين صلواتٍ صامتة من سكنات الأجساد وانسكاب الأوصال المتماسكة، ينحنين على ذلك الامتداد المائىّ الساكن بين ذراعين من الأرض السوداء السبخة، يملأن جرارهن في

صمت بدء الوجود، لم يعدن يضحكن الآن ولا يتناقلن آخر أخبار النساء والرجال، يضعن فوهات الجرار في الماء الرقراق الصافي، تبقبق الفوهات وتغرغر بالشهقات وفقاعات الهواء الدافئ، على بعد خطوات من عمق النيل المترصد الموّار، في كمال ألوهيته التي لم تمتهن بعد، رفعن الثوب الأسود السابغ، ثم المشجّر، ثم القميص الملوّن، وهن آمنات من الأنظار في هذا الفجر الخاوي من البشر، ثم رفعن عن الكواحل داكنة السمرة حواشي اللباسات الطويلة بكشكشة القماش الملوّن غير النظيف تماماً، ووضعن أقدامهن الحافية القوية في وشل الماء القليل الجاري، يضحكن بأصوات خافتة إذ تبترد الأقدام بملمس الماء المنعش على أرضٍ رملية صلبة الحروف صلبة الحبيبات يشعرن بصلابتها تحت بواطن الأقدام القشفة المشققة، ثيابهن السوداء السابغة لا تكاد تبين عن الأجسام مستقيمة العود أكسبها الشغل في البيوت والغيطان رشاقةً ممشوقةً لا يعرفها إلا رجالهن - وهنّ حرثٌ لهم - في عتمة البيوت المكنونة المبنية بالطين اللبن المغبرّ المعجون قديماً بالتبن والهشيم.

وعلى الضفاف العالية البعيدة عند البرّ الآخر تصعد ضبابةُ الفجر البيضاء تتطاير وتتموج بصمت، لا يبدو فوقها إلا شواشي شجر الدوم والرمان والسعف المتحجر بلا حراك فوق جذوع النخل السامقة.

يصعدن الآن. بلاليص الماء الملآنة متزنة الميلان بدقّة حسابات حركة الأجسام اللدنة القوية، ثابتةً على الحواية الملفوفة ببراعةٍ ومكر فوق الرءوس المرفوعة بشموخٍ نحتيّ.

فجأة، حول أقدامهن الحافية المتينة التي تعرف، وحدها، خبايا ومنحنيات الطريق، فجأة تناثرت أجداث طيور هامدة، ممدّدة، تذوي، النوارس المضروبة والهداهد التي انكسرت تيجانها وأبو قردان وريش إيبيس القدسيّ، انحنت سيقانه الرفيعة تحت الأجسام الذابلة، نباتات مصوّحة جفّت فيها عصارة الحياة، تهدّل ريشها وشحب بياضها

وأربدّت الألوان الزاهية.

وقبل أن يدخلن من بوابة أخميم المغلقة المسدودة، عند الصرح القبليّ الشاهق، ثورٌ هائج يضرب بقرونه خشبَ البوابَة المصفَح بمسامير غليظة وألواح حديديّة مغروزة فيه، دون جدوى، ودون استجابة، وقد سقط بجانبه التيس المهاجم وانكسرت قرونه العالية المشتجرة بعضها ببعض.

كان ينتظر، في هذا الفجر المغبَّش، عودة مرقص سلوانس من أباهور، حتى يأوى إلى سريره الضيق في الغرفة البحرية.

لم يكد ينام ليلته، ظل يقرأ طول الليل - على المصباح الكهربىّ العارى، مدلىً حبلٍ طويلٍ من سقف الغرفة العالى - حكايات شكسبير كما يرويها شارلز لام، ويعود إلى قاموس وست ليفسّر ما غمض عليه من مفردات.

عرف مساء الأمس أن مرقص سوف يقضى الليل عند أخته ليديا، يحضر قداس العشيّة في كنيسة أباهور، وينال البركة والقربان من يد زوج أخته، أبونا فيليبوس.

لماذا يقضى مرقص ليله في أباهور؟ حقاً؟

كان يعرف بغموض دون أن يقول له أحدٌ شيئاً، أن سالومة اسطفانوس، زوجة ميساك صاحب الأجزاخانة، لها على مرقص أخيه شقيقه ومثيله، جاذبيةٌ لا يقدر أن يقاومها.

وفي بيت سالومة هناك أختها مارينا التى تكبره بسنةٍ واحدة.

مارينا الجميلة، أسيلة السمرة، كلها حيويّة وتوفّز، وعلى صباها فهى الواحة الوارفة الرؤوم.

وسوف يقول: مارينا اسطفانوس، في بكرة الصبا، رامة ناجى في ذروة العمر وفي تحدّره، كأننى أهواها - وهي مستحيلة - في كل تجلياتها، طول العمر.

وبالطبع كان يسأل مرقص عن أخبارها وأحوالها، بحذر وتحوط، وكأنه لا يعنى شيئاً ذا بال.

عبر الأرض الخلاء الشاسعة من نافذته البحرية، لمحه آتياً في فجر أبيب الذى مازالت سحاباته البيضاء تنساب على سماء أخميم، يعدو على حصانه الأشهب الفاره، في شارع عزيزة الخالى الفسيح، سنابك عنتر تضرب الأرض الرملية الحجرية وتثير هبوات من التراب الخفيف شاحب البياض، لها موسيقى عالية الرنين على الأرض الحجرية، عزفٌ رتيب بأخبار ملتبسة من الخير والألم معاً. وعُرف الجواد بشعره الرماديّ الناعم المنسدل يتطاير ثم يسقط بإيقاع منتظم، كأنه يسمع تردد الشهيق والزفير يملأ الصدر العريض ويفرغه بالتتابع، في زحير متمكن قدير. وكأنه يرى على البعد وجه عنتر النبيل مستطيل الخطم يكتسى بوحشيّة السبع، عرفه الرماديّ يستحيل لبدةً مغبرّة تحيط بالعينين المتقدتين المدوّرتين، إحداهما فجأة بجوار الأخرى في وجه الأسد الذى كان في أول الفجر قتيلاً تحت الصرح الشامخ العتيق، هو ذا الآن يمدّ سيقانه القصيرة المتينة، أقدامه تترك في الأرض آثار المخالب الخمسة الدائرية، مرقص يمتطى متنه العارى، دون سرج ودون لجام، الوحش يذرع الشارع العريض كأنه يطارد فريسة. هل هى غزالة سلمى البدوية من نجع ساقلته المجاور لأباهور؟

في هذا الفجر الصامت الذى ينحسر بسرعة أمام السطوع الوشيك إذ يُشرق رع هيليوس آتون بكل مجده الحارق، ارتفع فجأةً زئير دوّت أصداؤه عبر جنبات كلّ أخميم، هدير متراكب الطبقات يصطدم بحيطان البيوت المصمته المسدودة، وينداح بكلّ ترجيعاته الملآنة فوق الأرض الخاوية أمام درب بطة تحت نظره، وهو يسقط بهدوءٍ ونعومة في نوعٍ من الغياب.

في عودةٍ أخرى لمرقص من أباهور، بعد قليلٍ من الزمن، سوف يكون

الليل قد حلّ، ولن يحمل مرقص بشارةً بل نذيراً.

ماذا سوف يحدث في ليلةٍ من كياك؟ قال لنفسه: لماذا يكتبونها كيهك وينطقونها كياك؟ ووعد نفسه بأنه سينظر في أصولها اللغوية، كياك شهر الأعياد الميلادية، أوان الظهور الإلهيّ في جسد المسيح.

قال لنفسه: الظهور الإلهيّ في كل شئ، من رفة جناح العصفور إلى قعقعة رعد تداعي الجبال، من رقرقة مياه النيل في الفجر الصامت المهيب إلى اشتعال قيظ بؤونة الحجر. من لمعة عين مارينا الواسعة الخضراء إلى توفُز نهد منّة المشتهاة، من رشفة كأس عرقي البلح الزهم الثقيل إلى القبلة واللقمة وصرخة طفل في اللفّة.

كانت الغارات الألمانية والإيطالية على الإسكندرية قد ألجأت عائلة قلدس إلى اللواذ بالصعيد، بينما ظل الرجل يناضل - كالعادة - من أجل لقمة العيش، بين الإسكندرية نهاراً وبلدة المحمودية ليلاً عند عائلة المنشاويّة، يكدح في وكالة البيض التى يملكونها، كاتباً بالأجر الزهيد، بعد أن كان زميل تجارة لهم منذ سنين، شنّه ورنّه ومكانة مرموقة.

«أخميم في ٢٥ يونية ١٩٤١

والدى العزيز

أهديك أرق التحيات وأصدق الأشواق مع أطيب التمنيات، وأرجو الله تعالى أن يشملكم بعنايته ورعايته ويسبغ عليكم من فيض حنانه ورحمته ويحافظ عليكم من شرّ هذه الأيام العصيبة ويردّ عنكم غائلة المعتدين إنه السميع المجيب.

اليوم وصلنا خطابكم الثانى فما كان أشد هلعنا عند قراءته وكم حمدنا الله على سلامتكم ونجاتكم.

ونحن هنا في شدة الخوف عليكم ونتوسل إليكم أن تتركوا مواطن الخطر المحقق وأن تلحقوا بنا في أخميم، فليس في الحياة أغلى ولا أثمن من العمر. أما الرزق فربنا الذى خلقنا من التراب والذى حفظنا من بلايا هذه الغارات لن ينسانا مادمنا لا ننسى واجبنا ومادمنا لا نغامر بحياتنا بلا مبرر وهو الذى يكفلنا بنعمه الغزيرة.

نعرفكم بأن أبونا باخوميوس يهديك السلام ويدعو لك بالسلامة وكذا أبونا فيليبوس ابن عمكم والسيدة زوجته منه بنت أخى أبونا باخوميوس تهديك السلام.

وقد يكون من الصواب أن أذكر لك هنا ما تقوله والدتى إن المعلم سالم المنشاوى الذى هو سبب بقائكم في الإسكندرية إذا حصل له شئ لا قدّر الله فسيترك خلفه رجالاً يستطيعون القيام بأود عائلته، أما نحن فليس لنا في هذه الحياة غيرك. فلأجل خاطر الأطفال الصغار يجب أن تبيتوا خارج الإسكندرية، كما يفعل خالى سوريال، ولن يضيركم كثيراً أجرة السفر المخفضة إلى أى بلدة قريبة ككفر الدوّار أو البيضا. ولكن الأرجح المجئ هنا كليةً ورزقنا على الله، ونرجو إذا حضرتم أن تستحضروا معكم: «عدّة وابور جاز»، ومرتبة، وإذا استطعت أن تحضر معك «النحاس» وكذلك «مخدتين» وقبل كل شئ ضرورى جداً من حضورك لأننا في منتهى القلق عليكم، وقد يستحسن أن أذكّرك بكلامك أنت الذى كنت تتمثل به فقد كنت تقول إن ربنا قال «ساعة غضبى اقفل بابك» أى ابتعد عن مواطن الخطر، فيجب أن نسمع كلام الله تعالى. وقد ذكرت لنا في خطابك السابق إنه إذا استمرت الغارات فستحضر وها نحن ننتظر وفاءك بهذا الكلام لأننا لا يهمنا شئ في الدنيا أكثر من سلامتكم وأمنكم.

في الختام أهديكم سلامي الخالص وتمنياتي القلبيّة وأكرر رجائي بالحضور سريعاً وأن تردوا علينا بكل سرعة وربنا يحيطكم بشامل رعايته إنه السميع الدعاء. تقبل أصدق تحياتي.

ولدكم المخلص

(إمضاء)

ملحوظة: نعرفكم ياوالدى العزيز أن الأنبا باخوميوس بنفسه رئيس الدير حضر إلى أخميم وزارنا وبارك منزلنا ورش الماء المصليّ عليه وتذكرني عندما قام بتعميدى في دير الملاك ميخائيل منذ ثمانية سنوات ورَسم الصليب على رأسي.

محلات بيض سالم محمد المنشاوى
ناصية شارع بحرى بك والسكة الجديدة نمرة ٢٩
تاجر بيض وقومسيونجى بشارع السكة الجديدة
تليفون نمرة ٣٠٤١٠
السجل التجارى ٥٣٦٥ بالإسكندرية

الإسكندرية في ٢٧ يونية ١٩٤١
ولدنا العزيز

أهديك مع أشقّاك الأعزا والسيدة والدتكم المحبوبة مزيد سلامي وكثير أشواقي أراني الله وجهكم جميعاً بغاية الصحة والسرور. أمس وصلني جوابك ومنه تطمنت على غالى صحتكم. أما نحن فلله الحمد من يوم الاثنين لغاية الآن لم يحصل بطرفنا شئ ما بالكلية ولا صفارات ومتعشمين تستمر هذه الحالة بالنسبة لاشتباك ألمانيه مع الروسيا ونأكل عيش في هذه البلد. أما أنا

فإنى مضطر للوجود هنا لأمرين الأول لاحتياجى للمعيشة وستركم بقدرة الله والثانى إكراما لخاطر المعلم سالم وعدم تفريطه في، والله يحافظ علينا، أنا مقيم معهم بمنزلهم طوالي ومثلي مثلهم. أمس حضر لطرفنا سوريال افندي خالك، وهو بخير، وكذا حضر للإسكندرية المعلم فرج وسافر أمس، والمعلم لَوندى، حضر من الطرانة وجميعهم بخير إلا أن الست أم يونان زعلانه جداً لذهابكم أخميم وكانت تود توجهكم بطرفها وقالت للوندى ماهوَاش العشم في أبو أمين إنه يعمل فرق بيننا ويطاوع الست سوسن ويخليهم يروحوه الصعيد فيلزم تحرر لهم جواب من طرفكم ضرورى وتطمنهم، أبو أليس موجود هنا أما أولاده وأسرته توجهوا مصر. أمَ فرنسيس بدمنهور يكون معلوم. مع العلم بأن البلد بالنسبة للغارة الأخيرة أصبحت خراب ولم فيها ولا الثُمن وبالليل لم أحداً يبات فيها إلا القليل جداً جداً يعنى يمكن ألف أو ألف ونصف أنفار بالكثير ونسأل الله تعالى يجيب العواقب سليمة وانشألله أنتم تكونوا بطمان من جهتى والعشم في الله خير.

سلامى الكثير للست والدتكم وأولادنا عايدة وهناء وألبير ولويزة وإيزيس وإيقون الله يحافظ عليكم أرجو مداومة الأخبار للاطمئنان عليكم. سلامى لحضرتكم. الله يكتب لك النجاح والسعادة.

والدكم

(إمضاء)

ملحوظة: عرفونا ضرورى أخبار عائلة ابن عمكم الخواجا مرقص سلوانس قلادة والسيدة الكريمة زوجته وأولاده فرداً فرداً وكذا

ابن عمكم الدكتور ميساك سيداروس وعائلته وكذا أختنا السيدة ديماريس أم شفيق.

سوف يعود مع أسرته إلى دمنهور في العام القادم، ويواصل الدراسة في جامعة فاروق الأول بالإسكندرية نهاراً، وبعد الكلية يعود إلى دمنهور، ويلحق بهم أبوه كلما استطاع، دمنهور قُرَيِّبة.

سوف يظل عمّ قلدس يعد بالمجئ من إسكندرية، في عيد العذراء أو كيهك آخر العام، ليلتين أو ثلاثاً بالكاد ينتزعها من وكالة المنشاوى بالمحايلة والرجاوات والوعد بأنه سينهي كل دفاتر الحسابات -منه وإليه- وتسوية الفواتير والذمامات ولو سهر طول الليل أسبوعاً أو أسبوعين إذا لزم الأمر، هل سوف يستطيع المجئ؟

فلئن كانت كل شهور السنة مقدسة فإن لشهر كيهك قدسيّة خاصة، هو شهر «كاهايكا» شهْر «اجتماع الأرواح» هو ومرقص ومنّه ومارينا وسالومة وأبونا فيليبوس سوف ينتظرون أن يقضوا لياليه في سهرات روحية حتى منتصف الليل وحفلات بالمزمار والصنوج والتسابيح الإلهية والتماجيد الملائكية الشجية تتردد أصداؤها في جنبات الكنيسة القديمة في أباهور أوكنيسة أبو سيفين في أخميم، الشموع والبخور والتقاديس تعبق فيها، استعداداً لاستقبال ابن الله المتجسد وللسير في رحلة طويلة بالقلب حتي بيت لحم والناصرة يُرنمون فيها تسابيح السبع تذاكيات والأربع هُواسات لتطويب الثيوتوكس والده الإله، باللغة القبطية موزونة مرخَمة مقتبسة من أشعار العهد القديم التى ترمز إلى سر التجسد الإلهي وتتنبأ به، رحلة يصوم فيها المؤمنون ثلاثة وأربعين يوماً بدءاً من ١٦ هاتور، استشرافاً لسماع هتاف الملائكة: «أنه وُلد لكم في مدينة داود مخلّصٌ هو المسيح» أربعين يوماً كما صامها موسى كليم الله قبل أن يتلقى لوحة الوصايا العشر مكتوبةً

بإصبع الله، وثلاثة أيام في الأول أضافها الأنبا أبرام بن زرعة البطريك الثاني والسبعون في القرن العاشر تذكاراً لمعجزة نقل الجبل على يد سمعان الخراز، وتبركاً به كان اسم عائلة ميخائيل قلدس الخراز.

أما هو فلم يكن يصوم فقط بل لم يكن يأكل أية ثمرة حيوانية طيلة شهور عديدة في تلك السنة، تأسياً بغاندى وبرنارد شو، من غير أن يحسب أىَ حسابٍ لتوازن حاجات الجسم المعذَّب، كأن حاجات الروح والحبَ البكرية هى وحدها التي تعنيه، مع قلة إيمانه بل تزعزعه وتداعيه للانهيار أمام الشكوك والتساؤلات بعقيدته القديمة.

تمتم مترنماً -دون أدنى اقتناعٍ عقليٍ، وهو مع ذلك مُسلَّمٌ في صميم روحه بروعة الطقس العريق، في نهاية الهوس، في الهزيع الأخير: ياربنا يسوع المسيح حامل خطايا العالم، احسبنا مع خرافك هؤلاء الذين على يمينك إذ أتيت في ظهورك الثاني، فلنستحق سماع الصوت المملوء فرحاً: «تعالوا إلىّ يا أحبائى، يا مباركى أبي، رثوا الحياة الدائمة إلى الأبد».

قال لنفسه: في ظهورك الدائم يا إلهى المنكور الكامن في داخلى في كل لحظة وطرفة عين، حياة أبدية لا حسبان فيها للزمن، فما من وجودٍ لك إلا في دخيلتى. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أليس كذلك يا إلهى؟

«مريم مارينا رامة الهيكل الحىَ الذى حلَ فيه ابن الله، تابوت العهد الجديد الذى عمّره الروح القدس عند ملء الزمان، سلمّ يعقوب المرتفع بصبواتى وعذاباتى ونشواتى إلى عنان السماء، مازلت الغراس المثمر من غير بذارٍ لأدنى شرّ، الشجرة العلّيقة الملتهبة التى جاء منها صوت الله لا ينتهي اشتعالها دون احتراق ودون رماد».

كنت في فناء روضة الكرمة القبطية الأرثوذكسيّة، مس كاترين تقف إلى جانبى، ومنصور أفندى يحكى :

في يوم ٣٠ برمودة-يعني منذ أيام قلائل في مايو عندما ضربت القنابل بياصة باب سدرة في إسكندرية- في عربدة الاحتفال بالإله الثور سيرابيس تدفقت الجموع التى ثملت بخمر نشوات الجسد، وتدافعت الرءوس والأجسام، صرخات النساء مرتديات الهيماتون السابغة التي تنحسر عن أفخاذ مليئة طريّة، أو جافة عظميّة، حميّا حلقات الرقص التي تتشكل عفو اللحظة وتنفضُ، الجنود واقفون في مربضٍ محدّد، بخوذاتهم النحاسية اللامعة وريشهم، أحزمتهم الجلدية العريضة تمنطق وسطهم وتشد الأردية الأرجوانية القصيرة إذ تكشف عن سيقان مفتولة محزومة بسيور الأحذية الجلدية المفتوحة، يبتسمون في خفيةٍ عن عينيْ قائدهم الرومانى صارم الأسارير.

من خلف الدروع البلاستيكية الشفافة الصلبة تنطلق رصاصات المطاط وتنهمر الحجارة من أيدى الأطفال وتنفجر قنابل الغاز المسيل للدموع، في حوارى الناصرة أم في شوارع كرموز؟

اقتحمت الجموع الهادرة الغاضبة المنتشية بناء الكنيسة البوقالية.

منصور أفندى يحكي، وأنا في الخامسة، ورعاً أنتظر المعمودية ووعْد الخلاص. فناء روضة الكرمة مزدحم بصفوف التلاميذ، بعد «أبانا الذي..» قد سقطت عليه فجأة رهبة، و صمت، و ما يشبه الرعب الطفوليّ.

قبضوا على القديس و جرّوه على أحجار الشوارع وعلى رخام السلالم، تهرأ لحمه وسالت دماؤه، وبالليل أودعوه السجن الضيّق العفن، فنظر إليه الملاك و قال له: افرح يا مرقص عبد الإله هو ذا اسمك كُتب في سفر الحياة، وتوارى الملاك لكى يظهر له المسيح ويعطيه السلام.

وفي الصباح أخرجوه من السجن، ربطوه بالحبال المتينة إلى أربع خيول تحمحم وتتململ متوفزة للانطلاق، كل ذراع بحصان وكل ساق بحصان، صرخ الوثنيون بالخيل الأربعة وضربوها بالسياط فانطلقت، كل حصان منها في اتجاه، تمزق جسد القديس الطاهر أربعة أشلاء.

أضرموا النار أمام الكنيسة الصغيرة -هى في نفس مكانها الآن يا أولاد، في شارع المسلة، قسم العطارين، اسمها الآن على اسمه «المرقسية»- وراحوا يرقصون جذلاً وابتهاجاً.. سوف يحرقون أشلاء الجسد المقدس بالنار..

ولكن..

لكن عين يسوع ساهرة لا تغفل ولا تنام

زُلزلت الأرض زلزالها، تمايلت الأبنية العالية، والأعمدة، والقصور المحيطة بالساحة، فعقع الرعد وهطلت أمطار غزيرة

كان ذلك سنة ٦٨ من ميلاد المسيح

ارتاع الوثنيون وفروا هاربين، لاذوا ببيوتهم ومعابدهم وتضرعوا إلى آلهتهم.

أما المؤمنين آباءنا فقد أخذوا الجسد الطاهر إلى كنيسته وصلّوا عليه ووضعوه في قبو تحت هيكل الكنيسة، تحت قُدس الأقداس.

كنتُ أرتجف. وكان عذاب مرقص القديس في جسدى.

منصور أفندى، مشتعل العينين، يقف شامخاً هناك، على رأس صفوف التلاميذ الصامتين، الشيخ البرادعى الذى علمنى ألف باء يقف معنا يستمع بأدبٍ وخشوعٍ لا شبهة فيه، ومس كاترين أخذت يدى المرتعدة بين يديها الناعمتين المُطْمَئنتين.

قال لنا منصور أفندى إن القديس مرقص كان أول بطريرك من بطاركتنا، وأن بطريرك الإسكندرية كان هو قاضى المعمورة كلها، وأن بيته كان أول كنيسة مسيحية.

وقال إن أم القديس مرقص كانت إحدى المريمات القديسات.

قال لنفسه:

-عمّ مرقص هو كل شئ كنت أتمنى أن أكونه.

كان مرقص في عنفوانه، الرجل الضارب بقوة في صلب الحياة

ولحمها، طويل الجسم وغير فجْ، رهافته داخلية ومكنونة حريصٌ عليها، هو قلق باحثٌ دائماً، قال: صحيح، لكنه غير هاملتيّ بل ذاهب إلى الأمام، يدير شئون زراعته بنفسه، ينزل الغيط كل يوم، يعرف فلاّحيه واحداً واحداً، ونسوانهم وعيالهم بالاسم، يقولون عنه أزرق الناب، واعر، عضمة زرجا، عيناه الضاربتان إلى خضرةٍ عميقة نافذة حديدة، العشرة فدّن التي معه أبزك من خمسين، القطن سكلاريدس نمرة واحد، الشوالات التي يُعبأ فيها ليس فيها أدنى عَوَار، يخرج القطن منها أبيض زىّ الفلّ. هو الذى يقف على القبّاني. يرصد الميزان، يحسبها بالرطل قبل القنطار، يرقب بعين صقر ذبذبة الإبرة وانضباط إسطوانة المثقال واستقرارها، دون أى اهتزاز، يتابع بكل دقة دورات زراعة البرسيم الأخضر لعلف البقر في الزريبة- لم يكن يربَى الجواميس، لا أحد يعرف لماذا- ويبيع اللبن بخيره، والعجول الذكور في عزّ مواسم الطلب في الأعياد والموالد، حساباته في رأسه محكمة ومحكومة، لا تخرّ الماء، وهو مع ذلك يقرأ الأهرام بعناية، كل يوم بعد الظهر، بل عرف كتب محمد حسين هيكل والعقاد بعد أن كان قرأ مصطفى لطفى المنفلوطى وجبران خليل جبران، وكان يجد وقتاً لقراءة روايات الجيب من ترجمة عمر عبد العزيز أمين، زياراته للقاهرة، كل حين ومين، فيها فسحة لشراء الكتب، فضلاً عن نهو أشغاله في مصلحة المساحة، وإلمامة خاطفة بأحد بيوت كلوت بيه المحترمة التى له فيها حبايب يفرحن به ليس لمجرد أنه كريم ونُزَهى بل لأنه خفيف الدم عندما يحكى النكت، بلغوته الصعيدية، يمتّن عليها من الضحك، أما امرأته فوتّنه، الأمينة المبتسمة الصموت فهى راضية به، مرضيّة، دؤوب في شغل بيتها وتربية أولادها الخمسة: دانيال، ڤيرونيا، بشاى، هيلدا، ودميان، ومتابعة دروسهم في الروضة وفي مدرسة أخميم الإبتدائية. أصل عائلة الخرّاز تعلّم أولادها أحسن تعليم.

لاشك أنه كفء قوىّ وله فنون في السرير، ابتسم وقال لنفسه: لكنه أيضاً حبيّب دون چوان كما يقال، ما من امرأةٍ حطّ عليها عينه أفلتت من شباكه، مرح قوّال إذا كان على راحته، كما هو في الشغل صارمٌ فعّال، نسوان فلاّحيه يلدن أحياناً أولاداً خُضر العيون. والغريب أنه غير ممتلئ بذاته، غير متضخم «الأنا». (أما هو فكان قد فرغ لتوه من قراءة سلامة موسى عن فرويد) أما الغرام الذي يسديه إلى سالومة، زوجة ابن عمه ميساك، فلا يجرؤ أحد في المديرية كلها أن يفتح فمه بكلمة عنه، لا يملك أحد أن يدوس له على طرف، لا في حسابات الشغل ولا في حسابات القلب.

لم يغمط فلاحاً حقه في مليم، ولم يطرد أحداً اشتغل عنده قط، ولم ينس أن يجامل فلاحيه عند مولد كل طفل، عند طهُور كل ولد، أو ميتة كل قريب، ومع ذلك لم يتساهل في حقٍ له ولو بمليم. مخروم اليد، بخُطره، قوىّ القبضة إذا اقتضى الأمر.

كان يبدو مرتاحاً سواءً في الجلباب الجوخ مفتوح الرقبة، وعليه الشال الحرير في الصيف أو الكشمير في الشتاء، أو وهو مرقص أفندى بالبدلة الافرنجى والكرافتة مضبوطة العقْدة والقميص الحرير الأخميمى المخطط بأهون خطٍ رأسىّ رمادى فاتح اللون جداً، ودائماً بالزىّ البلدى أو الافرنجى، بالمنشة من شعر الخيل يدها من سنّ الفيل السمنىّ الثمين.

ومع ذلك فلم يكنْ يحسد ابن عمه مرقص ولا حتى يغبطه على شئ. قال: هو «أنا» الآخر، كأننى فيه أتقمص ذاتاً مفقودة أو مكنونة كأنه الظهور الأخير في تجلٍ مغاير تماماً ومثيلٍ معاً، لمرقص البشير كاروز الديار المصرية، حامل جرة الماء، الذى استكان له أسد الفراعين القدامى.

في بيته العامر، جنب الكنيسة الكبيرة على درب الظنىّ، ركع مرقص وغسل أقدامهم بماء الطلمبة الصافى المُمتاح منبثقاً كالنافورة من قلب الأرض في الحوش الكبير، وإلى هذا البيت لاذوا، صعدوا إلى

العليّة مغلقة الأبواب، محاطة بحيطان الطوب اللبن والخشب البغدادلي خلف خلاف، بعد أحداث أباهور الدامية، كان في العليّة، مخبأهم الأمين من ملاحقات جنود محمد بيه نبيه بخوذاتهم النحاسية اللامعة ورماحهم الطويلة، بخيولهم وزنانيرهم الجلدية العريضة المعقودة على الحقوين، فلم يعرفوا كيف يصلون إليهم. هناك رأوا الوجه الساطع الذى لا يطيق أحد مرآه بعد، وهناك خفقت الألسنة النارية، ولهجت ألسنتهم بالكلمات القدسية: الحرية والعدالة، والخلاص، وعلى مائدته الطويلة المصنوعة من خشب الجميز على أيدى قلادة هرمينا الخَراز بذات نفسه، جدّ مرقص سلوانس وميساك سيداروس وجدّه، أكلوا الخبز الشمسى فإذا هو الجسد الحيّ الذى لا يناله بلى ولا دثور، وشربوا النبيذ المعتق في دنان البيت فإذا هو دماء عذبة نقيّة لا تغيض.

كانت مارينا تحضر معهم لقاءاتهم في العليّة، وهى الصبيّة في السادسة عشرة، فإذا هى الأم الرؤوم سيدة المجد.

جنب الشاطئ، وقُرب الميناء الشرقيّ الغاصّ بالسفن عليها رايات الإمبراطورية من روما إلى قيصرية، من تامودا إلى طرابلس، من تيجلوس إلى تيروس، من أوجستا تاورينوروم إلى بيبلوس، ومن رودس إلى تيباسا، البحر يترقرق بالأمواج، صيحات البيع والشراء والتحميل والتفريغ تتردد بكل لغات الإمبراطورية من اللاتينى البزرميط إلى اليونانى الهجين ومن الأرامي إلى السوريانى إلى العبرى والديموطيقى والعربى، مع تنزيل البضائع والعبيد في بوكوليا القديمة- مرعى البقر، وفي قلب اللسان الأرضى الذى امتد إلى جدران الكنيسة الأولى، هبط القبطان من سفينته الراسية الضخمة. وكان ذلك على أيام عمرو بن العاص، وكان الحريق مشتعلاً تتراقص ألسنته وتلعق جدران الكنيسة العتيقة، اقتحم الرجل النيران وناور بحركة سريعة بين شعاليلها،

ودخل إلى صحن الكنيسة، وعندما وقعت يداه على التابوت، تحت الهيكل، كبر في وهمه أن فيه كل ذهب الكنيسة، وخرجت يداه من التابوت تحتضنان الرأس الذى ظل بعد ستمائة عام محتفظاً برواثه وبعينيه النفاذتين الضاربتين إلى خضرةٍ عميقة، لَفَه في طولٍ من الحرير القرمزىَ من نسيج ڤينيسيا، وخرج من بين النيران يجرى إلى سفينته، يمنىَ نفسه بالكنز الروحىَ الذى سوف يحصل ثمناً له على مثاقيل من الذهب البندقىَ، نزل إلى قمرته، ردّ عليه الباب وأغلق نافذة القمرة وخبأ الرأس في صندوقه الأبنوسىَ جنب الكتاب المقدس مذهّب الحواشي المكتوب بالخطّ اللاتينى الذى لا يعرف أن يقرأه، وحانت ساعة الإقلاع، صعد العبيد السود على الصوارى يفردون القلوع ويفكّون الحبال ويرفعون الهلب من قلب أمواج الميناء المغبّرة الخضّرة بالزبَد المرغى والنفايات من بقايا خضر الوادى المشحونة إلى أقرب ميناء، صيحات النوتية تتردد ثم تعلو بلغواتهم الأصلية أولاً ثم باللينجوا فرانكا الإمبراطورية.

لكن السفينة الضخمة راسية في موقعها لا تريم، الريح تضرب شراعاً مبسوطاً حتى آخر أطرافه بعد شراع، فترفرف كلها وتصطفق بصوت ضربات مقرقعة متوالية، حُبلى بالرياح المواتية، ولكن لا حركة ولا نأمة.

السفينة الضخمة تهتز وتترنح قليلاً لكنها مازالت في مكانها لا تتزحزح. هرع العبيد إلى مجاذيفهم، تحت لذع سياط النوتيَة الضخام، انتظمت صفوفهم وهم يضربون بمجاذيفهم الموج بكل ما فيهم من عزم وقوة، ترتفع المجاذيف في إيقاع محكوم منضبط تمام الانضباط، وتنزل ترتطم بالموج تشقه تحرثه تغوص في قلبه ثم تصعد يشرّ منها الماء. وضعوا في السفينة خطاطيف وكلاليب تجرّها سفينة أخرى. ولا حركة ولا نأمة، كأن السفينة صخرة مربوطة راسخة في الماء.

لم يكن ثَمْ مفرّ.

رأس مرقص ناظر الإله يرفض أن يبارح كنيسته الباقولِيَة، حتى إن كانت النيران توشك أن تأتي على جدرانها.

احتضن السارق لفّة الحرير القرمزيّ، يرتعد، دامع العينين حتى بللت الدموع لحيته الشهباء، وهو الذى عركته محن الملاحة ومجالدة البحار، ونزل إلى البرّ يطلب رؤية البابا البطريرك الأنبا بنيامين الأرثوذكسيّ الذى كان هارباً في الصعيد من اضطهاد الرومان، فكتب إليه عمرو بن العاص، بخطّ يده، يسأله الحضور، ويعطيه الأمان. فلما جاء إلى كنيسته نصف المحترقة، ركع السارق تحت قدميه، واعترف.

وانطلقت السفينة إلى عرض البحر، لوحدها.

أما عمرو بن العاص فقد بجّل البطريرك القبطيّ وعظّمه وأعطاه عشرة آلاف دينار برسم بناء كنيسة عظيمة على اسم صاحب الرأس، فشكره البابا، وبنى هذه الكنيسة، في موقعها القديم الكائن الآن في شارع المسلة بالثغر السكندريّ حتى يومنا هذا، وفيها استقر الرأس، بركةً لا تغيض حتى لو بارحه الجسد الممزّق المعذّب، في عمودٍ مجوّف من الرخام، إلى فينيسيا حيث ظل في حمى الأسد المرقصى المجنح، أحد عشر قرنا من الزمان حتى يحين الوقت، ويعود على يدى البابا القديس كيرلس السادس، البطريرك السادس عشر بعد المائة، القادم من بريّة مارمينا في الصحراء الغربية؛ سوف يتسلم الرفات في يوم ٢٤ يونيه ١٩٦٨، وفي اليوم التالى سوف يحتفل بافتتاح كاتدرائيته العظيمة في أبو رويس بعباسية القاهرة، بحضور زعيم سوف يهزّ مصر والعالم، وسوف يكون اسمه جمال عبد الناصر، وبحضور إمبراطور حبشيّ شيخ اسمه هيلا سلاسى، كان منفياً في قرية هادئة في إنجلترا إذ احتل الفاشيّون الطلاينة بلاده، حينما كان – وهو صبيّ في الخامسة عشرة –

عندئذ، في أخميم، وسوف يعرف أن البطريرك القديس سوف يحمل الرفات في حفل عظيم، ويودعها في مزاره تحت الهيكل الكبير في شرقيّة الكاتدرائية.

أما الأنبا ساويرس بن المقفع، أسقف الأشمونيين وملوَى، فقد قال في «تاريخ البطاركة» أن الدوق سانوثيوس هو الذى أرسل للأنبا بنيامين مبلغاً من المال ليعيد بناء كنيسته.

«يتوجه الأب البطريرك، ثاني يوم رسامته، إلى رأس مار مرقص الإنجيليَ الرسوليَ، وبصحبته الأساقفة وغيرهم من الكهنة، والشعب، وعندما يظهر له الرأس المقدس يضرب له المطانوه، احتراماً وتكريماً، وبعدها يبتدئ بالصلاة، ويرفع البخور أمام الرأس، ثم يقرأ فاتحة إنجيل القديس مرقص، ويختتم الصلاة بالتحليل، وكيرياليسون، ثم يُحجب بينه وبين الإكليروس، ويأخذ الرأس المقدس ويضعه في حجره ويعريه من الكسوة القديمة ويكسوه بكسوة جديدة من الحرير ويخيط عليه، وبعد ذلك يظهر للناس وهو في حجره ليقبلوه واحداً فواحداً، وبذلك تتمُ رتبته، ويتبارك من مؤسس الكرازة الرسولية، ولذا يُدعَى البابا «خليفة مار مرقص الرسوليَ».

أغلق دفتيَ الباب السابع والثمانين من كتاب «الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة» وقال فتَح الله عليك يابن السباع يوحنا بن زكريا، كأنما ما كان يدور منذ أربعة عشر قرناً من الزمان هو مادار بالأمس القريب، أو مازال يجرى الآن.

قال: أمازلت أعيش في الكتب القديمة؟ أفي الرؤى والأحلام أحيا بأقوى وأفعل مما أعيش على سطح الأرض؟ مازال عالم السكك الحديدية المقطوعة، والفنادق التى لا أعرف أين غرفتي فيها، والسلالم التى لا

تنتهي إلى شئ، والمصاعد الضخمة لها صريرٌ وأبواب من شبكات الحديد تقف في العراء، والمؤتمرات والاجتماعات التى لا تنفضّ، والموتى الذين يعودون إليّ، في عزّ شبابهم، لم تنلهم يد الزمن بعد ولن تنالهم أبداً، السيارات المتأرجحة على شفا هُوةٍ سحيقة بين جبلين، محركها يدور وعجلة القيادة لا تستجيب لي أنا الذى لا أعرف كيف أقود سيارة على أية حال، أنا، بلا عمر، على أرض الحلم التى أعرفها خير معرفة وقد طرقتها كثيراً، أسير كالروبوت أو كالنائم إلى الأمام، دون هدف، بعد أن تمزق قلبى تماماً، من زمان، على صوت هديل الحمام الرتيب، مازالت كلها، تعيش فيّ ومعى، كل يوم، ومازالت حياة الليل الحُلميّة أشد حضوراً وكثافة من ساعات النهار العقيمة.

كان ليل أخميم حاراً، سماؤه نقية قاسية النقاء، تنتثر فيها نجوم مشعّة قليلة، سماءٌ صارمة الزرقة متوهجة بالقمر الساطع المدوّر محدّد الدوران حادّ الحوافّ، قطعة عُملة فضية ضخمة تدور بسرعة وعليها رأس يوحنا المعمدان المجزوز، لا يُكاد يُرى، سالومى ذات الغلالات السبع هي التىَ طلبت رأسه المقطوع.

في هذا الضوء الذى شحبت معه أضواء أعمدة الإنارة الكهربية الطويلة، كان فارس يمتطى صهوة جواد أشهب فاره يقطع شارع عزيزة الخاوى، عُرف الحصان يتطاير حول الرقبة الشمّاء، والفارس منحنٍ عليه.

انحرف الفارس إلى درب الظنىّ، ثم توقف بعد ذلك تحت بناء الكنيسة العريض القديم، برج الجرس مربّع متين الحجر، وصامت.

نزل مرقص من على الحصان الأرمد وتركه في يدى رومانى سايس الاصطبل، وقال له بإيجاز: عمّ تعرف حتعمل إيه يا رومانى..

عندما دخل بيته وجد العائلة كلها مازالت ساهرة تنتظر وصوله من

أباهور.

فوتنه زوجه الأمينة الصموت رفعت إليه وجهها الأسمر، العينين بالقلق واللهفة.

بقطر النحيل الطويل روح هيلانة بنت عمه، خافض الرأس، ينظر إلي الأرض كأنما يبحث عن شئ.

وحده أخوه جيصر لم يكن معهم، كان في سوهاج لإنهاء صفقة مع المعلم روفائيل إسكندر الجواهرجي.

أما ليديا أخته، فهي على العكس من إخوتها، بيضاء البشرة، شعرها الضارب إلى صفرة طبيعية داكنة أكرت مجعد، فقد جلست على الأرض، وكنت معهم، تركت بيتنا فى درب بطة، من اللهفة والقلق، ورحت لبيت مرقص، فى عزّ الليل، أنتظر قدومه من أباهور لا تداخلني سنة من نوم، متوفزّ الحواسّ لم أكد أقول شيئاً منذ دخلت.

كان التوتر يخيمً، بل يرتعش متموجاً، من مدخل البيت حتى عُمقه الغائر ثقيلاً، مكهرباً.

وقف مرقص بالباب، لحظة، ودار ببصره فينا،

- ألم يكن في نبرة مرقص، ليلتها، ما يوحي بذلك الذى لا يقال؟

كنا دائماً على وجه التقريب نقول «أبونا باخوميوس» أو على الأكثر «آبا باخوميوس» ولا يرد على لساننا أن نقول: «الأنبا باخوميوس» لأننا دون أن نشعر كنا نحبّ الأب الحانى العطوف ولا نخاف «الأنبا» الأسقف الرئيس صاحب العصا والسلطان.

مع أن «الأنبا» هو الأب

لذلك كانت مفاجأة مرقص إذ جاء بالخبر، ضربة في القلب. تفوق ما تستطيع أن تقوله اللغة.

قال بصوت واضح غير مرتفع:

- أبونا باخوميوس مات ●

الفصل الثالث
باخوميوس

ران الصمت علينا.

لم يسأل أحدٌ متى، وكيف، مات أبونا باخوميوس

كنت أحس- وأعرف- أن أفكارنا جميعاً تحوم حول سؤالٍ مُمِضّ: هل يلقى الأنبا باخوميوس ربه، بعد ملء الزمان، بعد أن نهض بواجباته في الرهبنة ورئاسة الدير وخدمة الرب كل سنين حياته، باراً نقيَّ الصفحة، أم أن ثَمَّ شيئاً في هذا الموت الغريب المفاجئ، وهو في كامل صحته حتى بعد أن تجاوز السبعين؟ يموت في بيت ميساك صاحب الأجزاخانة وسالومة زوجته الجميلة؟ ألا يجعلنا ذلك نستدبر بالشكوك إلى احتمالاتٍ مروّعة نرفضها في سرّنا، على الفور، لكنها لا تبارح قلوبنا.

ركع أبونا متياس، أمام الأيقونة الكبيرة التي تضيئها شمعةٌ متقدة باستمرار لا يتركها تنطفئ إلا بعد أن يجددها، وعلى نورها المهتز تتخايل صورة العذراء بوشاحها الأزرق ونظرتها الغائبة وراء سحابٍ مضيءٍ بعيد وفي حجْرها الطفل:

الذين يبتهجون بقيامة المسيح من بين الأموات يجب أن يغادروا قبور شهواتهم حيث تربض الوحوش الرديئة، والملّذات الخادعة، أنرْنا يا يسوع بالنور الباطن أخرجْ من قلوبنا الظلمات مرْ رياح الشكوك وعواصف الظنون السيئة لتسكت قل لبحر الشرور الهائج أن يصمت انضحْ على قلوبنا المكلومة بنداك الذي من الأعالي، انزع عنها صخور السماء كما دحرج ملاك الرب الصخرة من على باب قبرك يا يسوع. انظرْ بعين الرحمة إلى

خالة نفوسنا الثقيلة بالحزن اعتقنا من رباطات الاستراية ومن عبودية الأفكار السوداء ومن عادات القلب الكريهة ياربَ لا توبخنا بسخطك ولا تؤدبنا بغيظك اخلع عنا سهامك التى انتشبت فى أرواحنا . ليست فى عظامنا سلامة من جهة خطايانا لأن آثامنا طَمَتْ فوق رؤوسنا يارب اطرحْ عنا كلّ تأوهنا . تنهّدنا ليس بمستور عنك . قوتنا فارقتْنا برحيل أبينا الطوباوىَ باخوميوس عنا ونور عيوننا أيضاً ليس معنا . فلا تتركنا ياربَ شدُد أزرنا . إلهنا لا تبتعد عنا وامنحنا أن نلحق بملكوتك وأن نلتقى بأبينا عبدك المحبوب باخوميوس فى جنات النعيم المقيم.

ارتفعت تموّجات الترانيم بالقبطى مع سحابات خفيفة متطايرة من البخور ، ووضع الأب متياس يده الضخمة على جلدة الكتاب المقدس الكبير بغلافه الأسود اللامع من تمليسات الأيدى للتبرّك وقبلات الشفاه للتبجيل ، وعلى الجلد القديم تبرز نقوش زخرفة ناتئة بلون الجلد الأسود نفسه فى تفريعات هندسية متمّقة من توريقات كروم العنب .

قلت : للكتاب قداسة .

الكتاب عندنا ، بذاته ، أياً كان ، له قداسة .

انتسفت قلبى أشواق الحبَ الصبيانية ، توقى مضطرم بنارٍ متّقدة ، لا أكاد أطيقة ، أن أرى مارينا . أراها فقط ، أحس وهج حضورها ، فقط ، وبهرة جمالها .

كان الرهقَ قد نال منى ونحن ننهض بعد الصلاة التى لم تأت لى بعزاء ، أحسست بقوة أنه مازالت فى قلبى -وقلوبنا كلنا- أسئلةٌ صعبة ، كأنما الصلاة على حرارتها قد حجبت عنا نور الله . كأنما الكلمات على كل صدقها تتركنا غير مرتوين بالإفصاح بل مثقلين بالعىّ والصمت ، صمتٌ يرفض استحالة المستحيل وينشد اختراق غوْره الذى لا يُفض .

لم يكن موت رئيس الدير الأنبا باخوميوس الشيخ الجليل الوديع إلا اقتراناً بموت الروح والإيمان واحتجاب الملاك ميخائيل شفيعى، ونعم.. نعم.. هو أيضاً اقتران بسؤال وجود الله. لكنى، فى عمقٍ منى، كنت أعرف أنه سوف ينجلى عنه الغطاء عندما يحين الآوان، كيف أضع ذلك موضع سؤال؟ سؤال لا أجرؤ- بعد- أن أصوغه، ذلك كله لا يقع فى نطاق الممكن ولا فى ساحة السؤال.

الإيمان.. ليس ثمَ إلاَ الإيمان، لا شأن للعقل هنا وبالتالى للسؤال، وحده الإيمان، كم من الوقت يا إلهى سوف أتشبث بهذه الصخرة الزلقة التى لا تثبت عليها يداى. أنت تعرف ذويك، نعم، كم من الوقت يبقى لى حتى أنكرك؟ كم مرةٍ سوف يصيح الديك؟

قلت لنفسى: مارينا الآن فى غمار الحزن والحداد الذى يخيم- لاشك- على أباهور.

لم تكن مشاهد الإسكندرية المضروبة الخاوية قد بارحتنى بعد، ولا آلام الامتهان فى سفرنا، هاربين، لاجئين من بين الآلاف، مهاجرين إلى أخميم، حتى لو كان ذلك فى جيرة الأقارب الأقربين.

لاحت لى أباهور مظلمة- لم تكن الكهرباء قد دخلتها بعد- أطلالها وخرائبها مائلة مهدَدة، بيوتها الطينية القديمة مسدودة الحيطان، لا يقطع صمت هذه الحيطان كوَةٌ أو نافذة واحدة تطل على الحوارى والمنعطفات والأزقة المتلوية. بيوتٌ منطوية على نفسها، عاكفة فى الصمت الداخلى على أسرارها، ما أن يرتدّ الباب الخشبى الكبير وتنزلق السقاطة الخشبية فى كوتها المنقورة فى الحائط، حتى يحط الخفاء.

كنيسة أباهور العريقة وحدها شامخة مازالت، وإن تهدم جدارها الأيسر. غاصت فى الأرض بعد قرون من بنائها فى عهود المسيحية

الأولى، ننزل إليها ثلاث درجات حجرية عريضة شاقة الانحدار.

سألت نفسي: هل، ياترى، يستعد أبونا فيليبوس والأرشيدياكون جورجي للصلاة غداً على روح الأنبا باخوميوس أم سوف يكفي القداس الإلهيّ في الدير؟

لم أكن أعرف هل تجوز صلاة الجنَاز على الرهبان أم أن صلاة الموتى التي تُتلى عليهم عند دخولهم الرهبنة تجبّ صلاة موتهم الثاني.

«الثامنة مساءً ليلة ٢١ يونيه ١٩٤١

أخميم.. البيت هادئ، وأصوات الصعايدة الماريّن تحت في درب بطّة ترتفع إليّ بحديثهم الصاخب، وأنا أستعيد ذكريات أسبوعين حافلين».

«مساء الأحد ٨ يونيه، شارع ابن زهر، راغب باشا: انطلقت صفارات الإنذار أول أمس - ٦ يونيه - في الساعة الحادية عشرة والنصف، تدوّي متطاولة متقطعة، نواحٌ معدنيّ أجوف يهزّ القلب بالنذير، تتردد أصداؤه في الصمت الفسيح الذى سقط فجأة على المدينة».

«كنا نعلم نتائج غارةٍ سابقة حين سقطت عشرات البيوت في باب سدْره والعطارين وكرموز وقُتل وجرح الكثيرون، شاعت الأقاويل أنهم مئات، وتُليت صلوات الغائب على المفقودين في جوامع سيدى المرسى أبي العباس وسيدى جابر وسيدى كريّم ودقّت أجراس كنائس المرقسية والعذراء في محرم بيه والملاك ميخائيل في غيط العنب.

تسلل الخوف - رغماً عنا - إلى قلوبنا، وأسرعت أمّي، وعايدة، وهناء، ولويزة، وألبير إلى المخبأ في الكنيسة الإنجيلية الحمراء في شارع إيزيس، لكني بقيت في البيت مع أبي. كنت مصمماً على الاستمرار في العمل والاستذكار استعداداً لامتحان الجَبْر والهندسة لشهادة

الثقافة، غداً صباحاً.

ولكن ما أن زأرت المدافع المضادة للطائرات وومض بريقها، مثا أن انسلت سيوف الأنوار الكاشفة الحادّة تطعن السماء، حتى اضطررت للنزول إلى الدور الأسفل، جنب باب الشارع، أنا وأبى فقط.

كانت غارة عنيفة رائعة. أخذت المدافع الضخمة تنطلق متتابعة فى فترات متقطعة، ثم تلاحقت قرقعة المدافع الرشاشة السريعة «الآك-آك» متصلة، مستمرة، وفى دوىّ هائل يصم الآذان راحت القنابل تتفجّر وهى تزلزل الأرض فى إرعادٍ مروِّع، أحسست الأرض تنتفض تحت قدمىّ، وكان النور الأحمر يغمر السماء بفيضٍ قرمزىّ يستمر حوالى ٨٠ أو ٩٠ ثانية- كأنها لن تنقضى- ثم أسمع الانفجار الهائل.

كانت تطعننى عندئذ، حقاً، آلام الجرحى والمنكوبين، أتألم فى صمتٍ وحزن. أخذت الأخبار تتواتر، من الناس العابرين، سراعاً ملهوفين أمام البيت، عن المناطق المضروبة، قالوا جنب عمود السوارى فى كرموز، قالوا اللبّان والعطارين والفراهدة، قالوا السيّالة وبحرى، فارتعبنا.

وأخيراً أعلن زوال الخطر، وصعدت وبدأت أستذكر قليلاً ولكن فى أية حال..!

وما نشعر إلا ودوّت صفارات الإنذار للمرة الثانية، عندئذ سارعنا جميعاً إلى المخبأ حيث قضينا أروع الساعات القلقة المخيفة فى حياتى كلها. كنا نسمع صفير الطائرة وهى تنقضّ لتقذف حملها المهلك وحممها القاتلة، يتلو ذلك صوت الانفجار تكاد القلوب تنخلع معه حرفياً، نرى الشرر الصغير القانى يلتمع ويخبو ويتتابع فى خطوط طويلة مقوّسة، ومازالت الجحيم تلقى علينا بأهوالها المدوّية دون أن تكفّ، حتى انبثق الفجر وأوشكت الساعة على الخامسة صباحاً.

عندئذ انطلقت صفارات الأمان، بهيجةً مرحة تقريباً، ولكن بعد

خمس ساعات مروّعة قضيتها واقفاً على سُعَر الجحيم، بين النيران والرعود والأنين والتأوّه وصيحات الاسترحام والدعاء يالطيف الألطاف نجّنا مما نخاف، يايسوع، ياعدرا، اللهمّ حوالينا ولا علينا.

تقوضت المنازل على خمسمائة نفس بشرية بريئةٍ فقضت عليها دون ذنبٍ ولا جريرة، وأصابت حوالي تسعمائة بشظاياها وحممها. كم من الآباء والأمهات والأبناء والأطفال نكبوا بفقد الأحباء..! إن القلم ليُشلّ عن وصف الآلام التى سببتها هذه الوحشية الغشوم».

(هل كنت -حتى فى ذلك الحين- على هذا القدْر من السنتمنتالية؟)

«فى الصباح أديت امتحان الجبر بعد أن أخذت حماماً بارداً، ولكن كم أجد من الصعب جداً أن أنجح أخيراً بعد عامٍ قاتلٍ من العمل الجادّ.

وفى يوم ٩ يونيه عدت من الامتحان مطأطئ الرأس مثقل الفؤاد، وكم تضاعف حزنى وألمى عندما رأيت القوافل المتصلة من المهاجرين يقصدون محطة مصر، لكى ينجوا بأنفسهم من جحيم الإسكندرية المحبوبة. كنت ترى الأسراب يتلو بعضها بعضاً من الهاربين إلى الريف، فى انقباضٍ وانكسارٍ واستسلام. على الأقدام، وعلى عربات الكارُو، وفى الحناطير، وعربات النقل، والتاكسيات، دون انقطاع، المدينة كلها يخيّم عليها شئ معتمٌ كالحٌ كأنما هو الكابوس. بكيت فى هذا اليوم بالدموع الحارة لكى أفرّج كُربةً تعتمل فى نفسى. لم أجد لى شهية للطعام أو للكلام أو للحياة. كنت -مع الإسكندرية كلها- فى ألمٍ وضيق وحزنٍ هادئٍ مكبوت يتجلى حوالىَ فى الوجوه القاتمة والأعين المظلمة.

فى ١٠ يونيه ارتدت الإسكندرية رداءً موحشاً رهيباً، كادت الشوارع تخلو من المارة، وكنت إذا أطللت من الشرفة المحبوبة التى تقع على الشارع الممتلئ حياةً ونشاطاً ارتددت وفى قلبى لوعة وحسرة، بدا

الشارع ساكناً شاحباً والنوافذ مغلقة مظلمة، اختفى الباعة بأصواتهم التى تفيض حيوية، لقد هُجرت الإسكندرية، قمت بعد الظهر بجولة فى بعض المناطق المنكوبة، كانت مشاهد مروّعة حقاً، تلال من الأنقاض والرماد، من تحتها -بلاشك- مئات من القتلى الأبرياء، يحيط بها جنود الجيش المرابط، باللعنة.. !

كانت محطة مصر بحراً يموج بالأجساد البشرية التى تبغى الفرار، أحاطها الجنود بسياجٍ متين، صفٌ متراص من عساكر الجيش المرابط وبعده صفٌ آخر من عساكر البوليس يحولون دون تضخم الجماهير المحتشدة بالمزيد من الهاربين.

فى هذه اللحظة ذكرت التحية الرقيقة والوداع المترفق والنظرة الساحرة.. تُرى هل سنلتقى ثانية؟ يا أيها الدهر.. ! كم كانت أحاديثنا حلوة بريئة مرحة سعيدة، وكم كنت هانئاً، وكم كان عيشنا عذباً محبوباً.. ولكن،

(قال: مَنْ هذه التى تحسرت لفراقها، وتساءلت هل نلتقى مرة أخرى؟ مَنْ؟ يابنات إسكندرية، لا يفرغ لكُنَّ رصيد، لا تنتهى الوجوه التى تثب إلىّ من عتمة السنين الطوال، هالاتٍ مضيئة وغير محددة الأسارير، لكنّ هذا الوجه يراوغنى، هل كانت هى مُنى الأولى التى أحبت فى النهاية ابن عمّها جاحظ العينين؟ أم هى دولت المرأة الرومانسية الممتلئة التى أرسلت لى خطابات الحب بين أوراق روايات الجيب، كأنها هى التى تلعب دوراً فى داخل الرواية، أم فى خارج العالم؟ أم هى تلك الفتاة التى تلوح لى الآن باسمة مدوّرة الوجه ولكن نور الذكرى محا معالمه، مدوّرة الجسم حافية على سطح البيت بفستان خفيف على صدرها الناهد، ينحسر قليلاً عن ساقين مخروطتين؟

هل هو عالم الحرب يضربنا عندئذ، أم عالم الحبّ لا تنتهى ضرباته؟)

«فى ١١ يونيه انتهيت من امتحان الرسم فى التاسعة صباحاً، ودّعت وفيق، وجورج الذى كان يعتزم الذهاب إلى كامب مصطفى باشا للكشف الطبىّ قبل أن يلتحق بسلاح الطيران الملكىّ الإنجليزى، (يريد أن يصبح طياراً، لكنه فى الغالب سوف يكتفى بعمل فى المعسكر، على الأرض) لا أدرى ماذا حدث له حتى الآن.

فى الظهر كوّمنا أثاث بيتنا عند جارتنا دولت، وودّعناهم، البكاء، والعناق بين الكبار، والوعود بالكتابة، والنظرات ذات المغزى.

وفى الرابعة والنصف كنا جميعاً -ما عدا أبى- فى عربة مكشوفة من قطار بضاعة، متجه إلى الجنوب.

وفى الساعة الثامنة مساءً خرج القطار من حدود الإسكندرية، وانطلق فى الظلام يشق الريف، العجلات تصطفق بإيقاع رتيب، والدخان يتطاير من فوّهة مدخنة القاطرة، أنا وأمى وأخواتى وألبير مكوّمون بين القفف والألحفة المربوطة واللفف المحزومة، تحت السماء.

سئمت الكتابة عند هذا الحدّ.. أتوقف عنها الآن»

كيف دخلنا: أمى وأخواتى الأربعة وأخى ألبير الصغير، وأنا- الطالب النابه الذى يكتب الشعر ويقرأ الفلسفة وكتب التراث الأدبىّ وسلامة موسى وتوفيق الحكيم وأناتول فرانس ويرى نفسه مرهف الحس طهرانياً رفيع الثقافة، كيف دخلنا إلى حرم المحطة الذى كان مسوراً بسياج من العساكر؟ كيف اخترقنا، ومعنا أحمالنا، جموع الناس المتزاحمين المحتشدين فى صالة المحطة، كيف شققنا طريقنا الصعب بين التزاحم والتدافع، ونحن نحمل ونجرّ الحقائب والقفف والألحفة والحلل والصُرر، نقاتل لكى نصعد إلى تلك العربة المكشوفة العالية من عربات البضاعة، من غير سلالم، تسلقنا الجدران الحديدية المدهونة باللون الأحمر الباهت وعليها أرقام وحروف إنجليزية بيضاء مغبّرة، واحتللنا

جانباً من العربة، بين أكوام العائلات الأخرى بعيالهم وزياطهم وعويلهم وتنهّدات الأمهات وصرخاتهن إذ ينهرن الأطفال أو ينتحين جانباً يرضعهن بأثداء ضخمة أو يُجلسهن على القصارى ليقضوا حاجتهم بيننا وللضرورات، طبعاً، أحكام.

هل ترجّت أمّي العسكر، بالدموع، لكي يسمحوا لنا بالدخول؟

وهل كان أبي معنا يحارب في تلك المعركة، أم كان في شغله يرعى أكل عيشه؟

وأنا، في الخامسة عشرة، رجلاً كأنني مازلت صبياً، كأنما أعلو بنفسي فوق طغمة الهاربين، انسلخ عنهم في دخيلتي، أسرح في ملكوت أوهامي الرومانسية، وأنا طول الوقت مغمور حتى العنق في طين هذا العالم الذى أزعم لنفسي أن أشعار شيلي وكيتس وطاغور تسمو بي عن رغامه؟ متورط فيه- مع ذلك- ومكروب ومنشقّ على نفسي.

كيف حدث؟ أما زال يحدث؟

«في صباح ٢٢ يونيه وصلني خطابٌ من أبي ينبئنا بوقوع غارة عنيفة طول الليل على الإسكندرية قال إنه في ٢٠ يونيه، انصبّت القنابل على الأحياء الوادعة للمرة الثانية، فدمرت، وحطّمت».

كتبت خطاباً لسمير، قلمي لا رغبة له ولا مقدرة على أن يمشي.

«في التاسعة صباحاً من ٢٣ يونيه، لا جديد، اللهم إلا نوبة من نوبات السأم والضيق. ثم ولّتْ هذه النوبة. هأنذا أعود إلى الكتابة.

في تلك الليلة، عندما بزغ القمر، كنا في عربة البضاعة التي تشق طريقها (لماذا أحب هذا التعبير؟ تشقّ الطريق؟) بين حقول الأرز الخضراء تبدو، تحت ضوء القمر الناعس كأنها مرايا هائلة قد رُميت بين

الخُضرة بما يترقرق من مائها الساكن الساجى (حتى فى الأوقات العصيبة- خصوصاً فيها - لا تفارقنى الاستعارة والتشبيه..!) كنا نرى الأنوار الكاشفة تبرق من الإسكندرية، وتخرج من نصف دائرة تشق السماء كسيوفٍ يتصاول بها الآلهة، فتفترق وتلتقى على صفحة السماء الزرقاء التى انتثر فيها قليل من النجوم المنفردة البالية (كذا) والهواء يهبّ فى عنفٍ وشدة فيلذع الأجسام ببرده القارص مما اضطرنى إلى المبيت قابعاً تحت معطفٍ دافئ بين كومتين من أثاث المهاجرين مستنداً بظهرى إلى جدار العربة المنخفض أحس طول الليل بدفءٍ آخر من أمى وأخواتى النائمين تحت الألحفة بين أشيائنا المكوّمة.

فى الليل العميق تحت خيمة من الصمت والهدوء لا تقطعها إلا فرقعات العجلات، مررنا بجسر كفر الزيات الفخم، ولقينا من كلمات الترحيب والتشجيع من ناظر المحطة ومعاونيه ورجاله ما كان لنا عزاءً وسلوى.

وفى الساعة الثانية عشر ظهراً فى اليوم التالى، بعد ست عشرة ساعة، وصلنا محطة القاهرة، وهناك نقلنا أشياءنا إلى عربة بضاعة أخرى لكنها مقفلة إلا من بابين واسعين متقابلين».

كان من الطريف عندى أن رجال وفتيات الهلال الأحمر (جميلات، أنيقات، لا شائبة فيهن، بعضهن من أميرات الأسرة المالكة، وكلهن ينتمين إلى «مبرة محمد على») وصلوا إلى المحطة، بينما كان قطار البضاعة واقفاً، ينتظر، ووزعوا علينا سندويتشات فول مدمّس، ولكن من غير ملح أو زيت، فول مدمّس سادة عادب.

مكثنا فى المحطة حوالى ساعة وعندما أخذ القطار يتحرك غمرتنى كآبة صامتة فقد روّعتنى مناظر الناس الذين خرجوا إلى الشرفات من حول خطوط السكة الحديد لكى يتفرجوا علينا، يخبطون كفاً بكفٍ، فى رثاء وإشفاق. أحسست أننى أرفض هذا الرثاء لنا ولكنى أفهمه

وأبرره، رغماً عنى.

راح القطار ينهب أرض الصعيد، رأيت الأهرام الثلاثة ملفعةً بضباب البُعد جاثمة فى حضن الصحراء بما خيَل إلىَ أنه كبرياء وعزة الدهور فى مصر هذه التى لا تُنال مهما تلقت الضربات»

(كنت فصيحاً، منفلوطى الفصاحة تقريباً، وأنا أكتب ذلك فى الخامسة عشرة من العمر)

«بتنا ليلة أخرى فى قطار البضاعة، مررنا ببنى سويف والمنيا وأسيوط التى وصلناها ليلاً. لم نبلغ سوهاج إلا بعد أن ظننت أننا وصلنا إلى القطب الجنوبى وأننا لابد سائرون فى الطريق إلى العالم الآخر. ها ها ها..!

لم نجد من يستقبلنا فى المحطة، لأن الناس ملّوا من طول الانتظار ليلتين كاملتين.

عبرنا النيل بالمعديَة الحديد التى تتحرك بالجنزير، ووصلنا أخيراً إلى أخميم. لكنني لم أكن أرى ما حولى، فقد نال منا التعب والسهر والحزن كل منال.

أخميم أخيراً.. أخيراً.

دخلناها حوالى الثانية ظهراً».

«الطرانة فى ٢٨ يونيه ١٩٤١

حضرة الابن المطيع، دام كماله.

أهديكم أذكى التحيات وأعطر السلامات وأخلص الأشواق الزائدة لكم وللست والدتكم شقيقتنا وللأخوة الأعزاء.

أتعشم أن تكونوا جميعاً بخير كنا مشغولين جداً من جهتكم بسبب خطاب قد أرسلته عايدة من المهاجرة. ولكن اطّمنّا والحمد لله مع أسفنا العظيم لعدم حضوركم عندنا وتكدرنا لهذا السبب ولكن (زى بعضه).

عندما حضر خطابك يابن أختي العزيز اطمئن بالنا قليلاً من جهة الصعيد وحشراته وقد قبلنا عذركم وما باليد حيلة ونرجو من الله لأن يوفقكم إلى ما فيه الخير ويوصل بقية أيام دراساتكم في مدرسة سوهاج ويرزق والدكم برزقكم وخصوصا رزق (الكوبة) الجديدة إيڤون، وإيزيس وغنن وما يتبعهم.

أرجو أن ترسل لنا دائماً خطابات أسبوعية للطمان عنك ويكون في الخطاب عنوان والدكم وهل مقيم في الإسكندرية أم في أخميم لكي نكاتبه ونطمئن عنه أيضاً.

أما من جهة المهاجرين فإن جماعة خالك يونان فهم في دمنهور كما تعلمون ومن جهة جماعة خالك سوريال فهم حضوراً طرفنا وسكنوا منزل أم نبيهة «برهومة» كما كانوا السنة الماضية.

ومن جهة شقيقتنا الست وديدة فإنها لم توضع بعد فإن لها الثامن هذا الشهر.

أما من جهتي يا عزيزى البك فيعلم الله بما قاسيته من أجلكم، فإن لم يمضى يوم وإلا أبكى لفراقكم البعيد ومن ما أرسلت الخطاب عايدة وأنا بكيت بكاء مرّ عشانكم فإن عيني مرضت ولم تشفى وهذا السبب في غلطاتي الكثيرة وعدم تحسن الخط ولامؤاخذة وقد نحل جسمي فلا يوجد منه إلا النصف ونهايته الله يعينكم ويدبرّ مصالحكم ويحافظ على والدكم.

بلّغ مزيد سلامنا للست والدتكم ولأخواتكم العزيزات وخاصة غنّن باشا ولشخصكم المحبوب.

عرفنا عن سبب سكناكم هذه ولماذا لم تسكنوا مع أقاربكم وهل الست أم شفيق عمتكم موجودة في أخميم أم لا فإذا كانت بلّغها سلامنا جميعاً وخاصة الست والدتنا.

خالتك سارة

عزيزى

أزكى التسليمات وصالح الدعوات لجميعكم

عزيزى دايماً خاطبنا لنكون فى طمان من جهتكم. عزيزى الذى أوضحته خالتك فيه الكفاية عرفنى عنوان حضرة الوالد وإن كنت ألوم عليه لعدم مخاطبتى هل بينى وبينه خصام يمكن وأنا لا أدرى والرب تبارك اسمه يبارككم جميعاً.

سلامى الخصوصى لحضرة المزمزيل عايدة السكرتيرة الخصوصى وأسأل الله أن يعيدكم جميعاً سالمين آمين والسلام.

جدكم ساويرس

اعلمى وتأكدى يا ست سوسن أن والدتكم فى غاية النكد والتكدر بسبب سفرك هذا إلى الصعيد وتقول ياعالم نتقابلوا ثانى وتقول معلش يا سوسن وتهدى إليكم سلامها الكثير وشوقها العظيم وسلامها إلى الست أم شفيق وتقول يهدى سركم ويحنَّ على الرجل برزقكم.

الست جدتكم

أماليا

انظر داخل الخطاب

فانوس أفندى والست خالتكم يهدونكم السلام الكثير

ملحوظة: «يلغ ثمن كيلة الأذرة ١٥ قرش صاغ وثمن كيلة القمح ١٧ قرش صاغ والغلا أخذ يشتد»

(لم يكونوا يخجلون- كما نخجل الآن- من عواطفهم، أو من التعبير عنها بصراحة وبساطة. لم يكونوا يخشون تهمة السنتمنتالية).

«مساء ١٥ أغسطس ١٩٤١ فى حوالى الثانية بعد منتصف الليل كان من المستغرب حقاً أن أعود إلى هذه المذكرات بعد هذه «الهجرة» الطويلة، لذلك لم أعد.

أما الليلة فقد هاجنى الشوق إلى الكتابة واللهفة إلى الإفضاء بما يعتلج فى الروح.

لكم كانت غيبتى عنها طويلة مفرطة الطول، ماينيف عن شهر ونصف. وما أكثر ما حدث فى شهر ونصف. تحطمت آمال، وماتت أحلامٌ، وولدت خواطر وقُبرت أفكار واضطرمت مشاعر وخمدت أحاسيس (وجرت أحداث جسام) واستحال كل ذلك رماداً غريباً تفوح منه رائحة عبقة وقوية ونفاذة.

نعم، ما أكثر ما حدث فى شهر ونصف.

والآن، فلنعد إلى الوراء، لقد أودعت مذكراتى هذه ما حدث حتى وصلت إلى أخميم. فماذا بعد ذلك؟

فلنجهد الذاكرة قليلاً يا صاحبى..

أذكر كيف انتقلنا من منزلٍ إلى منزل بين الأسى والحيرة، حتى حططنا الرحال فى هذا العش الصغير فى ملتقى شارع الكاشف بدرب بطّة، وها نحن فيه من شهرين، وقد بدأ هذا البيت الصغير يصبح عزيزاً علىَّ، حبيباً إلى قلبى، ككل شئٍ آلفه وآنس إليه،

ثم أننى أذكر كيف كنت أطوف فى البلدة، متعرفاً نواحيها، مدققاً فى ملاحظة مجاليها، مسروراً من طرافة ما أرى وأسمع، أجّد فى لغة الناس هنا لذة جديدة، وفى طرق البلدة وضواحيها وحقولها والجبل الذى يكتنف واديها، جدّة ومتعة.

تتابعت الأيام وبدأت أملّ وبدأت نوبات السأم والضجر القاتلة تعترينى بين الحين والحين. وصلنى خطابٌ من وفيق، خطاب رقيق ظريف أجبت عنه، ذهبت إلى سوهاج، عرفتها هى الأخرى،وجاءنى

ردّه، ثم ردّ، ثم ردّه.

وفى هذه الأثناء مات الأنبا باخوميوس ميتةً مفاجئة، لا أحد يعرف بالضبط كيف مات، الأقوال متضاربة، والروايات مختلفة، وجرت أحداثٌ خطيرة فى الدير الكبير.

«حوالى الحادية عشرة مساء ٢٢ أغسطس، ها هى ذى الأيام تفرّ فراراً وتتطاير فى إثر بعضها بعضاً متسارعة، كأوراق تسقط من دوحة الدهر. ذابلة شاحبة، وتهبّ بها ريح القدر متتابعة ذاهبة إلى غير رجعة.

تملكنى عند الأصيل ضجرٌ وسأمٌ قاتلٌ، مما اعتاد أن يعتصر روحى فى هذه الأيام، فذهبت أروّح عن النفس على شاطئ النيل، حيث أحب العزلة والسكينة والوحشة بين الحقول الصامتة.

النيل هنا ساحر رائع فالمنحنى الذى يتعرج فيه مجراه يمنحه سعةً وجلالاً فسيحاً مهيباً، فهو هنا أشبه ما يكون ببحيرة ساكنة رقراقة هائلة الاتساع، النخل على أحد شاطئيها فى غابةٍ مجتمعة متكاثفة بدتْ على البعد دقيقة صغيرة، أسراباً من نحلٍ وحشىّ عاد إلى أوكاره عند الغروب واحتضن أفراده بعضهم بعضاً فى حنوّ ونبلٍ.

وفى الجانب الآخر يبدو الجبل الأشمّ وقد كست تربته غلالة شفيفة شاملة تميل إلى لون المرمر المغبرّ صبغتها أشعة الغروب لوناً وردياً رقيقاً تتراوح بين ثناياه ظلال ساحرة تختبئ فيها الجنيات الرشيقة بينما تجثم عند قدمىّ الجبل حقول منبسطة خضراء ترتفع فيها هنا وهناك نخلات حانية كعرائس الجنّ الهيفاء، وقد حلّت غدائرها، أو كمردة منتصبة تحرس النيل من غوائل خفية رهيبة»

(لا. لا أستطيع الآن أن أترك هذه اللغة المسرفة فى «رومانسيّتها» دون أن أقول، مثلاً: «ياسلام!» أو «غنّ يا وحيد غنّ!» أو شيئاً من هذا القبيل. هل عفا الزمن على هذه «الرومانسية» المغرقة؟ أم هى مازالت كامنة عندى، أقاومها وأمتثل لها فى الوقت نفسه؟ رومانسية أحترمها

مع ذلك وأحنّ إليها)

«المياه ساكنة هاجعة وقد انعكست عليها صورة السماء، فبدت في ألوانها الشفافة الرقيقة التي تعبث بها نسمات الريح كأنما تداعبها أنفاس كائنات علوية.

كان المشهد كله نبيلاً رائعاً وقد كسته السكينة الشاملة وحشة وهدوءاً، تصل إليّ فيه، من بعيد، طرقات المراكبية وهمهمة البنات والصبايا عند الموردة وهنّ يملأن الزلع ويثرثرن.

عندما رجعت كانت الشمس قد توارت في الأفق البعيد وكانت ألوان الحُمرة والزرقة والبنفسج تزحف في السماء لتعكس على صفحة المياه آلاف الأشعة الملونة المتماوجة فكأنما هي تشفّ عن أكوانٍ خفية في الأعماق تغطيها أردية ملّونة ساحرة من أعشاب وحشية، وكانت الهضبة تحت الجبل قد ثوت في ظلٍ رماديٍ جميل.

كانت النسائم تهبّ في عنفٍ مقبول تارة وفي رقةٍ وادعةٍ طوراً. وفجأة يمزّق السكون السائد طائر صغير انسابت تغريدته الطويلة المنغمة في الأجواء التي أخذ يراودها النعاس، ثم ساد السكون، وسادت وحشة الأصيل».

«استيقظت فجأة قبيل فجر الأمس، على أثر نوم طويل.

راقني الهدوء الذي كان يشمل البلدة النائمة قبل تحفزها للنشاط اليومي، فتحت النافذة، وتركت نسيم الفجر البارد المنعش يضرب وجهي في رقة.

كانت الظلمة مازالت سائدة، المصباح الكهربائي في الشارع منتصبٌ يبدد ظلمة الشفق بدائرة من النور الأزرق الشاحب الذي يتلاشى عند منحنى الطريق في ظلالٍ غريبة متمازجة.

وكانت النسوة يتحدثن في الطريق، وهن يحملن جرارهنّ ليملأنها من ماء النيل، في هذا الفجر الباكر قبل أن تقع عليهن عيون الرجال،

كن في هذه الأثواب «البرد» السوداء السابغة، الزلع على الرءوس ثابتة برشاقة، يرمين على الأرض، في ذلك الضوء الكهربائي، ظلالاً طويلة بديعة متغيرة.

قانون صارم في أخميم، لا يمكن أن يُكسر وإلا كانت العواقب حقاً وخيمة. لا تخرج النساء أياً كانت مكانتهن أو مستواهن الاجتماعي إلا متلفعات في هذه البرد السابغة التي تخفيهن عن عيون الرجال، فهنَّ عورات، والعرض غالٍ لا ثمن له إلا الدم.

ومع ذلك، كم أحب أن أفنى في السكون والهدوء والصمت الشامل المحيط.

قطةٌ أخذت تموء تحت عمود النور، تسحب خلفها ظلّها الممتد المتلوّى، وأنا أرقب الفجر الزاحف يبعث في أطراف السماء نوراً وادعاً».

ألم يكن هذا الصبي يرى - أو يحس - غير تلك الصور «الرومانسية» المرهفة المخففة بشاعريتها المتسايلة؟

أم أنه كان يلوذ بها، يهرب إليها، لتعزيه أو لتنسيه، ولو مؤقتاً، آلام قلبه وما يدور حوله من صراعات ومعاشق، وما يعيش فيه الناس من عوز وفاقة؟

ألم ير الأولاد الذين، انتفخت بطونهم تحت الجلاليب على اللحم، وجفّت جلود وجوههم وضربتها البقع البيضاء من البلاجرا والأنيميا، من أكل عيش الحلبة والذرة حاف أو بعودين جعضيض من على شطّ المسقى؟ ألم ير الرجال، حفاة، ناحلين، قاعدين من غير شُغلة ولا مشغلة، على عتبات البيوت أو نواصي الشوارع، متقدى العيون، أمن الجوع أم من شراسة الكرامة؟

نعم. رآهم، عرفهم. أحس بهم

ومع ذلك كانوا خيراً ألف مرة من أولادهم وأحفادهم وقد بلغوا الآن مبلغ الرجال، في هذه التسعينيات الآفلة، تقف جموعهم أو فرادهم، صبيةً أو كهولاً، أو يقعدون على الأرض، في شارع الملك فيصل أو في القطاميّة، يعرضون قوة سواعدهم بالرُخص في سوق العمل النزر الشحيح، فواعلية وفَعلة بناءين وعتالين وتباعين لواري، يجرون إلى العربة الملاكي أو نصف النقل، لينتقي منهم مقاول الأنفار واحداً أو اثنين أو ثلاثة، ويعود الباقون إلى جلستهم على الرصيف، ينتظرون بصبر أو بنفاده على السواء، صحيح أنهم ليسوا حفاة، وأن منهم مَنْ يلبس البنطلون الجينز القديم تحت الجلابية أو هرابيد الشُغل، وأنهم متلفعون -كأسلافهم- بالتلافيح الصوف واللبَد والطواقي، ولكن أين نظرة العزّة وشمم النفْس؟

«أخميم في ٢٨ يونيه ١٩٤١

والدي العزيز دام

أهديك تحياتيَ وأشواقي الحارة مع تمنياتي الطيبة وأرجو الله أن يحافظ عليكم ويحيطكم برعايته ورحمته.

تبعاً لنصيحتك لي بألا أخالف السيدة والدتي ولو كانت غلطانة، أكتب لك هذا الخطاب على لسانها، وأنت تعرفها خير المعرفة.

هي تقول إنها مشغولة جداً وفي غاية القلق والحزن والألم لغيابكم في مواطن الخطر، وهي تقريباً لا تأكل ولا تتكلم ولا تضحك مطلقاً ولكن تبكي وتبكي ونحن لذلك في غاية الشقاء والتعاسة، ولا شئ يخفف عنّا من وطأة هذا الحزن غير حضورك هنا. ونعرفكم أن الحكومة تصرف لكل شخص من المهاجرين ستة أرغفة، أي أن نصيبنا ٤٨ رغيفاً صغيراً فيجب أن تطمئنوا على الأكل ويجب أن تسارعوا بالحضور هنا وتتركوا كل شئ في الإسكندرية المنكودة. ولعل خطابنا السابق

وصلك، ولم يصلنا الرد، وهى لذلك تكاد تهلك حزناً، ونحن سوف نُصاب بالجنون السريع، إن لم تحضر بأسرع ما يمكن، وهى تذكرك بوعدك القديم بأنك سوف تأتى معنا، وهى تفضل أن تأتى أنت هنا ونعيش بلا طعام على أن تظل فى الإسكندرية حتى لو فرض أنك تحصل على مكسبٍ عظيم فى الدقيقة الواحدة.

ونعرفكم بأن للحزن والقلق أثراً عظيماً فى صحتنا وشهيتنا وتذوقنا للحياة، فوالدتى مريضة جداً دائماً، وأنا أكاد أقضى من القلق والحزن وغنَن طلع له تحت أذنه ما يشبه الورم ونحن نخاف أن يكون خُراجاً لا قدّر الله. وتأكد تماماً أننا لا نحاول الكذب لكى نغريك بالحضور، وإنما هذا الكلام أقل من الحقيقة كثيراً. وأنت تعرف أننى لا أكتب لكم هذا الكلام إلا وقد أرغمتنى الحالة المحزنة التى أراها هنا، على ذلك.

والدتى تقول «إنكِ لا يجب ولا يُعقل أن تجازف بحياتك فى هذا الخطر المحقق فى سبيل ٣ أو ٤ جنيهات فى الشهر!»

الغرض الرئيسى من هذا الخطاب هو حضورك على جناح السرعة. ونعرفكم بأن أرمانيوس وعائلته هنا. ولعل فى هذا الكفاية لكى يحرضكم على الحضور هنا، ضرورى ضرورى ضرورى جداً.

فى الختام تقبل منى أرق التحيات والأشواق والرجاء بالحضور

ولدكم الخاضع

(إمضاء)

ملحوظة: «حضورك هنا لازم، لازم جداً.

والدتى كانت تريد أن تكلمك فى التليفون أو تبعث لك تلغرافاً من القلق وهى لا تستريح أبداً ليلاً أو نهاراً.

أكرر إلحاحى فى حضورك»

«الإسكندرية في ٢٩ يونيه ١٩٤١

ولدنا العزيز

أهديك السلام مع كثير الأشواق وأتعشم أن تكونوا بغاية الصحة. اليوم وصلني جوابكم الثاني وما قبله وبهما عُلم وإنما تكدرت جداً لما جاء بجوابكم الأخير وعليه أفيدكم أنتم غلطانين جداً للتهوس بهذا الشكل لأني الحمد لله كثيراً فإني في مأمن بقدرة الله من كل خطر لأننا عملنا ترتيب في عدم المبيت بالإسكندرية من أول أمس لأن الشغل أصبح خفيفاً ورتبنا أتومبيل يومي يوصلنا المحمودية مساءً ونعود للإسكندرية في الصباح وربما بعض الأيام وربما نفضل بالمحمودية يوم أو اثنين مع المعلم بدون حضور وعلى كل حال فإنه ربما عن قريب نحضر منظور بعد أسبوع أو اثنين بالكثير المسألة لا تستحق الفضول من طبيعة الحال لأن الإسكندرية حركتها خفّت خالص فنرجوكم لا تتكدروا ولا تحزنوا وبعون السيد المسيح لا يكن لكم مشغولية من جهتي ومادام الناس ماسكين فينا هل يصح نتبطر على عيشنا ونرفص النعمة حرام علينا وأنا ليس أحسن منهم وكونوا واثقين بأن الله تعالى لا يضركم فيّ أبداً واطمنوا وانبسطوا وخلّوا الاتكال على الله وبمشيئة الله سنحضر طرفكم بالكثير لغاية ١٠ يوليو وأرجو تعرفني بصحة أخواتك بالحقيقة وكذا والدتك لأنني انشغلت عليكم من جوابكم جداً. الأخ سوريال أفندى ولوندى وعبد المسيح بغاية الصحة سلامي للعموم ودمتم.

والدكم

(إمضاء)

أرجوك عرفني بأخبار أولاد عمومتك جميعاً وكذلك صموئيل أفندى باشكاتب حسابات المركز وأخيه أباديرأفندى وأخيه الأنبا تاوضروس وكذا أخواته الستات الفضليات سالومة والآنسة الصغيرة مارينا والسلام ختام.

كان الفجر قد أوشك على الانبلاج، ضوء الشفق مازال رمادياً لم يخضّبه الاحمرار الباهت فوق غابات النخيل وغيطان الذرة على البرّ الشرقى، ومازلنا فى البيت غير قادرين على أن نغادره، عندما قال لنا مرقص، أخيراً، كأنه لا يستطيع أن يحتمل الكتمان، إن الأنبا باخوميوس مات بين يدىْ سالومة بعد أن جاءته تَشنجات قوية هزت جسده النحيل الضاوى هزاتٍ متعاقبة، انسال من فمه، ببطء، سائل لزج داكن الخضرة ثقيل القوام، وكانت عيناه ثابتتين، اتسعت مقلتاهما حتى ملأتا المحجرين الغائرين.

قالت لى سالومة إن وجهه غامق السمرة قد استحال إلى صفرة داكنة شاحبة جداً، كأنما جلد وجهه قد جفّ لم تعد فيه قطرة نداوة واحدة، واستطاعت أن تسمعه يقول بصوت مبحوح لا يكاد يغادر صدره: يا يسوع.. ارحمنا.. سامحه سامحه ياربّ.

كان الأنبا باخوميوس قد تعشى عندهم عشوة الإفطار بعد صوم الرسل، فى عيد القديسين بول وبطرس، وبعد أن عادوا جميعاً من كنيسة أباهور، صموئيل وميساك وأبونا فيليبوس ومارينا، وكان العشاء ذكر بطّ سمين على ملوخية عملتها سالومة بيديها ولم تترك ورَسَانة تعملها، قطفتها من أعوادها، خرّطتها بالمخرطة على الطبلية الخشب وطبختها بالتقليَة التى تحتفظ وحدها بسرّ توليفتها من الثوم والكزبرة وعُشبة أخرى لا يعرفها أحد غيرها، وعندما تطش التقليّة تمصمص بشفتيها بصوتٍ خاص فيه جَرْس اللثْم والبسبسة معاً، من غيره لن يكون للملوخية طعمها المميز.

كان أبونا باخوميوس يلمّ ببيت سالومة بنت أخيه المرحوم اسطفانوس بين وقتٍ وآخر، كان يحب أن يتعشى عندها، ويصلى لها، ويأخذها فى حضنه كأنها بنته الصغيرة، وكانت سالومة تأوى إلى صدره النحيل كأنها تلوذ بصخرة راسخة من الحب والإيمان. وكان

أيضًا يطلب من زوجها، كل مرة، قليلاً من ذلك المسحوق الأبيض الذى يهدئ من آلام معدته، ميساك أفندى وحده يعرف تركيبته.

ليلتها جلس الأنبا باخوميوس على رأس الطبلية المدوّرة، بإزاء الجدار المعلقة عليه أيقونة الربّ ضابط الكل يرفع إصبعه بعلامة الهداية فوق شمعة سميكة صغيرة متقدة باستمرار بنور مرتعش متلوٍ محمرّ لا ينطفئ. كان جسمه الصلب يبدو قوياً على نحوله، فى جبته السوداء الحرير، لحيته البيضاء الخفيفة تنزل على الصليب الخشبى الكبير الذى يهتز على صدره، جالساً على الشلتة المرتفعة الخاصة به، وهو يصلّى بصوته المرتعش من الشيخوخة، يطلب من الله أن يبارك هذا الطعام وهذه الصُحبة وهذا البيت، وقد أحنى الجميع رؤوسهم وأخفضوا عيونهم.

الطبلية الكبيرة المستديرة عليها أرغفة الخبز الذرة المرحرح الواسعة وإبريق الماء البلّور السميك، وفى وسطها حلة الملوخية رفعت سالومة غطاءها فبدت الملوخية زرقاء، فى نور اللمبة نمرة ١٠ المثبتة على الحائط المقابل، يتصاعد منها بخار أبيض، ودكر البط بجانبها على الطبق القارب مستطيل الدوران، فخوراً، شامخ الصدر، محمرّ الوركين، وبجانبه برام الأرز المعمرّ باللبن سخناً من الفرن فيه حبيبات الخلطة من الكبد والكلاوى والقلوب صغيرة مغروزة فى قبة الرزّ وفى بطن البرام.

وبجانب أبونا باخوميوس جلست ست البيت التى يحبها، كان ذلك على غير العادة، لأنه عندنا الستات لا تجلسن على العشا مع الرجالة، وكانت تلبس فستانها المشجرّ بالأبيض والأزرق، شعرها الطويل المسترسل مع خشونة قليلة مربوط بفيونكة زرقاء من الخلف، تغطيه طرحة حرير كحلى قلأبة اللون، تنزلق على كتفيها وترفعها ثانية، بين كل لقمة وأخرى تقريباً.

أما أنا فقد تصورت مارينا بجانب أختها، رقيقةً ومشعّة بجمال لا

يوصف، هي الوحيدة التي تلبس فستاناً أفرنجياً عاري الذراعين وشعرها مكشوف، تأكل بهدوء وصمت كأنها لا تأكل على الإطلاق.

أمام الأنبا باخوميوس من الناحية الأخرى ميساك أفندي وقد خلع اللبس الأفرنجي ورحرح في الزعبوط الجملي اللون، الخفيف المريح، ولف على رأسه الشال الأبيض الحرير، ولكنه مع هذه الأناقة البيتية صموت، قلق العينين، لا يكاد يرفع وجهه عن الأكل ومع ذلك لا يكاد يأكل شيئاً، وبجانبه مرقص في الجلابية الشاهي السمني والملفعة البيضاء حول عنقه، مازال قادراً على الضحك والحكاوي عن مستأجريه الحاج عوض العشماوي والمقدس صديق بشاي وأولاد عمدة ساقلته على واسماعيل وشاهين وعن لعبة الكوتشينة التي كسبها في نادي الموظفين بسوهاج، من الأستاذ توفيق خاطر وكيل النيابة الذي دفع خمسة قروش صاغ بحالها، صاغراً يكاتم غيظة تحت سمة السماحة وأنه رجل سبورت.

أبونا فيليبوس بجانب الأنبا باخوميوس من الناحية الأخرى، كأنه هو يحوط عليه ويرعاه، لكنه شمر ذراعي الجبة وكان يأكل بشهية ويقطع نسيرة ضخمة من صدر ذكر البط يثني عليها بلقمة كبيرة يغمسها في الملوخية ويرفعها إلى فمه تشر بالسائل كثيف القوام.

ميساك كان قد أغلق الصيدلية باكراً وجاء إلى البيت يسهر معهم ويرحب بضيفه الكبير الذي لم يكن ينزل من الدير إلا على فترات متباعدة. كان قد دخل المطبخ على غير عادته يسأل هل انتهى إعداد العشاء أم لايزال.

قالت سالومة إنها لم تر زوجها قلقاً على العشاء كما كان ليلتها، قالت بتردد: كأنما كان قلبه يحس بأن مصيبة سوف تقع.

في هذا الفجر الغريب حكى مرقص أنه لاحظ سهوم ميساك وشروده فقال له:

- يوه ياميساك ياخوى وكل مرتك مش لادد عليك إياك، ما تمد أيدك عاد دانت فى بيتك يا خوى.

قال مرقص:

- لكن الراجل اتلط وسكت سكت، تجولش وزة مكمججة جاعده جوين عبه، حاطط بوزه فى الوكل من غير ما ياكل واصل.

مازالت كلمات أبونا متياس تتردد فى روحى وهو يهمس خافت الصوت جداً، بترانيم عرفت بعد ذلك أنها مستلهمة من أشعيا النبى ومن غيره أيضاً، كأنه يقول بلسانى إلى الحبيبة الصغيرة التى كبرت بعد ذلك، وأصبح اسمها رامة، وظلت معى حتى آخر العمر:

«قومى اهتفى فى الليل، فى أول الهزيع. اسكبى قلبك كمياه قبالة وجه الحبيب. سيجى قلبك بحجارة منحوتة من روحه، لا تجعلى قلبك خراباً لأنه لو كان هناك ما هو أسوأ من اليد المخضبة بالدماء فهو القلب المتحجر، لأنه يجب تنقية داخل الكأس أولاً حتى يكون خارجها نقياً».

قلت: هل أستطيع أن أجعل طريقى فى الحق؟ أم فى الشعر - الحق؟ لأن الشياطين أيضاً تؤمن ولكنها تقشعر.

أجعل فى إيمانى خلاصاً لى. لكن الإيمان يتزعزع. وإن لم يكن له أعمال فهو ميت فى ذاته.

وكذلك الحب ●

الفصل الرابع
سالومة

سقطت سالومة من سطح البيت.

جاءنا الخبر فجأة، هكذا تأتي كل الأخبار المشئومة، روّعنا وخلع قلوبنا

هل جاء به اسطفانوس أخوها الصغير أم روماني سايس الاصطبل عند مرقص أفندى؟

لا أذكر الآن، إنما لا أنسى قط صدمة الخبر، ووجه الرسول الغامض في ذاكرتي، عندما جاء به إلينا، في عتمة بيت مرقص أفندى، عكس نور الشارع المتوهج. لم أكن أتبين وجهه تماماً، إلا أنه شاحب جداً سمرته الصعيدية تضرب إلى دُكنة باهتة، وهو يدخل علينا، مُرهقاً، وعلى أن وجهه قد غاضت منه الدماء إلا أنه يلمع في العتمة الخفيفة.

في عزّ ظهر بؤونه، والحرّ يُلهب البلد ويحط عليها بثقله الرازح المعتاد الذى لا يطاق مع ذلك.

كانت الست فوتنة في المطبخ، والأولاد عند زوجة أخيها مارتا، يلعبون مع أولادها هارون وموسى وأخنوخ وحنه وهيلانة ومتياس، لأن المسامحة الصيفية كانت قد بدأت.

وكنت قد جئت مع مرقص أفندى إلى بيته أستروح شيئاً من الطراوة والظلّ في دهليز بيته الطويل الذى تضرب فيه تيارات هواء بحرية منصبّة من الحوش الداخلي الواسع الذى تطل عليه العلّية. ولعلني أيضاً كنت أريد أن ألتقط شيئاً من أخبار مارينا، فقد كنت أعرف أن مرقص أفندى ذهب في الصباح إلى بيت الدكتور ميساك، في أباهور. لم يكن يترك يوماً - تقريباً - دون أن يلّم بسالومة امرأة ابن عمه ميساك،

وخاصة أن اليوم كان يوم غسيل الغلّة الذى تأخر طويلاً بعد أن جُمعت وذُرّيت وشوّنت وحان الآن أوان غسيلها قبل أن توضع فى صوامعها على سطح البيت، ويغلق عليها بجواليص الطين الجافة. ولذلك جاء مرقص أفندى باثنين ثلاثة من فلاحيه يساعدون ورسانه العجوز التى عند سالومة، ورجع إلى بيته ليراجع حساب الأنفار.

جلست على إحدى الشلّت التى كان قطنها قد انسفط وتلبد قليلاً من طول فَرْشتها على الحصير المنعش الذى يغطى أرض الدهليز المدموكة، كل صيف، بعد أن ترفع الأكلمة السيوطى بانتهاء موسم البرد فى أمشير أو برمهات.

دخل مرقص أفندى إلى المطبخ، جُوّه، ورجع، وجلس متنهداً على شلْتة بجانبى، وفتح «أهرام» أمس، ورمقنى بنظرة وأنا مازلت أنهج قليلاً من الحرّ ومشوار السكة من درب بطة وشارع الكاشف إلى درب الظنى.

قال لى مرقص أفندى:

– ريع كدة وهدّى خاطرك يابن خالى. شاى خالتك فوتنه بالنعنع توّه جاى، ما أنا عارف إنه بيلدّ عليك الساعة دى.

كان يحب أن يغور عميقاً – إلى حد ما – فى لغوته الصعيدية، مع إتقانه التام للهجة المصراوية عندما ينزل القاهرة لنهو أشغاله أو زيارة حبايبه فى كلوت بيه ووش البركه، ع الماشى، فى السكة.

عندما سمع الخبر رأيت وجهه يُمتقع، وكأنما فَقَد نصف وزنه، كأنما غارت عيناه إلى داخل محجريهما، وانخسف خدّاه وبرز عظم الوجه كأنما تعرّى من اللحم.

نهض واقفاً، وخرج من البيت، دون كلمة.

حكت لى مارينا إنها كانت على سطح البيت، ساعة غسيل الغلة، وكانت الشمس حامية حتى فى أول الضحى، حتى قبل أن تحترق السماء بنار الظهر.

كان الحصير قد امتد على طول السطح كله، صُبت عليه الغلة من شوالاتها فثار غبارها الخفيف ثم استقر، واشتغل الفلاحون ومعهم ورسانه وزميلاتها على فَرش حبَات الغلة بحيث لا تحجب الحبوب بعضها بعضاً ولا تترك فراغات في وسطها وإنما تنبسط على شكل مستوٍ ممهد، مازالت متربة قليلاً ومازال يعلق بها بعض القش الخفيف المتطاير في الشمس في حلقات وتعاريج ملتوية يخترقها نور الشمس الذى تزداد حموته.

كان الفلاحون قد ملأوا الزير الضخم والقصاع الغويطة والجرادل والصفائح النظيفة من ماء النيل مباشرة، يصعدون الآن بالجرادل والصفائح، في نشاط بهيج، يسكبون الماء بحرص ودقة وترتيب على الغلة فتلتمع في الشمس بلونٍ ذهبيَ خمريَ فاتح لا مثيل لبهاء نضرته، كأنها فصوص صغيرة متألقة من معدنٍ حيّ ثمين.

قالت لى مارينا إن الماء كان ينسكب من آخر السطح على سلالم البيت الحجرية القديمة، وقد اغبّر لونه قليلاً من التراب وينسال في مرسوب صغير على السلالم، ينزل إلى الحُوش حتى يصل، في بركة صغيرة إلى قائمتى المرجيحة المنصوبة في دِرا السلَم، أمام الفجوة الكبيرة في الحائط الشرقي.

قالت: رأيت فجأة أن الماء قد تحول إلى دم، والمسيح الحيّ، دم، قانى اللون، كثيف القوام، يسقط بثقل على السلالم وينزلق عليها ولا يترك عليها أدنى أثر. لم أصدق عينيّ، خُفت أن أنطق بكلمة، كان الدم نذيراً، وعرفت في قلبي بغموض أن مصيبة ستحدث. ثم انزاحت الغاشية وعاد الماء متربا مغبرّ اللون كالعادة ينسرب على درجات السلم ويتجمع في بركته الصغيرة تحت سفحه، في آخر الحوش.

سقطت مياه عدن العذبة على جسم الفادى دماً يغسل الخطيئة الأصلية بالدم تحبلين يا امرأة ينهمر دم خصوبتك في مواقيته وبالدم تموتين.

فى عشية غسيل الغلّة تعثر مرقص، وهو فى طريقه إلى أباهور، بجثة المهرة الصغيرة التى تحبها سالومة.

كانت مضروبة على يسار عنقها ضربة سكين عميقة وعريضة، بركة الدم تحيط برأسها الجميل مفتوح العينين مطبق الفم، مطروحاً على الأرض أمام بيته.

وفى الصبح، عندما جاء بالفلاحين ليغسلوا الغلة، رأى على حائط بيت الدكتور ميساك علامة الأصابع الخمسة مصبوغة بالدم على شمال الباب، ولم يقل لسالومة أنه رأى هذه الأمارة التى لا تخيب.

هو أيضاً - الرجل الذى لا تهزه الخطوب الجسام - خفق قلبه لكنه نفى النذير عن روحه وأمكن له أن ينساه.

قالت لى مارينا إنها حضرت غسيل جثمان أختها، وإنها رأت على أسفل بطنها علامة أصابع خمسة مصبوغة بالدم، وأن كل مياه الغسل وكل الدعْك بالليفة الحمراء والصابون الممسّك لم تستطع، كلها، أن تزيل العلامة، كأنها صُبغت بوشمٍ لا يزول.

قلت ثمن اشتهاء الجسد فادح. لماذا وصمة المرأة لا تزول بينما الجانى لا يلحقه عوار؟

كانت سالومة، عندما تأتى إلى بيت بنت عمَها فوتنه، فى درب الظنىَ، تجد فى زيارتها وفى تحبُبها الصادق الحقيقى لزوجة حبيبها، نوعاُ من لذة الانتصار الخفىَ لا يشاركها فيها أحد، رقصة صعبة منفرْدة.

وعندئذ كانت تطلب من رومانى أن يُخرج لها مهرتها - المهرة التى تحبها وتسميها باسمها الخاص عندها «ماجدولينا»، فيأتى بها إلى الحوش البحرى الكبير، عندما تراها ماجدولينا تحمحم من الفرح فتعطيها قطعة من السكر تحملها معها من أباهور.

وكان رومانى يأخذ المهرة لغاية رقعة الأَرض المخضوضرة بالعشب الطرى تحت مئذنة الجامع على رأس الشارع، وتطل عليها سالومة، من

فُرجة الباب، كأنها معها فى المرعى الممرع الخصيب.

منمنمة المهرة والمئذنة والأرض اليانعة، والعشق المغدور. سالومة عارية في قبضة الحب والشهوة عريها اللدن المنطلق فى جموح الجرى على أرض محرّمة تحدٍ لمقتلها الوشيك الذى كانت تعرف، في صميمها، أنّ لابدّ مدركها، عريها دحض لانقطاع الجسد وانصهار بظَهر مرنٍ قوى العضل بلا سرج ولا لجام، انكشافها للضوء سُفُور للحياة من أقنعة الزمت الثقيلة واطّراح للحُجُب التى تحجز دماء دفّاقةً بالعرامة والحرارة المحرقة. بعريها تتوحد مع عرى الكون كله فى حبها حيث ران القمع القديم منذ عشرين قرناً منذ سقط الآلهة القدامى. تضرب سطوة الكبت وتشتهى الحرية وتنالها ولعلها تشتهيها أكثر مما تشتهى الذكورة.

ماجدولينا المتمردة عارية الجموح قضمت الحبل الذى ربطها به رومانى فى الوتد القائم أمام اصطبل مرقص أفندى، وعلى عكس الجوادين الآخرِين لم تكن ماجدولينا قد رُوضت تماماً، لم تكن تتعرف على أحد، أو تطمئن إلى أحد، حتى لو كان مرقص أفندى نفسه، باستثناءٍ واحد وحيد هو سالومة.

هل كانت سالومة هى التى أرخت من وثاقها، وأتاحت لها أن تقضم ذلك الجزء المتحلّل الضعيف من الحبل الموثقة به؟ أم كانت أسنانها القوية ورأسها المحنى حتى آخر عزمه هى التى فكّت إسارها؟

انطلقت من درب الظنَى إلى درب أشعيا، تقتحم السويقة الكبيرة وترمح بجانب جبّانة الأقباط، تمضى فى شوارع أخميم كالعاصفة الهوجاء، تخطف من أمام الشونة وتحت مبنى المركز أمام حديقته المروية بعناية، تحت الجوامع والكنائس والبيوت تحس ثقل فارسها على ظَهرها العريان من غير سرجٍ ولا لجام ظهرها الأسيل المتسرح الذى يتخايل على بشرته الناعمة، من الآن، وهْم علامة الأصابع الخمسة المغموسة بدمائها هى، كأن فى تضحيتها بحياتها - قسراً وعُنوة - قرباناً لما هو يفوق

القدسي ويخترق الطابو، دون أدنى مبالاة ولا عناء، لأنه قربانٌ لما هو اسمى وأذهبُ في أجواز المُطلق من كل طابو، ما الشرّ هنا؟ وما الحرام؟ الحب كالموت يغفر بل يكرس كل فعلٍ من أفعال الشهوة وكل نزعةٍ إيروسية، هي الآن كائن واحد يتحدى وينتصر على قانون الفناء، كائن متحد مع مطلق القدسية دون أن تقوم بينه وبين جوهر الكينونة نفسه حدود أو سطوح خارجية تحدد الجزئي وتفصله عن الكليّ غير المسمىّ حيث يفقد كل شئ هويته ليندمج فيما هو غير الموصوف غير القابل للوصف غير القابل للمعرفة.

هى نفسها ماجدولينا الجموح عارية الظهر لا يكبحها شئ عن أن تذرع حقول الروح الكثيفة بالزروع المُحيية والسامّة على السواء، تكاد تسمع في حنجرتها نفسها صهيل المهرة تتردد أصداؤها في العالمين، حتى وصلت إلى الطريق المفضى إلى النيل، حوافرها تثير زوابع صغيرة متلاحقة من التراب والهباء وهى تصهل صهيل الفرح بالحرية، مياه عينيها مشتعلتان بنارٍ داخلية لا انطفاء لها حتى بعد أن سقطت وانحط رأسها الشامخ الفخور على الأرض أمام الاصطبل، مطعونة مغدورة. وفى فجر اليوم الذى ذبحت فيه ماجدولينا، وعلى هذا السطح الذى قيل إنها سقطت منه رأت سالومة رأسها في طبقٍ ملتهب في عين الشمس، شعلة نار متقدة في مياه عينيها النقية.

قالت له مارينا إنها وحدها مع أمها كيريا وورسانة التي كانت سالومة تحبها، هن اللاتى حضرن تغسيل جثة سالومة، قالت إنه في هذا الطقس الذى بدأ في الصمت، على نور شموع مهتزة، بين سحابات بخور متصاعدة من المنقد الفخار الصغير، رأت مارينا كدمات زرقاء صغيرة وكبيرة على بشرة أختها السمراء الناعمة وعلى وجهها وذراعيها وساقيها وجنبها، وعلى يسار عنقها، وحتى بطنها الذى

انطبعت أسفله علامة الأصابع الخمسة الدامية. وعندما سألت أمها كيريا عنها قالت لها:

- هذه يا بنيتي علامات الموت. تظهر بعد أن يخرج السرّ الإلهي من أسره.

سمعتها مارينا تقول بهمس موجوع:

- شَندلوك يا بنيتي شَندلوك ياضيَ عيني، ياما وعَيتك ياسالومة. الجَدَر مكتوب ما منه مهروب. يادلِي ياتعتيري ياحشا جَلْبي... آه..

ياصبيَة تململي مالك   والفرش والديوان ماشالك
أروح للفحَار أجُول له   شعر الصبية م التراب لمَه
أروح للفحَار وأوصَيه   وجه الصبيه من التراب غطيه

كانت تعدد عليها بهمس مبحوح مكتوم مرنّم، فلما بدأت ورسانة ترنم معها بالعديد الحزين، زعَت فيها كيريا أن تتلطَ وتسكت سَكْتْ، فلم تستطع أن تخالف أمر الست الكبيرة، أنهتْ همهمتها، وصمتت

صمتت كيريا فجأة، وعاد إلى وجهها المغضن بتجاعيد الزمن العميقة صرامته المعتادة، كيريا صاحبة الكلمة المسموعة والسطوة النافذة التي لا أحد في العائلة أو خارج العائلة يجرؤ أن يقف في وجهها، حتى مرقص أفندى بكل ما له من سلطان، يقف أمامها خاشعاً ومطيعاً، كيريا التي لم يرها أحدٌ محنية القامة ولم تزايلها جهامتها وصلابتها لحظةً واحدة، رأتها مارينا - قالتْ لي - تتدحرج من عينيها دموع نزرة شحيحة صامتة من غير شهقة واحدة ولا اهتزاز النشيج. هل رأت مارينا فعلاً هذه الدموع، وهل سمعت حقاً هذه المرثية الوجيزة التي هي كل ما نالته سالومة من رثاء؟

قالت لي مارينا بحكمة وواقعية كاملةٍ حتى في صباها المبكر إن زواج أختها من الدكتور ميساك كان زواج مصلحة، حتى لو كان الدكتور ميساك قد أحبها، بعد ذلك، حتى الموت، قالت «حتى الموت»

قالت إن الزواج عندنا فى الصعيد ليس إلا عملية عائلية لا علاقة للحب به، انظر شفيق ابن عمتك ديماريس، هو الوسيم الغنى المتعلم تزوج من فيبيا الخدُوم الممصوصة العاطلة من كل جمال لأنها واسعة الثراء بنت يعقوب سدراك المنقبادى صاحب أكبر أرضٍ عندنا، وانظر زواج منة بنت عمى زكرى وأخى صموئيل، ما الحب هنا ومالنا. ع الأصل دوَر، قالت أم: العريس وخالته وعمته هن اللائى يحسمن الأمر، يستوثقن من العروسة ومقدرتها على أن تأتى له بأولاد وبنات، سعة حوضها، وصلابة أسنانها وقوة صدرها، ثم يأتى بعد ذلك الاتفاق على مسائل الفلوس والأراضى والبيوت.

قالت مارينا: عندما كنت صغيرة جداً شاهدت كيف أعدَوا أختى سالومة لعريسها، جاءت ورسانه ومعها مسعودة ومعزوزة وحنينة، ومعهن طحين الغلة والماء المروَق وقبضة من الصمغ العربى، عجنوها ووضعوا العجينة على الكانون فى الحوش، أوقدوا تحتها ناراً هادئة، ودعكوا جسمها كله بالعجين، وتركوها ياجى ساعة كِده، ثم فركوا جسمها بالردَة، ورأيته بكل جزء فيه، كله، واعى لى؟ ناعماً أملس وردىَ اللون على سَماره، حمَوها بالماء الساخن والصابون الممسك وحنَوها، يديها وقدميها وجانب صدرها برسوم ونقوش لها شكل ورق العنب وعناقيد الكروم.

بعد الإكليل فى الكنيسة لم تذهب أختى إلى بيت عمَى سيداروس فى أخميم، جاء ميساك إلى بيتنا فى أباهور. كانت أمى كيريا من السطوة بحيث فرضت عليه أمرها، وقبل دون كبير معارضة أن ينضوى تحت سقف بيتنا. أنا أظن أنه كان يموت فيها حباً، بعد الزواج، ومع حبه لها، وبسبب حبه لها كان ضعيفاً معها... ضعيفاً.

وقالت لى إن أخاها صموئيل أفندى كان يحب سالومة أختى حباً شديداً، وكان لا يترك يوماً أو يومين حتى يأتى لزيارتنا، وكان لا

يستريح إلى مرقص أفندى ومجيئه عندنا .

قالت لى إن أخاها صموئيل أفندى ترك مكتبه فى المركز ، يومها ، وعبر إلى أباهور . لم تره يدخل البيت - كانت تذاكر فى غرفتها بالدور العلوى ، دروس الثقافة العامة التى سوف تؤدى امتحانها . لكنها رأت حماره الأبيض مربوطاً أمام الباب ، وبعد قليل سمعت من عمق البيت ، تحت ، أصواتاً غريبة لم تدرك معناها ولا مأتاها ، كارتطام جسم صلب بشئ لدن ، وما خيل إليها أنه أنين مكتوم لا يكاد يُسمع ، خُيل إليها أنها سمعت أصوات شهقات أولهاث حادّ كأنما هو ممن جاء يجرى من شوط سحيق ، ينهج ويزفر فى إيقاع متناغم مع ارتطام الضربات التى تتسارع وتتلاحق ويعنُف إيقاعها ثم ساد فجأة صمت عميق ، هو صمت كل الحواس معاً ، فلم تصدّق إنها سمعت هذه الأصوات وتوهّمت إن الحرّ والمذاكرة قد هيّئا لها تلك الخيالات ، قالت إنها أحست كما لو كانت تذوب فى هذا الصمت ، ويتحلل كيانها ، وسقطت فى نومٍ مُطبق لم تصحُ منه إلا على صعودها لمشاهدة غسيل الغلة على السطح ، وما خيل إليها مرة أخرى - بل رأته رأى العين - من الدم المتسرب على السلم ، لكنها لم تر سالومة أختها ، واستغربت يومها أنها لم تصبّح عليها ولم تسأل عنها ، حتى جاءها الخبر أن سالومة سقطت من سطح البيت .

قالت مارينا : لم أرها تصعد السطح ولم أسمع لها حِساً بعد أن غادر أخى صموئيل البيت .

قلت أبوح بما فى روحى لأخى فى الدم مصطفى اسحاق قاسم :

- صموئيل المكسور ، باشكاتب حسابات المركز ، زوج منّه الغريب ، لا يملك أن يرتفع إلى ذرى الحيوية وعنف الجسدانية عند زوجته منّه ، كأنما امتصت عنه كل عصارات الرجولة ، وتركته جافاً مصوّحاً لا مُنّة فيه . لم أره إلا لماماً ، وراعنى أنه يحدّق إلى أخته سالومة بما يكاد يشبه

الشبق المكتوم بالكاد، كان يتتبعها بنظره أينما تحركت، يقيس بنظره النهم جسمها المشوق من وراء فستان البيت الخفيف الذى لا تتحرج منا فيه، نحن أهل العائلة، تقويرته الواسعة تكشف عن صدرٍ وثير وافر لا يحجزه ولا يحمله شئ، يترجرج مليئاً بحرية، ومع أنه أولد زوجته منّه خمسة أولاد وبنات، آخرهم أبانوب الصغير، إلا أنه يكاد يكون قَريناً لأخته سالومة، وفيه شبهٌ ما من أخته الصغيرة مارينا، وهو على الأغلب صموتٌ هادئ مستكن خفيض الصوت إذا تكلم وفى صوته غُنّة خفيفة، بشرة وجهه تميل إلى البياض، على النقيض تماماً فى كل ذلك من أخيه الكبير، الأنبا تاوضروس المقاتل، شاهق القامة ضخم البنيان الذى صوته الأجش يصدر عن عمق داخلى كأنه بئر لا قرار لها، وهو الذى حلَّ محل الأنبا باخوميوس بعد رحيل الشيخ الطيب الذى كان يحنو على أختهم سالومة ويأتى إلى بيتها، ويضمها إلى صدره الناحل الضاوى وهى تنحنى أمامه فى فستانها هذا الخفيف المفتوح، ولكن طرحتها على رأسها، تقبل يده النحيفة التى تكاد تكون شفافة، ينكشف صدرها الجميل لحظة ثم تعتدل بسرعة وتأنس إلى حضن الشيخ الجليل لحظة، كما كانت تأنس فى طفولتها إلى حضن أبيها المعلّم اسطفانوس الكبير.

هل ضربها صموئيل بيديه، بكفه المفتوحة. بأصابعه الخمسة، بقبضة يده المتجمعة كالمطرقة الحيّة الصلبة، حتى الموت، فى عنف ما تصوره دفاعاً عن شرفه المثلوم، فى غضبٍ تفجّر فجأة على حكايتها التى لا يجهر بها أحد مع مرقص أفندى، فى عصف شهوة مُحَرّمة غير مدركة وغير مبرّرة؟ أم أن ذلك كله من أوهام مارينا القلِقة المراهقة وخيالات جسدها المتوفز الذى نضج مبكراً وتدفق بحيويةٍ تخترق الحدود؟

قالت لى مارينا: بعد أن خرج أخى صموئيل، وعاد إلى أخميم على

حماره الأبيض الذى وجدت أنه اختفى فجأة من أمام باب البيت، عندما ألقيت نظرة من نافذة غرفتي العلوية وأنا أذاكر، أحسست أن أخى الصغير أبادير قد جاء، كان يوم غسيل الغلة للعائلة كلها يوماً يحرصون فيه على المجئ عندنا، السطح واسع وكبير ومفروش بالحصير النظيف، صحيح أنه من الناحية الغربية المطلّة على الزريبة ليس له سور، ولكن السور بارتفاع نصف قامة الرجل يحيط بالسطح من الجهات الأخرى، مما يجعله مناسباً جداً لغسيل محصول الغلة قبل تشوينها فى الصوامع.

قالت: كنت أذاكر فى غرفتي بالدور الثانى- ألم أقل لك؟ - وسمعت صوت أبادير يسلّم على أختى سالومة، يصبّح عليها يعنى، ولم أسمع ردها، أحسست أنه دخل عليها فى غرفة النوم، كانت تعزه كثيراً، كان أصغر أخواتها «الرجال» لأن اسطفانوس صاحبك لا تؤاخذنى يعنى، مازال فى عداد الصبيان، وهو أصغر منك كثيراً فى العقل والفهم يعنى. وكان أخى أبادير يحبها جداً، كأنها أمه كيريا، أو أقرب، لأن كيريا كانت ومازال بعيدة عنا جداً.

أقول لك الحق أنا دائماً لا أستريح إلى أخى أبادير، نحن فوق رأس أحدنا الآخر كما يقال، لكنى دائماً أخاف من نوبات العنف التى تجتاحه فيفقد فيها التحكم على نفسه، رأيته مرة ونحن صغار يضرب كلّبة كانت عندنا - كلبة ضخمة وقوية - كأنه مجنون، يضربها بقبضتى يديه معاً، يرفعها من أرجلها ويهبدها على الأرض لا يترك لها فرصة، بكل شراستها وأنيابها الحادة المكشوفة، ضغط على فكّيها بيديه وأغلقهما، كان عمره ١٢ أو ١٣ سنة يمكن، فيه قوة جمَل. ظل يضرب الكلبة يرفعها ويخبط بها الأرض ويرفعها من جديد حتى فرفرت وماتت بين يديه وعندها ضحك ضحكة غريبة ثاقبة حادة ليست كضحك الصبيان أو الرجال، رفيعة مسنونة كحد سكين،

سمعتها - هُيئ لي أنني سمعتها - عندما خرج من بيتنا، يومها، في عزَ الظهر. قالوا بعدها: سالومة سقطت من السطح.

قالت مارينا، ساهمة، عيناها الجميلتان الخضراوان ثابتتان في أفق بعيد: أخي أباديرِ يكره ابن عمي مرقص كُره العمي. ولا يحب الرُهبان، كلهم. ولم تزد.

دم العشق مباح

جسد العشق مستباح

قلت: ارتطام اليد العظميّة بالجسد اللدن الطرى، وأنا فتىً يافع مسيطر في بيتنا، في غيط العنب، لأنني الولد ولأنني الأكبر. تصورت أن عايدة لم تسمع الكلام تأخرت عليَّ وهي تحضر لي القميص من المكوجي، غابت في الشارع أطول بكثير مما ينبغي وهي تشترى احتياجات البيت من البقال، لمحت ولداً من أولاد الشارع يرفع بصره إلى بلكونتنا وهي تطلّ منها، كانت ضرباتي عنيفة وغير رحيمة، كان حس يدى المبسوطة بالصفع على وجهها أو على جسمها تنصبَ فيه غضبات وشهوات صبيانية غير مفسّرة، وكان امتثالها للضرب وخضوعها له يثيرني أكثر فيزداد هياج اللطمات، وهي لا تكاد ترفع ذراعيها تحجب وجهها المكدوم من الآن، ترفع إليّ عينين واسعتين دامعتين فيهما عتب الحب ولا أثر فيهما للكره أو الغضب أو التمرد، وعندما ماتت بالتيفود في العام التالي بعد عودتنا من أخميم بكيتها كما لم أبكِ أحداً في حياتي ومازلت أبكيها الآن.

ما من قيمةٍ ولا معنى ولا جدوى لهذه الدموع.

استطعت أن أروى لصديقي مصطفى قاسم إسحاق ما كنت أحسه مُهيناً وعميق الجرح وغير قابل لأن يُروى.

قلت له، كأنني أتطهّر:

- في يومٍ بعد الظهر، في غبريال، كنت أمشي معها إلى بيت خالي

يونان، مررنا بدُحديرة الفخرانية المتربة حيث كانت تظهر لى المادونا كل صباح. كنا ننحدر لأن الأرض وعرة ونحن نضحك، اعترضتنا جماعة من صبية الحتة، وقفوا أمامنا واحتاطوا بنا، قال أكبرهم جسماً بصوت خشن أجشَ لم يكد ينكسر بعد : «أنتو ماتجوش هنا تانى، سامع ياواد أنت، مش عايزين مسخرة». قبل أن أردَ عليه بالقول أو بالفعل، وكانوا قد ضيقوا علينا الحلقة، أحسست الصفعة على وجهى. لا أنسى لذع الإهانة ولا ألم الضربة، رفعت يدىَ أحاول أن أهجم أو أن أدافع، وإذ بأيدٍ كثيرة عنيفة، كلها شرَ تدفعنى إلى الأمام حتى كدت أتدحرج على الربوة الترابية. قال زعيمهم : «ياللا من هنا.. امشوا.. امشى بقولك. اتكَل» واستداروا راجعين واختفوا قبل أن أقول أو أفعل شيئاً. هل كنت قادراً على أن أردَ الضربة بالضرب حتى لو نالنى منهم أكبر الأذى؟ سؤال لا أعرف إجابته.

قال مصطفى: لا ضرورة حتى، أن تعرف الإجابة.

«كل جسدٍ قد أُفسد طريقه، لأن الجسد ضعيف».. «يشتهى بقوةٍ ضد الروح».

لا، بل قوة الروح فى شهوة الجسد النازعة نحو المستحيل.

هل الرجل يحب المرأة كما يحب جسده نفسه، أم أن حبَه المرأة يتجاوز حبَه جسده، إلى تلك التخوم الغامضة حيث اللامرئىَ اللامحسوس الماثل مع ذلك بحضور لا غلاب له، بذلك وحده لا يعود الإنسان، كما قيل فى الكتب، عشباً، ولا يسقط كل مجده كزهرة العشب، بل تزدهر زهرته الوحشية فيما يظن أنها أرض الأبد.

«ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض وأن كل أفكار قلبه إنما هى شرَ كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض».

أليس الشر من صنعه أيضاً؟

أما أنا فأقف فى نوعٍ من الجمود الذى يكاد يكون مصدره تصورٌ

مثالىَ، أقف فى نوعٍ من الخوف، أجهد أن أكسره باستمرار، أمام اندفاعات النفس واختراقاتها. أرى الحقد حقيقةً وأنكره، أرى الكذب حقيقةً وأُنكره، الشرَ حقيقة كيف أنكره؟ لماذا أتوجس منه وهو فى كل شئ وفى كل مكان، فىَ، فى عمقى، قبل أن يكون فى أىَ أحد. اللامبالاة - على أى حال - بآلام الغير أو بمصائرهم من أضخم الحقائق. حدود الأنا الضيقة حدودٌ قاطعة وسامقة الارتفاع. أثارةٌ منها نواة لا تنكسر حتى فى روح باخوميوس الطيب الجليل وأغابيوس المحب للبشر. حقائق فى الفعل الذى يُصنع وفى الكلمة التى تقال.

ما من شئٍ يغلب الشرَ، ما من شئ يغلب العنف الأعمى، والحقد والكذب والأنا.

لا الإيمان

ولا المحبة

الحب - مع ذلك - لا ينزل أبداً عن مغالبة الشرَ.

أهو حقاً - الحب - بلا جدوى؟

أما الإيمان فهو ملاذٌ أمين، فقط

وهل الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة؟ لأن ذلك نهاية كل إنسان؟ ولكن ما قبل النهاية هو الذى يُعتد به..

وهل حق أن الحزن خير من الضحك، لأنه إذا كان بكآبة الروح يصلح القلب، فليس من الحق أن قلب الجُهَال فى بيت الفرح، لأن حكمة الحزن لا مفرَ منها على أى حال. فلماذا نخرب النفس؟ لماذا نسلم أمرنا للشر؟ لماذا نموت فى غير الوقت؟

ألم تقل الكتب: ارم خبزك على وجه المياه تجده بعد أيام كثيرة، اقتن الفهم ولا تقتن أفكاراً شريرة؟ أو حاولْ على الأقل إذا استطعت.

أما مراحم الأشرار فقاسية

أحق أن سراج الأشرار ينطفى؟ أم أن ناره الشرسة لا تغيض؟

أصحيح أن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس الذى يحكم الخير والشر؟ أم أن ذلك القانون مُنتهك حتى من قبل أن يُخطَ؟

ليس فى الأيام الأخيرة فقط بل فى كل الأيام أزمنة صعبة حيث الناس بلا خير، يفتقدون النزاهة وهم شرسون محبون للذات. فهل حقٌ أن كنوز الشرَ لا تنفع. يجوز فى النفس سيفٌ قاطع لا برء له فى هذا الخواء الذى لا يقطنه أحد.

لأنه ما الحدَ - حقاً - بين التحرر الحسى والتحلل؟ أثمَ فرق على الإطلاق؟ هل التحلل يعنى فى نهاية الأمر انحلال الجسم والروح فى عناقٍ مع الآخر على عتبة وهم الخلود وتحطيم الحواجز والذوبان فى جوهر الكون - وهو جوهرٌ فى صميمه عرضىٌ عابر وزائل كزهرة العشب؟ أليس العنف من أول حقائق الوجود؟ أليس العنف من صميم الشبق؟ فى فعل الدخول الجسدىَ اقتحام لاشك فى عنفه، حتى مع التفتح والرضا، وفيه أيضاً تجاوز لمحدودية الذات ونشوةٌ أكبر بكثير من مجرد التذاذٍ حسىَ مقضى عليه بالانقضاء.

أما التبريرات والمعاذير والتحفظات والتفسيرات الأخلاقية والسيكلوجية فلا معنى لها هنا، لأن الصدق العارى الخشن الخام أكثر دماثة وأمانة من كل زمْت. وإذا كنا نعيش بالظفر والناب فى غابة هذه الحياة المزدحمة بالشر والعنف فلنقل ذلك - كما أقوله الآن - ولكن هل أطمح أن أنظر إلى ماوراء التكالب والهبْش والنهْش؟

الجثث البديعة بمخالبها المسنونة فاتحةٌ أفواهها لقُبل الحنان مرة، ولقُبل يهوذا التى تبيعها بعشرين فضة مرات ومرات، حوافرها مشقوقة ومتيبسة قد ثبتت بأرضٍ إلكترونيّة ذات فولت عالٍ يتكهرب به وينصعق حس أيادى الحدب والرقة الروحية، أثداءٌ من الصلب لا يصدأ وأذرعة مبتورة من كابلات الأسلاك الغليظة، مشدودة متوترة بطاقةٍ

قاتلة تتشابك مع البطن المخسوف الطرىَ الذى لا مناعة فيه أتوبيس يمد خطمه الأسود ينفث رائحة نفاذة إلى التجويف المبلول المفتوح ينبض نبضات متواترة تحت هذا البطن اللدن الذى أفرغ من حشاه الرأس مكعَب الحوافَ مخروطىَ كأقماع السكر زمان وأقماع الكوكلوكس كلان زمان والآن على السواء، رهبان محاكم التفتيش يقضون بالموت وفقاً لفقههم الذى يُعطب ويلوث صفاء الشبق الكثيف الدفاق بالحياة وسكرات الروح المحلقة فى أجواز سماء الوهم القائم العنيد.

رقصةٌ يشارك فيها مين إله أخميم إله الجنون والشبق مع القرد منتصب القضيب مرتدياً عباءته الأرجوانية القدسية مع بيث القزم المهرج المعابث مفتوح الشدقين عن ابتسامة لا تنطفئ يرفرف عليهم روح إيبيس طائر تحوت المقدس بينما أوقع بإمضاءٍ هو صورة طبق الأصل من إمضاء أبى المستطيل البيضاوى مستديراً على نفسه يخترقه خط الأنا ويحصر اللؤلؤة الثمينة فى صدفة محارة لن تنفضَ أوقع بإمضائى على سركى استلام خبز المهاجرين، ستة أرغفة لكلٍ منا، فى مبنى المركز أمام الكاتب الذى يعمل تحت رئاسة صموئيل أفندى باشكاتب الحسابات وقد دبت الحياة فى الأوشابتى الفيروزية لامعة العيون التى ترمق كسوتى بيجامتى المقلمة بخطوط حريرية عريضة. لم أكن أخشى أن أرتديها فى حضرة الحكومة ولا فى حضرة الآلهة بينما السيقان والأذرع البشرية مطروحة فى الهوة السحيقة التى تحول دونى والنيل الإلهى الضارب بعرامة الفيضان فى أمواج شهوة لا تنتهى.

نشرت مجلة «مصر» فى ١٦ نوفمبر ١٩٨٩ أن تيودورا سوريال معوض ٢٥ شارع درب الخط القبلى بالشرابية غادرت منزلها الشهر الماضى. إن صادفك مقابلتها تعال بها إلى أسرتها لتدخل الفرحة إلى قلوبهم المعذبة، تيودورا، عطية الله، أسلمت طريقها للمجهول فهل كان الحب الجسدىَ فقط هو الذى حفزها أم عشقٌ إلهىَ رمى بها إلى

بعيد عن بيتها ؟ كانت تنظر إليَّ بعينيها العميقتين بحزن، بشوقٍ غير مفسر، وقد انسدل شعرها الوحيّ الكثيف على جبهتها حتى قارب أن يغطي عينيها ويسقط بغدائرة الثقيلة على جانبي وجهها النضير الطفليّ تقريباً، أيقونة قديمة لامرأة انطلقت بتمردٍ وراء قداسةٍ ليست فقط من الجسد لا يُدرك أحد مدى تطلّبها وسطوتها.

ماذا قال المركيز دى ساد العظيم:

- ليس ثَمَّ فاسقٌ عربيد ولو كان قد قطع شوطاً ضئيلاً في مسيرة الفجور إلا ويعرف أى سحرٍ يوقعه فعل القتل على الحواس

فهل مسيرة الفجور النهائي الحق تنشعب أو تتصل بمسيرة هذه القداسة؟ مسيرة إيقاع فعل القتل؟

قال أيضاً:

- ما من وسيلةٍ لمعرفة الموت خيراً من أن تربط بينه وبين صورة من صور الفجور.

تيودورا عطيّته ورهينته هل راحت قرباناً لهذه القداسة؟

وهل راحت سالومة الصعيدية الأخميمية - وهى من قبيلة عابدات القمر وآلهاته: حتحور عشتار أنانا رامة إيزه والمريمات - قرباناً لإيروس الذى هو سليل مين في عهود مصر الحيّة العريقة؟ شهوة الحياة تبلغ حداً من العرامة إلى درجة القبول بالموت - القبول بالقتل - بل إلى درجة متاخمة القتل وطلبه.

عنف هذه الشهوة نفسها، حتى لو وقع القتل، كما لابدّ أن يقع، إنما هو نفيٌ للموت، ليس في حدود المجاز اللغوى، بل في ساحةٍ تقع وراء المجاز النصيّ الذى أفعله الآن، كما تقع وراء ساحة الواقع الذى استنمنا إليه وركنا إلى مألوفه المريح.

سوهاج فى ٢٣ مايو ١٩٣٧

حضرة عمنا المحترم الخواجا قلدس قلاده   أدامه الله

بعد التحية والاحترام نرجو أن تكونوا مع العائلة بكل صحة وسلامة.

بمزيد الشكر تسلمت خطابكم الرقيق المؤرخ ٢٥ أبريل ١٩٣٧ وأننا نشكركم لعواطفكم النبيلة وتشجيعكم الأبوى سائلين القدير أن يلهمكم الصبر والعزاء وأن يدبر أموركم حسب مشيئته تعالى.

من طيه إيصال رقم ٢٠ بمبلغ جنيه واحد قيمة المبلغ الذى تكرمتم بقبول التبرع به وسداده لبناء الفسقية بأخميم فى بحر شهر مايو نرجو التكرم بإرساله والله يعوضكم ويجازيكم خيراً.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام،

المخلص

عطا الله غطاس

هُوَ - نجع حمادى   المجد لله في الأعالي   توماس عبد المسيح وأخيه المقدس عباس

تحريراً فى ٧ ديسمبر ١٩٣٨   تجار بيض وطيور ومسلى

حضرة المحترم الخواجه قلدس قلاده

بعد السلام أعرفك إنشأالله تكون بكل صحة جيدة ثم نعرفكم من مدة أوعدتونا عن إرسال مطلوبنا ولغاية الآن لم تحضر منكم نقدية وانشأالله يكون المانع خير فأرجوكم بوصول خطابنا طرفكم ترسلو لنا مطلوبنا ولم تحوجونا للحضور طرفكم وكفاية صبرنا لغاية الآن والإنسان مننا لما ينطلع على أحوالكم كأنكم طمعانين فى بتاع الناس وأيضاً كأنكم موش عايزين تعاملو أحد تانى شئ موش كويس لصالحكم فأرجوكم إرسال مطلوبنا خوفاً من الزعل فى المستقبل والسلام

عباس عبد المسيح

محرر بـ ١٨ ديسمبر ١٩٣٨ بسوهاج

حضرة أخونا العزيز المحترم الفاضل قلدس أفندى قلاده محترم

من بعد مزيد السلام على حضرتكم وتقديم واجبات التحية والاحترام، عزيزى الفاضل عند حضورى قد بلغنى الخبر المحزن المكدر بوفات فقيدنا العزيز الذى لا كان ينتظر أننا نسمع هذا الخبر فى وجودنا على الدنيا ولكن ما باليد حيلة ونطلب من السيد المسيح بأن يلهمكم الصبر ويلهمنا أيضاً والله يقويكم على هذا المصاب الشديد آمين. وأنى أعرف حضرتكم أنى قد خرجت يوم عيد رمضان ومنذ وقت حضورى وأنا مريض وهذا سبب التأخير والحمد لله فهذا اليومين متقدم فأرجو بوصوله يفادنا عن صحتكم لأجل الاطمئنان عليكم مع مزيد سلامى لحضرات الأنجال والست قرينتكم خصوصاً ولدنا العزيز ابنكم الغالى وأشقاه وأرجو لحضرة الأخ بأن ترسلوا السرير الموجود بطرفكم تعلّق ولدنا فاخر أفندى لأنه ورد منه جواب يعرف فيه بأنه لم يرسل لأحد باستلامه لا للسيد ولا خلافه فأرجو غاية الرجا إرساله إذا كان بطرفكم أو بطرف أى شخص بإسكندرية والله يعطيكم الصحة ويبارك فيكم آمين وأنى منتظر الرد وحضور السرير برجوع البوسطة ومنى لحضرتكم تقديم غاية الاحترام وحضرت الست أم كامل تهديكم السلام وابننا كامل أفندى ودمتم سالمين بعون السيد المسيح آمين.

العنوان: غالى قلاده نجع أبو شجره بحرى سوهاج

أخوك

غالى قلادة

هُوَ – نجع حمادى المجد لله فى الأعالى توماس عبد المسيح
وأخيه المقدس عباس

تحريراً فى ١٤ يناير ١٩٣٩ تجار بيض وطيور ومسلى

حضرة المحترم والدنا قلدس قلاده

بعد السلام أعرفك أننا استلمنا جوابكم وفهمنا بما فيه ونحن نشكر الله على تمام صحتكم ونحن إنشألله سنحضر طرفكم بعد مضىَ عشرون يوماً لأجل عمل الشئ الذى عرفناك عنه وأيضا أنتم إنشألله فى بحر هذه المدة تكونو استلمتم الشئ الذى فهمتونا عنه لأجل عمل كل شئ يكون موافق ثم ياوالدنا أنه أيام وجودنا طرفكم فى منزل محمود أفندى يس وكيل عبد الحميد أفندى غنيم المحامى فهوًا المذكور محمود أفندى كان حلَف لنا على يدكم يوم ٤ منه وقال لنا وشرفى وأولادى ورحمة والدى أنه يوم الجمعة الموافق ٦ منه نرسل لكم قيمة رسم البروتستو الذى لم قدمه للمحكمة ونحن اتكلنا على الله وعليكم وصدقنا كلامه وانتظرنا المبلغ وللآن لم تحضر منه جوابات بالمرة فأرجوكم ياوالدنا أنه تتوجه له لأجل ما يرسل المبلغ قيمة رسم البرتستو المقدم ضد هريدى عبد الواحد وأخيه سليمان ونحن منتظرين الرد حالاً بفروغ الصبر ويبقى لكم الشكر ضرورى والسلام

ابنكم

عباس عبد المسيح

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد إبراهيم على وولده محمد

تجار مسلى وعسل وغلال بفرشوط

المحل يشتغل فى جميع أصناف الحبوب والأرز والبصل والعسل والمسلى البلدى المضمون بالجملة والقطاعى

تلغرافيا : «أحمد إبراهيم»

فرشوط فى ٣ يناير ١٩٣٩

حضرة المحترم الخواجا قلدس قلاده

بعد السلام والتحية : وبعد أعرف حضرتكم سبق قد حررنا لكم جملة خطابات بخصوص إرسال النقدية مطلوبنا طرفكم ولغاية الآن قد انتظرنا ورود النقدية من حضرتكم فلم تصلنا، وهذا لم يفقد آملنا فيكم ذلك ولا كنا نود منكم هذا التأخير بحيث أن البضاعة مرسلة إليكم من مدة طويلة : فعليه حررت هذا لحضرتكم بوصوله إليكم أرجو إرسال النقدية مطلوبنا طرفكم حوالة بالبوسته حسب وعدكم لنا ونؤمل عدم التأخير بحيث عندنا عذر، وأفيدكم عن أسعار المسلى البلدى الجاموسى النقى بضاعة جديدة ومستوية بسعر القنطار الواحد مبلغ ٤٢٥ أربعمائة وخمسة وعشرون قرشاً وصال لمحطة القبارى وهذا السعر إكراماً لخاطركم بالموافقة شرفونا عند اللازم لحضرتك وتجدنا مستعدين لطلباتكم هذا ما لزم عرفناكم وختاماً اقبلو سلامنا ودمتم

فى آخر ذلك الصيف الحافل الغريب وبعد عودتى من أسيوط حيث أديت امتحان ملحق الثقافة العامة فى الجبر والهندسة جمعتنى جلسة طويلة مع ابن عمى أبونا أغابيوس.

كان قد شرب معى، بإلحاحٍ شديد منى، كأساً من عرقى البلح الذى قطّره شفيق أفندى فى حوش بيتهم.

كنا وحدنا فى تلك الليلة الدافئة المقمرة من أواخر مسرى، على عتبة بيت مرقص أفندى فى درب الظنىّ، نتحدث أو نصمت دون قيود، ولعل كأس عرقى البلح قد أسهم فى فكّ عقدة لسانه، أو لعلها رغبة مكنونة فى أن يبوح بما يثقل صدره ولا يستطيع أن يقوله إلا لمثلى – قريب حميم وغريب وافد سوف يترك البلد وشيكاً، فى الوقت نفسه.

قال أغابيوس :

- فليسامحني الربّ، كنت أريد أن يصل التخفّف بي إلى الحدّ الذى يتيح لي أن أتكلم معك وأن أفضّ ما أغلقت عليه نفسي. وليس ما أقوله لك جاءني عن طريق سرّ الاعتراف، حاشالله، بل حكاه لي الدكتور ميساك عندما أتي إلى هنا، في بيت أخي مرقص، دامع العينين وممزق الروح وهو الصيدلي المثقف الذى عرف حياة مصر عندما كان يدرس الصيدلة، بكل مباهجها وعجائبها.

قال لي ابن عمي أغابيوس إن الدكتور ميساك كان يبوح بآلامه وعذاباته لا إلى كاهن الاعتراف بل إلى ابن العم، رجل المحبة مفتوح القلب، حتى لو كان في هذه الحكاية شبه اعتراف كنسيّ غير معترف به وغير طقسيّ، وإن كان لا يقل عن طقس اعترافٍ خارج الشعائر في حرقة صدقه ولوعته.

كأنما كان يحكي لقرينه - أليس هو في صميمه يعرف أنه أخ غريمه مرقص؟ - وكأنما بذلك ربطت بينهما تلك الآصرة الغريبة التي لا توجد قط إلا بين رجلين لهما علاقة حميمة بامرأة واحدة، وكأن أغابيوس يحلّ مؤقتاً محل مرقص القرين الغريم، فهو يقول له مدفوعاً بقوةٍ في داخله لا يفهمها ولا يقرّها لكنه لا يملك لها دفعاً، فهل يريد من هذا القرين - الغريم - البديل أن يحس - هو - بمحنته، أن يفهم مدى فقدان ميساك نفسه وحبّه، أن يقدّر اللوعة التى تحرقه، كأنما إذ يفهمه ويقدّر ما هو فيه فلعله - لعله يفعل شيئاً يجعل أخاه يفصم حبه لها، أو يكفّه، أو يكتمه على الأقل، ولكن بعد فوات الأوان، ووقوع الكارثة، ماذا يمكن أن يفعل الآن أغابيوس، أو مرقص حتى؟

كان السؤال الذى يراودني - أنا - والذى قلّبت وجوهه مع أخي بالدم مصطفي قاسم اسحاق هو: هل كان ميساك هو الذى قتل زوجته سالومة، لأنه كان يعرف ما بينها وبين ابن عمه مرقص، ولأنه لم يستطع إلا أن يصب كل الحنق والغضب والإحباط على هذه المرأة التي

هي له، وليست له مع ذلك، بدلاً من أن يصبّه على غريمه؟

قال ميساك لأغابيوس في نوبة عربدة الاعتراف غير الكتسيّ بين قرينين غريمين:

«عندما دخلت البيت بعد أن أغلقت الصيدلية يومها، ناديتها فلم تردَّ. بحثت عنها وسألت عنها أختها مارينا، لم يكن أحدٌ قد رآها بعد أن زارها صموئيل أخوها.

لما دخلت غرفة النوم المغلقة المعتمة وجدتُها راقدة على السرير، ولأول مرة وجدت أنها تغطي وجهها ورأسها بطرحة الألنس التي لا ترتديها إلا في المناسبات، كان ما يبين لي من وجهها يبدو لي في العتمة متوراً وخيّل إليّ أنه داكن اللون.

أنت لا تعرف محنة الرجل الذي يحب امرأته، ويخيل إليه، ويسأل نفسه باستمرار «هل هي تحب رجلاً آخر؟» لا تقل لي إن ذلك غير مألوف عندنا في الصعيد. هذا غير صحيح، ربما كنا أحمى دماً من الآخرين. كان عذابي لا يُطاق، كنت أطيل النظر إلى ولْسُن الصغير، وأسأل نفسي بصمت وما يشبه الجنون «هذا ابني؟» أتلمس فيه ما يشبهني وأجد ملامح قريبة مني جداً، أو ما يشبهه، هو، ويخيل إليّ أن فيه أيضاً ملامح منه، وأسأل نفسي: وليم، ونجت، وديع، ونيسه، هؤلاء أولادي؟ أم فيهم عرقٌ منه؟ مهانة شديدة جديدة عندما أحتمل كل هذه الافتراضات والاحتمالات، وأظل أحبها، لا أُطيق هذه المهانة، وأنا أحتملها مع ذلك؟ لماذا؟ أقول لماذا؟ لأنني مهين، ولذلك فأنا شديد الكبرياء.

لكنها تحيطني بالحدب والحب، وتبكي. هي التي تبكي بالدموع، سالومة البريئة الفخور بنفسها، عندما تراني أتألم، لم أقل لها كلمة واحدة ولا هي قالت لي كلمة، كل شئ كان يدور في صمت ينبض بالألم. أعرف - يخيل إلي أنني أعرف - أنها تحبه، أعرف أيضاً أنها

تحبنى. أقارن نفسى به، أحس رجولتى تقوم بعناد وتثبت نفسها ثم تنحسر، أكانت حياتى معها، كلها، وأولادى منها، لاشك أنهم أولادى يالعازر، قائمة على خدعة طويلة متصلة؟»

قال لى أغابيوس: رجع ميساك فى حميا اعترافه ونادانى باسمى قبل أن أدخل الدير، ولم أراجعه.

«قال ميساك: كنت أسأل نفسى، معذباً نفسى، هل كل عاطفة أو دفقة انفعال، مهما كانت بريئة سامية مثالية، مشوبةٌ وملوثة؟ لأنها إنسانية. كل ما هو إنسانى مشوب وملوّث. هل ذلك ثمرة الخطيئة الأولى، خطيئتنا مع أمنا حواء، خطيئتنا مع أبينا آدم؟

هل كل حب جرحٌ على نَغَل؟»

استمر أغابيوس يحكى، فى نسمة الليل، وصيحة كروان تشق الصمت فجأة، وخنازير عم بقطر تمرّ من بعيد، تشمشم فى نفايات الأرض.

«قال ميساك: كنت أقرأ «آنّا كارنينا» فى روايات الجيب، وأكاد أُجن. أخرج من غرفة النوم ليلاً، حتى لا أوقظها وهى التى تعذبنى حتى الموت - وأبكى فى ظلام المندرة الخارجية، أنا ميساك سيداروس الذى أمسك فى يدى بمصائر الناس، يلجأون إلى لأنجيهم من الشدائد وأصرف لهم العلاج الناجع، أنا الذى كانت لى قصص وحكايات فى مصر، أتذكرّ أختى أجيَة، زوجته الأولى، أختى التى نهشتها الذئاب أو العربان أو نداهة الليل، وأبكى. أبكى لها وللعالم ولنفسى، بصمت، حريصاً على ألا يصدر عنى صوت. لكنها تخرج إلىّ، كلها حب ورعاية وتمسح دموعى، بصمت.

أكانت تذهب إليه؟

سمعته يناديها مرة باسمها، مجرداً، سالومة، دون أن يقول يابنت عمى، أو يا أم وليم، فى نبرة ندائه لها ما لا أخطئ فى أنه حبّ بل غرام،

وعندما شعرا بى وأنا أدخل سقط عليهما الصمت فجأة وأخذا يتشاغلان بما لا أدرى.

مرة أهداها صليباً ذهبياً من غير مناسبة، ويقول دائماً إنها فى عينيه ولا يمكن أبداً أن يفرط فيها، لماذا كان يزورها - عندما تتوعك قليلاً وبعد ولادة كل طفل من أطفالنا، بينما أنا فى الأجزاخانة، دون أن يقول لى، دون أن يعرف أحد؟ وهى كانت تحكى له عن متاعبها مع ونجت أو كيف أن ونيسه لا تسمع الكلام؟ لماذا كانت تزور فوتنه زوجته وبنت عمها دائماً فى أول كل شهر قمرى، فى منتصف المدة تماماً بين كل عادة وأخرى، حسبت المدة أنا يا لعازر، وعندما تعود - يا عارى! - كنت أتشمم ملابسها الداخلية أتصيد رائحة ذكورية، لا أصل أبداً إلى يقين. ولماذا أعطاها مُهرة من خيله، وهى التى سمتها ماجدولينا؟

كيف قبلت ذلك طوال تلك السنوات؟ كنت أنزل فى عز الليل، أطوف بشوارع أباهور المظلمة وأدور حول بيوتها المهدمة كالمجنون، أبكى كطفل، أنا الصعيدى ابن الصعيدى كيف أمكن لى ذلك.

لكنى انتقمت يا لعازر

انتقمت

طهرت إثمى وإثمها

أنت تعرف طبعاً يا أغابيوس، لا يطهر شئ، - حسب الشريعة - إلا بالدم. ما من مغفرة بغير إراقة دم ذبيحةً للرب، بالفعل أو بالرمز، هكذا استراحت أحشاء، ربنا يسوع المسيح، بعد أن سالت دماؤه على الصليب، وطهّرنا.

أحسست أن الضربة تغوص فى عمقى أنا، تمزقنى أنا، ومن فرص لذة الضربة انتصبتُ يا لعازر ياخوىْ، وفوجئت بأننى أقذف فى نوبة أورجازم من الرعب والمتعة الخالصة.

وعندما عرفت أنها همدت تماماً ولم يكن من الممكن أبداً أن

تتحرك، رأيت أن كل شئ آخر يتحرك ويتقلب، دارت بي الأرض كأنها لن تتوقف أبداً، عنف الضربة - بيدى وفى داخلي معاً - هو الذى يحرك الشمس والقمر والأفلاك جمعاء، أغابيوس، أقول لك إننى لم أكن أقرب إلى الله فى أى وقت من الأوقات كما كنت فى تلك اللحظة، ولن أكون.

لكننى لم أعرف قط، ولن أعرف أبداً، هذا الرعب الذى سقط عليّ وأسقطنى أمام سالومة، بعد موتها، وجودها، عندئذ وحتى الآن، حيّ أقوى ما تكون الحياة.

ها قد حقت علي اللعنة، حتى لو كانت هي التى شاركت بنفسها فى ميتتها بما لا يقل عن ضربتي النهائية، ضربتها هى أيضاً صنو ضربتى، مثيلتها، شريكتها، متواطئة معها.

إن كانت ضربتى على الإطلاق هى سبب نهايتها

لعلها كانت قد انتهت قبل أن أصل، لعلنى لم أفعل إلا أننى مثلتُ بها بعد أن ماتت.

لا أدرى».

هكذا انتهى اعتراف ميساك.

ها هى ذى العيون قد تآكلت وسالت مياه حدقاتها على خدود حادة العظام جارحة السنان شرائط الجذام تكسوها الشرائط الحريرية فى بيجامتى فى وضح النهار بما يشبه مزقاً من أكفان حريرية لامعة مضمخة بطيوب لا جدوى منها سحر الشوه أقوى من جاذبية التناغم المتسق ضربة حافر ماجدولينا تركت فى عظم الجبهة انخسافاً عميقاً أزرق اللون الجمجمة تمتزج فيها رقائق الصفيح وأزرار الحاسوب بلدونة عضو التفكير وصلابة عضو التذكير وفجوات ألم اللذة المبرحة سالومة السامرية منه الجدلية بغايا إيروس القدسيات كلهن عشيقاتى المرأة

الواحدة اللانهائية لا تموت لا بطعنة سكين ميساك المفترضة ولا باحتمالات صدمة قبضة يدى صموييل أبادير المشتركة هى خالدة أبدية أياً كانت مصداقية أوهام الخلود والأبدية لا بهوساتى المرغمة ولا بهوس كلماتي فقط. لا بالذكصولوجيات المرحة المرفوعة بخوراً حاراً وعطراً وحريفاً أمام هيكل الرحم المشتهى المعبود فقط، لا بأيصاليات العشق حتى الخيانة العشق حتى القتل العشق حتى القضاء على الذات، لا ليس بتلك كلها بل بقوة أكبر وأعمق من كل الجراح وكل الموسيقات العشق كاملاً فيزيقياً وماوراء الفيزيقيّ معاً، لا انفصام فيه، تشحب أمامه كل الأخلاقيات وكل المواضعات، كابوس العشق الجسدى القدسيّ الذى يفوق كل التزام وكل ضرورة، ويبدو الخير والشر أنفسهما بلا معنى، فما الفرق عندئذ بين أن تجود بروحك أو أن تقتل حبيبتك أو أن تهجرها؟ ليس الجسد أصل الخطيئة فقط بل هو أيضاً أصل القداسة، لا الجسد يشتهى ضد الروح ولا الروح يشتهى ضد الجسد، لا الحب ضد القتل ولا ضد الهجران، ولا الموت نقيض الحب. بل الخيانة هنا لا معنى لها. ولتكن الخطيئة قاتلة، بكل ما فيها من لذة، فإن البرّ الأعمق فوق الخطيئة وفوق الخيانة.

في اللحظة التى سقطت فيها سالومة أحست بنت عمها منّة، دون أن تعرف شيئاً عن الحادثة، أنها ترتعد بقوة، وأن شيئاً قد تملك جسدها، دخل فيه، وسكنه، ارتجت له أوصالها جميعاً وشعرت أن روجها قد استلت منها وأن ثم تمرداً عميقاً يهزها لا إرضاء له.

ها هى ذى سالومة قتيلة العشق قتيلة الإثم أم قتيلة الصُدفة والخلَل عند طقس غسيل الغلة؟

ماذا تصبح هى، الجميلة البريئة الطيّعة المُحبة؟

أتصبح شيئاً موضوعاً ليس فيه إلا حدوده الخارجية التى سرعان ما

سوف تتخلل ؟ كيف يمكن التصرف فى هذا الشئ ؟

أهى أداة تُستعمل، تستخدم، بشعائر التجنيز والتجهيز للدفن والإخفاء والإبعاد، لكسر رهبة الموت المخوف ؟

أم أن ثم بؤرة تظل حية أبداً فى هذا الركام تجعلها تستعصى على أن تكون أداةً بالمعنى المطلق، مهما بدا أنها لم تعد إلا شيئاً، مجرد شئ يُعد ويهيأ للتخلص منه.

حُلمها - مثل حلمنا - إرادتها الخفية - مثل إرادتنا - وإن لم يتحقق هذا الحلم أو تلك الإرادة، نبض حياتها الذى يلوح أنه كفّ وصمت، يظل يدقّ فى ظلمة روحٍ شاملة تضمها وتضمنا، أو هكذا أغنى، هكذا أتوهم، مهما سُيّر ما بقى من جسدها فى خطوطٍ مرسومة سلفاً على قضبان شعائر لا حول عنها ولا حيود.

ألهذا ركع أغابيوس، فى كنيسة أباهور القديمة، جثا يصلى بصوت خفيض، تحت التابوت، كأنما يتعبد لجثمان قديسة طهور، رفع يده وفى إصبعه الخنصر خاتم بفص الأماتيست حجر المحبة الذى كانت منه قد أهدته إياه فى الزمن القديم، كأنه يتبرك بالتابوت الذى سُجيت فيه سالومة، مطيّبة، مُضمّخةً بالعطر، على وجهها الناعم الباسم تقريباً الآن، غطاء شفاف من التُل الأبيض الخفيف وقد انحسر كل أثر للكدمات عن أديم البشرة الأسيلة، وكل أثر للطعنة الغائلة فى يسار العنق، عيناها المغمضتان تملآن الكنيسة بأشواق غير مفهومة.

سمعت أبونا أغابيوس يتضرع بصوتٍ هامس تحت التابوت:

- اغفرى لنا. سامحينا يأمى، يا أختى، يا حبيبة، سامحينا يا ست النور، نحن الخطاة، نحن الآثمون.

بينما كانت تراتيل الشماسة ترتفع تحت القبة العريقة والصنوج تصطفق فى ابتهاج تزف عروس السماء إلى الأمجاد الإلهية. أبونا

فيليبوس يهز الجمرة وهو يصدح بالترانيم، بالقبطي والعربي، ويرتفع البخور الأبيض يغشى الكنيسة والتابوت والمصلين والمعزين من عائلة الخراز وأنسابهم وجيرانهم، جالسين بخشوع على الدكك الخشبية السوداء تقريباً من القدم. محفور عليها علامة الصليب وكلمة هللويا باللغة القديمة، منهم الدكتور مير عشم الله طبيب المركز الذى وقع على شهادة الوفاة، من غير أن يكشف عليها بالطبع، رعاية لمقام عائلة الخراز في البلد وتصديقاً على كلام روماني الذى قال له إنها سقطت من على سطح البيت، وكتب في خانة سبب الوفاة: قضاءً وقدراً (وكان صادقاً) وكان ذلك منه، أيضاً رعاية للودّ الذى بينه وبين صيدليّ البلد، صديقه الدكتور ميساك، زوجها، هل هو قاتلها؟ الذى لا يكاد يحبس دموعه إذ تتقطر - رغماً عنه - على وجهه الأسمر المضروب بزرقة داكنة وشعيرات ذقنه النابتة البيضاء، ورعاية كذلك لمكانة صموئيل أفندى، أخيها، باشكاتب حسابات المركز، وقد جلس في الصف الأول، تدلت ذراعاه إلى جانبه كأنما سرى فيهما شلل مفاجئ لا يقوى على رفعهما، وقد دبّ الشيب مرة واحدة إلى ما يظهر تحت طربوشه من شعره الخشن وتسلل إلى شاربه الكث، هل هو قاتلها؟ أم هي قتيلة قَدَر فوق أفعال البشر؟ وإلى جانبه الحاج على الطحاوى والحاج عوض العشماوى والمقدس جلبي بلامون عمدة أباهور والحاج ياسين النجعاوى عمدة ساقُلته وأولاده، وفى آخر الصف الأول مرقص أفندى، صامتاً وشاحباً، خاسفاً محنى الرأس كما لم يره أحدٌ من قبل، في ملابسه البلدية، وعلى رأسه عمامة بيضاء وحول عنقه تلفيحة طويلة داكنة، يبدو كأنه منذ الآن قد دخل في أكفان موته.

على الجانب الأيسر سيدات العائلة، أمها كيريا الصامدة شامخة القامة، مِنّة ملفقة بالبردة السوداء التى انحسرت عن رأسها المحاط بالشال القطيفة الأزرق الغامق، رُفع عنها الآن حَظْر الثمانين يوماً بعد

مولد ابنها الأصغر أبانوب، ليديا أخت مرقص زوجة أبونا فيليبوس، مارتا زوجة أبونا متياس كاهن كنيسة أبو سيفين فى أخميم، وفوتنه زوجة مرقص الأمينة التى تعيش أحزاناً مدفونة فى قلبها، وبينهن كالزهرة المونقة حتى فى ملابس الحداد السوداء مارينا، بين فيبيا زوجة ابن عمتى شفيق، ورومة زوجة ابن عمتى بشارة.

ألهذا، أيضاً، عندما حملت العربة السوداء التى تجرها الخيول الستة المسدلة على ظهورها أوشحة داكنة الزرقة لها شراشيب كثيفة، وأمامها بساط الرحمة مبسوطاً يحمله من الجانبين ستة شمامسة مزينين بأوشحتهم الأرجوانية المعقودة تحت الإبط وفوق الصدر، وأنزل النعش من تحت قبة العربة المطهمة التى تعلوها تماثيل الملائكة الصغار المذهبة. ودخلوا جبانة الأقباط من البوابة الشرقية، حتى وجدوا التربة المفتوحة العميقة، ووقف أبونا متياس يتلو آيات من الإنجيل، وبدأ التُربية، بأيديهم القشفة الخشنة وملابسهم الزرقاء القصيرة ينزلون الصندوق بالحبال، ألهذا اندفع الدكتور ميساك يريد أن يرمى نفسه معها فى حفرة القبر فى اللحظة نفسها التى ارتمى فيها أخوها صموئيل على حافة التُربة يتشبث بالحبال كأنما يرفض أن تنزل إلى الحُفرة أو يريد أن يتعلق بالنعش ويسقط معه إلى غور المدفن المعتم فى هذا الظُهر المحرق بشمسه اللاهبة التى لا رحمة فيها.

بينما وقف أبادير إلى الخلف، جامد الوجه، صخرياً، لا يتحرك.

ليلتها اكتسحت العقارب البلد، سقطت من الجبل الغربى الذى انهمرت عليه فجأة سيول جارفة، قعقع الرعد فى اصطفاقٍ مروع يخلع القلوب، وهبت عاصفة متضاربة التيارات أثارت معها دوامات من الرمل والتراب وارتفعت بالحصى والحجارة الدقيقة فى وسط الرياح التى دارت بالبلد كالدوّامات، انقطع السيل فجأة إذ انحرف بعيداً عن البلد، وجاءت مع دوّامات الرياح أسراب متكاثفة مضطربة ومتصادمة من

العقارب والجعارين تلف فى الهواء وتضرب بسيقانها الدقيقة.

هبطت العاصفة بأحمالها الحية الصلبة الدقيقة المرتطمة بعضها ببعض، على حواف البلد وصفرت بين أطلال البيوت المهدّمة التى هجرها سكانها وخبطت حيطان الكنيسة وألقت أحمالها على سطوح البيوت وفى الحارات والأزقة والخرابات والشوارع الخاوية، زحفت العقارب إلى داخل البيوت والجحور تلتمس الحمى والدفء والكنّ، وحفرت الجعارين لنفسها بيوتاً فى التراب، لدغت العقارب ليلتها سبعة منهم ورسانة ولم ينج من الموت إلا ثلاثة، وشفيت ورسانة، وعادت إلى بيت الدكتور ميساك.

لم يعد أحد فى أباهور - أو فى أخميم - يقول: ليلة ماتت سالومة بل هى دائماً ليلة العقارب ●

الفصل الخامس

الملاك ميخائيل

شمس بؤونة - كالمعتاد - تفلق الحجر.

أخميم تتلظى بلهيبها المحرق، السماء صفحة من رصاص حاد الزرقة إلى حد التوهج الأبيض تقريباً.

خلت الشوارع، أغلقت البيوت أبوابها، لاذ الناس بالغرف الظليلة البحرية المكنونة المطلة على الأحواش الداخلية والمناور والمنادر التي تحميها من وقدة النار أشجار النخيل والنبق والجميز، تهب فيها نسمات فيها طراوة منعشة.

كان الأنبا تاوضروس قد نزل من الدير بعد أربعين يوماً من نياحة الأنبا باخوميوس، قضاها صائماً على الماء والخبز بقوة عزيمة لا تنضب، معتكفاً وحده فى قلايته.

اختاره البطريرك رئيساً للدير، حتى قبيل وفاة الأنبا باخوميوس، لكنه لم يتقلّد عصا الرئاسة إلا بعد رحيل سلفه، رعايةً لشيخوخته ووداعته، الآن ينزل إلى أباهور ليعزى الدكتور ميساك فى زوجته، ويتقبل العزاء هو أيضاً، فهى أخته، ويقيم قداساً إلهيّاً على روحها.

سوف يقضى الليلة فى بيت ابن عمه أبونا متياس، بجانب كنيسة أبو سيفين، على تل نسطور وسط أخميم.

كانت بغلة الأنبا تاوضروس تدبّ فى حارة القُبّة، الخالية المشتعلة بالحرّ فى عزّ الظهر، وإذا بها تقف فجأة وتحرن، تنفث من منخريها، وتحفر فى أرض الحارة بأظلافها، لا تتحرك

رأسها يرتطم بحائط عالٍ صعد فجأة إلى عنان السماء، قام سدّاً فى وسط الحارة بالضبط بين حائط البيتين المتقابلين المسدودين دون نوافذ.

رشم الأنبا تاوضروس علامة الصليب ودار بالبغلة يريد الرجوع والخروج من أى عطفة جانبية.

ما أن خطت البغلة خطوات قلائل، راجعة، حتى وقفت مرة أخرى تنفخ من منخريها فى غضب وخوف، تنبش الأرض بأرجاها المتوترة، رأسها يصطدم بالحائط نفسه الذى دار حول الأنبا تاوضروس من الجوانب الأربعة.

اختفت جدران البيوت. لم يعد هنا إلا هذا الحصار الصاعد إلى سماء لم تعد ترى، مع أن الشمس محرقة تزيغ البصر. ليس حوله إلا هذه الحيطان الأربعة المصمتة بلا أدنى ثغرة، رآها الأنبا تاوضروس تتحرك نحوه ببطء، تضيق عليه الحصار وفى نيتها الواضحة أن تُطبق عليه.

عرف رئيس الدير أن ملاك الشر يختبره، يوقعه فى محنة، ولعله يريد به شراً نهائياً: أن يتسلل الخوف إلى قلبه ويحل محل الإيمان.

رشم الأنبا تاوضروس علامة الصليب ثلاث مرات، تجمعت فيه كل قُوى العزم واليقين، على أتم الأهبة للقتال فى سبيل إيمانه.

سمع صوتاً أجش عالياً له صدىً خبيث يتردد بين الحيطان الأربعة والسقف غير المرئى الذى يحسه يهبط عليه ببطء وتصميم «أين إلهك الآن ليخلصك».

المعركة الآن قد احتدمت بينه وبين الشرير.

قال الأنبا تاوضروس:

- نحن لا نعرف إلا اسمك القدوس أجيوس أجيوس أجيوس رب السماوات والأرض أقوله يارب فلا يقوى علىّ موت الخطيئة، تضرُعى إليك وحدك يارب وصلاتى فلا تطرحها بل مدّ إلىّ يدك القوية يارب الجنود، يامللك الملوك ورب الأرباب.

كانت الجدران الصماء تهتز الآن وتترنح ويصدر عنها صوتٌ غريب كأنه صدى أنين مختنق، اخترقت أشعة الشمس ثغرات أخذت تتسع

وتزداد فى السقف غير المرئى الذى كفّ عن الهبوط.

- احفظ لنا مكاناً تحت عرشك يا قدوس، أما الخائفون والمُرجفون والخطاة الرَجسون غير التائبين فنصيبهم فى البحيرة المتقدة بنار الكبريت، نحن نصون وصاياك بالحق والاستقامة، شريعتك يارب فى وسط أحشائى وبها يكون لنا سلطان على كل قُوى الشرير.

سمع الأنبا تاوضروس أصوات انهيار وسقوط أنقاض حجرية وقعقعة مكتومة أخذت تتباعد وتخفت بالتدريج.

شدّ لجام البغلة الفارهة التى صمدت مع سيدها أمام الشرير، وأدار خطمها إلى الأمام.

كان هذا الاختبار موضوع العظة فى القداس الذى أقامه فى العشية على روح أخته الست سالومة أم وليم فى كنيسة أبو سيفين، وتمثل الأنبا تاوضروس بعد ذلك برسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكى:

- «لم نسلك بلا ترتيب بينكم ولا أكلنا خبزاً مجاناً من أحد، بل كنا نشتغل بتعبٍ وكدٍ ليلاً ونهاراً لكى لا نثقل على أحدٍ منكم، ليس أنْ لا سلطان لنا، بل لكى نعطيكم أنفسنا قدوةً حتى تتمثلوا بنا، فإننا أيضاً حين كنا عندكم أوصيناكم بهذا أنه إن كان أحدٌ لايريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً، لأننا نسمع أن قوماً يسلكون بينكم بلا ترتيب لا يشتغلون شيئاً بل هم فضوليون».

«إذا كان أحدٌ لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً».

كانت هذه رسالة رئيس الدير الجديد إلى رعيته وأهل كنيسته، كما كانت هى رسالته أيضاً إلى رهبانه الذين لعلهم على عهد الأنبا باخوميوس المتنيح قد استناموا إلى نوعٍ من الدعة والقعود عن العمل.

أسرتنى هذه الرسالة منذ تلك الفترة المبكرة «من لا يشتغل لا يأكل أيضاً» ومنها استقيت عقيدةً لازمتنى طويلاً، وقاتلتُ فى سبيلها، ولعلنى مازلت أومن بها: أن الملكية، من غير شغل وكدّ أمينٍ، الملكية

التى تقوم على استغلال الآخرين وشُغلهم، ليست إلا سرقة صريحة.

«أربعة لا أعرفها: طريق نسر فى السماوات، وطريق حيَّة على صخر، وطريق سفينة فى بحر، وطريق رجل بفتاة».

لأنه مكتوب أن للعناق وقت وللفراق وقت.

لماذا الفراق دائم لا يريم؟

كان دير الملاك ميخائيل مهجوراً، لا يفتح أبوابه إلا مرتين فى السنة فى ١٢ بؤونه و١٢ برمهات، أعياد رئيس الملائكة الذى تجلى ليشوع فى الزمن القديم قبل مجئ الفادى، وقال له: أنا رئيس جند الله وعضده ومحطم العمالقة. هو الذى أسقط مدينة أريحا فى يد أبنائها الحقيقيين بعد أن أجلى عن معظم بقاعها جند القوى الشريرة الضاربة بالعسف والاعتساف، بل هم نالوها بالشغل والكد والتضحيات الغالية.

فإذا كان هو قائد الطغمات الملائكية التسعة، الملائكة، رؤساء الملائكة. القوات، الكاروبيم، والسارافيم، العروش، الأرباب، الرئاسات، السلاطين، فهو رئيس السمائيين أصحاب الأجساد النورانية فى كل مجد أساطيرهم الأخاذة بالألباب، وإذا كان صاحب القضيب الذهبى الذى فى يده، وقد طرد إبليس وملائكته بسيفه الملتهب ناراً وهزم التنين الحية العظيمة، فلماذا سقطت الزهرة بنت الصباح؟

ولماذا اتخذ اللباس الحربىَ الذى يشى بسطوة الرعب والقمع؟

أنت أيها العظيم فى الملكوت، فى كل بهاء أسطورتك، قد نقلت أخنوخ من الأرض لئلا يعاين الموت، أمسكت بيد إبراهيم وأوقفتها بعد أن كان مزمعاً أن يذبح ابنه اسحاق، سلمت موسى لوْحىْ الشريعة عندنا هنا فى جبل سيناء، هديت فلك نوح على مياه الطوفان، ظهرت للفتيان الثلاثة وهم فى وسط النار المتقدة، جعلتها عليهم برداً وسلاماً، نقلت إيليا النبى حياً فى مركبة نارية إلى السماء، عزيت يسوع المسيح فى

نزْعه، دحرجت الحجر عن قبره، بشرت المريمات بقيامته، أنقذت بطرس من السجن، وتجليت للمؤمنين فى أخميم أيام اضطهاد دقلديانوس.

أنت تتقطر من عينيك الدموع حناناً لأهل مصر عندما تشتد محنة التحاريق وتجف الأرض الشراقى وتتشقق تربة الروح، فى ليلة ١٢ بؤونه تسقط قطرة من دموعك على النيل فتفيض مياهه وتعم مصر بالخير.

مازلنا نقيم احتفال ليلة النقطة

متى، أين تسقط قطرة الدمع الآن بعد أن روّض النيل الجبار وأرغم على أن يروى الأرض طول العام؟

مازال أهل مصر بحاجةٍ إلى الحنان والعزم.

جاء فى التداوين القديمة ما نقلته عنها إيرين السيد من أنه «فى ١٢ بؤونة كانت أوفيهرييه تحتفل بتذكار الملاك ميخائيل. وكانت زوجة لرجل تقى ويعمل الصدقات الكثيرة. وكان يهتم بثلاثة أعياد كل شهر وهى تذكار الملاك ميخائيل فى الثانى عشر وتذكار والدة الآله فى الحادى والعشرين وتذكار الميلاد المجيد فى التاسع والعشرين.. ولما دنَت وفاته أوصى زوجته بأن تحفظ هذه العادة ولا تقطع عمل الصدقات خصوصاً فى الأعياد الثلاثة. فأحضرت صورة الملاك ميخائيل وبعد وفاة زوجها ثابرت على تنفيذ وصيته، فحسدها الشيطان وأتاها فى صورة رجلٍ راهب وجعل يحدثها ويؤكد لها أنه مشفق عليها ثم أشار عليها أن تتزوج لكى ترزق أولاداً وأن تكف عن عمل الصدقات لئلا ينفد مالها. وقال لها إن زوجك قد نال الملكوت فلا يحتاج إلى صدقة فأجابته قائلة إننى قطعت على نفسى عهداً بأن لا أتزوج بعد زوجى. ولما أتى يوم عيد الملاك وجهزت كل ما يلزم كعادتها ظهر لها الشيطان فى زىّ ملاك وأعطاها السلام وأمرها أن تتزوج برجل مؤمن وأعطاها أمثلة من الكتاب المقدس مثل آبائنا إبراهيم وإسحاق فهم تزوجوا وأرضوا الله. فقالت له: إن كنت من جند الله فأين الصليب علامة جنديتك؟ فلما

سمع هذا الكلام عاد إلى شكله الأول فوثب عليها يريد أن يخنقها فاستعانت بالملاك ميخائيل صاحب العيد فخلصها في الحال. وقال لها: في مثل هذا اليوم سوف تنتقلين من هذا العالم وقد أعدّ لك الربّ ما لم تره عين ولا سمعت به أذن ولم يخطر على قلب بشر. وأعطاها السلام وصعد إلى السماء أما القديسة فبعد انتهاء العيد استدعت الأب والأسقف والكهنة وسلمت لهم أموالها لتوزيعها على المحتاجين. ثم تنيحت بسلام. صلاتها تكون معنا.

وفي أيام الملك قسطنطين وفي عهد البابا الكسندروس أخذ في وعظ الجميع مُظهراً لهم خطأ عبادة الأوثان التي لا تعقل ولا تتحرك وخطأ تقديم الذبائح لها، ثم حوّل هذا الصنم إلى كنيسة باسم الملاك ميخائيل بعد أن حطم التمثال وطلب منهم أن يذبحوا الذبائح لله الحيّ يوزعوها على الفقراء الذين دعاهم أخوته حتى يكسبوا بذلك شفاعة الملاك ميخائيل...».

ألكسندروس ألكسندروس عقيدتك دفعتك إلى تحطيم «الصنم» نعم، لعقيدتك كل الاحترام، لكن الإله كامنٌ في إهاب كل شئ، وليس التمثال إلا رمزاً، الإله كامنٌ في كل تجسُّدٍ وكل تمثلٍّ وفي كل الخيالات أياً كان اسمها آمون – رع زيوس فيراكوشا عند الإنكا نومو عند الدجون الإفريقيين اللات العزى عند عرب الجاهلية كاداكلان في الفليبيْن بوجا في سيبريا ميترا عند الفرس تنجرى عند المنغول براهما شيفا فيشنو عند الهنود وأوزير عند المصريين القدامى هاهي ذى أنقاض الوجه الرخامي النبيل بشعره المسترسل وابتسامته الخفيّة الغامضة تناثرت على أرض القيسارية ذبائح العجول المسمنة والثيران المخصية ليست أقل في عينيه من ذبائح القلب المرفوعة إليه صاحب الوجوه اللامتناهية الذي لا وجه له صاحب العرش الذي لا يحتمله موقع في الأرض والسماء أياً كانت الأرض والسماء.

في ١٢ بؤونة كان أبونا طانيوس راعي دير الملاك ميخائيل على جبل السلاموني في أخميم مريضاً محموماً يرقد في بيت أبونا متياس كاهن كنيسة أبو سيفين، تنفضه الحمى ورعدة المرض. كان في طريقه من الدير الكبير إلى دير الملاك ميخائيل ليفتحه ويستقبل زواره في العيد لكنه سقط مريضاً، وأخذت الست مارتا أم هارون تتولى تمريضه بما في يديها من وسائل فقيرة لا فعالية لها إلا بالإيمان والصلاة، تضع على رأسه وجبهته كمادات الخل والماء البارد تأخذها من تحت الزير بعد أن تذوب فيه قطع الثلج من اللوح الكبير الذى يشبه الزجاج والذى جاء به روماني من القهوة التي جنب المركز، وتعطيه من أجزاخانة الدكتور ميساك، كل أربع ساعات حبة الأسبرو الذى كان في تلك السنة قد ظهر حديثاً وأغرق الأسواق ونشرت عنه في الأهرام والمصور إعلانات تنسب إليه أعاجيب الشفاء.

في ذلك الوقت كان يصعد الجبل ماشياً على قدميه يتوكأ عصاً من فرع جميز عتيق منحوت جيداً ولامع من كثرة الاستعمال، رجلٌ أشعث مغبر، عليه زعبوط حائل قديم اسمه المقدس سدره عبد المسيح، جاء من نواحي طحطا وعبر النيل من سوهاج على المعدية وبات ليلة في قرية السلاموني عند ناس طيبين استضافوه ولم يرض إلا بنصف رغيف وكوز ماء وهبوة ملح على سبيل العشاء وقال إنه غداً في العيد سيأكل من فطير الملاك ميخائيل في الدير، ومن الفجر راح يتوقل الجبل حتى وصل الدير على أول الليل، وفاءً لنذر قديم.

كان الدير صامتاً مظلماً ومهجوراً على غير العادة في ليلة العيد، راعيه أبونا طانيوس يعاني سكرات الحمى عند أبونا متياس في أخميم.

دق المقدس سدرة عبد المسيح على الباب الخشبي الضخم المصفح بأطواق من الحديد مثبتة بمسامير كبار الرؤوس، دق طويلاً دون أن يستجيب له أحد، من بعيد فجأة انفتح الباب الصغير المُعد للدخول،

في وسط البوابة الهائلة وفي عشوة الليل الهابط لم ير المقدس سدرة من فتح له الباب الصغير، وأقفله وراءه، ولمح أنوار المسارّج والشموع مشتعلة في مبنى الكنيسة وفي الهيكل الوسطاني، وجاءته أصداء الأواشى فى القداس والترانيم يشدو بها شمامسة متشحون بزنانيرهم الأرجوانية وثيابهم البيضاء الناصعة المشغولة بدانتيلا رفيعة وجاءه أبونا طانيوس ملقياً عليه السلام بالقبطية «إيرينى باسى» وردّ عليه المقدس سدره شاكراً «تيشى بيهوت» فرحب به يدعوه أن يتفضل بالدخول «آرى ايهموت» وقاده بنفسه إلى هيكل الكنيسة وشهد المقدس سدرة الأواشى الثلاثة الطويلة ورفْع البخور، تناول القربان المقدس وشرب من نبيذ الأباركة دم يسوع من يد أبونا طانيوس الذى خرج معه بعد انتهاء القداس وانصراف المصلين الذين كانوا يملأون الكنيسة، حتى باب الدير، وقطع لقمة كبيرة من سيالة فراجيته، عزم عليه أن يبات ليلته في الدير فقال المقدس سدرة أنه نذر أن يحضر قداس ليلة العيد ويعود ينزل الجبل ماشيا وأن يفعل ذلك كل سنة وأن ربنا يحفظه من الضباع والسباع والشياطين وانحنى على يد أبونا طانيوس يقبلها فكأنه مس بفمه صفحة من نور، كما قال.

نزل المقدس سدرة بسلام ووصل إلى أخميم متعباً وسعيداً بوفاء نذره السنوىّ وحوّد على بيت أبونا متياس يسلّم ويتبارك، وبعد غداء العيد كشك صعيدى ودكر وزّ معتبر قال له مضيفه:

- أبونا طانيوس جُوّه بجى لى يومين عاد، محموم ومِدَهْوِل عم بيخَرْبِطْ وسخْن تجولش جايد وجِيدْ. ربنا وحده يشفيه ويجوّمه بالسلامة يشفع لنا فيه الملاك ميخائيل.

بُهت المقدس سدرة، لم يصدّق سمعه، سأل باستغراب: أبونا طانيوس؟

قال له أبونا متياس: ربنا معاه بَجى .

قال المقدس سدرة : يابتَاى . . أبونا طانيوس؟ راهب دير الملاك؟

– إيوه عاد . أمال بجولَك إيه

– بلا جَهْرَمة يابونا . . أنا مهَمّلْ أبونا طانيوس فوجْ ، فى الدير ، حاضر معاه الجُداس ، ومعاه الشمامسة كلاَتهم كليلة والشعب مالى الكنيسة ، وخدت منه الجُرْبانه ، وإتدليت على طول .

– بسم الأب والابن والروح الجُدس ، الله يباركك يا مجدّس ويديم بركته عليك صلَ يا مجدَس من أجلى واجل بيتى ، ملاك الربَ بذات نفسه فتح لك ديره وخَدْ صورة أبونا طانيوس ، ولافاك جُربانته ، المجد للرب «يعلو الرب على جميع الخلائق مسكنه نورٌ لا يُدنى منه» .

(هكذا تمضى حكايات فولكلور بلدنا ، لماذا أنظر إليها من علٍ؟ بل أنا خاشع أمامها حتى إن كنت لا أعيرها لحظة واحدة مصداقيةً بالمعنى المألوف ، لها عندى مصداقية على مستوى آخر ، غير مطروقٍ وغير عادى ، لا أستهين بها ولا أنكر أن لها حقيقة أخرى تتجاوز حقائق كل يوم) .

فى طريق عودة المقدس سدرة إلى سوهاج ، كانت الدنيا قد مَسَت عليه ، غسق أخميم قد فرش على الطريق المترب الخاوى ، وهو يدبَ عليه مهرولاً يريد أن يلحق آخر معدية قبل أن يحط عليه الليل ، سمع إلى يمينه فى غيطان الذرة الكثيفة متلبدة العيدان بعضها ببعض ما يشبه الأنين ولكنه يختلف عنه بشكلٍ ما وعندما اقترب قليلاً فى نور الغسق المخايل الساكن كأنه عتمة خفيفة ، لمح ما خيل إليه إنه كيان أو حيوان واحد ، له أربعة سيقان مضطربة متشابكة أو أربع أذرع متحاضنة تحيط بظهر منسرح انزاحت عنه أكداس جلاليب وزعابيط وقمصان وألبسة طويلة مغبرة البياض وملوّنة ، وعندما رأى الثعبان الطويل المتلوى ينسل على تراب الطريق متجهاً إلى هذا الكيان لم يجرؤ أن يهتف محذراً ولكن المَلَك انساب على الأرض دون مبالاة ودخل فى غيط الذرة ، وظهر

أحد شقي هذا الكيان عارياً خلواً من أية كثافة أنثوية ارتفاع الردفين تحت الشق العلوى من هذا الكيان يبدو كأنه برئ وعقيم ليست فيه خصوبة بينما يصدر عن الجانب العلوى الملتصق بالشق السفلى صوت كأنه زحير متتابع.

ومرة واحدة لمح عم سدرة ذلك الكلب الأسود الضخم الرابض على مقربة من هذا الكيان المتقلب الفوّار بعنف الدفع والسحب والزحير والأنين، زَامَ الحيوان بصوت يتردد من جوف الصدر العميق، خفيض لكنه محذّر بل منذر فيه تهديد شرير لن تكون فيه رحمة، تهديد آتٍ من عالم سفليّ، أحس سدرة الصلب العنيد أن قوة طاغية تدفع به إلى ناحية الترعة كأنما تريد أن ترميه فيها، جاهد يقاومها مسرعاً خطاه بل أوشك أن يجرى، يخبّ في زعبوطه ويجر مركوبه في قدميه القشفتين اللتين من غير شراب، ليخرج من دائرة ضغطٍ لا قِبل له به، لينفذ بجلده من رعب جذاب وطارد معاً.

رأس خُنوم الكبش الفخرانى الخلاق القديم يلوح له مرةً على جسم آنوب ابن آوى حارس المملكة السفلية سيد القبور، ومرةً على جسدٍ عارٍ منسرح الظهر محتشد الردفين يئن أنين اللذة المحرّمة على تراب غيط الذرة متواشج الشواشي التى تنوس بنسمة الغسق المنعشة لها وشيش ناشف وخشخشة نباتية وحيوانية معاً.

تحريراً بالزربى فى ١٠ مايو ١٩٤١

حضرة الفاضل المحترم والدى العزيز قلدس قلاده

بعد السلام والسؤال عن صحتكم جميعاً وخصوصاً الست والدتنا وأخى العزيز والباشا والبنات فرداً فرداً، والذى تجدنا مشغولين جداً لأننا أرسلنا لحضرتك خطابين بطلب وصول الطرحة والفستان ولم يصلنا الردّ فلعل المانع يكون خيراً فأرجوك بمجرد وصول هذا لديكم أن

ترسل لنا الردّ برجوع البوستة ومن عندنا نادية وفوزية وجدَتهم يهدوك مزيد السلام ست أم خليل تهديك السلام وكذلك الست سوسن ومنى إليك الف سلام.

بنتك

عزيزة قلدس

٢٠ مايو ١٩٤١

حضرة والدى العزيز المحترم قلدس أفندى الأفخم

سلام المحبة والإخلاص نهديه لكم ولعموم أفراد العائلة فرداً فرداً.

وصلنا جواب حضرتكم رقم ١٣ الجارى ونحن نحمد الله جداً جداً لأنه دائماً يحمى شعبه من الأخطار المحدقة بهم ونسأله تعالى أن يحميكم من كل شر ويحافظ عليكم من الأخطار ويكفيكم شر الغارات ليلاً نهاراً.

طبعاً نسأل عن حضورك فى كل وقت لكى نراك ونحظى برؤياك لأنك أنت نصيبنا فى الحياة ومادمت أنت بخير فنحن بخير وهذا ما نتمناه لكم على الدوام.

أخوالى كلهم بخير ويودون أن يروك كذلك جدتى أم خليل بخير وتود أن تراك ودائماً تسأل عنك أما من جهتى فأنا لا ينقصنى إلا مشاهدتك.

أنا فى حاجة إلى جزمة سوداء مقاس ٤٠ حشمة لأنى بعد وفاة المرحوم اشتريت جزمة وطلعت كوتش وأنا محتاجة الجزمة من مدة وكنت عاوزة أبعث لك عليها ولكنى مكسوفة جداً فلامؤاخذة ياوالدى إذا كنت أطلب منك هذه الطلبات لأنى إذا كنت لا أطلبها من والدى الحنون أطلبها من مين ولولا تشديدك فى كل جواب عن طلباتى لما طلبت شئ - سلامى للبنات. سلامى للست خالتى سوسن وإلى أخى الباشا

ولعموم الأنجال وكل من يسأل عنا وأسأل الله أن يسعدك فى الأنجال ويطوّل في عمرك.

وتفضلوا حضرتكم بقبول تحياتي

ابنتك

عزيزة

١٩٤١/١١/٢٤

حضرة والدى المحترم الخواجة قلدس

وصلني جواب حضرتكم في الوقت الذى كنا نذكركم والغريب أننا معكم دائماً إن لم يكن بالجسم فنحن معكم بالروح والقلب.

نحن هنا بخير ولا ينقصنا إلا مشاهدتكم وطلعتكم البهية.

نعم مضى مدة ولم نكتب لكم لأجل البنات كانوا رامين الحصبة والآن الحمد لله صحتهم جيدة.

مادمت أنت موجود ياوالدى فأنا مبسوطة بصرف النظر عن الماديات لأن وجودك على الدنيا أمامي هو كل شئ حماك الله وأبقاك لنا ذخراً.

كن مطمئن من جهتنا الله يحرسك لنا سلامى لإخوانى وأخواتى الأعزاء ولعل الباشا أخذ الشهادة لكى نطمئن عليه الله يطمنا عليكم.

جدتى تهديك ألف ألف سلام وأخوالي وأزواجهم يهدوك ألف سلام والجميع هنا يشتاقون عليكم جداً.

بنتك

عزيزة قلدس

أختى التى لم أرها قط، ولا أعرف لها الآن أثراً. كتب لى ابنها خطاباً من سنورس الفيوم، لم أجب عليه، وانقطعت بيننا الصلات.

عزيزة بنت أبى الذى أحبها كثيراً، لاشك، هل انقضى ذلك الحب، ومضى، كما ينقضى ويمضى كل حب؟ أم أن كل حب يبقى، أبد الدهر،

إن كان لأبد الدهر معنى؟

تقلبتُ بحب أبى الأدوار والمواقع.

هل اندثر هذا الحب، أم هو باقٍ لا يريم، مثلَ حبى؟

من أخميم حيث كان صرّاف المالية فى أواخر القرن التاسع عشر، وحيث أحب وتزوج الست فكتورية سدرة بساده الخراز المولودة فى ٩ ديسمبر ١٨٨٩، توفيت فى ٦ أبريل ١٩١٣ ببندر أخميم، أنجبت له أمين ولده البكر يوم الأحد أول أكتوبر ١٩١١ الساعة الثالثة والنصف صباحاً ومقيد باسم أمين فوزى ابن قلدس قلاده الخراز ابن الست فكتورية سدرة، وولدت له أيضاً برنز فى ١٢ مارس ١٩١٣ فلم تعش إلا حتى ٢٨ يوليو ١٩١٥. رحلت عنه الست فكتورية حبيبته وزوجته الأولى، وأم ابنه البكر، فلم يطق البقاء فى أخميم التى - كأنما - خانته وأفقدته حبّه.

جاء إلى الفيوم يشتغل بتجارة البيض والمسلى - كما كان يسمى عندئذ - والبصل والحبوب، وفيها يوم الأحد ٩ يناير ١٩١٦ تزوج بالست تفيده مخايل وتمّ الإكليل بمدينة الفيوم وهى مولودة بناحية الزربى فَيَوم يوم ١٢ يونيه ١٨٩٧. لكنها - كما كتب ذلك كله بخطه الواضح الجميل العتيق ذى التدويرات والذؤابات الذى يقع بين الرقعة والفارسى والذى سجل به الزيجات والمواليد والوفيات فى طوايا الكتاب المقدس الذى ورثتُه عنه - «توفيت بإسكندرية ليلة الأربع ١٤ يوليو ١٩٢٠ الساعة الواحدة إلا ربع بعد نصف الليل، ودفنت بالإسكندرية عليها رحمة الله» بعد أن ولدت له يوم الخميس ٢٢ مارس ١٩١٧ الساعة الواحدة بعد الظهر عزيزة، وجاءت له بفؤاد يوم الخميس أيضاً أول أبريل ١٩٢٠ بإسكندرية الذى توفى يوم ٢١ أغسطس ١٩٢٠ بالفيوم ودفن بالزربى، لم يكد يكمل خمسة شهور، بعد شهر وأيام قلائل من موت والدته الست تفيده.

يالها من أيام وليالٍ وسنوات عاصفة بالحب والموت.

كانت تجارته قد ازدهرت في غمار سنوات الحرب العالمية الأولى، حتى جاء إلى الإسكندرية التي كانت عاصمة التجارة وثغر مصر المتفتح على الرخاء وميناء البحر المتوسط الأولى في ذلك الحين.

لكنه ترك في الفيوم - الزرابي - بنته عزيزة التي لم أعرفها قط، لعل أمي كانت تكرهها أو تغار منها أو تخشى أن يضيع أبي فلوسه عليها، من يعرف أوكار القلب الخفية وما تخبئه من كائنات غير مرئية؟

عندما توفيت عنه زوجته الثانية كان صعيدياً فحلاً في عنفوان رجولته الناضجة، تجارته مع الأهالي والخواجات ناجحة تدر عليه ربحاً كبيراً، وقع بصره - بالصدفة - على تلك البنت التي كان عمرها عندئذ ربما ثلاثة عشر عاماً أو أقل، تلعب السيجة في شارع الرند في غيط العنب، تنط على التراب من مربع إلى مربع فيرتفع فستانها القصير عن ساقين بيضاوين مخروطتين، فذهب إلى جدي ساويرس بلا تردد، وخطبها إلى نفسه وتزوجها في يوم الخميس ٢٢ مايو ١٩٢٢ وعُمل الأكليل في غيط العنب، وأولدها ثلاثة صبيان وخمسة بنات أو أكثر، تشبثوا بالحياة لم يبق منهم فيما عداى إلا أختان، كثيرون اخترمهم الموت صغاراً جداً، أو أجهضتهم أمي في أسابيع الحمل الأولى سنة بعد سنة أو كل سنتين، تقفز من على السرير وتتدحرج على الأرض وتضرب بطنها، رأيت بعض هذا السقط مُضَغاً دامية لا قوام لها، كانت تلفها في قطع من القماش وتقذف بها في مفارق شوارع غيط العنب، وفي الأيام الأولى كانت هذه المضغة مجرد دمٍ متخثر فيه عُقد لا لون لها كانت ترميها بلا مبالاة في فتحة دورة المياه بنفس سرف الحياة وعطائها المتجدد بثقةٍ لا تخيب.

في ١٠ يوليو ١٩٤١ تلقيت من أبي ما في هذا الخطاب، ونحن في أخميم:

«ولدى العزيز .... وصلني جوابكم وتطمنت على غالي صحتكم جميعاً. عزيزى نظراً لكثرة مشغوليتي لم أقابل خالك سوريال أفندى ولم أمكن التوجه لبيت أم فكرى وإنشألله بعد يومين أو ثلاثة يصلكم مني جواب بداخله نقود وفيه الكفاية وربما نشحن لكم الفرش والنحاس وكونوا من جهتي بطمان أما من جهة الراحة فأظن بدونكم لا توجد راحة بحيث لي عشرون يوماً لم قادر نغير هدومى وطبعاً ذهابى المحمودية والمبيت هناك فيه حبس حرية، الغرض بالنسبة لأكل العيش وستركم يلزمني أقاسى كل تعب ونطلب من الله فقط يحمينا وينجينا من هذه الأحوال يلزم تلتفتوا لصحتكم ولم تبخلوا على أنفسكم في المصروف وتاكلوا كويس وتعيشوا عيشة هنية لكي أكون مطمئن عليكم..

وكان ردى عليه بعد يومين من كتابة خطابه، فى يوم ١٢ يوليو ١٩٤١:

حضرة الوالد العزيز

أهديك أولاً التحيات وأصدق الأشواق والتمنيات، وأرجو أن تكون متمتعاً بالصحة وأدعو الله أن يحافظ عليكم من هذه الأيام العصيبة.

وصلنا خطابكم وعلمنا ما به، وتكدرنا لتعبكم وعدم راحتكم، ووالدتي تخبرك بأنه في قدرتك الذهاب إلى أى حمام عمومى فى الإسكندرية، وأن تضع ملابسك عند مكوجي يغسلهم.

سمعنا أن حبيب سعد تاجر البيض مات فى الغارات فهل هذا صحيح؟ نرجو أن تخبرنا عن حالة عم مرقس أبو فوزى؟

نريد عنوان الست أم فكرى ضرورى

كيف حال خالى ولماذا لا يقابلك؟

مفاتيح البيت هل سلمتهم لأحد أم مازالوا معك؟

أخبرنا عن حالة الشغل عندكم وهل هو كثير لدرجة أنه دائماً يشغلك بهذه الدرجة، وهل كل يوم تسافر وتحضر فى الصباح؟

والدتى توصيك أن لا تبيت فى الإسكندرية أبداً أبداً. وربنا يحافظ عليك من مخاطر السكك والطرق. وتأكد من أننا لا نتمتع ولا ننبسط تماماً إلا بوجودك معنا ربنا لا يحرمنا منك.

فى الختام تقبل تحياتنا فرداً فرداً وأشواقنا الجزيلة.

تحياتى وأشواقى الحارة

ولدكم المحب

(إمضاء)

حاشية: إذا كنت ستحضر هنا أحضر معك أو اشحن مرتبة ومخدتين والنحاس وبلاص الجبنة أما إذا كنت لن تحضر فلا تشحن شئ لأننا لسنا فى حاجة إليه.

هل هذه الخطابات المتبادلة مجرد سردٍ لمشكلات وربما مآسٍ عائلية عادية وصغيرة، فقط؟ هل هى مجرد وثائق اجتماعية لحقبة من تاريخ بلدنا، تاريخ حقبة حرب لا شأن لنا بها إلا أننا من بعض ضحاياها؟ هل هى أيضاً تاريخ هذه العائلة من مصر، فقط؟ أم هى - فيما أرجو - صورة لحياة نفوس تجتاز مضض محنٍ روحية وجسمانية، مادية ومعنوية، كما يقال؟

أم أننى أواصل ما فعله أبى، فأُسجل - كما أستطيع - تواريخ الاقتران والافتراق والانقضاء، فى كتابٍ آخر، كما لو كنت أريد استنقاذها من قبضة نسيانٍ لا مهرب منه؟

كيف أستطيع أن أسجل حكاياته الجميلة المثيرة إذ يجلس على الشلتة أو على الكليم فى بيت شارع الرند فى غيط العنب، يصنع قهوته السادة ويطقطق الكنكة الصفراء القديمة على السبرتاية، يرعى شعلة النار الصغيرة ويضبطها، ونحن حوله، أنا وأمى وأخواتى، على أول الصبح، بعد إفطارنا على تسقيّة العيش الملدّن باللبن (أفضل من

الكورن فليكس فى آخر الأيام) ويحكى لنا، والنتفة السوداء الممسدة الطرية يمتصها تحت لسانه مع رشفات القهوة الساخنة، يقول عما قاله الإمبراطور غليوم الثانى لملك البلجيك قبل أن يعلن عليه الحرب، الحوار بين العاهلين طويل وبالتفصيل ومدعوم بالتواريخ والدوافع الخفيّة للحروب وتحركات الجيوش عبّر الحدود، أو يقول عن الراهب بحيرا فى ديره الصحراوى ببلاد الشام وكيف كان يروى بلغة عربية بليغة ومسجوعة قصص التوارة والإنجيل وحكايات الخلق ومعجزات الأنبياء ومولد المسيح من عذراء، كما يروى لنا حكاية العملية الجراحية التى أجريت له لاستئصال المصران الأعور فى أخميم، فى آخر القرن التاسع عشر، على ضوء الشموع الكبيرة، فى مندرة بيتهم الكبير على مقربة من شارع عزيزة، وهو مسجى على طاولة الفرن الخشبية والدكتور بشاى أبسخيرون الله يجدس روحى يحمّى مبضعه فى نارٍ متّقدة الفحم المتوهجة، ويطهّر أدواته ومقصاته الفضية اللامعة فى الماء المغلىّ على الكانون الذى يغذيه بالحطب الجاف النظيف أخوه المرحوم سيداروس، ماتت عارفه يا ولدى، أب الدكتور ميساك الأجزجى - وتساعد المرحوم سيداروس فى هذه اللحظات الحرجة زوجته أتينا، الله يرحم الجميع، أمّ مريوم التى ترهبنت باسم تاسونى إيرينى وصعد بها الملاك إلى السماء فى حياتها، أمّ الدكتور ميساك وهيلانة امرأة بقطر، وأم مارتا امرأة أبونا متياس، وهى أم الست أجيّة امرأة مرقص أفندى الأولانية، التى نهشت النداهة صدرها أيام زمان، وقالوا الدياية أو الغربان، ماتت فيها، ثم تزوج مرقص أفندى الست فوتنة، وحكايات أبى شائقة ولا تنتهى.

حكى لنا عن عمّه المعلم منقريوس.

والمعلم منقريوس هو أب الأنبا باخوميوس، وزكرى أفندى، والمرحوم اسطفانوس زوج الست كيريا أم سالومة.

كان المعلم منقريوس يعرف فنون الكيميا والسيميا والعرافة

والسحر الأبيض الطيّب، حدّ الله بيننا وبين السحر الأسود ياأولاد - وكانت عنده سحّارة كبيرة ملآنة بكتب القدماء، ويقال إنه كان يعرف أيضاً طرفاً من اللغة الهيروغليفية ويقرأ بعض كتاباتها المحفورة على البرابى.

كان يفتح المندل ويصنع الحجاب لما فيه الخير: للعاقر حتى تحبل وللمسجون حتى يفرج الله كربته وللمريض حتى يمنّ الله عليه بالشفاء وللولد المطاهر حتى يبرأ جرحه وللعريس ليلة دخلته حتى يبيّض الله وجهه ويهنأ بعروسته.

وفى ذات يوم من الأيام والمعلم منقريوس جالس فى أول العصرية، نسمة الطراوة بدأت تهب على شارع السويقة، وهو أمام الشونة القديمة - كانت محل الشونة التى يملكها الآن الخواجا بقطر - وكان يحاسب الفلاحين والأُجريّة، بينما الفواعلية يُدخلون تلاليس القطن والبصل إلى داخل الشونة ويرصونها، حينما جاءه رجل غريب عن البلدة يرتدى عباءة أرجوانية داكنة وعمامة بيضاء مثل التى يعتمر بها أهل الصنايع من النجارين والخراطين، ومركوباً شامياً، وفى يده اليسرى سبحة كهرمان طويلة مما يباع فى أسواق أورشليم.

الرجل الغريب الذى بدا لعينى المعلم منقريوس معروفاً وقريباً جداً، مدّ إلى المعلم منقريوس يده اليمنى، فصافحه جالساً قائماً نصف قومه، وأحس رعشة تهز جسمه كله هزاً، لحظة خاطفة، ولمح فى ظهر يده ندبة مدورة عميقة سوداء، استغرب فقط من عمقها وسوادها.

قال له الرجل الغريب: يا عم منقريوس، يا رجل يا طيّب. اعمل لى حجاباً- إذا استطعت - يسهل لى عودتى إلى موطنى، ويقرب لى موعدها.

قال له المعلم منقريوس: أهلاً وسهلاً يابوىْ، على عينى ورأسى، أريد فقط أن أعرف أول حرف من اسم الوالدة، وأول حرف من اسمك.

قال الغريب : ألف ، ياء . الألفا والأوميجا .

- وأول حرف من اسم الوالدة

- ميم

لكن المعلم منقريوس لم يفهم ، مرة أخرى .

فتح كتابه الكبير ، رسم مربعات متعاقبة ، أخرج من وراء حزامه العريض الملفوف على بطنه الدواة الصغيرة ذات البئرين ورفع الغطاء المعدني المدور عنهما ، وغمس ريشته مرةً في الحبر الأسود ومرةً في الحبر الأحمر ، وكتب فيها الحروف الألفا والأوميجا والميم بترتيب مخصوص ، وراح يضرب ويقسم ويجمع ويطرح وتتجه به الأسهم المكتوبة شمالاً وجنوباً ، شرقاً وغرباً ، فلا تصل إلى شئ ، والحجاب لا ينضبط ، المكان الذى يوجد فيه صاحب الحجاب والمكان الذى سوف يصل إليه كلاهما لا يتحدد ، المعلم منقريوس يضرب ويحسب ويعود يقرأ الكتب وينظر إلى الغريب صاحب الوجه الوسيم الوضئ بلحيةٍ منسرحة ضاربة إلى اللون الكستنائي الجميل ، والعينين النقيتين نقاءً لا يوصف ، ويرجع إلى كتبه فلا يعرف لهذا الإنسان مكاناً فى حسابات العرافة وتقاسيم الكشوف عن المحجوبات .

فجأة سطع الفهم فى روح المعلم منقريوس

وقف على رجليه - وهو الذى يقف له الناس وله القومة ، وقال :

- أنت تأتى إلى أنا العبد المسكين لكى أعرف لك متى تعود ، أنت العليم بكل شئ فى ملكوتك ، أنت لا مكان لك ياسيدى لأنك فى كل مكان ، فى الأرض وفى السماء ، فى البحار والأنهار ، على الجبال وفى الصحراوات والغيطان ، أنت تملأ علىَّ كل أماكن هذا العالم وما بعد هذا العالم ، لك المجد إلى أبد الآبدين .

نظر المعلم منقريوس إلى حيث كان الزائر يقف منذ لحظة ، فإذا مكانه هالة من النور الساطع الباهر الذى لا يُطاق النظر إليه ، عشى لها

بصره أياماً حتى عادت إليه صحوة العينين، وجاء الناس من القرى والنجوع، من قريب ومن بعيد، يتبركون به ويقبلون يده.

لعل ظهر يسوع مرتين لعائلة الخرَازين فى أخميم؟

أم أنه الإله الكامن فى كل مكان وفى قلب كل إنسان؟

وكذلك الإله - الضد.

جاءت مارينا - مع أخيها اسطفانوس الصغير إلى أخميم، تزورنا فى بيت عمتى ديماريس الذى تدخل إليه من وسعاية فى شارع الكاشف، ينفتح لك باب المندرة ثم تأتى إلى الحوش الكبير وفيه طلمبة الماء تحرك ذراعها الحديدية المقوّسة قليلاً فينصب الماء النقى من فوهتها المستطيلة، وإن كانت به أثارة من ملوحة خفيفة لا تكاد تحس، لذلك فإن ماء النيل المروّق فى الزير هو الذى نشرب منه ونطبخ به.

ومن الحوش تطلع السلالم الحجرية إلى الدور الأول، ثم يدور السلَم ويلتوى بزاوية حادة إلى الدور الثانى.

كانت مارينا تسبقنى بدرجة أو درجتين، أرفع عينى مسترقاً نظرة خاطفة إلى ساقيها تحت الفستان، يحيط بهما ذلك النور الخفيف الذى يتسلل من نسيج الفستان ويُكسب الساقين السمراوين درجةً من النورانيّة الخفية المستكنّة لا مثيل لصفائها.

فجأة توقفت مارينا على بَسطة السلّم بين الدورين، مدت يدها متحيرةً قليلاً، إلى باب خشبى صغير رأسيّ مثبت بالحائط، ضلفتاه مقفلتان بمجرد انضمامهما إحداهما إلى الأخرى، وعندما لحقتها، بروح المغامرة الصبيانية التى كانت تحفزنى فى الصبا إلى إتيان المحرّمات- ولعلها مازالت - جذبتُ بقوة إحدى الضلفتين إلى الخارج ناحيتى، وأنا أقول بسذاجة وكما هو متوقع وضروريّ أن أقول «افتح ياسمسم!» والتفتُ إلى مارينا، وجهى قريباً جداً من وجهها، ذراعى تمس بخفة

امتلاءة نهدها الصغير العفىّ، وقلت، بمرحٍ فيه توتر القُرب من جسمها، وتوتَر ارتكاب أكثر من فعل محرَمٍ صغير، أن أفتح باباً واضحٌ أنه غير مسموح لنا بفتحه، وأن أمس جسداً صبيًا فتياً كم هو محبوب مرغوب وغير مبذول، «الحمد لله، ماس، ياقوت، ذهب، كنوز على بابا، شُبيك لبيَك كنوز العالم بين إيديك..»

فاحت رائحة عطن جافّ ونفح ورق قديم مغلقٍ عليه طويلاً، وهاجمتْنا الرائحة، فلم تكن كنوز على بابا والأربعين حرامى إلا رصّة فوق كومة من كتبٍ ضخمة مجلّدة وكشاكيل كبيرة متربة، وأدوات غريبة تشبه المقصات والسكاكين الصغيرة، موضوعة كلها فى أقفاص من الجريد وقفف من الخوص علاها التراب، وتطايرت منه نفثات جعلتنا نسعل ونكحَ ونضحك - بلا سببٍ واضحٍ- ضحك الصبا الذى لا مثيل له ولا ضرورة لأن يثيره شئٌ.

ثم حبسنا، كلانا، نوبات الضحك والكحة والكلام مرةً واحدة.

أتصور أننا، كلينا، كنا نحدّق بشئ من الرعب، إلى جمجمةٍ بشريةٍ فى ركن هذا الخُنّ الملئ بالكتب، تحدّق إلينا، بدورها، بمحجرين فاغرين وابتسامةٍ عظميّه جامدة، قحفة قُبّة الرأس مدورة فيها تعريجة العظم العريضة رفيعة جداً ولكن واضحة من أثر تحجر التراب فيها.

أنفاسنا المبهورة، عندما استرددناها وشهقنا، وخرج الهواء المحبوس من صدرينا، أطارت طبقةً من التراب المتراكم على كل شئ فى الخن، فدفعتنا إلى تحويل وجهينا عن عاصفة التراب الصغيرة، نكحّ، ونسترد أنفاسنا من جديد.

عرفت على الفور أن تلك كتب سامى زكْرى منقريوس، طالب الطب النابه الأسطورىّ الذى طالما حكى لنا عنه أبى، وعمتى ديماريس، والدكتور ميساك، ومرقص أفندى جميعاً. كان متفوقاً فى دراسته فى مدرسة الطب العليا بالقصر العينى، مستقيماً مُجداً جاداً ووسيماً، كان

ابن موت كما يقال، وفى زيارة صيفية من سنين جاء إلى بيت عمتى ديماريس - كان زوجها الخواجا ديمترى أندراوس قد مات من سنين - وبعد أن غسل قدميه فى مياه الطلمبة فى الحوش، اندفع إليه من جُحر غير مرئىّ ثعبان الكوبرا - الصلّ الملكىّ - انطلق إليه كالسهم لا يحوّل عنه عينيه المدوّرتين اللامعتين، وفى لمح البصر لدغه مرة ومرتين، وعندما سقط فى الحوش من صدمة اللدغة لم ينتبه أحدٌ إلى غيابه إلا بعد أن فات أوان النجدة. كان ممدداً على تراب الحوش وقد انتفخت ساقه وازرقت، وانطبق فكّه فى تشنج الشلل، عيناه مفتوحتان على سؤالٍ لا إجابة عنه.

أما لماذا كانت كتبه وأدواته فى بيت عمتى ديماريس مقفلاً عليها، فهو سرّ لم أعرف حلّه قط، هل لأنهم لم يكونوا يطيقون أن يحتفظوا بما يذكرهم بفاجعتهم الكبيرة، فى بيت أمه الست أنجيل التى ماتت بعد رحيله بقليل، وخاصة بعد أن انتقل أخوه أبونا متياس إلى أخميم، وتزوجت أخته الست منّة وذهبت أخته فوتنه إلى بيت مرقص أفندى، ولم يبق فى البيت الكبير إلا أبونا فيليبوس وزوجته ليديا وأولاده.

كانوا يعرفون أن البيت فيه جُحر للثعبان، لم يكونوا يعرفون أين بالضبط، ولم يكونوا يجدون فى ذلك بأساً فهو بيتهم أيضاً، والثعبان فى البيت بركة وونس، ولكنهم بعد الفاجعة انطلق شباب الخرّازين ورجالهم جميعاً فى طراد الصلّ الملكىّ، لم يتركوا حَجَراً إلا قلبوه ولا ثقباً إلا سبروه، حتى عثروا عليه فقتلوه نزلوا عليه جماعةً بالشماريخ والنبابيت بقسوة الأخذ بالثأر وصرامته، ثم بحثوا عن وليفته حتى قتلوها فما كان من الممكن أن يتركوها لتنتقم له. كان ذلك من زمان.

أما الآن فقد أخذنا أحد الكتب الضخمة من فوق رصّة المراجع والكشاكيل، لم نستطع أن نقاوم الفضول، وفتحت مارينا الكتاب، بلا تورّع، وانفجرنا معاً بالضحك مرة أخرى وقد اندفعت الدماء إلى

وجهينا، رأيتها تتضرج وهى تغالب نوبة الضحك وأحسست بوجهى مشتعلاً.

كانت الصور التشريحية الملوّنة واضحة وعلمية جداً. الذكورة والأنوثة، وقد اختزلتا إلى تخطيطات ملونة دقيقة ورسوم توضيحية وكلمات باللاتينية والإنجليزية. لذلك ضحكنا، من المفاجأة، أو الخجل أو الاكتشاف.

مغامرتنا الصغيرة، وقد جلسنا على بسطة السلّم، لم تنته هنا

أدرتُ ما كان بوضوح، ظَهر صورة فوتوغرافية فى إطارها الصدئ الآن، منحوتاً بزخارف وتوريقات متشابكة، ولما سقط التراب عن زجاجها كان سامى زكرى منقريوس ينظر إلينا، من داخل الصورة البيضاوية الكبيرة، باللون السيبيا، ينظر إلينا نفس نظرة السؤال الذى لا أعرف إجابته، وشعره الناعم مفروق من الجانب الأيمن، البابيون المعقود بعناية - جاهز بلا شك من عند بنزايون فى ميدان العتبة - مربوطٌ على البماغ الصلب المحيط برقبته يضم طرفيَ الياقة المنشاة، بزرار معدنىّ مدوَّر صغير واضح تحت عقدة البابيون، القميص ناصع البياض، الجاكتة المخصرة ذات الياقة الضيقة مزررة حتى أعلى الصدر.

فى أثناء لحظة خاطفة رأيت أننى أحدّق فى صورتى وأن وجهى هناك من وراء الإطار الزجاجى المذهّب، وأننى ميّت من زمان طويل، وكانت نظرتى فيها السؤال نفسه وشئ كأنه عداوة وإنكار بل إدانة لا نقض لها.

لحظة خاطفة.

ثم عاد سامى زكرى منقريوس يحتل مكانه فى صورته.

رددت ضلفة الباب الخشبى على الخُنّ المحتشد بتركةٍ لا جدوى فيها لأحد، وارتددتُ أهمّ بنزول السلّم، أخذتْ مارينا يدى فى حركة حنوٍ طفلية وأنثوية معاً - بعد زمان طويل سوف تأخذ رامة يدى، بهذه

الحركة نفسها، وتقبلها بصمت - فقد أحسست أن ثمّ حضوراً غير مفهوم ولعله غير إنسانيّ قد مَثَل أمامي في تلك اللحظة الخاطفة، وأحسست عمق الصدمة والرعب المكتوم معاً أمام ذلك المثول.

ثم نزلنا السلالم جرياً نطارد أحدنا الآخر، ونضحك دون أن نملك للضحك رداً، في الوقت نفسه.

في ذات الوقت الذي قيل فيه إن سالومة سقطت من السطح، كنت، مع صديقي مصطفى قاسم اسحاق، عند مرقص أفندى. كان مشغولاً مهموماً بمقتل مهرته ماجدولينا التي كانت سالومة تحبها، كان معنياً بل مصمماً على ألا يتخلص منها كالمعتاد بأن يدعو الحاج حسين أبو شليب أن ينقلها عنده ليسلخها ويدبغ الجلد بعد أن ينظفه ويجففه، ثم يقطع لحمها ويبيعه لأصحاب الكلاب الأرمنت.

صمم مرقص أفندى على أن يدفن ماجدولينا في جنينة المانجة قبلي البلد.

تولى روماني مهمة نقل الجسم الضخم الذى مازال محتفظاً برشاقته، على عربة كارّو يجرها حصان عجوز كان يحمحم وينفث من منخريه طول الوقت، حمل الجثة أربعة رجال أشداء من فلاحي مرقص أفندى، ووثبوا إلى جانبها في العربة حتى وصلوا الجنينة.

ركبت الكارّيته الصغيرة مع مرقص أفندى وصديقي مصطفى، وعندما وصلنا قبلي البلد انتظرنا وصول جدث ماجدولينا.

انزلها الفلاحون، ومعهم روماني الصعيدى هائل الجرم، كان حزيناً مضروباً كأنه فقد إحدى بناته، وحفر الفلاحون تربةً واسعة عميقة في الطرف الغربي من الجنينة، بجوار السقيفة التي شهدت نهاية هنيّة في الزمن القديم، تحت السور الحجرى العتيق.

ربطوها بالحبال المتينة وأنزلوها مقبرتها، لم يكن أحد يتكلم أو

ينادى أو يصيح يلقى بالإشارات، على مهلك يابوى، حاسبْ، هدَى، كما هو معتاد فى مثل هذه الأحوال، بل كنا جميعاً صامتين، الفلاحون ومعهم روماني يعملون دون أدنى ضجيج، يعرفون ما هم بسبيله دون أن يعرفهم به أحد، كأنما نحن بمحضر طقسٍ توديعاً لحيوانٍ ضُحىَ به قرباناً، لم نكن نعرف أنه لم يكن قرباناً ولا أضحية، بل نذيرٌ وقرين. وكأنما كان مقتل المهرة فعلَ تجديفٍ وعدوانٍ على ما هو من حق الإله وحده، على ما هو إلهىَ.

فى اللحظة نفسها قيل إن سالومة سقطت من السطح.

وكانت الجاموسة تدور بالساقية الخشبية العتيقة، القواديس الفخار ترفع الماء من عمق بئر الساقية وتصبه فى المسقى الكبير للجنينة الذى تتفرع عنه عدةُ مساقٍ صغيرة، الجاموسة الضخمة مغماة العينين، تدور فى مسارها المرسوم خطمها الكبير شرير الشكل يلوك ما تجتره دون أن يكفَ، بجسامتها الخرافية وبلادة رأسها الأسود وعظامه الناتئة، والبروزات العجفاء الحادة فى الظّهر الراسخ، والفتحة البذيئة متهدلَة الطيات محمرة اللون، على نقيض الجلد الداكن الأشعر المشدود على الجرم المهول، كلها تدور حول بئرها العميقة يدفعها قدر مضروب لا رادَ له ينذرنا بأن الشر محيقٌ بنا لا محالة، بأن القبح الخبيث لابدَ مدركنا.

وكأنما لم يستطع مرقص أن يرفع وجهه إلى أعلى، من خجله أو من تهيَبه، أمام المهرة التى يهال على جدَثها تراب الجنينة الأسود الخصيب، تحت شجرة النبق العريضة متكاثفة الأغصان فوقنا، يقف كأنه من بعيد لا يشاء -- أو لا يقدر -- أن يرفع رأسه.

«اليوم كله خجلى أمامي وخزِى وجهى قد غطاني»

لا، بل حدستُ فى روحه القوية المتمردة أيضاً، فخاراً وكبرياء عنيدة مع هذه الهيبة. لم يكن ما به خزى أو خجل، بل هو اعتزاز بحبٍ غير منكور، امتنان لعشق فيه -- مع كل الفسْق واختراقيَة الفجُور -- قدسية

تفوق كل اجتراح للخطية، قدسية كل عشقٍ حق.

في مقابل دوران الشرّ الذى لا مفرّ من أنه مضروب على كل البشر.

كان الغسق قد هبط علينا، بعد ساعات، وبعد أن سُويت المقبرة، تغدّينا وحلّينا بالمنَجّة ونحن في طريقنا للخروج من الجنينة، اقتربنا من السقيفة التى أعرف أنه فيها لقيت حتفها هنية بنت المرحوم يعقوب المنقبادى ،زاخورة منقريوس الخراز.

كانت البركة الواسعة داكنةً ساكنة المياه تطفو على سطحها نباتات البشنين مفتوحة الحدقات ثابتة النظرة.

وعندئذ هاجمتنا الخفافيش

انحطت، من فوق، في أسرابها الكثيفة المتقاربة وهى تصيء وتزقزق بصوتٍ ثاقبٍ للأسماع، ترفرف فوقنا بخشخشةٍ جافة، وإذ توشك أن ترتطم بنا، فنحنى رؤوسنا كأنما نحميها بحركة لا إرادية، ونرفع أذرعتنا حولنا، تنحرف الخفافيش بسرعة خاطفة، وتدور بنا، تهاجمنا في تصميم لا يحيد، وإذ تكاد تمس وجوهنا التى تقشعر، ونغمض عيوننا، ونسمع الرفرفة الخشنة تكاد تصطدم بآذاننا، تزيغ عنا في آخر لحظة، وتدور دورة واسعة في أسرابها المتراكبة، لكى تعاود اقتحامها، إلى ما لانهاية ●

الفصل السادس

المجدلية

فى طريقه إلى بيتها، كان يرفع طرف الفراجية واسعة الأكمام عن تراب الحارة، وينظر إلى الأرض، وفى نفسه اضطراب غير محدد، يتجنب روث البهائم الطرىَ الفوَاح، ويدوس بحذائه اللامع على قشر الدوم الساقط من الشجرة العالية شحيحة الأغصان، تكاد تحترق فى شمس الظُهر العالى.

وعندما طرق على الباب طرقاته المعهودة، جاءه صوتها من الداخل، عميقاً ومحبوساً قليلاً: ادخل يابونا.

سمع صوت سُقّاطة الخشب ترتفع من محبسها، ردَها إلى تجويفها فارتخى الحبل الذى توتّر إذ كانت قد شدّته إليها من الداخل، دون أن تقوم.

أغلق وراءه الباب الخشبى الكبير، الذى تعلوه «عتبة» ناتئة فوق المصراع الضخم الواحد، تظلّل الباب، منحوتةً بنقوشٍ غارت الآن بفعل الزمن، كرمةُ الرب العصافير تنقر عناقيدها، طاووس الخلود يرقبها، وقد تكلّس من فوقها وبين تجاويفها تراب السنين.

عيناه مازالتا مبهورتين من عشوة شمس الخارج، بينما تحيط بهما عتمة رطبة منعشة بعد هجير الحارة الضيقة، وَاجَهَتْه فى وسط صحن الدار شجرة النبق الوارفة منتشرة الأغصان، هى التى تعطى الحوش هذا الضوء الغريب المُخايل، جذعها الخشبى مفتول العضل متلوُ التراكيب، وورقها مترب ولكنه ملئ بالغضارة وقد تناثرت عليها ثمار النبق الناضجة حمراء صفراء مدوّرة ومليئة بجسدانية محبوسة وموزعة وكأن الشجرة كلها جسدٌ غضٌ متفتق بالشهوانية.

لمح نوراً شائعاً مخايلاً فى آخر الممر الذى تحده حيطان عالية مصمتة من الطوب اللبن. ونزل درجتين متآكلتين قليلاً إلى أرض صحن البيت الفسيح.

واستوقفت نظرة الفجوة الفاغرة فى الحائط الشرقى للبيت، أُقيمت عليها عوارض خشبية قديمة متآكلة وجديدة طازجة الخشب، تبدو من ورائها عتمة مخايلة أرضها غائرة وذاهبة إلى عمقٍ بعيد إلى الداخل وإلى تحت.

جاءته ترجيعات الآذان الرخيمة الشجية، خافتة الآن بعد أن كانت تملأ عليه الظُهر الساخن، من الجامع الصغير أمام جُرن أياهور، فتذكر أن مسعودة تذهب إلى بيت زوجها، ما اسمه، ما اسمه يا أغابيوس؟ آه.. حمّاد النجعى، مساء كل خميس ترجع بيتها وتقضى فيه يوم الجمعة مع أمها وحماتها وأولادها.

أما أولاد منَة الأربعة الكبار فقد عدلوا إلى أخميم عند بيت مرقص أفندى ليلعبوا مع أولاده، كما اعتادوا كل يوم جمعة.

ومع الآذان جاءته دقات الطاحونة من الجانب الغربى للبلد، منتظمةً بإصرار عنيد، منذرة لا تترك للقلب راحة.

قال فى نفسه: مسيحة الميكانيكى واد حَلبوتى وجْوِينْ، ما يهمَل شئ له فيه صالِح، حتى يوم الجمعة شغال، والحدّ ما يهمّلش الطاحونة برضو،

وتتردد فى هذا الظُهر الرازح ترجيعات الهديل من برج الحمام المخروطى المخرم، من على سطح البيت الفسيح، فى ترنيمات واحدة النبرة مُملة، آلية تقريباً، وداعية لضيق الصدر.

مفاجأته الثانية أنه رآها تفعل ما لم يرها تفعله منذ وقتٍ لم يعد يذكره، وهى ستّ البيت بنت زكرى أفندى عالى المقام.

كانت جالسة على الأرض الترابية الصلبة، أمام طشت الغسيل

النحاس المدوّر المرغّى بالمياه والصابون على أكوام ولفف مبلّلة من ملابس لم يتبينها، منها الملوّن ناصع الاحمرار، أو حالك الزرقة ضارباً إلى السواد، ومنها الذى لا لون واضحاً له، مدلدل الأطراف، تتهدل وهي تقلّبها وتدعكها بيدين رَخْصتين خفيفتيْ السُمرة.

قال لنفسه :يدين لم تعتادا الشغل ولا إنهاك التَصْبين والدعك والشطف والعصر.

انفرج فخذاها حول الطشت، محبوكتين مدملجتين، تُشعّان فى نور فسحة البيت، بضوء لحمهما اللدن المتماسك حتى عتمة التقائهما غير المضنون به، بلا حجاب.

ترامت إليه رائحة مميزة للنساء.

لم يكن عليها إلا قميص داخليّ فسدقيّ باهت، يحيط بخصرها ويحبكه، ضيِّقاً وثيقاً، ابتلّت حواشيه المدندشة بكرانيش خضراء داكنة زاد البلل من تعميق دكنتها، له حمالات عريضة تنزل من على كتفيها العاريتين الخمريتين إلى النهدين الممتلئين أحسهما تثيران ذكورته، ملفوفين بإحكام فى دوران القميص الذى يبرز استدارتهما المهتزة مع حركة يديها فى الغسيل.

ابتسمت له عن أسنان صغيرة مفتوحة قليلاً إحداها عن الأخرى، ناصعة وعاجيّة، من غير أدنى حسّ بالخجل، بل بما يكاد يشبه الزهْو والاعتزاز بجسدها الفوّار فى نصف النور نصف العتمة.

لم يكن قد رأى من قبل، فى مثل هذا النور النهاريّ الخفيض، شعرها الأسود المسترسل الكثيف، لم يكن يعرف أنه بمثل هذه النعومة وهذا الاسترسال على الكتفين المكشوفتين المشربتين بسمرة دمثة وقوية العَضَل مع طراوة انسيابهما.

عيناها الخصيبتان بسوادهما الحالك اللامع، من تحت حاجبين محفوفين بدهاء صنعة الإغواء، غير كثيفين وغير رفيعين، لهما تدويرة

طويلة فرعونية، ارتفعتا إليه مع ابتسامتها. كانت ضربتهما في عمقه بلا زمن.

لم يفُتْه أنه يرى، كأنه مسحور، رغوات خفيفةً بيضاء تتطاير بسرعة على ركبتيها اللتين تسرى تحتهما مباشرة موجاتٌ من الحركة المتواترة بإيقاعات رتيبة.

لم تقم إليه، ولم تتوقف عما كانت تفعل

لم يستغرق ذلك إلا لحظة خاطفة

وحتى في هذه اللمحة التى أثارت نفسه من الداخل، كبرقٍ شرس متوعِّد، أحس مع نشوة اقتحامٍ ولو بالعينين فقط، كأنه ينتهك حرماً، ويدنّسه، يقترف إثماً محظوراً لا يجرؤ حتى أن يعرف ما هو.

كان في دخيلته انكسار، كأنما يريد، دون أن يعى ذلك تماماً، أن ينتقم لنفسه، وأن يلمَّ الصدْع بين جانبين منه، وفي الوقت نفسه يريد أن يبقى عليهما غير ملمومين، غير ملتحمين.

ومع افتتانه وامتثاله تدفق في قلبه دم المقت، ورفْض هذه الغواية الساخرة. بل أوشك أن يقول في نفسه، دون اقتناع نهائيّ: الفاجرة.

قالت وهي تقوم أخيراً: صمويل راح يُجعمد مع الدكتور ميساك في الاجزاخانة، وعيتغدّو حدا الشيخ ياسين، العمدة رايد يتحدث معيهم في وَجْعة خالي آبا باخوميوس.

لم يكن في صوتها رنة حزنٍ مفتعل وضروريّ، بل بساطة واقعية.

قال في نفسه: عندما كنت في عالم الخطيئة كنت مجنوناً. لعلني مازلت مجنوناً أريد -يايسوع كم أريد..! - أن أتطهّر من جنوني.

قال: هل كان عندى اثنتى عشرة سنة؟ يمكن، بالكاد عادْ.. كنت أذهب إلى الزريبة، أقوم من عزّ نومتى بالليل، لأذهب أطمئن عليها، وأملّس على جلدها البنّى الغامق الناعم. وكانت تنفث في يدى المداعبة نفثات صغيرة حارّة. كان الهواء قارس البرد في كيهك يصفرّ خارج

بوابة الزريبة، كأنه يدق عليها بأيد غير منظورة، ولكن قوية، أقوى بكثير مما يظن أى أحد.

عندما تنظر إلىّ بعينيها الواسعتين الخاويتين من أى معنى كنت أعرف مع ذلك أنها تحبنى، وتحب أن أملس على جلدها. كان قرناها صغيرين- وكأنما تدور بينهما هالة الشمس غير المرئية، لها مع ذلك إشعاعٌ لا يريم - ولها أذنان مفلطحتان إلى جانبى رأسها.

عندما أخرجوها إلى حوش بيتنا القديم، بحرى أخميم، جنب كنيسة الست دميانة، وبعد أن هدأت ضجة السوق، عشية عيد الميلاد، تعلقتُ برقبتها، نظر لى أبى-الله يرحمه عاد ويطيّب الطوبة تحت رأسه-وقال لى:

- يوه يالعازر

(يوه يابا سلوانس.. منْ لعازر؟ أنا...؟)

قال: إنتَ عمّ بتتجلَع يا ولَد الفرطوس.. ما تبجاش دَنْدوف كده، عندنا الرجاله اللى خرجوا عن الطوج مايعودوش كيف العيال.

وعندما أخفيت دموعى عنه ومسحت وجهى فى غبشة العشيَة، تظاهر بأنه لم يلحظ شيئاً.. ومرَ بيده، بخفَة وسرعة، على رأسى.

انقلبت على ظهرها، كان تراب الحوش الرطب قد طبع جنبها اليمين بما يشبه نقوشاً مشعثة غير واضحة، أعواد الذرة القديمة الهشة المتناثرة على الأرض تركت على جسمها علامات خفيفة ولكن محددَة، عيناها الواسعتان تنطقان بتساؤل غير محدد، بينما أنين اللذة مكتوم، وخشن. كان التساؤل وحده هو ما بيننا، أما لذتها ومتعة اقتحامى فهى أشياء خاصة بنا، وحدنا، لا علاقة بينها. هل أنسى طول حياتى على هذه الأرض-وما بعدها أيضاً، وليسامحنى الربّ-كيف انحنت علىّ، سكبت علىّ من زجاجة «مية القسيس» المدوّرة عطرها النفاذ، ومسحته بشعرها القوىّ وقد انفكت ضفيرتاها: من أين أتى الدم على فخذيها

الممتلئتين؟ هل هذه علامات أصابع خمسة؟ بقايا التراب الرطب من أرض الحوش؟ في العتمة وضعت فمي على البشرة الداكنة الملساء، وأحسست يدها على رأسي تمسه برفق، دون ضغط، وهي صامتة.

كانت السكين في يده طويلة، لمعت في العتمة. رسم على جبينها علامة الصليب، وأمسك أخي مرقص مع ولدي عمي ميساك وشفيق ومعهما أيضاً بشارة الصغير، بقرنيها الصغيرين الصلبين، ربطوا كل ساقين بحبلٍ خشن فسقطت على أرض الحوش.

كانت ضربة السكين قوية وناجعة وحادة، ضربة واحدة بعزم ما فيه فانفصل الرأس، ومازالت العينان مفتوحتين ليس فيهما معنى، هل فيهما سؤال لا إجابة عنه؟ وتدفق الدم على أرض الحوش بينما كانت السيقان المربوطة معاً مازالت تنتفض.

غمس أبي كفّه اليمنى في دمها، ورفع جلابيتي والفانلة الصوف عني، مرة واحدة، وطبع الأصابع الخمس بسرعة على ظهري وبطني وقضيبي الذي كان قد انتصب، وضحك ضحكة قصيرة وخشنة وفخوراً.

تركت عم بَشْنْدي الجزار معها، أعرف أنه سوف يسلخها هو وصبيانه ومعهم روماني الذي كان صغيراً عندئذٍ، وسوف يقطعون لحمها، وسوف يأكلونها، كلهم، أبي والعائلة والجيران، على فتة البيض المسلوق المحمّر والخلّ والتوم، عند منتصف الليل، عندما تقرع أجراس الكنائس، أما أنا فسوف يكون لحمها قرباني، مع دم نبيذ الأباركة.

انطلقت أجري عن الحوش، في البيت صببت على نفسي صفيحة الماء المُروِّق الذي سخنته لي أمي -الله يجدِّس روحها- حُمُومُ العيد، دعكت نفسي بليفة النخْل الحمراء وصابون نابلسي فاروق، مرةً بعد

مرة، كأنما أريد أن أنزع عنى جلدى، ولم أحس أننى تطهرت أبداً، وحتى عندما تناولت خبز القربان من يدى أبونا باخوميوس، فى الكنيسة، مع كل بهجة العيد، لم أحس أننى تطهرت.

فى ذبيحتك أصبح العالم عقيماً عشيَّة مجئ الفادى كأنما فى ميلاده عوضٌ عن غيابك. منذ القديم، قبل أن نعرف أن لنا عائلات وأسرات ودُولاً كنت أراكِ فى العليَّة، فوق، على شَرَق أجواز السماء، يا «أم النور» يا رؤوم.

عبرت بها إلى البرّ الغربى، إلى أباهور، على القارب الخشبى الكبير، نزلت على الشطّ بين أعواد الحَلْفا الرابية العالية تحيط بنا، فجأة، وتغمرنا. أناديها لكى أطمئن من روعها: حَتَحريت.. حت حريت..» من أين أتانى اسمها؟ وعندئذ كان يلوح لى أننى أسمع بين أعواد الحَلْفا والهيش موسيقى البهجة والحب، وكانت متعتى بالتوتر فى جسدى بريئة ومنزّهة ولا غرض لها إلا ذاتها. وحتى الآن لا أراها خطيَّة. فهل فى خلوصى الآن للعبادة والنُسك والبعد عن الآثام متعة لا تقل عن ذلك براءةً وتنزُهاً عن الغرض؟ حبٌ خالص للربّ ولابنه يسوع الذى هو نفسه الإله الواحد ولملائكته وللناس.. ملكوت الربّ هنا والآن. لعازر.. أغابيوس.. احترس.. أنت تسير على شفرةٍ حادة، على صراط دقيق كالشعْرة مستقيم كالسيف كما يقول إخواننا، وحتى عندما ترهبنت، وحتى الآن، مازلت أسمع عظامها ترتطم بعضها ببعض، فى نومى، أسمع أنينها المذبوح، كنت وأنا ابن الخواجا سلوانس الكبير، آخذها بنفسى إلى الجميزة القبلية الضخمة، لا أتركها لأحد من صبيان الزريبة، وأتركها ترعى أعواد الذرة الطريّة أو البرسيم الأخضر، على راحتها، وأرى الصقور تُحوِّم فوقنا، كأنها تعرفها وتسدى إليها

نوعاً من الولاء.

لعازر يا لعازر هل أقامتك ححيرت من بين الأموات، أم أنك- يا أغابيوس- دفنت نفسك فى تربة المحبة؟

مازالت تراودني حتى الآن فتنتها وغوايتها.

منه في قميصها الساتان المحبوك على خصرها وردفيها وفخذيها الذهبيتين.

هل كانت الجدلية التي طيبت بشعرها الأثيث قدمى يسوع محبوكة الثياب على جسدها العفي، وفخذيها الكبيرتين؟

ابعد عني ياشيطان.. ياملاك الكبر والحب الساقط

عيناها القمر والشمس معاً.

وهي على ظهرها، مسترخية على الأرض، أحس أنه يموت حباً وبغضاً معاً، يمقت ويهوى ثدييها المتباعدين، كلٌ إلى جنب، وقد تكورا، صغيرين فيما يلوح له الآن، متماسكين، يدران قطرات من اللبن على صدرها الأملس الفسيح، أراد أن يأخذهما بين أصابعة القوية المتشبثة يدعكهما يسحقهما يسويهما بأرض عظامها.

كان أنينها الخفيض مستمتعاً ومتألماً في الوقت نفسه، يمتد على صفحة روحه ظلاً طويلاً لقطة سوداء تموء تحت نور شهوتها وتمنعها وتعللها وبذلها ذات نفسها.

ومن الداخل سمع صرخة الطفل ثاقبة.

وهتفت، بلوعة الأم: أبانوب. أبانوب..

«أرجوك يا أتراك» الملاك العظيم الواقف على يمين عين الشمس فى ظهر الجمعة المحرقة والذى تدين لك بالولاء كل قوات الشمس. أذهب حتى حافة الهاوية. الحديدة أذبها، الحجرة فتتها، الناعمة الغضة اذبحها، الصلبة العنيدة أكسرها، مياه البحر جففها، صخور السماء

حركها ودحرجها، الحبلى بالشهوة شق جنبها الأيمن واستخرج بذرة الخطيّة منها».

«أدعوكم يا رؤساء الملائكة السبعة: ميخائيل وجبرائيل وأوربيل وراكوئيل وسوريل وأنوئيل وسافوئيل، انزلوا جميعاً، أمامكم ميخائيل رئيس الرؤساء، انزلوا إلى هذه المرأة المستلقية على تراب أرض المحبة السفليّة، لأنها عبرت أنهار النار السبعة المتلظية بلهب شهوات الجسد المستعرة، انزلوا أيها الملائكة قواد المئين، واصعدوا بنا بعيداً عن ردغة آلام وتباريح الجسد الحارق المحترق، طهرونا بنار الرحموت الرقيقة، قد مررنا بجلجثة الصلبوت، ألقينا بأنفسنا من فوق جبل الغوايات إلى هوة بلا قرار، ها قد ارتطمنا بالأرض المتربصة الكنود، اصعدوا بها وبى إلى السماء السابعة حيث يتربع رب الصبؤوت، حيث ميخائيل يقف إلى يمين العرش فى كل بهائه الذى لا يطيق أحد أن ينظر إليه. اصعدوا. اصعدووا بنا».

الإسكندرية فى ٣٠ يونية ١٩٤١

ولدنا العزيز

نهديك والسيدة والدتكم وأشقاك الأعزا مزيد السلام.

عزيزى حررت لكم خلافه أمس وإنما غير كافى لأن جوابكم أزعجنى جداً وأشغلنى جداً وكدرنى جداً. أنا ضميرى ارتاح عليكم وأود أن تكونوا منعمين بطرفكم وتأكلوا وتشربوا وتنبسطوا لأن الله عزّ وجلّ باسط علينا رزقه وأنتم خالقين لنفسكم النكد والكدر بدون مبرر لأنى أنا أدرى بالحالة وطبعاً أخاف على حياتى قبل كل واحد نظراً لكونكم ليس لكم إلا الله وأنا ولذلك أرجو لكم السعادة والهنا. ومن جهتى كونوا بطمان كافى حيث أنى مع ناس يعزونى ويخافوا علىّ مثل أنفسهم وقد رتبنا أتومبيل زكى شقيق المعلم بيحضر الساعة ٦ مسا

يوصلنا المحمودية الساعة ٨٫٣٠ وفى الصباح نركب الساعة ٥ صباحا نحضر لإسكندرية سبعة لنا ثلاثة أيام بهذا الشكل وأمس لم يحصل غارات وإنما صحيح البلد خفَت جداً وأصبح العمل فيها بسيط جداً وربما بعد أسبوع أو اثنين بالكثير نشطب كل الشغل ونقتصر على طلب ياقوت أفندى وقيصرى فقط ويقوم بهم زكى لوحده وأنا إن شاء الله بالكثير ١٠ يوليو أكون بطرفكم والله هو الساتر والمسلّم وإنما كل شىء بعدل فيلزم تفهم والدتك كل شئ بأمر الله وتعقل وتهنى نفسها، وبزيادة نكد الأيام الماضية والآ مكتوب عليها عدم راحة الفكر ياسيدى هل أنا أحسن من كل الناس الموجودين بالإسكندرية حتى أنكم تتوهموا كل هذا الإيهام وتزعجونى وتزعجوا أنفسكم سلّموها لله تسلم، فيدنى برجوع البوسته صحتكم جميعاً وحقيقة صحة ألبير للإطّمان أرانى الله وجهكم بخير سلامى للست المحترمة والدتكم وأشقاكم وجميع من بطرفكم.

سلامى لعموم من بطرفكم وسلامى لشخصكم العزيز

والدكم

(إمضاء)

الإسكندرية فى ٢ يوليو ١٩٤١

ولدنا العزيز

أهديك مع السيدة المصونة والدتكم وأشقاك الأعزّا مزيد سلامى وكثير أشواقى الغير خافية عليكم وأتعشم من الله يحافظ عليكم ويورينى وجهكم بخير عسى يكون ولدنا العزيز ألبير بك تحصل على تمام صحته وزال ما كان عنده وقادم منكم ما يطمنى عليه وكذا أرجو أن تكون الستّ والدتكم تطمنت علينا وضميرها ارتاح أما أنا ولله الحمد بغاية الصحة ويومى نقوم المحمودية صحبة المعلم سالم وأولاده ونعود بالصباح إلا أنى تعبان فضلاً عن التعب فأنى أكلف المعلم يومى عشرون

قرش صاغ أجرة أتومبيل ذهاب وإياب فلذلك تجدنى متألم لأن حالة الشغل لا تساعد على كل هذه المصاريف وإن شاء الله سأعمل جهدى فى الحضور لطرفكم والرزق على الله ما باليد حيله والله يدبر الأمور وحده أرجو إذا كان لم يسبق تحرير خطابات لنا سرعة إفادتى صحتكم عموماً وحالتكم وعن حقيقة مرض ألبير وها أنا يومى أحرر لكم بوسته لكى تكونوا بطمان وتراعوا نفسكم وصحتكم وفهم الست والدتكم تفرفش وتراعى صحتها بحيث إنى متكبد كل مشقة لراحتكم وسعادتكم وهذا كلما أبغى ولا يهمنى شئ سوى أن تكونوا مبسوطين ومرتاحين واتركوا كل مشغولية ونكد وكفى.

سلامى لجميعكم ودمتم

والدكم

(إمضاء)

كان الجواد الأبيض الفاره يشق مدقات الجبل يتوقلها بحوافره العارية الصلبة غير المكسوَّة بحدوة من صنع البشر ورياح الجنوب السافية تهبَ بعرفه الضارب إلى حمرة أرجوانيَة فيها غدائر سوداء، قرنه الوحيد المخروط ينبثق من بؤرة جبهته المرقَطة بخطوط سوداء ضاربة إلى زرقة متوهجة، شامخاً، يطعن طبقة من طبقات الهواء الذى كأنه يومض ويتذبذب ويتموج من الحرَ، وفجأةً رددت أبعاض الجبل المنحدرة ومَغاراته العميقة المظلمة أصداء صرخة غير مألوفة ارتطمت ترجيعاتها بالصخور الرمادية التى أحالتها حرارة الصعيد إلى شُقْرة جيرية مُبيْضَة وصلبة الملمس، صرخة بين الخوار والصهيل، خشنة وموحشة، فيها ضراعةٌ وغضبٌ وتطلُق وجيزٌ حادّ. تظل ملغزة لا تفسير لها، ثم سقط الصمت على مغاور الجبل الشرقىَ ووُعوره وهُوَيه العميقة الضيَقة المكتومة التى لا تصل إليها الشمس، كأن يداً هائلة غير منظورة قد كبتتها للأبد إلى غير انفراج.

ذهبت صيحة وحيد القرن.

وسقطت الشمس والصمت على دير الملاك ميخائيل.

نزل الأنبا باخوميوس من الدير الكبير، طلب منه ابن أخيه أبونا فيليبوس كاهن أباهور بتضرع واتضاع، أن يبارك هيكل كنيسته الصغيرة القديمة، مرة أخرى، فخدم القداس الإلهيّ فيها عشيَة الإفطار بعد صوم الرسل.

الكنيسة الأثرية لم يبق منها إلا جانبٌ تدخل إليه من ممر ترابيّ ضيق مغطىّ بقبوة، يفضى إلى الصحن الذى لا ترتفع جدرانه إلا قليلا حول أربعة بواكى مقسمة بعمود طوب دائرى تقشر طلاؤه من زمان بعيد، وبان لون الطوب الأسود المحبَب فى بقع متناثرة على جسم العمود الذى عليه حمل العقود والقباب الصغيرة المنخفضة إذ تستدير فوق مثلثات تأتى بين جسم الجدران وأصل القبَة.

قال لى أبونا فيليبوس، مرّة، إن الكنيسة بنيت فى زمان الاضطهاد. إن لم تكن عالية القباب والجدران فهى شامخة بالروح.

حضرت القداس فيها وعندما كانت تعلو أصوات الترانيم والتماجيد ويضرب عم جورجى الصنوج النحاس بقوة، ينزل من القباب ترابٌ خفيف يبدو على نور الشموع الكبيرة واضحاً كأنه أعمدة من دخان متطاير مستقيم الحوافّ.

الليل كان قد نزل، البدر كامل فضىّ حاد الدوران يريق ضوءاً أبيض، ليس من هذا العالم، على الحقول القريبة وأطلال البيوت المهدّمة المهجورة، صوت الجنادب رتيبة الإيقاع يظل يتردد دون هوادة خارج الكنيسة على مساقى الزرع المترقرقة فى النور الليلىّ الساطع، ينطلق فجأة نقيق الضفادع الأجوف الصادر عن صدور منتفخة مهتاجة، حفيف الهوام والناموس يئز فى قبضة خيوط النور الشاحب المهتز المنسرب بالكاد من تحت النافذة القبليّة المسدودة بزجاج معشق ملوّن عليه رسوم

للعذراء والطفل اكتست ألوانها قتامةً من دخان البخور وغبار السنين الطوال.

قال لى أبونا أغابيوس إن الأنبا باخوميوس كان ساعتها يقف تحت اللوح الخشبى المقدس المستطيل الذى فى وسطه صليب، وعليه فقرات من المزامير بالقبطية القديمة، أنت رأيتها، نعم أعرف، سأترجم لك سطوراً منها، فى مرة من المرات.

وقال لى إن أبا باخوميوس هو الذى قام برشم الصليب على كلٍ من الخبز والنبيذ، أكمل الثمانية عشر رشماً فأتمَّ بنفسه تقديسها، من عجائب ربنا أنه قام بكل شئ قبل أن يسقط، عم جورجى قدّم له الخُبزة فى الصينية الفضية-هى من تراث الكنيسة العريق يجلوها جورجى نفسه مساء قبل كل قداس.

وبنفسى يا ميخائيل رأيت أبا باخوميوس يتحقق من تخريم وسط الخبزة خروماً على شكل الصليب، وأنّ الدائرة مكتوب عليها بالقبطى الإخميمى قدوس الله قدوس القوىّ قُدوس لا يموت، والخروم الخمسة هى مسامير المصلوب، فاعرفها يا ميخائيل، اثنين على اليد وواحد فى القدمين وثقب الحربة فى جنبه وثقب إكليل الشوك على الرأس.

ثم قدّم له جورجى الأرشيدياكون النبيذ الأباركة الخاص بنا نقطره نحن بأنفسنا فى دنٍ جلدىّ مطهّر ونصفّيه فى الإبريق الفخارى المدوّر الذى تعرفه وسألت عن سر لمعان جدرانه السميكة وقلت لك من تعاقب أيدى الكهنة وتمليسها عليها عبر السنوات الطويلة.

قال ورأيتُ أنه ضعيف ومتألم لكنه قام بالمجموعة الثانية فرشم الثمانية عشر صليباً على نفسه ثم علىّ ثم على جورجى وشمامسة الكنيسة الأربعة صموئيل أفندى وميساك أفندى ودانيال وبشاى ولدىْ مرقص أفندى، حتى يُقَدسوا ويتأهلوا للتناول.

يابُنىّ هذه تقاليد كنيسة آبائك وأجدادك. إرعَها فى قلبك ياولدى.

قال لى: فى بطء وتمهل أتمَّ الستة رشومات الأخيرة على الخبز والخمر بعد أن تحولا بالفعل إلى جسد المسيح نفسه، ودمه نفسه، مسَّ إصبعه فى الدم ورشم على الجسد بالأسباديقون فصار الجسد والدم وحدة واحدة، المعجزة الربانية التى تحدث فى كل قداس، فى كل يوم، فى كل يوم.

تناول أبا باخوميوس الأسباديقون فى وسط الخبزة بعد أن غمسه فى الكأس المملوء بدم المسيح.

«الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا من جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم فى أنفسكم. لأن فى قلبكم عندئذ الحياة الأبدية، وأنا أُقيكم فى اليوم الأخير».

(كانت دراما الطقس تروعنى وتسحرنى وأنا أستمع إلى صوت أبونا أغابيوس يتهدَّج بحرارة الإيمان. كأنما بفعل إرادىّ لا واعٍ أوقف كل تساؤل. الأغنوصىّ الكامن فىَّ يعنو للغنوصىّ العريق)

قال أبونا أغابيوس إن الأنبا باخوميوس تنهد بعمق، شحب جداً وجُهه الغضّ رقيق الجلد، كأنه أضاء من داخله بنور أبيض ساطع غريب.

قال سمعتُه بصوت هامس لا يكاد يبين: «أطلق يارب سراح عبدك.. الجهاد الحسن.. عملى فى.. خدمتك». على هذه الكلمات أغلق فمه الطاهر، وأغمض عينيه.

سَجَّيْتُه برفق-قال-على سجادة الهيكل القديمة.

لم يستطع أبونا فيليبوس أن يقيم الخدمة، كان مضطرباً، دَهَمَتْه نياحة ابن عمه الجليل أمام عينيه.

ولحسن الحظ كنتُ فى الخدمة، وإلا كان من الضرورىّ- لو لم أكن هناك بنعمة يسوع- أن يكمل الخدمة الأشيدياكون جورجى، وكان عليه أن يبقى داخل الكنيسة لا يبرحها حتى يأتى أسقف أخميم ويرسمه قسيساً.

أكملتُ الصلاة، وتوزيع الأسرار المقدسة، لم يكن بالكنيسة إلا القليل من أبنائنا، لم يشعروا بشئ، كنت حريصاً على أن تتم الخدمة بهدوء.

وطلبتُ من صموئيل أفندى أن يعدل إلى جرجا دون تأخير ليبلغ سيدنا المطران تنيُّح أبا باخوميوس كالقديسين.

فى الصباح الباكر وصلت العربة والخيول الستة وحملت الجثمان الطاهر وعبرت النيل على المعدية الحديدية العريضة إلى البرَ الشرقىَ، وصعدت به فى رحلتها الطويلة البطيئة إلى الدير.

الإسكندرية فى ٦ يوليو ١٩٤١

حضرة ولدنا العزيز

أهديك مع السيدة العزيزة والدتكم وأشقَاكم الغالين مزيد السلام وكثير الأشواق وأسأل الله تعالى أن يحافظ عليكم ويحميكم من كل سوَ ويردَكم للإسكندرية سالمين غانمين معافين الروح والجسد بعناية الرب يسوع المسيح.

عزيزى وصلنى جوابكم ومنه تطمنت على غالى صحتكم جميعاً واطَمنت على حبيبى غنَن باشا وإنما تكدرت لحصول مغص عند الست المحترمة والدتكم فيلزم تعاطى شربه أو دوا.

ومن جهتنا كونوا بطمان كافى لأنى يومى أقوم صحبة الأستاذ زكى مساً وأعود بالصباح حيث المعلم سالم منْمدَة أسبوع مقيم بالحمودية طوالى وأمر بحضورى الحمودية يومياً لكى يطَمن منى على أحوال المحل.

ومن جهة الغارات بعد غارة غيط العنب والغربال التى سبق عرفناكم عنهم لم يحدث سوى غارة بسيطة فجر الثلاث الماضى ورموا قنابل على السكة الجديدة وكانوا يقصدوا كوم الناضورة إلا أنها وقعت فوق محلات الفخار والصينى وهدمت نحو ثمانية دكاكين والخسارة بسيطة

قتل ثلاثة وجرح سبعة فقط لأن الدكاكين ليس فوقها مساكن وبعدها للآن لم يحصل شئ والحمد لله والناس ابتدت الرجوع لإسكندرية والمنظور لا يحصل غارات تاني وإنشألله تنتهي العبارة مثل العام الماضى. ومن جهت حضورى إذا استمرت الحالة بهذا الشكل لا داعى للحضور الآن وسنؤجل الحضور لبعد صيام السيدة العذرى وأما إذا لا سمح الله وحصل شئ مضطر للحضور وبهذه الحالة لا داعى لشحن النحاس والفرش ونتكلف مصاريف شحن ذهاب وإياب.

طيه خمسون قرش صاغ بالاستلام يفاد برجوع البوسته على سبيل التجربة فقط وأظن موجود معكم نقدية وغير محتاجين الآن.

الست أم فكرى موجودة هى وأولادها ومنزلهم افتكر نمره ٦٦ القصد العنوان شارع جامع خفاجى والنمره زى ما يكون بين ٦٠ إلى ٧٠. خالك سوريال أفندى ولوندى بيباتوا بكفر الدوار ويحضروا صباحاً يومى بقطر العُمال، فهيمه موجودة هى وأولادها بمنزلهم لأنه كامل وزكى بيشتغلوا فى الجمرك.

وأرجو أن تلتفتوا لأنفسكم وتفهم الست والدتكم تعتنى بنفسها وبكم فى الأكل والنظافة واللبس والحمد لله على ذلك لأنه تهمنى راحتكم وانبساطكم أما أنا فمبسوط جداً لا يقضَنى سوى فراقكم وأرجو مداومة المكاتبات للاطمان عليكم.

سلامى للسيدة الوالده وأشقاكم وجميع من بطرفكم وإن شاء الله بحضور الأستاذ رفله افندى بطرفكم عرّفونى.

ختاماً سلامى لشخصك المحبوب ودمتم،

والدكم

(إمضاء)

أخميم فى ٧ / ٧ / ١٩٤١

حضرة الوالد العزيز   دام

أهديك أرق تحياتى وأحر أشواقى وأطيب تمنياتى راجياً الله تعالى أن يصونكم ويحفظكم ويرعاكم.

وصلنى كتابك اليوم وكنا قد انشغلنا لعدم ورود خطابات منكم مدة من الزمن فنرجو ألا تتأخر فى الرد علينا كما نرجو أن تداوم إرسال الخطابات.

والدتى تقول إن «النصف جنيه وصل، وهو كمية صغيرة جداً.. وأنه يجب أن ترسل لنا جنيه على الأقل كل أسبوع ونحن لا نريد الجوابات تنقطع أبداً.. يعنى فى الأسبوع جوابين أو ثلاثه»

نرجو التكرم بأن تكلف خالى سوريال بالسؤال على الست أنيسه وأختها لولا وزكى أفندى وعائلته لأننا وصلنا خبر بأن بيتهم هدم فى الغارات لا قدر الله. كما أرجو أن تعطينا عنوان الست أم فكرى تماماً لأننا نريد أن نبعث لهم جواب.. إذ لا يليق إهمالنا لهم فنحن نريد العنوان مضبوط.

فى الختام تقبل منى خالص السلام والأشواق

جميعنا نهديكم التحيات والأشواق العاطرة

ولدكم المخلص

(إمضاء)

نرجو أن تخبرنا هل أنت مرتاح فى المجئ والذهاب يومياً؟

(مَنْ هى الست أنيسة وأختها لولا؟ ومَنْ زكى أفندى؟ كم من أسماء سقطت من الذاكرة، وكم من أسماء تتوهج حضوراً بعد أكثر من خمسين سنة، أمّ فكرى، التى كانت تعرف باسم «أمّ البحرية»، وبنتها النحيلة الجميلة، ما اسمها؟ تتوقدان فى روحى، وكأننى مازلت أرى، من بلكونتنا، مشاهد الزار التى كانت تجرى فى فسحة شقتهم، أمامنا، والكرة الأرضية الكبيرة الدوّارة من ميراث زوجها الراحل قبطان البحرية)

كان وَنَس أفندى سمعان كاتب النيابة، يكتب بقلمه الحبر الأبنوس فى دفتر التحقيقات الميرى المرقمّ المختوم بختم النيابة العمومية.

غرفة المضيفة الخارجية للدير أُعدت فيها مائدة طويلة بسط فوقها مفرش ناصع البياض، عليها دواية الحبر يضخ منها وَنَس أفندى أنبوبة قلمه الأبنوس كلما فرغت.

جلس توفيق بيه خاطر وكيل نيابة سوهاج على الكنبة الطويلة، وجّه السؤال إلى أبونا أغابيوس وتركه يتكلم دون أن يقاطعه بأسئلة محرجة مدقّقة، كان فى الجو كله روح التوقير للأنبا المتنيح الجليل.

كان أبونا أغابيوس قد استسمح وكيل النيابة أن أحضر معه التحقيقات، قال إننى ابن عمه المهاجر من إسكندرية من جراير الغارات، وإن أبا باخوميوس بمثابة عمّى، لأنه ابن الخواجا منقريوس الكبير شقيق الخواجا قلادة جدّى.

قال توفيق بيه بنفاد صبر وسماحة: طيب طيب عندك مانع يا محمد بيه؟

لم يكن يحمل رتبة البكوية رسمياً، لكن الجميع كانوا ينادونه توفيق بيه، كما كانوا ينادون المأمور محمد بيه.

هزّ المأمور رأسه موافقاً دون كلام، خلع طربوشه ووضعه على طرف المائدة، كان يجفف وجهه الممتلئ المندّى بالعرق، بمنديل كبير أخذ يبتل بسرعة، جاكتة بدلته الرسمية الكاكى، على كتفيها التاج والنجمة مجلوة ذهبية، لا تكاد تلتمّ على كرشه الكبير الذى يلتف به الحزام العريض والسير الجلدىّ على صدره بالورب.

كتب ونس أفندى على كلام أبونا أغابيوس:

«استطاع نيافة الأنبا باخوميوس الراهب الفاضل تعمير الدير منذ أن تولى رياسته، معمارياً ورهبانياً. وقام بسيامة عشرات الرهبان. كان معلماً وديعاً متواضعاً محباً متسامحاً قوياً فى الحق، رفعه الربّ ملاكاً

نقيَ القلب إلى الأمجاد السماوية. نتضرع إلى الله أن يذكرنا في أورشليم السماوية.

س: متى زار الأب باخوميوس بيت بنت أخيه السيدة سالومة اسطفانوس وزوجها الدكتور ميساك؟

جـ: آخر مرة منذ ثلاثة شهور، في بابه اللى فاتت، يعنى أكتوبر، وليسامحنى الرب.

س: وما قولك فيما قرره الشهود من أنه كان في بيت الدكتور ميساك سيداروس زوج السيدة سالومة ليلة وفاته؟

جـ: ربنا أعلم بالحق

(سوف يصوم أبونا أغابيوس شهراً كاملاً على الماء ونصف رغيف في اليوم، طلباً للغفران عن كذب لم يدفعه إليه إلا الحب).

نظر ونس أفندى إلى وكيل النيابة الذى أومأ إليه برأسه فاستمر يكتب:

س: متى أقيمت الصلاة على جثمان الأنبا باخوميوس؟

جـ: في صباح نفس يوم وصوله إلى الدير من أباهور.

س: ومن حضر الصلاة؟

جـ: جميع رهبان الدير وإكليروس المديرية من سوهاج وأخميم وجرجا وطهطا والنجوع.

س: هل لديك أقوال أخرى؟

جـ: رقد الحبر الجليل مستريحاً في الرب، حبيبنا نقله الرب إلى عالم أفضل. طوباك أيها الأب مثلث الرحمات فقد كنت أميناً في القليل وأقامك الرب على الكثير وطوبى للمدعوين إلى عشاء عروس الحَمَل آمين.

أومأ توفيق بيه إلى كاتبه مرة أخرى فكتب.

«واقفل المحضر على ذلك في ساعته وتاريخه على أن يستؤنف

التحقيق من الغد»

نظر المأمور متسائلاً إلى وكيل النيابة فقال :

-ونس أفندى، اقرأ لسعادة المأمور الجواب الذى جاء.

قلّب ونس أفندى فى ملف أصفر مغبر قديم أمامه واستخرج ورقه مسطرة شكلها شكل ورق كراريس التلامذة، وقرأ بصوت رتيب :

«حضرة صاحب العزة توفيق بك الكاتب وكيل نيابة المديرية حفظه الله ذخراً لـ . .

قاطعه توفيق بيه :

- ادخل فى الموضوع ياونس أفندى اقرأ المهم.

« . . من حيث أن وراء الأكمة ما وراءها فيلزم أن العدالة أمانة فى عنقكم واجبكم أن توفوا بها أما عدالة السماء فسوف تأخذ مجراها وعليه يلزم اتخاذ اللازم وكشف المستور ودمتم . . . فاعل خير».

قال توفيق بيه :

- كان يلزم ياسيدى أن نفتح تحقيقاً وأمرنا لله. واضح أن البلاغ كيدى، ٩٠٪ من الخطابات المجهولة الغفل من الإمضاء كيدية كما تعرف يا محمد بيه، لكن علينا تسديد الخانات.

كان أبونا أغابيوس ابن عمى قد حكى لى أنه فى تلك الليلة الغريبة لبست منة بردتها السوداء، وجاءت حتى باب الكنيسة، ولما أرادت أن تدخل وقف على الباب، ومنعها من الدخول.

قال : قلت لها ارجعى يا امرأة لا يحق لك دخول هذه الأرض المقدسة، فقال لى أبا باخوميوس، كأنه حدس ماذا وقع لى : أغابيوس أغابيوس لماذا لا يبقى حبك غير ملوث؟

قلت له : سيدنا، هذه المرأة لا يحق لها أن تأتى إلى هنا حتى تَطْهُر فلندعها تصلى فى بيتها وعسى ربنا أن يغفر لها ولنا. لم تمض الأربعين

بعد مولد ابنها حوريس.

لكن منّه، من وراء البردة السابغة، عيناها مشتعلتان بالتمرد والغضب والثورة قالت بصوت خافت مبحوح، مليء بأنثوية خشنة ومقتحمة:

- ليه عاد عمّ بتفرجوا بيني وبين الرب؟ ليه بجي وأنا رايده أركع جدام الهيكل أطلب الغفران؟

كانت الجماعة الصغيرة من أقارب العائلة وجيرانهم قد التموا حول الباب، صامتين.

قال الأنبا باخوميوس بهدوء وحكمة، ومازالوا جميعاً على عتبة الكنيسة التي تعلو مدخلها بدرجات فوق الأرض، وكانت على وجهه أمارات ألم يكاتم به:

- يا بنتي الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل في الرب. لكن الكتاب صريح، المرأة لا تجئ إلى المَقْدس حتى تكمل أيام تطهيرها. هو أيضاً منع واقع في حالة رجل يضطجع بامرأة ولم يتطهر.

قالت منّه، بحرارة وحرقة: طيب.. لكن المرة لغاية حد الأربعين؟ ليه؟ ليه عاد؟

- لأنه يذكّرنا بالخطيئة الأولى وعقوبتها أن المرأة بالوجع تلد أولاداً. لا تتذمرى يابنتي من هذه العقوبة. تذكرى أن أطهر نساء الأرض أمنا مريم العذرا أخرجوها من سكنى الهيكل عندما وصلت سنّ البلوغ وجاءها ما يجئ النساء. مع أن ولادتها للمسيح جاءت بالروح القدس من غير دنس. وخضعت للناموس، لا تتجاسرى على الأقداس يا بنتي.

قال أغابيوس:

- سكبت منّه الطيب على من أحبّت، مسحت قدميه بعطرها المستنبط من حبّة القلب. ولكنها سواءً في تمام صعود البدر، أو بعد إكمال أوجاع الميلادوأفراحه، لا يحق لها أن تقترب من جسد الرب الحيّ

ولا من دمه، لا يحق أن يتحد جسدها ودمها بجسده ودمه إلا بعد أن تتم تطهيرها.

قال:

- إلا بعد أن تتمَ شعيرة من شعائر القبائل البدائية التى كانت ترهب سرّ دمائها البدريّة، وسر ميلاد الحياة من رحمها المُشتهى المخوف.

أما الراهب أغابيوس فقد قال: ياويلى.. يا تعتيرى.. هل فى الحب- ملوثاً وغير ملوث سواء- كفارة عن آثامى؟ لا، حتى لو منعتها من الدخول ليلتها فقد دخلت أرضى، لأننا لسنا بعد اثنين بل جسد واحد. الذى جمعه الله- بالحب الداخلىّ، بالجسد والروح معاً- لا بمجرد طقس خارجى، هذا لا يفرقه إنسان ولا يفرقه ناموس أو قانون أرضىَ ولا سماوىَ. السرّ قد تحقق. به أصبحنا مخلوقاً حياً واحداً مهما ضربت بيننا الفرقة والقطيعة وتصاريف الزمان ومواضعات الناس، برغمنا أو بطوعنا.

أنت الآن بعد القران السرّى أقرب إلىّ من الـ«كا» قرينتى فى العالم الآخر.

اغفر لى يا أبى، ليس فى هذا خروج على نواميسك العليا النهائية بل امتثال لها.

قال: منه المجدليّة مادلين مارينا الراميَة، اقترانى بها لن يفضّه شئ حتى آخر الدهور. دخلت أرضها حتى لو كانت مستباحة مبذولة فأصبحت بدخولى أرضاً بكراً تظل عُذريّة لم يتحد بها غيرى إلى الأبد وكأنك فى مكانة من قلبى توازى مكانة شقيقتى عايدة، «كا» قرينتى، التى سوف أبكيها فى ١٩٤٥ كما لم أبكِ أحداً من قبل ولن أبكى أحداً من بعد، إلاك أنت التى كم بكيتك، نحن واحد، واحد، واحد، نفساً وجسداً معاً، قضيباً ورحماً معاً، هذه هى وحدها طريق الرىّ من عطش الحياة، ولا رىّ أبداً.

يقول: ألم تفرغ بعد من أوهامك الرومانسية الصعبة الخائبة؟ ألا تعود إلى الاقتناع -أبداً- بأن الواقع الصلب غير الحلم، وأن ما حدث بالفعل ليس هو صياغته بهذه اللغة الطقسية التى محلها أسفار القدامى، ولا موقع لها على الانترنت ولا فى علوم الحاسوب أو القاطوع الالكترونى الحصيف؟

أخميم أو دلهى كلتاهما وهمٌ لغوى، محلة إيزيس، با«ريس»، محلة النور، جيرة السلتيين خان القبر الجميل، كلها لم تحدث حقاً، وما أقوى ما حدثت! محفورة هى فى قلب الحدثان..

أصوات الأبواب والنوافذ فى مواقع الحب والشهوة والتوحد والرغبة، ليست من فعل هبوب الرياح فى بابه، ولا من تخلع المفاصل الحديدية أو الوصلات الكهربية، بل هى تسبيحة للحب.

أغابيوس معى. فى دخيلتى، الراهب القبطى الذى اسمه على اسم المحبة، الذى يعرف سر محبة الجسد، ترنيمته للآلهة عشتروت مريم إيزيس رامة أفروديت منَة أنانا مارينا، نورها طعنة تخترق جسم البحر الأخضر العظيم، بخور يصعد ثم يلتوى هابطاً فى حلقات متطايرة لا تصل إلى شئ، لا تنتهى إلى شئ، أبدية الدوران أبدية الانقضاء أبدية الانتشاء من جديد.

أغابيوس متهضم الوجه أخذ الصلع يدب إلى رأسه ويتحيف شعره الذى كان كثيفاً يهبط إلى قرب عينيه على جبينه الضيق، ميالٌ للبكاء قريب الدمعة، يبكى ظلم العالم وظلم الجسد ويبكى لأن الجمال لا يحتمل،

«أريدى أغابى» أصنع محبة أصنع محبة أتقوى بالحب وأموت به الحب دائماً قائم ليس شهوة جسدانية فقط - وهى مقوم لحبى - ولكنه أيضاً حنو وعرفان وسماح وفيه شئ من خور القلب لكنه ضعف كأنه ملح الأرض به تنصلح وبغيره تفسد وتبور.

ويظل أغابيوس ينتظر الملاك - لأنه لم يبرأ قط من لعازر المدفون فى داخله - والملاك لا يجئ.

«خين فاويه» السماوىَ فى سكون الليل الأرضى.

ورق الزيتون أولها، ورق الليمون ثانيها، ورق التوت المنزوع أخيراً حتى يتعرى السرَ المكنون هو الثالثة الكافية الوافية، هو ورق الجنة التى نعود إليها معاً بعد أن نفينا إلى أرض الأوجاع والحرمان والعرق، على إثر خطية آدم وحواء الأولى.

إنت يا ستَ فيها متكيَة قدامك الكاس والصينية.

وإذ نقرأ فى أجبيَة المحبة والشهوة السماوية نطلع جبالاً فوق جبال أخميم الشرقية.

رهبان الفراعين قد دحروا تياتين البدو وتنانين النفط الأسود إذ سبكوا عجينة الوادى الخصيب بأشواق الروح والجسد المهين الفخور الذى لا يهمد ولا يستكين الذى يقهر القفار التى لا ماء فيها ولا هواء ويعمر الأرباع الخاوية والبقاع الموحشة بنورانيَة الكدح والمتعة بالحياة حتى لو جاءت بعدها ديدان القبر وعُرى الجمجمة من اللحم وخواء محاجر العينين.

آتوم الأول خنوم آتون يسوع المصلوب الذى شربوه الخلَ والمرَ ولكنه قام فى كل بهاء المجد ولن يعرف الموت كيف ينال منه أىَ منال، آمين.

آمين، مهما قلت يا ميخائيل مرقص أغابيوس إنك لا يقين لك فىَ شئ وإن طريق الإيمان والخلاص لا ينتهى إلى شئ طريقٌ مقطوع بالسؤال الذى لا ينتهى له معين ●

الفصل السابع

التحقيق

قال توفيق بك خاطر :

- تذكر يا محمد بيه قضية الأب باخوميوس التى حققنا فيها منذ أكثر من سنة ؟ طبعا تذكر . .

فأجاب المأمور بشئ من الضيق :

- طبعاً ، وحفظناها . . أقصد سعادتك حفظت القضية . أليس كذلك ؟ ما الذى جاء بسيرتها الآن .

فأجاب وكيل النيابة :

- آدى يا سيدى منشور سرى من رئيس النيابة ، بتصديق النائب العام ، أن نعيد فتح القضية ، بل أكثر ، هناك إذنٌ منه بفتح المقبرة ، إذا تطلب التحقيق ذلك ، وتشريح الجثة .

- لماذا ؟

- بدون رغبةٍ فى الاستزادة من التفاصيل : بلاغات مستمرة من واحد مجهول يسمى نفسه «القمص» وبناءً على طلب من ابن عم المرحوم ياسيدى .

كانت سيارة البوليس الفورد الكبيرة قد وقفت فى الساحة خارج الدير ، على الهضبة الصغيرة التى ينتهى إليها طريق الصعود الشاق المتعرج .

نزل منها ، وثباً ، فى الأول بعد أن ترك عجلة القيادة مباشرة ، الصول حسن شعبان مراسلة البيه المأمور وسائقه الخاص ، وفتح باب السيارة ووقف بحركة انضباط عسكرى ، فهبط المأمور يشد جاكتته حول وسطه المكتنز ، ويثبت طربوشه على رأسه الذى نال منه الصلع قليلاً . وهبط

بعده توفيق بك، بينما كان مفتش الصحة، الدكتور صبحى متى، والطبيب الشرعى، الدكتور قاسم اسحاق يتحركان للنزول. عزم عليهم المأمور أن يأتوا معه فى السيارة الفورد، ولا داعى لأن تصعد الجبل ثلاثة أو أربعة سيارات حكومية فى موكب لعله يثير القلق.

فى المضيفة الخارجية للدير كان ونس أفندى سمعان كاتب النيابة، وقد وصل مبكراً بسيارة أجرة سوف يصرف أجرتها من خزينة النيابة العمومية، مع قليلٍ من البحبحة فى الحساب، يجلس على المائدة نفسها، كأنما كان كل شئ بالأمس، بل الآن، بل كأن ما حدث منذ أكثر من سنة لم يقع قط، وإنما سوف يحدث بعد قليل: أمامه محمد بيه المأمور، يجفف عرقه بمنديله الكبير، وينفخ نفخاتٍ خفيفة من أنفه، لا تكاد تُحس، وتوفيق بيه يُمليه التحقيق مع رئيس الدير الجديد، الأنبا تاوضروس الذى بدا – مع هدوء طائره وخفوت صوته وكرم ضيافته– قوى الشكيمة بل يكاد يكون عدوانىَّ النظرة، طلب لهم «كركديه بارد» فجاء به راهبٌ شاب ينظر إلى الأرض باستمرار، على صينية خشب، فقال له الأنبا تاوضروس بلهجة صارمة: «اجفل الباب وراك يا فرج. ما تهمَلش حدّ يدخل».

هذا رئيس جديد للدير، مقاتل عنيد تحت إهاب الرهبانية الزاهدة، مكتبه فى الدور العلوى من الدير لا يدخله أحد إلا بإذن من خادمه وسكرتيره الراهب فرج الأشمونى، وكان قد طلب المكتب الموجنى الفاخر من أسيوط والنجفة الكريستال بمصباح الغاز الكبير والسجاجيد العجمى من القاهرة، وحظَر على الرهبان أن يخاطبوه إلا بلقب سيّدنا، وهو من حقه فهو بطريرك هذه الجماعة وقائدها وصاحب السلطان الروحى والدنيوى فيها.

بدأ التحقيق بعد المقدمة:

س: ما قولك فى أن رئيس الدير السابق المرحوم الأنبا باخوميوس،

حسب البلاغات المتواترة، لم يمت ميتةً طبيعية بالقلب، بل مات مقتولاً بالسم؟

ج: الحقيقة أنه مات ميته طبيعية أثناء أدائه خدمة القداس الإلهى فى كنيسة أباهور، بحضور الراهب أغابيوس، وأبونا فيليبوس ابن أخيه كاهن كنيسة أباهور والأرشيدياكون جورجى بولس. ذهب للسماء لأنه عاد إلى بيت أبيه.

س: ما صفة حالة الأنبا باخوميوس قبل وفاته؟

ج: كان مريضاً بالقلب. وكنا كلنا نحرص على رعايته بواسطة خادمه بطرس الذى ظل يعمل معه بإخلاص. وكان الدكتور أسعد منصور والدكتور صبحى متى – وهو حاضر معنا الآن – يتوليان علاجه. وكان الأنبا باخوميوس معززاً مكرماً يقيم فى الدور العلوى من الدير فى الغرفة المخصصة للرئيس. لكنه فى الحقيقة لم يكن رئيس الدير فى ذلك الوقت.

أخفى وكيل النيابة دهشته، كما يليق بالمحققين، وسأل بصوت محايد:

س: ومن كان الرئيس؟

ج: قررت البطريركية أن تعيننى رئيساً بعد عزل باخوميوس فى ذلك الوقت بسبب مرضه أو لأسباب أخرى.

س: ولماذا عُزل؟

ج: كان مريضاً وغير قادر على تولى شئون الدير من ناحية. وكانت هناك أسباب خاصة – يعلمها الله – نمت إلى علم البطريركية.

س: وما مدى علمك بهذه الأسباب؟

ج: لا أجيب عن هذا السؤال بعلّة حُرمانية الاعتراف.

س: ما هى هذه الحرمانية؟

نظر إليه الأنبا تاوضروس فى عينيه، وأجاب بشئٍ من التعالى:

ج: محظورٌ على الكاهن حظراً تاماً أن يبوح بما يقال له أثناء طقس الاعتراف. ولكن حدثت في عهد باخوميوس عدة حوادث.

س: ما هي هذه الحوادث؟

ج: وقعت أيامه حادثتان: الأولى في سنة ١٩٣٨ عندما عثر على الراهب عبد القدوس ميتا في قلايته، في وقتها قامت تحقيقات لكنها لم تتوصل إلى شئ.

س: من هو عبد القدوس؟

ج: راهب كان مصاباً بداء السحر، كان ينزل من الدير ويدخل بيوت العائلات ويدعى القدرة على شفاء الأمراض والعلم بتعاويذ وأفعال السحرة وكان يتلو الرقى والعزائم ويخرج الشياطين. السحر شرٌ من عبادة الأوثان. نطلب من الرب أن يسحق الشيطان تحت أقدام المؤمنين بقدرته تعالى وحده.

نظر ونس أفندى إلى وكيل النيابة كأنما يستأذنه في المضى في الكتابة فأومأ إليه برأسه موافقا دون كلام، بينما كان الأنبا تاوضروس يكمل:

- الالتجاء إلى السحر خطيئة لأنها تعادل الارتماء في أحضان الشرير عدو الله.

س: ولماذا سكت عليه الدير؟

ج: لم أكن في هذا الوقت مسئولاً، كنت راهباً بين الرهبان.

س: ما هي الحادثة الأخرى؟

ج: في كيهك منذ سنتين عثر على الراهب بسطوروس قتيلاً في قلايته، ورغم أن البوليس دخل الدير وعثر في قلايته على البلطة التي ضرب بها ١٨ ضربة في جسده - ١٨ رقم مقدس في الطقس الإلهي - وقبضوا على أربعة علمانيين ممن كانوا يترددون على الدير..

قاطعة وكيل النيابة:

س: ما معنى علمانيين؟

ج: من غير الرتب الأكليركية، أى من غير الشمامسة والكهنة والرهبان.

س: أكمل!

ج: كان من بين الأربعة ولد فى الرابعة عشرة كان يحضر للدير ويعمل فى الفرن تحت إشراف بسطوروس. مع أن هذا ممنوع، وكان يخصه بكثير من الألطاف، لكن التحقيق لم يتوصل بشئ أيضاً. كل ذلك كان قبل عهد سعادتك فى النيابة وقبل أن يشرفنا محمد بيه نبيه فى المركز، والمحاضر موجودة. الحقيقة أن بسطوروس كان مختصراً فى نفسه وطيباً وعنده حنية على كل من يعملون معه فى المطبخ وفى الفرن.

س: هل تتهم أحداً بقتل بسطوروس؟ من قتله فى رأيك؟

ج: أسأل ربنا.

س: هل قام الدير بتحقيق داخلى فى هاتين الحادثتين؟

ج: لا. لم يكن هناك نظام للتحقيق مثل الآن.

س: هل تقصد منذ أن توليتم الرئاسة رسمياً وفعلياً بعد وفاة باخوميوس؟

ج: نعم. حال الدير الآن أحسن من أى حالٍ مضى.

س: كيف تم اختياركم رئيساً؟

ج: بتوفيق من الله وبمشيئته وحده. أقول الحق لقد رفضت ذلك أولاً، وتركت القيادة - حتى بعد تعيينى رسمياً - تركت القيادة للمتنيح الأنبا أبا باخوميسو طوّبه الله فى ملكوته.

س: كيف قابل الرهبان خبر تعيينك قبل وفاة باخوميوس؟

ج: نحن كلنا أخوة فى الرب. لكن الحقيقة أنهم قاطعونى وأغلقوا أبوابهم أمامى، وكان منهم ثلاثة من أنصار الأنبا باخوميوس حرّضوا

الباقين على الرفض والعصيان، لكن الله خيّب مسعاهم.

س: من هم الثلاثة وماذا حدث لهم؟

ج: بطرس العصفورى خادمه الخاص مات العام الماضى بعد أن نُقل إلى دير المحرق مع سوريال أمبولا، أما ديمتريوس جندى فقد نقل إلى دير السريان فى وادى النطرون.

س: هل لهؤلاء الثلاثة علاقة بالحوادث التى وقعت فى الدير وهل نقلوا بناءً على طلبكم؟

ج: ربنا هو العليم بكل شئ. ويعلم الله أنه على رغم غضب البطريركية عليهم فإنى أرسل لهم مرتباتهم من هنا، لأن مرتباتنا أعلى، الراهب عندنا له جنيهان بالتمام والكمال، شهرياً، ليشترى حاجاته الخاصة.

ج: هل يتفق ذلك مع تعاليم وتقاليد الرهبنة؟

ج: لا. فنحن نسامح فى هذا، وربنا يسامحنا. المفروض فى الراهب أن يكون منقطعاً للعبادة وخدمة الرب، والمفروض فى الدير أن يكون هو «العالم من غير شرّ» لكن الشيطان يحارب قوّات الرب باستمرار، وقوات الرب سوف تنتصر.

س: من أين تُصرف هذه المرتبات؟

ج: من دخل الأوقاف الخيرية القبطية التى وَقَفها الأبرار على الدير منذ زمنٍ قديم.

س: هل لديك أقوال أخرى؟

ج: لا، وربنا موجود وقادر على كل شئ، الأنبا باخوميوس جاهد الجهاد الحسن وأكمل السعى وحفظ الإيمان ونال إكليل البر. كان معلَماً عظيماً بالحب أولاً وكان الله يعطيه نعمة بالمحبة المملوءة بركة. كان رحيماً متسامحاً وطيباً مع أولاده الرهبان ومع الرعية، فليذكرنا فى السماء مع الكنيسة المنتصرة كما نذكره مع الكنيسة المجاهدة.

وقع على أقواله ورسم علامة الصليب على توقيعه
وأقفل المحضر على ذلك فى ساعته وتاريخه

ثم أمرنا نحن توفيق خاطر وكيل نيابة أخميم بإحضار المدعو أبادير اسطفانوس وبسؤاله أقرَ بالآتي:

س: اسمك وعمرك وعملك؟

ج: أبادير اسطفانوس منقريوس، ٢٧ سنة، أملك وأدير مكتباً بجانب سراى المحكمة فى سوهاج للأعمال القانونية مثل إنهاء التوكيلات وكتابة العرضحالات والاتصال بالمحامين للدفاع عن ذوى الحاجات و..

س: طيب طيب، ماذا تعرف عن ظروف وفاة الأنبا باخوميوس وما صلة قرابتكم؟

ج: هو عمىَ أخُ أبى لزمْ. كنت عرفت منه أن الدير يعامله معاملة سيئة ويؤخر وصول مرتبه إليه مع أنه كان زاهداً فى متاع الدنيا. وقام شخص مجهول برفع صورته الكبيرة من قاعة المضيفة هذه التى نحن فيها، وكانت جنب صورة البابا البطريرك حفظه الله وأعطاه أعواماً مديدة. ولم يضع صورة أخرى بدلاً منها حتى وفاته، عندما وضعت صورة كبيرة لتاوضروس حتى قبل أن تبرد جثة الطوباوى الأنبا باخوميوس.

س: هل تعتقد أن فى وفاته شئ غير طبيعى؟

ج: الله أعلم، لا أستطيع الجزم بشئ. لكن هذه الظروف كلها غير طبيعية.

س: لماذا؟ ما هو غير الطبيعى حسب علمك؟

ج: لاحظت أشياءً تلفت النظر. كنت فى زيارته هنا فى الدير قبل يومين من وفاته، عندما كنا واقفين أمام غرفته بعد انتهاء زيارتى له، اقترب منا الراهب سمعان ووقف يتسمّع ما نقول، وعندما طلبت منه

باستعاد تلكأ كثيراً.

س: وما الذى لفت نظرك فى هذا الأمر؟

ج: أنّ الراهب سمعان بعد وفاة الأنبا باخوميوس زاد مرتبه إلى ثلاثة جنيهات شهرياً من غير مبرر معقول، وهو مبلغ كبير جدا، وقال لى عمى إنه يشعر بآلام فى المعدة، وكان خادمه بطرس يحضر له طعاما مخصوصاً، ويعطيه الدواء.

س: وما الغريب فى ذلك، فقد كان باخوميوس مريضا؟

ج: نعم كان مريضاً بالقلب ولكن آلام المعدة لم تظهر عنده إلا بعد فترة من تغيير نظامه فى الأكل بأوامر من الرئيس الجديد تاوضروس.

س: هل لاحظت أمراً آخر؟

ج: رغى كلام!

س: ماذا تعنى بذلك؟

ج: يوم وفاته بعد أن دُفن فى مقبرة الدير وبعد أداء طقوس الصلاة شاهدت حلقات من الرهبان فى الدير ومن الناس الذين حضروا القداس، تتقارب رءوسهم ويتحدثون همساً بلهفة واضحة. فهمت أن فى الأمر شيئاً، وعندما سألتهم هزوا رءوسهم ولم يقولوا أى شئ. إلا أن ثلاثة منهم قالوا لى «خذ حقَ عمك».

س: هل سمعت شيئاً بالتحديد من هذا الرغى؟

ج: لا

س: من هم الذين شاهدتهم يتحدثون على هذا النحو؟

ج: لا أتذكر.

س: لماذا لم تبلَغ فى حينه؟

ج: لم أكن متأكداً من شئ.

س: هل لديك معلومات بشأن البلاغات المقدمة عن وفاة عمك؟

ج: لا

س: هل أنت الذى قدمت هذه البلاغات دون إمضاء؟

ج: لا

س: هل لديك أقوال أخرى؟

ج: لا وربنا موجود هو العليم بكل ما يخفى على البشر.

ووقع بإمضائه.

أمرنا نحن توفيق خاطر وكيل نيابة أخميم بحفظ التحقيق نظراً لعدم كفاية الأدلة والقرائن الموجبة لاستكمال التحقيق أو لاتخاذ إجراءات أخرى، مراعاة لما يتمتع به المعنيون من اعتبار، فى الهيئة الاجتماعية، وأُقفل المحضر على ذلك فى ساعته وتاريخه.

تنهد محمد بك نبيه المأمور، ووضع طربوشه على رأسه وقام يزرر جاكتته الميرى، وقال:

– الحمد لله يا توفيق بيه ما كناش حنخلص من وجع الدماغ

– مازال علىّ أن أكتب مذكرة لرئيس النيابة لشرح أسباب حفظ التحقيق، بالتفصيل، وربنا يستر. على كل حال موقفى القانونى لا غبار عليه.

طلّ على الحليوة من نجار البيت   هوَ الجمر فى السما ويش نزله ع الحيط

لجل الجدر جام جابلنى وأنا جاى م الغيط   جعبز وجال لى: ميته جيت م الغيط

كبداى ولداى عادَ يا بُوى

خلجاتى بُرخمُ علىّ من يُوم جيّت   لاسمر كوانى بناره ريتنى ما جيت

كبداى ولداى عادَ يا بُوى

أسمعها فى أول الليل، صوت الصعيدىّ الشاب قوىّ وحانٍ ومليّ بالشجن، يتردد من بعيد، فى الشوارع الخالية، أمام البيوت مقفلة البيبان.

أخميم البعيدة، لم نكن عرفنا شيئاً اسمه التليفزيون، وحتى

الراديو كان شيئاً عزيزاً ونادراً، وكنا نحلم بالكوبرى الذى يربط بيننا وبين سوهاج، بدلاً عن المعدّية التى طالما عبرتُ عليها مع صديقى مصطفى قاسم إسحاق من أخميم إلى سوهاج والعودة وحيداً فى الطريق الترابى المخوف، المعدية التى عبرت عليها هنية يوم لقيت موتها فى سقيفة جنينة مرقص أفندى التى كان قد اشتراها من زكرى أفندى، التى دفنا فيها ماجدولينا المهرة كأننا ندفن سالومة بنت عمى اسطفانوس مرة أخرى، وكأنها لا تموت ولا تطويها مقبرةٌ أبداً.

هوس الجسد المضطرب

تهدّل الثدى الأسمر الصغير وطراوته خلف النسيج الخفيف كأنه داعٍ لأن تحتضنه اليدان، تحيطان به، تمنعان عنه كل سوء.

يسقط مهروساً فى إسار سوراتِ سُخطٍ لا تستديم.

دخلتُ أجزخانة الدكتور ميساك ابن عمى سيداروس أسلّم عليه، كانت فيها رخامة عريضة من الحيط للحيط، فيها قُطاع يُرفع للمرور ثم يعود فيصطفق بشدة على قاعدته، ومن ورائه باب معمل الأجزاخانة حيث كان يركِّب الأدوية، أيامها لم تكن هناك كل هذه العقاقير الجاهزة لكل داء ولغير داء، بل كان الصيدليّ نصف ساحر نصف عالم هو الذى «يركّب» الدواء بنسبٍ محسوبة ومقادير دقيقة، حتى لو لم يصفها الطبيب المعالج بوضوح، وفى وسط الجزء العلوى من باب المعمل الداخليّ المرهوب زجاجٌ أسود سميك يحيط به إطارٍ خشبيّ داكن مدوّر السُمْك، على الزجاج بالخطّ الثُلُث المذهّب كلمة «سموم» وتحتها كلمة «سليمانى» (أين ذهبت هذه الكلمة «سليمانى») وفوقها رسم جمجمة وعظمتان متقاطعتان.

تُرى أى نوعٍ من «الدواء» كان الدكتور ميساك يحضّره ويعطيه للأنبا

باخوميوس؟

أم أن هذه كلها مجرد نوستالجيا أو مجرد خيالات لا تخلو من سقم واضطراب؟

صورة من سجل مبايعات محكمة أخميم الشرعية برقم ٢٤ مسلسلة بصحيفة ١٤١ برقم ٧٩ متتابعة، كطلب جناب زكرى أفندى منقريوس في ٢٢ مايو ١٩١٦ برقم ٣٠٦ طلبات أنه أشهد على نفسه كلاً من عين أعيانه وفرح أقرانه حضرة سيداروس أفندى قلادة محاسبكى الكومبانية العزيزة المصرية، سابقاً، ومحاسبكى مصلحة المالية حالياً، وشقيقه جناب قلدس أفندى قلادة وسلوانس أفندى قلادة المُعيَنون بمصلحة الانجرارية سابقاً، باشكاتب مجالس المحاسبة والمقابلة بالماليَة الآن، التابع للدولة العلية العثمانية كلٌ منهم أولاد جناب المتوفى قلادة هرمينا الخراز ولد المعلم هرمينا الخراز النصرانى القبطى الأصلىَ الثابت معرفتهم جميعاً بشهادة كلٍ من سيأتى شهودهم بالإشهاد الشرعىَ، وهم بالصفة المعهودة شرعاً أنهم وقفوا وأحبسوا وثبتوا وأيّدوا وتصدقوا سوية أثلاثاً بجميع منفعته زراعة القطعة الأرض البالغ قدرها فدان ونصف وربع فدان وثُلث قيراط من فدان وسهم ونصف سهم قيراط من فدان طين سواد سلطانى خراجية من زمام نواحى أخميم بحوض النُبارية بزمام القيساريَة غربى يصرف ريعها فى مصالح ومهمات كنيسة أبو سيفين وكنيسة الست دميانة بأخميم البلد، وكنيسة دير توماس ودير الأنبا باخوم بالصوامعة ودير الملاك ميخائيل قرب السلامونى ودير الأنبا بسادة أمام المنشاة، ودير السيدة العذراء بالحواويش.

لا تنتهى حكايات أبى، يكررها أحياناً بالنص، من خزين الفولكلور العائلى.

ومنها حكايته عن عمه المعلم منقريوس الذى كان عالما بالسحر وفنون عمل الأحجبة والأعمال غير الردية، وأنه فى ذات يوم من الأيام، عندما كان أمام الشونة القديمة، جاءه رجل غريب عن البلد، وضئ الوجه يشع النور حوله من فرط وسامته، ولكن خطواته قوية منضبطة عسكرية، عباءته السابغة زرقاء داكنة من قماش مخملي تنسدل على ظهره الذى رأى المعلم منقريوس كأنه يطوى ويخفى شيئا كبيراً يخرج من وراء ذراعيه وإلى كل من جانبيه، ويحمل فى يده عصا مدببة الطرف.

وكان فى رجليه نعل جلدىّ غريب الشكل له سيورٌ تحيط بالقدمين وترتفع إلى الساقين.

جلس الغريب بعد أن رحب به المعلم منقريوس، ورسم بعصاه المستقيمة علامة السمكة «أكثيث» على أرض الشارع، كما كان القدامى يفعلون عندما يتعرفون بعضهم البعض.

قال له: ياعم منقريوس طارت لك سمعة أن لك معرفة بالكتب وكشف الحجب وإظهار الخبئ. ياليتك تطفئ غلتى أن أعرف شيئا طالما حيرنى وشغل بالى.

قال له عم منقريوس باسماً وجاداً: خير عاد، إيه الخبر؟

قال الغريب: فى أىّ ربع من أرباع السماء يوجد الملاك ميخائيل؟ قل لى ولك الثواب من العلى القدير.

فتح المعلم منقريوس كتابه الأصفر القديم بجلد غزال لامع دسم الشكل من فرط استخدامه، واستخرج دواة الحبر المزدوجة أم عينين من طيات حزامه الحريرى العريض الذى يلف به بطنه العظيم، وريشة الأوزة المخروطة المقصوصة التى كانت مرشوقة بالحزام، ورسم الحجاب وأخذ يحسب ويضرب ويقسم، يضع نقاطاً بالحبر الأحمر على حروف بعينها، وبالحبر البنفسجى على حروف بعينها، لكن الحسبة لا تنضبط

معه، إذ يجد أن كل ربع من أرباع السماء خالياً من الملاك ميخائيل، وهو مستحيل. فيعيد حساباته وتضريباته ورسوماته ومازالت السماء كلها خاوية من الملاك ميخائيل.

ولما لم يكن عم منقريوس ساذجا ولا هو ابن البارحة، فقد أدرك عندئذ من هو الغريب الماثل أمامه، لم يكن فى أى من أرباع السماء لأنه كان أمامه، على أرض أخميم.

قال له الغريب على الفور: لا تقم لى ياعم منقريوس، القومة لك، الآن تعرف أن كتبك وأسحارك لا تحيط علما بكل شئ.

ونهض.

مرة أخرى فى حياة منقريوس توهج نورٌ خاطف كاد يعشى بصره، ولكنه هذه المره سمع ما يشبه خفق أجنحة ضخمة بينما رأى العباءة الزرقاء تتطاير فى الهواء والعصا القصيرة تشع منها ألسنة اللهب وهناك فى السماء رفرفة عظيمة. ولما فتح عينيه لم يجد أثراً للغريب، ولما سأل الفلاحين والأجرية والفواعلية قالوا له سلامتك يامعلم، ما رأينا أحداً ولا كان أحدٌ يكلمك. ومال عليه أحد خلصائه قائلاً: أنت تجلت العيار شويتين يامعلم، ولا تكونش عينك غفلت عادً.

لم يتكلم عم منقريوس، وقام، حمل كل كتب أسحاره ومضى بها إلى غيطه حدا شط النيل، ودفن الصندوق الكبير الذى يحتويها، فلما ارتفع الفيضان هذا العام كانت المياه الجارفة التى تتدفق بالطمى الخصيب وبصرامة الاندفاع تأتى عند هذه البقعة حيث دُفن الصندوق وتقف تتأرجح حولها وتتحيرُ وتدوم وتهدر وتتلاطم مياهها بعضها ببعض كأنها تصطدم بحيطان عالية غير مرئية وتظل هذه البقعة جافة تبدو والمياه تحيط بها، عميقة كأنها بئر يحيطها سياج غير منظور ترتطم به مياه الفيضان وتنكص عنه خاسئة.

مات المعلم منقريوس فى شهر كياك المريمىّ هذا العام، وعندما

حفروا في هذه الأرض وكشفوا عن الصندوق واستخرجوه وعرفوه، غمرت المياه فجأة - في التحاريق - هذه الأرض وعوّمتها.

وفي ليلتها دون تعويق اجتمع أبناء منقريوس الرجال الثلاثة:

زكري أفندي وأبونا باخوميوس والمرحوم اسطفانوس وصنعوا محرقة في الغيط الشرقيّ وارتفعت النار بالكتب والأسحار حتى وصلت إلى عنان السماء تصدر عنها أصوات غريبة ثاقبة كأنها كلها ألمٌ واستنجاد وعذابٌ لا يطاق، كأنها كائنات حيّة وديعة هي التي تحترق بالنار.

أخذ الرجال الثلاثة ماءً مصلّى عليه في الكنيسة ورشّوه على البقعة التي كان الصندوق مدفوناً فيها، وصلّى أبونا باخوميوس، وبذلك بطل السحر بنعمة الله.

(لا تنتهي حكايات الفولكلور العائلي التي رواها لنا أبي، وجئت أنا في آخر الزمان أدوّنها بمزيج من الخشوع والطاعة والإنكار والرفض من غير استهزاء ولا تهوين شأن)

ومنها حكاية تاسوني إيريني الراهبة التي كان اسمها مريوم قبل الرهبنة، أخت مارتا وهيلانة وأجيّة بنات المرحوم سيداروس.

روى أبي أن تاسوني إيريني كانت نذرت نفسها عروساً للمسيح وترهبنت في دير للراهبات على اسم القديس أبي سيفين، في بحري هناك، نواحي كوم بوبيللو، بالقرب من بلدة صغيرة اسمها الطرانة - بلد أمكم وستكم أماليا ياولاد.

صلّت تاسوني إيريني بلجاجة أن ترى عريسها هنا على هذه الأرض قبل أن تلحق بالأمجاد السماوية، ولما استمرت لجاجة صلواتها حنّ لها قلب عريسها وسمح للملاك أن يصعد بها إلى السماء.

رأت تاسوني إيريني ثلاث قباب كبيرة، تقع إحداها فوق الأخرى بمسافة بعيدة، بيضاء تلمع كاللؤلؤ فوق السحاب.

سمعت تحت القبة الأولى ترانيم طغمات الملائكة وتهاليل القديسين

والأبرار، تحت من بينهم أب الأباء إبراهيم وولديه يعقوب واسحاق، والنبي داود الذي كان ينشد على المزمار، كما رأت اللص اليمين المغفورة له خطاياه لأنه آمن وهو مصلوب إلى جانب يسوع، وحشود القديسين من كل الملل والألوان والأجناس يغنون بألحان متناسقة شجية يرقص لها الفؤاد.

ولما صعدت إلى القبة الثانية نعمت بمرأى حدائق فسيحة شاسعة الأرجاء فيها من الورود والأزهار والأشجار ما لا عين رأت ولا خطر ببال بشر، لا تقاس بها كل جنات الأرض في روعتها وأناقتها ونضارتها، تتخطر فيها الغزلان والأيائل والبجع وصنوف من الأطيار كبيرة وصغيرة ملونه حمراء وزرقاء وصفراء، شدو البلابل والعنادل يتناغم مع خرير المياه إذ تنسرب بين مجاليها في تضافرات وتآلفات موسيقية عذبة تردّ الروح لا نظير لصفائها وعمق شجوها وما فيها من تحليق (ألم يكن بالضبط هذا ما كان متوقعا؟)

ولما اقتربت صعدا من القبة الثالثة، فوق الأعالي، قال لها الملاك:

- تاسوني إيريني، يا عروس المسيح، لا تقتربي أكثر، أنت مازلت بعد في جسدك الأرضي، ناسوتك لا يحتمل نور المسيح.

لكن تاسوني إيريني كانت قد لمحت وجه يسوع الوضئ.

وعندما اقتربت قليلاً أحست صهد النار وعرفت أن نصف وجهها قد احترق، لكنها لم تحس له ألماً بل سعادة غامرة أنستها كل شئ.

وعندما نزلت إلى الأرض مكثت في قلايتها ثلاثة أشهر عدداً، حتى شفي وجهها من غير علاجات أرضية ولا مراهم ولا أدوية وعادت إلى بشرتها نضارة بنت السادسة عشرة.

هكذا روى لنا أبي حكاية تاسوني إيريني.

قال لنا إن «تاسوني» معناها بالقبطي «الأخت».

أما تاسونى الأخرى، قرينة ذاتى، فقد انطلقت من شرنقة الجسد تصعد إلى قبابها الثلاث.

فى القبة الأولى عانقت ديونيزيوس، احتضنت پان وقبّلت اللحية الهائشة الشقراء والوجه الباسم الضحوك والصدر المشعر المفتول والظلف المشقوق، ضاجعت القرد الإلهى صاحب القضيب المقدس المهول الذى اخترقها كالرمح المشتعل بما فيه من دماء الشبق غير المحكوم، تحوّل وهو عليها فإذا هو الإله مين الذى تفيض خصوبة منيّه على العالمين، ضربها بالعشق حتى أوشكت أن تموت، وهى تئن وتشهق وتنخر وتغنج حتى إذا انهدّت فى أورجازمها آبت إلى الموت الصغير فى انتظار الموت الكبير الذى هو حياة متصلة لا خلود فيها، فما الخلود إلا لحظة.

أما فى القبة الثانية فقد كانت فوضى العالم هى التى تضرب أطنابها فى الأرض المتفلّتة الموّارة بالبراكين وحُمم اللظى الذائبة المتقدة بلهب مُستعر لا يُطاق الدنوّ منه وهى فى قلب البركان تدفق الأشياء فى هذا الجحيم فيضان من الكائنات والمعانى معاً، الحيوانات فاغرة الأشداق وديناصورات الأشواق البائدة والعظام البشرية الباقية من ملايين السنين، ضَرَبان الأسئلة كاندفاعات الدماء تتحدى كلها أنياب الفناء، جذوع لأشجار عملاقة وصروح البنايات الساحقة تجرفها سيول مياه الشلالات والصبوات والحنان المهدور، هَوامّ الأرض وأسرابٌ كثيفة من فراشات السماء ترتطم بصرخات اللذة من وَجَع المتعة التى لا تُحتمل، الحدأ الصارخة والخفافيش الزاعقة ونسور الرُخ والبُغاث معاً تنقضّ على تاسونى أنا الأخرى دون إشفاق وتنهش من جسدها البض المبذول وفرجها المبلّل المفتوح، محتومٌ، عِقاب الفجور شاهق التحليق فى عنان البهجة بالحياة هو نفس الموت الذى هو لا نهائية الحياة.

أما فى القبة الثالثة السفلى فقد احترق نصف جسدها بنار العشق

وتطايرت الأفواف التى فى حواشيها شعاليل صغيرة من وشى الجمر المتلوى الذى يسقط رماده على نصف جسمها الناعم، نبض التوتر الجامح لا سلطان عليه فى ذروة الاقتحام وجزاء اللذات المحرمة محتوم، أحد نهديها قد التهمه وهج النار وسال اللبن العذرىَ الذى لم يُرضع أحدا قط ساخناً على قبة البطن الصغيرة واستكنَ الذوب الحار فى الحمى الحريز أما النهد الآخر فمازال منتصباً كامل التدوير دمث البضاضة حلمته الطويلة ينز منها نكتار الخلود الخايل الموعود الذى لن يجئ أبداً، احتراق نصف الروح نصف الجسد فى انتظار الموت الفادى ذروة حياة لا نهاية لها لن يخفت لها النداءُ الموصول.

قال: هأنذا أدوّن النصوص المعتمدة لفولكلورهم القديم كأنما أخشى عليه - خفيةً - من الدثور، ثم أضيف إليه الأبوكريفا من خلقى أو اختلاقى.

لماذا؟

وأنا فى النهاية لست منهم.

أزعم لنفسى أننى ابن كيمى كلها قديمها ووسيطها والعصرىَ على السواء، ترابها وتبرها، آلهتها وأوثانها وقديسيها وأوليائها مشايخها وقسوسها وملاحدها شطّارها وأشقيائها المارقين وشهدائها من كل ملّة ودين.

قال: أنا لست إذن قبطياً بالمعنى المألوف، ولست ديّنا بالمعنى التقليدى، بل علمانى وأغنوصى حيناً وغُنوُصى حيناً، دائم العطش والسؤال، لا أدين لعصر واحد ولا لعنصر واحد بالتأليه والتمجيد - إلا كيمى، هذا الملاذ المكنون التليد المضروب الجريح دائم البقاء، هذا عندى مقدس، مقدس، مقدس، أجيّوس إلى دهر الداهرين.

لا داعى إذن أن يعلمنى أحدٌ أياً كان شيئاً يظن أننى لا أعلمه،

النسيج الذى يلفني ويلفكم فى الحياة وفي الموت واحدٌ وثيق متنوع ولكن متضافر مع تميّزه والتمييز فيه عبر السنين وفى ذات الآن، ليس هناك أنا وأنتم، بل نحن جميعاً، نُضرب معاً إذا ضُربنا، ونصعد معاً فوق الضربات إذا صعدنا. نحن واحد.

ولست أقول جديداً بل أقرر - وأكرر - ما هو واضحٌ للعيان.

النسر ملك الطيور يغتذى أيضاً بالجيفة والحمل المذبوح يحلق بجناحيه الشاسعين يملآن السماء حاملاً آثامه وأمجاده إلى أعلى ذرى الجبال الشواهق روحٌ ملوث بدم القتل غير المبرر غير الضرورى لكنه محتوم ومكتوبٌ فى لوحٍ مسطور بإصبع نارية، النسر يهبط من حالق ليضرب بمنقاره المعقوف المسنون ظهر الذئب الكاسر فى ضراوة نهمه الجسدىّ المطبق على جثة ماجدولينا مهرة سالومة قد دفناها في قبر عميق فهل نبش الوحش الضريح ودخل من الأبواب القدسية؟ مخالب النسر ناشبة في الجسم المتلوى بكل شراسة التشبث بالحياة عيناه المشتعلتان مستغرقتان فى متعةٍ وحشيةٍ تنشق عنهما شهوات شاردة مشدودة، تهشم جناح النسر وتمزق جسم الذئب فى عناقهما الشبق الذى لا انفكاك له وتناثر الريش الكبير ملطخاً بدماءٍ غير نقية تنضح من أشلاء الوحش التى مازالت ترتعش آخر ارتعاشات الحياة.

هوس الأجساد الملتبسة يستجدى شبقاً عصياً من أوثان تومنى المستحيلات ياسيدة عُرسى وصليبى الثقيل أين المرسى فى الثبج المصطدم بأسوارى صروح الـ sand castles تتساقط قصور الكثبان نوارس الصخور استحالت هلاوس سموم الأسرار أسرار السموم كيرياليسون مسرات أوصالى على سريرى المنصوب صنماً مسوىً فى استحكامات اليأس لا تنفصم هل السيف يحسم السؤال؟ أم أن كل النصوص سعيٌ إلى تفصيل صبواتٍ سارحة فى ساحات السؤال؟ السواد سائد وحتى إذا سلّمت بسُلطته فلا أستكين له. السّجاجْوة سجت

سجلات الشجو والشجا، شحت السقيا واستحالت الجواميس sea gulls منسابة على سيول الأسى فى سحابات ساجية منسربة على شواحط السنين ساحقة السأم، الأشرعة المنبسطة على السفن الرواسى لا تستنيم إلى سكون فيه تربص الحقوف، جسدى مازال مستشيطاً باستيهامات المعاشق التى لا تنسكب من سواقى السماوات بل هى مسوقةٌ إلى سعير ديونيزيوس، سامية جمال ترقص فى ساتان السينما ودى إتش لورانس يصوغ لنا عشق الليدى تشاترلى أشيده فى صميمى، صخورُ السماء قداسات في صلبها دنسٌ أصفى من الصفاء أستار مسترسلة سيورتى سلطانتى مسممة القسمات مكونةٌ بالسر من سلالة السيرينات السيرافينات اللاتى امتصصن المساعير مصروعة مسحوقة سرمدية الترانسدالية منصورة سامقة. كيرياليسون كيرياليسون، لماذا تشوقنى وتسومنى وسوسة هذه الأصوات أبالسة اللغة الصغار جرس أصدائها تأسرنى سطواته.

الإسكندرية فى ١٢ يوليو سنة ١٩٤١

ولدنا العزيز

أهديك مع السيدة والدتكم وأشقاكم مزيد سلامى وكثير أشواقى وأرجولكم صحة تامة.

عزيزى وصلنى جوابكم أول أمس وكان سابقاً منى جواب لكم عسى تكونوا اطمئنتوا فيه، طيه ورقة بمبلغ خمسون قرش صاغ بالاستلام يفاد، أنا مشغول كتير ومنمدة لم أقابل سوريال لكونى لم أتمكن من الذهاب إلى غيط العنب فى النهار يعنى الظهر أو العصر وحضرته بيبات فى كفر الدوار وهذ الأسبوع من يوم الاثنين ونحن بنبات بالإسكندرية جميعاً بالنسبة لمشقة السفر وزيادة المصاريف ثم أول أمس حضر لطرفنا الأخ ناثان أفندى بعربته وفهمنى بأنه لم يشتغل

سوى له يومين فقط ثم أمس تقابلت مع الأخ يونان أفندى ومنه علمت بأنه سيحضر للإسكندرية يومى ويشتغل بإسكندرية ويعود لدمنهور يوميا لعلّى أجد فرصة الأسبوع القادم وأتمكن من شحن الفرش والنحاس كطلبكم ومن جهتى أنا لم باصرف مليم واحد سوى ثمن الدخان، أكلى وشربى مع المعلم ليل ونهار إلا أن لم فيه فوايد والحمد لله على ذلك وإنما فى الحقيقة متألم جداً يعلم الله نحو عشرون يوماً لم أغير هدومى والهدوم نضيفه ومغسولة ببيت عبد المسيح وإنما غير فاضى أتوجه هناك ونسأل الله يصلح الأحوال وأنا راضى بذلك وصعب على جداً أن أترك عملى وأحضر لطرفكم وإن شاء الله تنتهى هذه الحالة بخير. بلغ سلامى بأشواق متزايدة لأخواتك والست والدتكم.

ختاماً سلامى لشخصك العزيز ودمتم

والدكم

(إمضاء)

بعد تحريره علم لنا بأنه الست أم فكرى هاجرت وسافرت هى وأولادها والسكان لم يعرفوا لأى جهة سافرت، منزلهم ٧٤، عم مرجس موجود لوحده ولا أعرف شى عن عائلة الست لولو واليوم ٧/١٣ توجهت منزل عبد المسيح واستحممت يكون معلوم.

والدكم

الإسكندرية فى ١٤ يوليو سنة ١٩٤١

سيدى المحترم وولدى العزيز

أهديك وحضرة السيدة والدتكم وأشقاكم كتير سلامى وأشواقى أرجو من رب القدرة والعظمة يحافظ عليكم وينجيكم من كل سوء ويورينى وجهكم بخير. سيدى أمس وصلنى جوابكم وكامل شرحكم علم وتطمنا على غالى صحتكم وكان سبق أرسل لكم جواب بداخله خمسون قرش صاغ ليدكم بالسلامة. عزيزى الليلة الماضية كنا بايتين

باسكندرية وضربت صفارة الإنذار الساعة ١١.٤٠ وبعدها الأمان الساعة ١٢ طوالي بدون ما يحصل شئ كليتاً والحمد لله، المدينة هادية والحالة مشيت وبعض المهاجرين حضروا حتى زوجة المعلم سالم حضرت اليوم لوحدها فقط للإقامة هنا مع زوجها وأولادها والمنظور لم يحصل غارات تانى أمس توجهت غيط العنب لمنزل عبد المسيح واستحممت وغيرت الهدوم وقد توجهت إلى منزل الست أم فكرى وبالاستفهام عنها قالوا السكان أنها مهاجرة من مدة أسبوعين فقط ولم يعرفوا الجهة بالضبط ومنزلهم ٧٤ عمكم مرقس أفندى أبو فوزى موجود بالإسكندرية بشغله أم من خصوص الخواجا حبيب سعد طيب وبخير وموجود هنا بصحة تامة ولم يحصل ضرر أرجو ترسلوا لنا بطاقة صرف الجاز لكى بموجبها نتحصل على تذاكر سفر بالسكة الحديد للحضور لطرفكم إن شاء الله فى آخر الشهر الجارى ثم أرجوك تفهم السيدة والدتكم بأن تكونوا من جهتى مطمئنين للغاية ولا تفتكروا إلا فى نفسكم وتعتنوا بشخصكم فى الأكل والنظافة وعرف والدتكم بأنها تنظف البيت كويس فوق وتحت حتى عند حضورى أجده كويس وأرتاح فيه والحمد لله على ذلك لأنى إن شاء الله إذا حضرت أقيم بطرفكم أسبوع بالكتير وأعود بالتانى وذلك لاشتياقى عليكم جداً سلامى كتير للست العزيزة والدتكم بارك الله لنا فيها وحفظها ولأخوتكم جميعاً.

ختاماً سلامى لشخصكم العزيز المحبوب نجح الله أمورك وكتب لك السعادة فى الدارين ودمتم.

والدكم

أخميم فى ١٥ / ٧ / ١٩٤١

حضرة الوالد المحترم دام

أهديك أرق تحياتي وأصدق أشواقي الصادرة من أعماق القلب وأتمنى أن تكون في صحة جيدة داعياً الله أن يحفظكم ويصونكم.

وصل جوابكم وبه النصف جنيه وهنا أترك الكلام لوالدتي فهي تقول:

«لا يصح ولا يليق ولا يجب أن يمر الشهر بطوله ولا تبعث لنا سوى نصف جنيه، احنا مش زى الهجرة الماضية.. المصاريف كثيرة جداً لدرجة كبيرة الفلوس كادت تنفذ وتنتهي» وهي تقول «مادام أنت مابتصرفش غير الدخان فالفلوس بتروح فين؟.. وإذا كان صحيح ما فيش فوايد من العمل هناك.. فلماذا تقعد في إسكندرية وتعرض نفسك للخطر.. والتعب؟ لأنك بتقول إن الشغل كتير ومش فاضي تروح تغير وتستحمى».

نعرفكم بأن والدتنا تقول «إذا استمرت الحالة بالشكل ده.. فهي حتسافر من هنا.. وتيجي في بلد قريبة أو في الإسكندرية تسيب الأولاد عند ستهم في الطرانة» وأنها تريد أن تنصر عنى حالاً ومحتاجة إلى المصاريف.«فيلزم تبعت لنا نقود كفاية وأنها لا تريد أقل من جنيهين أو ثلاثة في الشهر والا فما فيش لزوم للقعاد في إسكندرية وتيجي هنا أحسن».

وهنا أتكلم ثانية بعد أن خلصت والدتي الاسطوانة بتاعتها.. وعلى مسئوليتها. أما أنا فأعرفكم بأنني هنا في غاية الملل والزهق والضيق وأنني أكاد أختنق وعلى كل حال فبعد ظهور النتيجة سوف أحضر عندكم.

وعلى فكرة النتيجة ستظهر يوم الأربعاء أو الخميس ونمرتي كما تعرف «٩٥٠٢» ففيدونا إذا ظهرت عندكم.

في الختام تقبل تحياتي وأشواقي وتمنياتي القلبية،

ولدكم المخلص

(إمضاء)

حاشية: هل ننصّر غنَن وحدنا أم ننتظر حضورك لذلك السبب؟
البيض غالي عندنا ٥ بقرش صاغ

والدتي وعايدة وهناء وغنَن وإيزيس ولويزه وإيفون يهدونك السلام «ومتوحشينك خالص».

وأنا بالخصوص أهديك أشواقي التي لا حدّ لها

تقبل تحياتي ومحبتي

حاشية ثانية:

والدى العزيز نعرفكم بخبر محزن ومفاجئ فقد وافت المنية الأنبا باخوميوس عشيّة عيد استشهاد القديسيين بولس وبطرس بعد إفطار صوم الرسل، ويؤسفني أن الأخبار المحزنة لا تأتي فرادى كما يقال، فإن الست سالومة أم وليم زوجة الدكتور ميساك ابن عمي ماتت في ظروف غامضة إثر سقوطها من على سطح البيت أثناء غسيل الغلة، كما يقال. ورحل الاثنان الشيخ الجليل وبنت أخته التي كان يحبها، إلى أحضان القديسيين ومع المسيح ذلك أفضل جداً.

ولدكم

(إمضاء)

(قال: هل يحقّ لي أن أبتعث هذه التواريخ القديمة بأسطوريّتها الساذجة ومآسيها الصغيرة التي مضت وانقضت، بينما نحن الآن في عصر الالكترون والكونكورد والانترنت والسكاى لاب وسكك الصواريخ إلى المجرات العُلى؟)

كان صوت الأنبا تاوضروس يملأ صحن كنيسة أبو سيفين في أخميم جهورياً، ضخماً في مثل ضخامة جرم صاحبه، ومع قوّته وجبروته فيه حاشية من حنوّ وضعف مستكن به:

- هأنذا أفيض لكم روحي، دعوا عنكم التواء الفم أبعدوا عنكم انحراف الشفتين بالإشاعات والأقاويل. الحق أقول لكم كما قال الجامعة: شفتا المرأة الأجنبية تقطر عسلاً وضحكتها أنعم من الزيت ولكن عاقبتها مُرة كالحنظل حادة كسيف، قدماها تنحدران إلى الموت، وخطواتها تتمسك بالهاوية، ليست فقط المرأة الأجنبية...

ارتفع صوته المهول كأبواق القيامة ارتجت له جنبات الكنيسة القديمة، وتساقط التراب من شقوق القبة العالية.

- المرأة الزانية أيضاً تقود إلى الموت وإلى الهاوية، نجّ نفسك يا أخي، نجّ نفسك كالظبي من اليد كالعصفور من الصياد. نظف قلبك من أكاذيب الشهوة، امسح عن شفتيك لهيب النار المتقدة. أيأخذ إنسان ناراً في حضنه ولا تحترق ثيابه، ولا يحترق صدره وقلبه؟ هأنذا بالحق أقول لكم. محتقر نصيحة صاحبه ناقص الفهم، فمابالك بنصيحة راعي كنيستك؟ أما ذو الفهم فيسكت ويترك قلبه يعمل.

همست فوتنه زوجه مرقص في أذن هيلانة زوجة بقطر أفندي، وهما في الجانب الأيسر من الكنيسة، في وسط الستات:

- هوَّ تاوضروس ابن عمي كده، يزعول الخلْج كلاتهم، مطنطر وخايل إنه وصل شبشابة الدنيا والآخرة كماني. هو صحّ مليان وعليه الجيمة، لكن حجه برضو يحني راسه لسيده ويراعي خلْجه.

جاء في التداوين القديمة أنه أحاط بالأنبا باخوميوس الكبير، في الزمان العتيق، جماعة كثيرون من الشياطين وجعلوا يصيحون: هو ذا الأنبا باخوم الطاهر. أما هو فجعل يصرخ ويقول: كذبتم فليس في الدنيا من هو أكثر خطأ مني. فقالوا ما صدقت. فنحن في هذا أصدق منك. فقال إنكم تقصدون سقوطي بالكبرياء التي بها سقطتم أنتم. ولم يزالوا محيطين به حتى وصل المكان الذي قصده. فانصرفوا

يصرخون قائلين: لسنا نقدر عليك يا وثيق العقيدة. يا موطِّد الأساس ومحكم البنيان وحافظه من الرياح والعواصف والمياه.

لأنه ليس للقداسة تاريخ، ولا للفجور

القداسة - كالفجور - حيِيَة وخفية لا تُروى ولا تُحكى، بل تستكن في ظلام الروح، ما أيسر أن تنال منها الكبرياء وتعطبها وتحيلها إلى مجرد ابتذال.

فليس مولودٌ من امرأةٍ طاهر

قالت فوتنه إنه ليلتها رأت القديس باخوميوس يصعد من قبره، جاءت الملائكة ورفعت جسده، عارياً، لا يغطيه إلا السروال البفتة الطويل أبو دكّة متدلية، صعد من تحت التراب، في بهاء مجده.

قال: هل أشرقت معرفة مجد الله عليّ أم تساورني الشكوك؟

قال: هل المجد الذى قيل إنه على وجه البرية مجدنا أم وهمنا؟

ذلك أنّ كلّ مَن يُقارب الفجور - أو القداسة - حتى آخر المدى إنما يشارف المطلق.

هل حُريتنا حيث يكون روح الرب - كما جاء في الكُتُب - أم أن حريتنا تنطوى أيضاً على أفعالنا نحن بمشيئتنا نحن وعلى رفض الامتثال لأى نص أو سلطة، باستثناء واحد - ربما - هو سلطان العقل، وهو طول الوقت سلطان موضوعٌ للسؤال.

قال: وربما أيضاً سلطان الحب.

قال: نحن لا نعكس صورة مجدٍ علويّ مفارق، بل مجدنا - إن قام - يأتى من صميم وجودنا الهش القائم للزوال ●

الفصل الثامن
المعمودية

وُلد أخي منير الذي لم أعرفه قط قبلي بثلاث سنوات، يوم السبت ١٦ يونيو ١٩٢٣ الساعة السادسة مساء، ومات بعد أن ولدتُ بأربعة عشر يوماً، في ٣٠ مارس ١٩٢٦ بعد منتصف الليل بنصف ساعة.

كانت أمي تقول باللهجة الصعيدية التي اكتسبتها من أبي «إنت رضعت لبن الحزن».

نذر أبي للملاك ميخائيل أن يكون تنصيري في ديره بأخميم، لكي أعيش.

عثرت في الأوراق القديمة التي أنا مشغوف بها، على صورةٍ لأمي وهي تحمل منير، لعله كان في آخر عامه الثاني، لعل الصورة كانت قبل أن تحبل بي أمي، لكنها قطعت الجزء العلوي من صورتها، بدت من غير رأس، لم أعرف قط السبب، عندما سألتها بعد ذلك بكثير هزت رأسها ولم تقُل شيئاً. هل كان قطع الرأس هنا طقساً سحرياً على سبيل قطع الطريق على القوى الخفية التي تحكم مصائرنا، كما لو أنها قالت: هأنذا قطعت رأسي بيدي. لا تقطعي رأس ابني الوليد (الذي كنته عندئذ، عندما بترت رأسها في الصورة).

كانت أمي ترتدي في الصورة فستاناً من طراز العشرينيات، طويلاً فضفاضاً، واضح، حتى من الصورة القديمة أنه كان من قماشٍ غالٍ حريري، وله حزام متدلٍ غير محكم. كأنها من صور بنات الذوات في تلك الأيام.

أما منير فقد مرّت يدها بدبوس أو ما يشبهه على وجهه في الصورة فطمست ملامحه حتى بان لحم ورقة الصورة من خلف اللون الرمادي

الفاتح الذى كان المصورون يؤثرونه، هو ولون السيپيا البنى، في تلك الأيام.

عشت طفولتى الباكرة في ظلّ ذلك النَذر، ذلك الطقس السحرىّ.

لم يكن السفر من الإسكندرية إلى أخميم في العشرينيات وأوائل الثلاثينيات أمراً ميسوراً، وكان أبى جدّ مشغول بتجارته الناجحة في البيض والمسلى البلدى والبصل والقمح الصعيدى والبحيرى والفول والأذرة والشعير والتبن والحلبة، بأصنافها بكلّ تحديد، قمح ذواتى ومسقاوى وصعيدى، أذرة فيومي وبحيرى ناب وعويجة عدس إسناوى وفرشوطي ومجروش، وكذلك الكسبرة والكمون البلدى وأنواع البيض اللياحة والمرفوت والصعيدى، وأسعار الخيش بكل التفاصيل، وكان يصدر نشرة يومية بذلك كله يرسلها بالبريد الذى كان ناجعاً ودقيقاً كالساعة، إلى المزارعين والتجار في سائر أنحاء القُطر وخاصة في الصعيد، يبلغهم فيها بأسعار «المبيوعات أمس في أسواق بلاد برّه: كذا شلن القنطار أقة ٤١ سوق لفربول وكذا شلن القنطار أقة ٤١ سوق هول لوندرا وكذا فرنك المابة كيلو سوق تريسته»

وفي النشرة حسب الحال «عند ورود البضاعة نصرّفها بجهدنا لصالحكم» أو «اليوم وردت رسالتكم عدد كذا وتصرفت بسعر كذا للتسليم» وتلغرافياً «قلدس بمنيا البصل».

كان ذلك قبل أن تضربه - كما ضربت مصر والعالم - أزمة منتصف الثلاثينات بالكساد العظيم، وتُلجئه في نهاية الأمر أن يعمل عند زملائه السابقين من التجار، كاتباً ومحاسباً على الدقّة القديمة الموصوفة، وكان خطه جميلاً وحساباته منه وإليه دقيقة أمينة لا تخرّ الميّة، تعلمها في مدرسة الصيارفة في جرجا التى كانت عاصمة المديرية، وكان يمسك دفتر اليومية ودفتر الأستاذ مسكة خبير لا يُضارع، لكن تلك حكاية أخرى.

أما وفاؤه بالنذر فقد استغرق منه ستّ سنوات كاملة.

كان منصور أفندى ناظر روضة الكرمة القبطية الأرثوذكسية ومس كاترين التى كنت أحبها، والقسس والرهبان الذين كانوا يلمون ببيتنا في غيط العنب أحياناً، قد ألقوا بالروع الروحى الغائر في نفسى وأنا مازلت غض العود (هل كنت قط غض العود؟) وكانت حكايات منصور أفندى عن استشهاد مار مرقص الرسول، كاروز الديار المصرية ومؤسس كنيستنا القبطية، وعن سير القديسين والشهداء الأقباط الأوائل وموتهم طواعية في سبيل إيمانهم، وترانيم مس كاترين الجميلة ممشوقة القامة التى كانت تحب الفساتين اللبنى الزرقاء الفاتحة المنسدلة على صدر صغير منسرح، بياقتها الدانتيلا على فتحة الجيد غير العميقة، وكان صوتها رخيماً وعذباً وحنوناً، وهي تعلمنا إنجليزى ودين، وكنت أتشوق إلى حضور مدارس الأحد، بعد ظهر كل يوم أحد، لكى أسمعها ترتل - ونحن معها - ترانيم تسبح بنور مريم العذراء أم الإله، وتمجد يسوع المسيح في معجزاته وعطائه وموته على الصليب وقيامته من بين الأموات بعد ثلاثة أيام.

كنت أحيا مع المصلوب بكل روحى وقلبى، أتعذب لعذابه الأليم في بستان الألم والوحدة يوم خميس العهد وقد انكره وخانه محبوه، وفي يوم الجمعة الحزين أُهين وجُلل رأسه الدامى بإكليل الشوك، وحمل الصليب الثقيل صاعداً إلى الجلجثة، سقط مرتين تحت حمله الرازح على جسده النحيل، وهلاكه - وهو الإله - على الخشبة، بعد أن دقوا يديه ورجليه عليها بالمسامير، حتى إذا طلب ماءً سقوه خلاً وطعنوه بالرمح في جنبه، كنت أبكى معه عندما قال «أبتى ارفع عنى هذه الكأس».

لم تكن كل تلك الحكاية عندى مجرد واقعة، أو أمثولة، أو حتى أسطورة، بل عشتها بجسمى نفسه وفي صميم روحى.

مازلت أحتفظ بالصور الملونة التى كانت توزعها مدارس الأحد، تصوّر قصص التوراة والإنجيل من أول آدم وحواء إلى إسحق ويعقوب إلى

موسى، ثم ميلاد المسيح ومعجزاته وأسبوع الآلام والقيامة، وعليها كتابة باللغة القبطية والعربية، وكانت هي أثمن كنوز الطفولة والصبا. ولعلها مازالت من أثمن كنوز الروح.

ولكنني لم أكن قد تنصّرت.

ومن غير المعمودية لم يكن للطفل أن يرى وجه الله ولا أن يدخل ملكوته. وبشكلٍ ما، أصبحت «الخُلُقية الضرورية» (كما أسميتها فيما بعد) هي المعيار الذى حكم هذه السنوات الأولى. ومنذ ذلك الحين فإن الخُلُقية الضرورية - الصدق حتى لو كان فيه أذى محقق، الأمانة ولو كان معناها الحرمان المحقق - لم تكن مرتبطة بالثواب أو العقاب، بل هي ضرورة في حدّ ذاتها.

عشت سنوات الطفولة إذن في ظل نذرى للملاك ميخائيل، مرتقباً ساعة الخلاص بالعماد في ديره البعيد.

أمازلت أرقب - من غير أمل - ساعة الخلاص؟

هذا الطفل الورع التقى الديّن كان مع ذلك جدّ سعيد - دون أن يدرك ذلك تماماً - بالحنوّ النسوىّ الذى كان يغمره بفيضٍ من الأنوثة المُحبة حتى لو كانت قاسية الحب.

وكانت له شطحات شقاوته التي لم يتردد في الاعتراف بها وفي قبول العقاب عنها عقاباً جارحاً ومهيناً ومؤلماً موجعاً في كل الأحوال.

هل كان هذا الطفل يخشى الموت - حقاً - قبل ساعة الخلاص بالعماد؟ أم أنه في غَمْرة أمواج الحدب والرعاية والإيثار - وحتى العقاب والإيلام - كان يدرك بغموض أنه خاص جداً وانه لن يسقط أبداً وربما لن يموت أبداً.

هأنذا في أخميم

البلد العريق الذى ينتمى إليه عُمْقى وأصلى وأهلى، وهي منبتى

وإليها أُنيب، بلد الشموخ والسموق ورفعة الجبل وخصب الوادى ورحابة النيل الإله حابى العظيم.

مدينة عسلها مشهور بصفاء اللون وصدق الحلاوة. مشهورة بناسها الأجاويد. «خنت مين» إله الخصوبة، بانوپوليس، شمين كمين القبطية، مدينة بان الذى هو أصلاً أمون خالق الموجودات ومجددها باستمرار، مدينة البرابى الفاخرة الباقية بمصر من أيام جاهلية الزمن وعصور قدامى المصريين، بها من التصاوير الجميلة والمنحوتات والتماثيل والمدونات بالقلم الهيروغليفي، قلم «الكتابة المقدسة» ما لا يحصيه حصر ولا يحيط به علم.

مدينة مين التي يستبيحها ويتجلى لها ويطوف بمغانيها ليلاً وأهلها نائمون أو يترصدون حفيف أقدامه، وفي الصبح يعثرون على أحد نعليه مخصوفاً على طريقة القدماء طوله قدمان أو ذراعان، يقيمون له المولد العظيم الذى يلعب فيه اللاعبون بالعصا والأقواس ويراهن فيه الناس على الفائزين، لأنه هو الذى قتل الجُرجُون الحيوان القاتل المخوف، بأنفاسه النتنة، صاحب العينين اللذين يغطيهما شعره الملبد الغزير يرفعه عنهما ويصوبهما إلى كل حىّ فيستحيل حجراً أو صخراً من الصخور.

أخميم مدينة أبى وأسلاف أبى يوسف عبد الملك صموئيل منقريوس هرمينا، أصحاب الصنايع والمتاجر والمزارع، المشهورة، عاصمة الإقليم التاسع في مصر الخالدة أبداً، مدينة العظيم أخميم بن مصرايم، خصّه أبوه بقسم مصر الجنوبية، مدينة سقوط طفولتى من على سلّم يعقوب وصعود دماء صباى بين ذراعىّ البطة الصغيرة التى اسمها مارينا والتى هى إرهاص باكر بعشيقتى وكل معاشقى، مدينة معموديتى تنصيرى بملكوت النور البهىّ، «مبنية بأحجار مرمريّة - مثل إسكندريتى - طول كل حجر منها خمسة أذرع في سُمك ذراعين، وهى سبعة دهاليز سقوفها حجارة طول الحجر منها ثمانية عشر ذراعاً في عرض خمسة

أذرع مدهونة باللازورد وغيره من الأصباغ التي يحسبها الناظر كأنما فرغ الدهّان منها الآن لفرط جدّتها، وكل دهليز منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة السيّارة، جدران هذه الدهاليز منقوشة بصور مختلفة الهيئات والمقادير فيها رموز علوم القبط من الكيميا والسيميا والطلسمات والطب والهندسة والتنجيم».

أي صدقت يا مقريزى يا صاحب النظرة الصادقة التى رأت ما هو دفين الآن.

مدينة ميريت ابنة الملك ومغنية الإله آتوم ولابسة تاج الإله مين مضيئة قصرها عازفة الهارب صانعة صديرية الإلاهة حتحور، ميريت أجمل امرأة في العالم مازال الروج على شفتيها المفترّتين عن ابتسامة مكنونة ورهيفة.

أراك يا أخميم، حتى القرن الخامس الميلادى، مازالت الصروح سامقة مرفوعة البنيان للآلهة القدامى، أوزير وزيوس، إيزيس وأفروديت معاً، بينما الفلاحون المطحونون تحت سطوة الإغريق قد انضووا تحت لواء المخلص الفادى أفواجاً بعد أفواج، الإغريق أصحاب السلطة والجاه والثروة يفرضون طغيان الثروة وينعمون ببذخ الحياة معابدهم قائمة بآلهتها الرخامية البيضاء على أرضك الإفريقية السوداء يا أخميم كيمى، والمذابح تسيل عليها دماء الضحايا الحيوانية الغضة لتروى هذه الأرض التى لم تشبع قط من الدماء حتى الآن. المُتع الأبيقورية فاضحة جنباً إلى جنب مع نُسك الرهبان بقيادة شنودة المولود في قرية من تخومك، جمحات الجسد المتمرغ في شهوات حسية صارخة حيناً ومملة أحياناً جنباً إلى جنب مع قمع الجسد وعنف اقتلاع الأوثان، تداعى اللغة اليونانية التى أرهقتها العصور والأمجاد القديمة جنباً إلى جنب مع عنفوان القبطية اليانعة التى تستجيش في نفوس المظلومين أشواقاً لا تُغلب، تفلسفات الآريوسيين والنسطوريين وتحليلاتهم العقيدية التى

تشطر شعرة الإيمان إلى ألف تفريعة جنباً إلى جنب مع صرامة الأرثوذكسية الباحثة عن نقائها المتشبثة حتى الموت بمصريتها، سرف الفجور الديونيزى والعربدة الحسية والعقلية جنباً إلى جنب مع طهارة كره العالم ونفى غواياته، معابد الآلهة القدامى بأروقتها التى ترتكز أكتافها على تيه لا ينتهى من الأعمدة اللازوردية الشامخة المكللة بتيجانها زاهية الألوان وهياكلها المسدل عليها ستائر مطرزة بالذهب جنباً إلى جنب مع الصوامع الضيقة في البرارى الموحشة وقلالى الرهبان المتوحدين مع إيمانهم وجهادهم في رمال الصحراء النقية الخاوية المجردة عن كل شئ في عرائها المطلق.

أخميم المدينة التى سالت فيها دماء ثمانمائة وأربعة عشر شهيداً دفاعاً عن عقيدتهم الأرثوذكسية، قتلهم أريانوس في ثلاثة أيام، حتى أغرقت الدماء درب الظنى الذى يأتيه المؤمنون من الشرق والغرب حفاة الأقدام خاشعين يركعون على أرضه، ويقبلون ترابه تمجيداً وعرفاناً بالجميل، لأن مذابح الشهداء لا تنتهى.

مدينة الأنوال التى تنسج خيوطها الحريرية من صميم الروح.

مدينة تى أم الفرعون العظيم الشاعر العظيم إخناتون، بنت يويا ذى المقام المرموق.

أخميم التى من أحجارها بنيت مزارات أبيدوس وكعبة مكة المكرمة.

مدينة كنيسة سوتير المخلص من العذاب، وكنيسة أبى سيفين، ومارميخائيل، بلدة القديسين باخوم، وضالوشاه، يسقوروس، واسكلابيوس، أوليجيوس، وأرسانيوس، والأنبا شنودة، والأنبا بسادة، مدينة الشيخ كمال الدين بن عبد الظاهر صاحب مسجده، ومدينة العارف بالله ذى النون المصرى بن إبراهيم الذى تقلد علم الباطن وأشرف على كثير من علوم الفلسفة وكان كثير الملازمة للبرابى بيوت الحكمة القديمة، فيها التصاوير العجيبة والمثالات الغريبة التى تزيد

المؤمن إيماناً والكافر طغياناً وقد فتح عليه علم ما فيها المكتوب بالخط المطلسم القديم وله كرامات فقد كان من الملامتية وحوّل الحصى إلى حَجر كريم، رضوان الله عليهم أجمعين.

أخميم مدينة أعجب الهياكل المتحدث بغرائبها في الدنيا، وهو هيكل عظيم في شرق المدينة وتحت سورها، وحتى إذا كان مطموراً أو استحال أطلالاً فإنه يبقى ماثلاً، «طوله مائتان وعشرون ذراعاً، وسعته مائة وسبعون ذراعاً. وهو قائم على أربعين سارية سوى الحيطان، دائرة كل سارية خمسون شبراً، وبين كل ساريتين ثلاثون شبراً ورؤوسها في نهاية العظم كلها منقوشة من أسفلها إلى أعلاها، وبين رأس كل سارية والأخرى لوح عظيم من الحجر المنحوت، منها ما ذرعه ستة وخمسون شبراً طولاً في عرض عشرة أشبار، وارتفاع ثمانية أشبار وسطحها من ألواح الحجارة. كأنها فرش واحد فيه التصاوير البديعة والأصبغة الغريبة كهيئة الطيور والآدميين وغير ذلك في داخلها وخارجها، وعرض حائط البربى ثمانية عشر شبراً في حجارة مرصوصة، كذا قاسها ابن جبير في سنة ٥٧٨ هـ الذى قال أيضاً إن سقف هذا الهيكل كله من أنواع الحجارة المنتظمة يخيل للناظر أنها سقف من الخشب المنقوش، والتصاوير على أنواع في كل بلاطة من بلاطاته، فمنها ما قد جللته طيور بصور رائقة باسطة أجنحتها توهم الناظر إليها أنها تهم بالطيران، ومنها ما قد جللته تصاوير آدمية رائقة المنظر رائعة الشكل، قد أعدت لكل صورة منها هيئة هى عليها. كإمساك تمثال بيدها أو سلاح أو طائر أو كأس، أو إشارة شخص إلى آخر بيده، أو غير ذلك مما يطول الوصف له ولا تأتى العبارة لاستيفائه».

«وداخل هذا الهيكل العظيم وخارجه وأعلاه وأسفله تصاوير، كلها مختلفات الأشكال والصفة، منها تصاوير هائلة المنظر خارجة عن صور الآدميين يستشعر الناظر إليها رعباً ويمتلئ منها عبرة وتعجباً وما فيها

مغرز شفي، ولا إبرة إلا وفيه صورة أو نقش أو خط بالمسند لا يفهم، قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع، ويتأتى في صميم الحجارة من ذلك ما لا يتأتى في الرخو من الخشب، فيحسب الناظر استعظاماً له أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزيينه لضاق عنه، فسبحان الموجد للعجائب لا إله سواه».

وعلى أعلى هذا الهيكل سطح مفروش بالحجارة العظيمة يحار الوهم فيها ويضلَ العقل في الفكرة في تطليعها ووضعها وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج والمصاعد والمعارج والمسارب والموالج ما تضل فيه الجماعات من الناس ولا يهتدى بعضهم لبعض إلا بالنداء العالي. عرض حائطه ثمانية عشر شبراً من حجارة مرصوصة، وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم ومرآه أحد عجائب الدنيا التى لا يبلغها الوصف ولا ينتهى إليها الحد.

أخميم مدينة الاثنى عشر ألف عريف من السحرة، وبها شجرة البنج والاهليلج الكابلي والأصفر وشجر المسيح الذى ليس في بلد، ويعمل بها طرز الصوف الشفَاف والمطارف والمطرز والمعلم الأبيض والحرير الموصوف، وكان من عوائد أهلها النصارى في أحد الشعانين وقت إشهار الصلوات الموسمية أنهم يخرجون من الكنيستين مع القسيَسين والقمامصة في هيئة محفل حاملين المباخر والعطر الزكي والصُلبان وكتب الأناجيل والشموع العظيمة موقدة، ويقفون أمام باب القاضي برهة من الزمن يتلون صحفاً من الإنجيل، ويغنون ببعض شطرات منظومة تتضمن مدحه، ثم يقفون على باب كل واحد من أمراء الإسلام وأعيانهم ويفعلون كما فعلوا أمام بيت القاضي».

أخميم التي في غربيها جبلٌ من أصغى إليه بأذنه سمع خرير الماء ولغطاً شبيهاً بكلام الآدميين لا يُدرى ما هو.

هأنذا في أخميم

غدا سنذهب كلنا إلى دير الملاك ميخائيل

غداً يوم التناصير

استيقظت مبكراً جداً، قبل شروق الشمس بوقت طويل، في آخر الليل تقريباً، ونزلت من فرشتي التي كانت بجانب أمي وأختي عايدة وهناء الصغيرة، في بيت عمتي ديماريس، ورحت أشرب بُقّ ماء نقياً من تحت الزير. كانت العتمة تخفّ بالكاد.

بالأمس كنت مع البنات: مارينا الصغيرة التي تكبرني بسنة واحدة، ومعزوزة وحنينة ودميانة ومسعودة، والستات فيبيا ورومة وليديا، في حوش البيت الكبير.

من وراء الباب الخشبي العتيق الذي يفتح على وسعاية في شارع الكاشف، فُرشت الحُصر النظيفة على الأرض. كانت الشوالات المليئة بقوالح الذرة مرصوصة عالية على الحائط وتحت السلم، منبعجة الجوانب توشك أن يبظ منها حشوُها غير المستوى.

جلستُ بينهن - الصبيّ الوحيد صاحب العيد- وفي وسط عجين النسوية الطريّ، بدأنا معاً تفريط الذرة وتجريد القوالح من حبوبها التي تُبسط على الحُصر وتُترك لتجفّ على مهل، لا تُترك للشمس التي قد تُذبلها وتحرقها.

في أثناء التفريط وفرْش الحبّ والضحك كانت البنات يغنين أغاني فيها احتفال بالعريس الذي عيده غداً:

يالفَرْش داما افرشه	نايم حبيبي فيه
يالحوش داما أنزله	سايس حصانه فيه
يا الفل دا ما اقطفه	بياض جبينه فيه
والجَمّح دا ما انحضُه	والطين ما انجَيه
يامّه اعملي لي سُلوك دَهَب	أغربل لحبيبي فيه

كانت البنات يُعطين الكلام معانى شبقة، بالإشارات والضحكات، ولما تمادين كشّت فيهن عمتى ديماريس بشخطة رقيقة نصف جادة.

- بوه، كربانين كده ليه عاد؟ يابتَ اتكَنى انت وهيَّه واشتغلى ع السكْت. هملوا الطهجة الكذابة وهموا معاى، هيَ الدنيا غفلجت والأ إيه؟

فسكتن قليلاً يكاتمن الضحك

أما الخروف فقد كان أبى اشتراه من عم حسين أبو شليب الجزار الذى ذبحه أمام بيت عمتى ديماريس ووضع علامة الأصابع الخمسة على الحائط الخارجي، وسمعت أبى ينهره، دون شدة، حتى لا يلطخ الحائط، وسلخ جلده الذى شُدت أطرافه بقوة وثبتت بمسامير على سطح البيت وتُرك ليجف. أما لحمه فقد قُطع إلى مزق مقسمة ببراعة، وُزِّع بعضها على الغلابة، وسوف نحمل الباقى معنا إلى الدير.

مازلت أشم رائحة البنزين من السيارة الفورد مربعة الشكل بنوافذها ذات الزجاج المغبش السميك، نافذتها الخلفية بيضاوية مصنوعة من الباغة يصدر عنها صوت خشخشة.

في غبش أول الفجر، السماء مازالت غائمة بشبورة البكور، أضاء السائق نور الكشاف الأمامي فغمر الأرض، ونزل شفيق ابن عمتى، فتياً ممشوقاً في جلبابه البلدى الحرير، صبوح الوجه، كله حيوية، وأخذ عصا المانيفيللا المعقوفة، أولجها في ثقبها بمقدمة السيارة، وأخذ يديرها بقوة، مرة، ومرتين، وثلاثاً حتى اهتزت السيارة قليلاً ونتج عن المحرك صوت هدير متواتر انقطع فجأة وهمدت السيارة، فتناوب شفيق وبشارة أخوه، تدوير المانيفيللا حتى أمسك المحرك وتصاعد هديره بانتظام.

انطلق موكب السيارات الثلاثة، كان نور مصباحى سيارتنا الأماميين الناتئين على جانبى مقدمة السيارة، كأنهما خطمان مدوَّران خارجان من

رأس السيارة، يكشف الطريق الترابى بين الزروع.

ثم تركنا الغيطان الخضراء التي ترين عليها ضبابةٌ خفيفة بيضاء، ومرَّ الموكب الصغير في قلب قريةٍ صغيرة بيوتها من الطين اللبن المليَّس الجاف، متراكبة على بعضها بعضاً، مازالت نائمة وإن كان خوار البقر والجاموس قد بدأ يرتفع مع صياح ديكة مبكرة.

بدأ الموكب يصعد الطريق الجبليَّ الضيق المتعرج. كانت الأحجار والحصى ونتوءات الأرض ووهداتها تتخذ أشكالاً حيوانية متعاقبة تتغيَّر وتتحول بسرعة في تعاقب الظلال والأنوار والسيارة تصعد وهى تزحر وتزفر وتهدر وتكركر وتهتز تحت كتف الجبل من ناحية وعلى حافة الهوَة الغائرة من ناحية أخرى، بينما كانت الشمس قد بزغت من وراء الجبل، أخذ نورها ينتشر قبل أن نراها، والهواء يحمى ويشتد تارة ثم يرقَ ويسكن ويكاد يصبح بارداً في ظلال أكتاف الجبل، وأنا سعيد ومتلهف وشغوف بكل شئ حولى، محشوراً على المقعد الجلدى الذى تفوح منه رائحة كثيفة وحريفة قليلاً، بين أمى وعمتى. كان معنا أبى وأبونا باخوميوس، جلسا في المقعد الأمامى جنب السائق المعتمر الشال الصوف أربد اللون، جلابيته رمداء فضفاضة ومنفرجة الأكمام. في واجهتنا على المقعدين الصغيرين اللذَين يُطويان ويُفردان، وقد مدا، أمامنا، وكانت ركبتى تلامس رِجليَها: ليديا امرأة أبونا فيليبوس، وعلى المقعد الآخر في مواجهة أمى وعمتى جلست مارتا امرأة أبونا متياس.

بقية الفريق: أبونا فيليبوس وأبونا متياس ومرقص وبشارة وشفيق وعم جورجى الشماس ولعازر (الذى أصبح بعد سنوات هو أبونا أغابيوس) انحشروا جميعاً في السيارة الثانية.

أما السيارة الثالثة فقد كان فيها حنينة التى عند عمتى ديماريس، ودميانة ومعزوزة اللتان تعملان عند ليديا وفيبيا، ومعهن رومانى الرجل الوحيد بينهن، ومعهم بقية المؤونة والأوانى والأكل والماء، زوّادة يومين بليلة

نقضيهما في الدير الذى كان أيامها مهجوراً لا يفتح إلا في المناسبات.

وصلنا الساحة المنبسطة التى يقوم عليها الدير بأسواره العالية المهيبة، في مواجهتنا كان السور الحجرى العريض سامقاً وجسيماً لم أكد أرى نهايه جانبه الذاهب إلى بعيد.

نزلنا من السيارة ومازلنا نحس رجرجة أجسامنا واهتزاز قلوبنا.

أخرج أبونا باخوميوس من سيالة جبته الفضفاضة مفتاحاً حديدياً ضخماً له أسنان لامعة من ثلاثة أدوار، دوران منها له نتوءات متنوعة الأشكال بينهما شق رفيع مستقيم، وله مقبض على شكل تاج كورنثى تربض فوقه أربعة أسود حديدية صغيرة في قلب زخارف نباتية تنتهى كلها بحلقة مدورة.

أدخل أبونا باخوميوس المفتاح في فتحة القفل الضخم المثبت بين معقوفتين حديديتين مغروستين بعمق في صلب جسم الباب الخشبى المصفح بشرائط حديدية عتيقة، وانفتح القفل فجأة بصوت انفجار صغير، وهنا انبرى فريق من الشباب يدفعون إلى الداخل الباب الفرعى الصغير المعمول بمكر وحذق في قلب الباب الضخم الذى لا ينفتح، وعندما صدر عن ذلك الباب الفرعى صرير مرحب فكأننا جميعاً سعدنا بأن الباب انفتح، وكأننا كنا نخشى، في خفية عن أنفسنا، أنه لن ينفتح أبداً.

بعد أن أخذوا إفطارهم عاد السائقون الثلاثة بسياراتهم على اتفاق وثيق بالعودة غداً، على العصرية.

عندما دخلنا ظهرت أمامنا ساحة الدير الواسعة المفتوحة، تملؤها الآن شمس بكرة النهار وعلى بلاطاتها العريضة الناعمة طبقة من تراب الجبل الأصفر الدقيق، وفي آخر الساحة، على الجانبين، بدت بنايات القلايات القديمة بعضها يبدو مهجوراً مهملاً من أزمان طويلة، وبعضها له أبواب تلوح مأنوسة داعية، وفي زحمة الوصول انشغل أبونا باخوميوس

بترتيب الإقامة بصوته الرخىّ الهادئ الذى فيه مع ذلك قوة السلطة وتصريف الأمور والتحكم في المواقف، صوت العارف بميول هؤلاء الناس وتآلفاتهم ومن يستريح إلى الإقامة هذه الليلة مع من، والعارف أيضاً بنوع الغرف - القلايات - وما فيها من إمكانيات النوم والراحة.

مررنا برواقٍ متسع قليلاً بين الغُرف ونفذنا إلى الجانب الداخلى من الدير، في مواجهة مبنى الكنيسة. وعندما دخلت مع أمى إلى الحجرة التى أشار إليها أبونا باخوميوس أحسست بنفحات الطراوة وهبات الهواء المنعشة الباردة قليلاً، بعد صهد الصعود على الجبل وسطوة الشمس التى ترتفع الآن على الساحة الواسعة.

ذهب أبونا باخوميوس وأبونا فيليبوس وأبونا متياس إلى مبانى الكنيسة الداخلية وأخرجوا من المخزن الجانبى المحفور في حنية مستطيلة داخل حائط الهيكل، آنية القداس: الكأس والقبة والصينية والأبروسفارين الذى يغطيها والملعقة، البخور من اللبان الحارّ واللبان الذكر والجاوى والصندل مسحوقاً وجاهزاً في مجامره الفضية، وكذلك الشموع والزيت المقدس.

بينما كان الخواجا مرقص والشباب يشرفون ويوجهون عملية إخراج ورص وترتيب اللفف والقفف، سلموا عم جورجى الدياكون الأعمى - بقفطانه المنسدل على كرشه المستدير - نبيذ الأباركة ورغفان القربان المدوّرة المثقوبة حسب الأصول بعدد جراح المسيح المصلوب، أما رومانى الضخم المتوفز حيويةً وشباباً فقد تولى مهمة صعبة هى ترتيب قفف الأطعمة: العيش الشمسى والمنين والفطير وأقراص الكشك الجاف وقطع لحم الخروف وبرانى الرزّ المعمر فيه الحمام المحشو بالفريك، ورُبط الوقود المستطيلة من حطب السّنط وأعواد الذرة الصلبة، وزمزميات الماء وزقاً جلدياً ضخماً منفوخاً من دنان السقايين - السجاوجة كما تقول عنهم عمتى ديماريس - فوّهته محكمة الإغلاق بقطعة من الجلد

المستدير كأنها حبل مضفور أعمق سواداً من جلد الزِقّ المليئ بالماء المترجرج، فقد كان الماء الذى يستخرج من بئر الدير الغائرة في أرض الجبل إلى عمق بعيدٍ والمحفورة من أزمان سحيقة، يأتى مالحاً قليلاً.

وقفت في ظل القلاية التى أُفردت لنا أرقب مسحوراً إنزال الزوادة وإدخالها وترتيبها - وأحسست أننى أفتقد أختى عايدة والصغيرة هناء اللتين تركناهما في أخميم في رعاية الست هيلانة زوجة الخواجا بقطر صاحب الشونة.

لم أستطع البقاء في القلاية بعد أن ذهب أبى مع الرجال يدبرون الأمور، وذهبت أمى مع الستات وتابعاتهن حنينة ودميانة ومعزوزة اللائى بدأن معاً إعداد الفطور، وفرش مائدة مستطيلة في مطعم الدير، وضعت عليها سلطانيات الزبادى الفخارية المدورة، وأكوام البيض المسلوق، والقارب الصينى الكبير مملوءاً بالشعرية الغارقة في السمن الصعيدى، والصحون الغويطة فيها قطع الزبد الطازة والصوانى فيها الفطير المثلت وبرانى العسل النحل بالشمع الأبيض اللدن، جنباً إلى جنب مع أطباق المش المصفرّ كثيف القوام مصبوباً من الزلع الصغيرة، ورصّات من الجبنة القديمة والجبنة القريش.

جاءنى أبونا باخوميوس، وضع يده على رأسى بخفة، وسمعته يقول:

- ربنا يباركك يابن قلدس قلاده الخراز وينولك مقاصدك، ثم أحنى رأسه قليلاً ناحيتى وقال:

- هل تعرف يا وليدى أن هذا الدير اسمه أيضاً «دير الشهداء» رفات مئات من الشهداء من عصر دقلديانوس وأريانوس محفوظة هنا في قبو الدير، برعاية الله، بعضها كأنهم تنيحوا أمس فقط، أجسامهم مازالت طريّة.

بعد أن أفطرنا حملت حنينة ودميانة ومعزوزة الأطباق وذهبن ناحية البئر في آخر الساحة ومعهن رومانى الذى اشتغل بقوة في إنزال السطل الخشبى واستخراج الماء للغسيل، ثم حملن الوقيد وذهبن ناحية الأفران

والكوانين من وراء الكنيسة، ومعهن الطحين والماء النظيف وقصعة العجينة وكذلك اللحم والفروج، للخبيز والتسوية والإنضاج.

كان بشارة قد صعد إلى الجانب الشرقى من السور العريض، يتمشى فوق أحجاره الضخمة، ويتطلع حوله.

هو الذى رآه ينسلّ، أرمد، نحيل الخصر من أمام مغارات الجبل، ويقفز بخفة القطط الجبلية التى هو منها، من صخرة إلى صخرة. فهتف: أسد ياولاد. أسد ناحية الجبل الشرجى، شفته بعينى بيلف حوالين الدير أهو جاى حدانا من بعيد.

سمعت صرخات قصيرة سرعان ما انكتمت، من ناحية الأفران.

فطّ رومانى، وبوثبة واحدة، بخفة قط كان على السور، فهتف، به شفيق، طُب ياد اتدلّى وغور من هتيه. مالكش صالح، لا فينى البُندجة.

رأيت شفيق وبشارة ومرقص يذهبون إلى باب الدير وقد علّق كل منهم بندقيته إلى كتفه.

فتحوا الباب الفرعىَ الصغير وأغلقوه خلفهم بإحكام.

تفرقوا كل منهم إلى ناحية، فوق صخور الجبل ومسالكه ومضايقه، على المدقّات الطبيعية بين أحنائه وشعابه ووعوره، على حوافّ الوديان وأكتاف ضلوعه وعلى مشارف بُطون فجاجه، بينما الشمس محتدمة توقد قُنن متونه، وتوقع سفوحه الشرقية التى غادرتها، في ظلٍ أسود عميق يمتد في الوهاد الغائرة والثنيات، كأنما فتنتهم عن أنفسهم هذه الصخور الغامضة الملتبسة المحترقة بالشمس والمضروبة بالظلال على السواء، محملةً بالمعانى والمخاوف والغوايات.

وضعت عمتى ديماريس رأسها بين يديها، تهزّه ببطء إلى اليمين وإلى اليسار، سمعتها تهمس لنفسها: «يارب نجيهم، شفاعتك يا رئيس الملائكة يا حامى المؤمنين ياحارس القلوب، احفظهم يا يسوع، ردّهم يارب سالمين غانمين، مايجوّنوا في الجبل يارب، ردّ عنهم عين الشيطان،

اجعل الجبل ريحهم مثل جبل الزيتون في أورشليم، يارب أنزل النار على الوحش مثل ما أنزلت النار على جبل الكرمل».

كانت عمتي ديماريس تشبه أبي شبهاً خارقاً، قرينته ونظيرته، لكن وجهها أنعم وأصغر وأكثر استدارة. كنت أحبها جداً، وظللت إلى آخر يوم في حياتها أحتفظ لها في قلبي بمكانة لا يشغلها أحد، كنت آوى إلى حضنها الضيق الذى حنانه يسع الأرض والسماء، برائحتها الخاصة، وأجد عندها أمناً وروحاً لم أجده قط في حضن أمي أو أبي اللذين لا أذكر أنهما عانقاني أبداً. وكانت في أختي عايدة ملامح قوية من عذوبتها وسمرتها الصعيدية الداكنة ووداعة عينيها العميقتين بحزن دهرىَ غير مفهوم، وعلى ذقنها البارزة التى ورثتها عنها وعن أبي، وشم صليب صغير عميق الزرقة.

ارتعدت في جلستها إذ تناهى إلينا زئير أسد الجبل يتردد بين الصخور، قوياً متعدد الأصداء من جانب في الجبل إلى جانب، تلته على الفور طلقة رصاص يرتطم صداها في أرجاء الجبل تبعتها طلقتان متلاحقتان تسارعت أصداؤهما ترج بها جنبات الصخور.

رشمت عمتي علامة الصليب على جبينها وصدرها وهي تهمس بصوت لا يكاد يسمع:

– يارب يا ارحم يارب ارحم كيريالسيون يا سيدى يسوع.

وثب رومانى مرة أخرى، أتصور أنه كان في الخامسة عشرة أو نحوها ومع أنه جسيم البنيان إلا أنه كان خفيف الحركة سريعاً إلى التحكم في ذات بدنه، وصعد إلى السور في قفزة واحدة كما لو كان لا يقدر أن يقاوم اعتلاء السور، ظلل عينيه من الشمس، ونحن نرقبه من تحت، بلهفة، قال يهدئ من روعنا:

– ريعوا يا جماعة. ريعى ياستي ديماريس، كلتهم رادين بخير.

تنهدت عمتي وصاحت به كما صاح به ابنها في الصبح:

- طب اتدلىٰ يا رومانى يابنى، ربنا يهدّى سرك.

وهمست:

- أشكرك يا يسوع أشكرك يا عالم بما في الجَلْب يارب.

وعندئذ رأيت الهدهد على آخر السور يتخطر وقد بسط تاجه المبرقش الذى أبرقت زخرفاته في الشمس المحرقة، يتهادى ببطء فهمست عمتي ديماريس، بنوعٍ من السعادة:

- بُشرة خير يا يسوع، بُشرة خير يارسول سليمان الملك

ثم نظرت إلى وأنا بجانبها وقالت:

- ربنا يطرح فيك البركة يابن أخوىٍ يابن حوا وآدم، كما طرح البركة في الزيت في الجَنديل.

الإسكندرية في ١٧ يوليو ١٩٤١

ولدى العزيز

أبث اليك اشواقي وتسليماتى وقبلاتى الحارة وأتعشم تكون حضرتكم والسيدة الفاخرة والدتكم وأشقَاك الغالين المحبوبين بغاية الصحة والسرور سيدى العزيز أمس وصلنى جوابكم وما به عُلم اليوم توجهت المدرسة وفيها عُلم بأن حضرتكم راسب في الجبر ومجموع الجبر والهندسة مع بعضهما (٩) تسعة فقط مع أن الواجب يكون ١٦ ولكم ملحق في هذه المادة فقط وكذا فرنسيس راسب في الرسم وله ملحق فيه فقط وآخر ميعاد لتقديم استمارة الملحق هنا يوم ٣ أغسطس فإذا كان حضر لطرفكم الأستاذ رفله استفهم منه هل يصح يكون الملحق بلجنة سوهاج أوضرورى بالإسكندرية فيلزم الاستفهام بتدقيق وفيدنى بأقرب فرصه لأنه إذا كان بلجنة سوهاج أو أسيوط يعمل معنا وفر في المصاريف وهل يطلبون رسوم أو مُعَاف وأرجوك أولاً لا تزعل ولا تكدر نفسك وإن شاء الله في الملحق تنجح ثانياً تجتهد في المذاكرة في

هذين الدرسين ويكون بإشراف الأستاذ رفله أفندى وتستفهم منه عما ينقصك وعلى الله الاعتماد أما رداً على جوابكم وعلى اسطوانة ماما فأني فاهم النقدية التى بطرفكم والمرسولة لكم وجميع طلبكم أنا مستعد فيه وطمن ماما وقول لها الفلوس موجودة مع بابا تحت إذنك وطلبك بخصوص تنصير ألبير أخَروه لحين حضورى في أواخر الشهر الجارى أو بالكتير لبعد صيام السيدة العذرا أما في خصوص الحضور لهنا أو لأى جهة قريبة من الإسكندرية فعند حضورى إن شاء الله نشوف الصالح أماستَك موجودة بدمنهور طرف أولادها ناثان ويونان بيشتغل بالإسكندرية ويعود لدمنهور يومياً ومن جهتى صحتى الحمد لله بصحة جيدة وهذا الأسبوع مقيمين بالإسكندرية ليلاً ونهاراً والحمد لله لم يحصل شئ وناس كتير رجعت من الهجرة وحالة البلد أصبحت تقريباً من المعتاد وعلى الله تستمر من يومين قابلت محمد مصطفى كريم وسألته بخصوص مفتاح البيت فعرفنى بأن عمته هى صاحبة الملك ومهاجرين وقال لى خلى المفتاح معك لم يحضروا وأنا فاهم بأنكم خليتو البيت من يوم الغارات الكبيرة ولم يهمك شئ فهم حضرة الست والدتكم بذلك وإن شاء الله يكون قادم منكم جواب وطيه بطاقة الجاز اللى أتمكن بموجبها من الحصول على تذكرة سكة حديد للحضور وأرجو الاهتمام بالمذاكرة وإفادتى عن رأى الأستاذ رفله أفندى بخصوص تأدية الملحق في سوهاج أو الإسكندرية وأرجوكم لا تزعلو ولاتكدرو نفسكم واصرفوا على كيفكم وربنا كريم والحمد لله الأشيا عال جداً فقط يهمنى تكونوا مبسوطين.

سلامى مع كثير أشواقى للسيدة والدتكم وأخوتكم كتير سلامى لشخصكم العالى المحبوب

والدكم

(إمضاء)

ملحوظة: نأسف جداً لوفاة الأب الفاضل القديس الأنبا باخوميوس والست سالومة، نصلى للرب أن يشملهم بغاية رحمته في نياحتهم وأن يسكنهم الفردوس مع القديسين.

أخميم في ١٧ / ٧ / ١٩٤١

حضرة الوالد العزيز دام

أهديك تحياتي العطرة وأشواقي القلبية وأدعو الله أن ينظر إليكم بعين رعايته وصيانته

ظهرت النتيجة هنا أمس ولعلك تعرف أنني راسب أو لى ملحق وبالطبع أنا لا أحاول أن أعتذر عن هذا أو أعلله فأنت تعرف جيداً الظروف الصعبة التى قضيت فيها أيام الامتحان.

أرجو أن تذهب إلى المدرسة وتسأل هل أنا راسب أم لى ملحق وكذلك تسأل عن ميعاد الامتحان وإذا كان لى ملحق وفي أى المواد، وهل يمكن أمتحن في مدرسة غير العباسية في أى بلد أخرى بعيدة عن الغارات ثم هناك مسألة الكتب وكيف أستطيع الحصول عليها لأن كل شى عند منزل أم فكرى وهى هاجرت ولا نعرف أين مقرها الآن فما العمل؟

نحن ننتظر منك خطاباً في أسرع وقت لأننا في غاية القلق، وأما أنا شخصيا فأفضل أن أعيد السنة بصراحة لأن مسألة الدور الثانى تؤثر في مستقبلى في السنين المقبلة ولها أثر سئ ونتيجة رديئة.. أما إذا عدت السنة فأستطيع أن أنال مجموع كبير وأتقوى كذلك في دروس السنة الخامسة وهذا أفضل وعلى كل حال فأنا أنتظر رأيك بصبر نافد.. ونحن في قلق لعدم وصول خطاب منك حتى الآن.

مرفق بهذا بطاقة الجاز كطلبكم

وأكرر طلبى بسرعة الذهاب إلى المدرسة والسؤال عن هذه الأشياء وإلا فأنا أريد الحضور طرفكم لأن الوقت ضيق جداً.

هل ننصّر أم ننتظر حضورك وماما تقول لك هل تحضر فعلاً أم أنك تريد أن تطمئنا فقط ؟

ضروري ضروري جداً من الحضور لأننا كالغرقى ولابد من حضورك لكي تريحنا ومنتظرين الرد برجوع البوسته.

في الختام تقبل أعطر تحياتي وأشواقي ،

ولدكم المخلص

حاشية:

والدتي ترجوك بأن تتكرم بإحضار ما يأتي عند حضورك.

١ - فياسكة زيت فرنساوي

٢ - عدة وابور جاز لأن عدة الوابور هنا خسرانه وبتعاكس في الشغل

٣ - كمية من الشاي لأن الشاي هنا غالي

ولكم الشكر ،

ولدكم

(وعلى نفس الورقة أجد ما يلي)

٤ع + ٤س ٢ص ا ٤س ا ٤ص ٢ع ٢ص ٢ع ا س   ٢س   ٢ص   - ٢ع

٢ل + ٢جـ أ   ٢م ٢أ   ٢م - ٢ل   ٢م - ٢حـ

٩س   - ٩ص   ٩ع   - (أ ا ب ا ج) ٢أ - (أ ا ب ا ج) - ٢ل - (أ ا ب ا جـ) ٢جـ

ل ا ٢جـ أ ٢ل ا ٢أ - ل ٢أ + ٢ل جـ   ٢س   ٢ص   ٢ع

أ + ب ا جـ - ٢ل ا (أ + ب ا جـ) - ٢جـ (أ ا ب ا جـ) + ٢أ

٢ص ا ٢ع = - ٢س

(أ + ب + جـ)

من هذا الذي كتب هذه الخطابات إلى أبيه، واشتغل بهذه المعادلات الجبرية؟ هل هو الصبي ذو السنوات الست الذي كان يتنصر في الدير

ويعود الآن؟ أم هو المراهق الذى قضى ذلك الصيف الحافل بالأحداث في أخميم؟ أم هو الذى يكتبهما، كليهما، الآن؟

أم هما اللذان يكتبانه؟

فليكن إذن، بعد التنصير وضد التنصير، ما لم يستطع كاتبهما، كاتبه، أن يكون، إلى آخر المدى، إلى أقصى ما كان يريد، متمردا، عصيا، منطلقاً، حراً، حقيقة، ثائراً على كل سلطة وكل عقيدة، هل استطاع أن يخلص من سطوة الأب الحانية؟ هل استطاع أن يخلص من حب الأم القاسى؟ أو من قبضة المرأة الأم، دائماً المرأة - الأم الإلهية؟ إيزيس مريم رامة مادلين نعمة الوجود التي هى الحضن السجن الملاذ وربة الملاذ، فليكن إذن - إذا استطاع - مغرقاً في الحسية مفتوناً بالتجريد، فوضوياً، عدمياً، منكراً، هازئاً بالمقادس. لكنه - للأسف - لم يستطع ولا يستطيع. ليس مراوغاً ولا حذراً بل يظن نفسه عقلانياً، قالت له رامة: كل شئ عندك يأتى من هنا، وأشارت إلى رأسه، فأنكر ذلك ثلاث مرات كما أنكر بطرس المسيح، ولم يقل لها: وأنت، كل شئ عندك يأتى من هنا، ولم يشر إلى أسفل، لأنه كان ينكر ذلك أيضاً.

فليكن عقلانياً وشهوانياً معاً، مستغرقاً في حلم أبدى - ها ها...! ماالأبد؟ وهم التثبيت النهدى وهم التثبيت الأبدى ساخراً؟ فليكن، هذا ما يزعمه، وفيه دائماً مرارة صافية، أو هكذا يظنها، نقية غير مشوبة بعكارة غلٍ أو سخيمة أو أثرة.. فهل هذا صحيح؟

«الحق الحق أقول لكم إن كان أحدٌ لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» الماء والروح.

الماء في كل تجلياته، طهوراً وغيرنقيّ على السواء، والروح في كل تقلّباته، ممتثلاً ومنكراً وقلقاً ممزّق الأوصال.

كنت ليلتها نائماً في ساحة الدير، في الهواء الطلق الساجي.

فرشوا لي بطانية وفوقها ملاءة بيضاء، على البلاطات الحجرية العريقة للدير، ورحت في النوم تحت النجوم. أيامها كنت أبلل فراشي وأنا نائم، طالما عذبني ذلك منذ أن وعيت عليه: أن أستيقظ فأجد لباسي الداخلي وجلابيتي والمرتبة مبللة، ولا حيلة لهذا الطفل الذي كنته (وكما قلت أكثر من مرة لعلني مازلته) والحس بالذنب بل الإثم، بل الخطيئة حتى بالمعنى المسيحي الصرف، ولايد لي ولا مقدرة لي ولا ذنب لي في هذه الخطيئة- كأنها الخطيئة الأصلية الأولى التي اقترفها أبونا آدم وجاء المسيح يفدينا منها، فهل لذلك كنت في تلك الفترة أمشي في النوم - كما قيل لي - وأذهب إلى باب الشقة، ولحسن الحظ، أو لسوئه، يحسون بي وأنا أحاول فتح الباب، يدركونني وأنا على وشك الخروج، يسألونني: ماذا تفعل؟ أقول خارج، أنا خارج، طالع برة. يعودون بي، برفق إلى السرير، لا أذكر من كل ذلك شيئاً عندما أصحو، ولكني أجد باب الشقة مقفلاً بالترباس والقفل من الداخل، وبإزائه كرسي وترابيزة ثقيلة، لا يقولون لي لماذا؟ ولا أعرف من ذلك كله شيئاً إلا بعد ذلك بوقت طويل.

لا أذكر متى انقطع ذلك، بلل الفراش، والمشي في النوم، هل حدث ذلك الانقطاع الخلاص بالفعل بعد التنصير؟ وكأنما كان التنصير بالفعل تطهيراً؟

ليل الصعيد دافئ في الدير، السور الضخم العالي يحمينا من برد الليل القارس، وإذ أفيق أجد السماء فوقي عميقة الزرقة نقية ترصعها ماسات النجوم كثيرة جداً، صغيرة وكبيرة منطفئة تقريباً، أو تومض ثم تخبو، أو براقة صلبة عنيده اللمعان، جلابيتي وفرشتي مبللة، لكن الليلة ليلة فرحي، عندي جلابية أخرى جاهزة جنبي ألبسها على

اللحم، ومع أمي جلابية ثالثة، حرير أبيض، سوف ألبسها بعد التنصير مباشرة.

سمعت من وراء أسوار الدير أصوات الوحوش الليلية، الزئير والخوار العميق، ضحك الضباع الثاقب، وهمهمات غير مفسّرة ، وكأن دبيب أرجلها الزاحفة وحفيف أجسامها المتسللة تحت الأسوار تخترق بل تنتهك التراتيم التي بدأ يرتلها الشمامسة أقاربي بصوتٍ خفيض تحت السماء متجهين إلى الكنيسة يهزون مجامر البخور.

مازلت نصف نائم وأنا أسير - أبي يمسك بيدي - في هذا الموكب الصغير إلى هيكل كنيسة الدير الذى أوقدت فيه الشموع الكبيرة

ما أن دخلنا حتى ارتفعت نغمة التراتيم، باللحن الفرايحي، وبدأ قداس التناصير.

أبونا باخوميوس وأبونا فيليبوس وأبونا متياس في ملابسهم الكهنوتية البيضاء المذهبة وعم جورجي الدياكون ولعازر ومرقص في ملابس الشمامسة والزنانير والأوشحة الأرجوانية، في أيديهم الصنوج والناقوس، حيطان الهيكل الحجرية تتردد فيها أصداء القداس الإلهى: أجيوس، أوثيؤس أجيوس إس شيروس أجيوس أثاناطوس، أبونا متياس يصلى على أمي ويحاللها، ويمضى القداس لا أكاد أعرف ما يجرى حولي من بهجة الفرح الذى يغمر كل شئ وكل واحد، في هذه الكنيسة الصغيرة المضيئة القابعة في قلب جبل أخميم، أبونا باخوميوس يصلى على الزيت، ويرشمنى به، وينفخ في وجهى وهو يقول ثلاث مرات: أخرج عنه أيها الروح الشرير، وأبونا فيليبوس يسأل أبى عن اسمى وعن إيمانى، والصلوات تعلو وتخفت على قرع الناقوس وترتيل الشمامسة المنغّم ومرة أخرى أبونا باخوميوس يدهن بالزيت المقدس الغاليلاون قلبى وذراعى وقلبى من الخلف على ظهرى ويأخذ وسط يدىَ يرشمهما بعلامة الصليب، والكهنة الثلاثة يرفعون البخور فيملأ

الهيكل دخانه الأبيض العبق بعطور عميقة الشذى ويقرأون طويلاً من الأنجيل، وأبونا باخوميوس يسكب على ماء المعمودية قطرات من الزيت المقدس ثم يقول: وموهبة الروح القدس تكون معكم، فيرد عليه الجميع: ومع روحك أيضاً ويقول أبونا متياس: أين قلوبكم، فيرد عليه الجميع بصوت عالٍ قويَ الإيمان: هي عند الرب، ويقول أبونا فيليبوس: فلنشكر الرب، فترتفع صيحة واحدة من الجميع: مستحق وعادل مستحق وعادل مستحق وعادل، وتُبحر سفينة الكنيسة المتوهجة على موجات القداس الإلهي، ترتفع وتسجو، بالعربي والقبطي، حتى يقول أبونا باخوميوس: باركوا عليَ، ها مطانيه، اغفروا لي يا أبائي وأخوتي وأخواتي، صلوا عني وسامحوني والمجد للأب والابن والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين، ترتفع الترتيل بمزمور من مزامير داود النبي وفي أثناء التغني بالمزمار يأتي بي أبونا باخوميوس من الغرب إلى الشرق على جِرن المعمودية القائم بجداره السميك المعمول من رخام عتيق يبدو الآن مائلاً إلى البياض الأشهب.

وفي لمحة خاطفة انحنى أبونا باخوميوس بوجهه الحنون ولحيته الشهباء وتونيَته الكهنوتية البيضاء، وصدرته المتدلية من الأمام ومنطقته الحريرية تدور حول وسطه، ونزع عني جلابيتي وقد شمَر عن أكمامه، وبمساعدة بشارة ابن عمتي ومرقص ابن عمي رفعني، عارياً، مستسلماً لا مناعة عندي ولا تمنع بل سعيداً ومأخوذاً، وألقاني بكل جسدي في ماء المعمودية بسرعة مرة ومرتين وثلاثاً، وأنا أخرج برأسي كل مرة وأغطس دون أن أحس.

في الغطسة الثالثة حدث ما لا يمكن أن أنساه أبداً.

بدلاً من أن أشهق أو أغص بالماء أو أغمض عيني، انفسح حولي أفقٌ براح لا نهاية له وسطع في عينيَ وفي العالم كله نور لم أرَ لبهائه وسطوعه وجماله مثيلاً من قبل ولا من بعد، نور غامر بهيج ملأ السماء

والأرض، وسمعت رفرفة أجنحةٍ ضخمة فوقي وهبّت عليّ نسمات رقيقة عذبة استنشقتها ملء صدري

عندما جذبوني من الماء هتفتُ:

- النور .. النور

سألوني بلهفة: أي نور؟

قلت لهم: جاء نور عظيم ملأ عليّ السماء والأرض وكانت الدنيا واسعة واسعة وسمعت رفرفة أجنحة الحمام.

هتف عم جورجي الشماس: هللويا .. هللويا .. معجزة من الربّ

وتبعه مرقص وبشارة وجميع من كان بالحجرة الضيقة قليلاً والعبقة بالبخور والقداسة وقد ترددت فيها أصداء قرع المثلث النحاسيّ وصنوج القداس:

- هللويا .. المجد لله في الأعالي، معجزة وبركة من الرب. افرحوا وتهللوا.

جاءني أبي واحتواني في حضنه للمرة الأولى والأخيرة، وقد ترقرقت في عينيه دموع فرح عظيم، كان صامتاً لا يقدر أن يتكلم.

«هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» قدوس قدوس يا ملك الصبؤوت بركة يسوع، والملائكة ورئيس الملائكة ميخائيل والقديسين تحل على جميعنا آمين».

أبونا باخوميوس رشم على جبيني وعلى جنبي الأيسر ناحية القلب وما يقابله من الناحية الأخرى وعلى يديّ ورجلي وما بينهما علامة الصليب بزيت الميرون المقدس المتوارث جيلاً بعد جيل والمعمول عبر القرون من أثارةٍ من الطيوب التي حُنط بها يسوع بعد موته على الصليب.

مازال قرع المثلث النحاسيّ وصفقات الصنوج وهتفات التهليل تتردد في مسامعي حتى الآن، لن يتوقف ترددها أبداً.

مَنْ هو - أو هي - الذي ألبسني الجلابية الحرير البيضاء؟

مَنْ وضع على رأسى إكليل المعمَّدين - مضفوراً من سعف النخيل الأبيض الطرىّ الصغير وزهور ياسمين بيضاء؟

بذلك انضممت أنا الصبى ذو السنوات الستّ إلى كوكبة الملوك والكهنة الممسوحين، أصبح جسدى ذبيحة مقدسة وتقدمة مرضيّة من الرب.

هل كان الملاك ميخائيل يرافق هذا الصبى بعد معموديته، لحراسته من الشرير ومن كل سوء؟

الأباء الثلاثة صلوا صلاة إكليل التنصير: «ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الذى كلّل رسله وأنبياءه وشهداءه بأكاليل لا تذوى، بارك أكليل عبدك المعمّد الممسوح بمسحة الميرون فليكن إكليل مجد وكرامة وفضيلة وبرّ إكليل حكمة وفهم إكليل إيمان لا يُغلب إكليل ثبات لا يلين بالمجد والكرامة كلله يا ألله»

ثم أخرج أبونا باخوميوس، وهو الأكبر سناً ومقاماً من الحنية المستطيلة المحفورة في جدار الهيكل، منديلاً أبيض كبيراً مطوياً أربع طيات، فرده وبلل طرفه بالماء المقدس الذى رفرف عليه الروح القدس، وركع على ركبتيه وأفلتت منه تنهدة ألم صغير، جاء أبى أولاً فمسح أبونا قدميه بالمنديل الذى تضوعت منه رائحة زكية، ثم جاءوا واحداً بعد الآخر من أبونا متياس إلى أبونا فيليبوس ومن عم جورجى الدياكون إلى مرقص أفندى واحداً بعد الآخر حتى وصل إلى رومانى فمسح قدميه، وجاءت الستات من أول أمىّ وعمتى ديماريس كلهن حتى حنينة ودميانة ومعزوزة، رفعن طرف جلاليبهنّ قيمة إصبعين فوق القدم اليمنى فمسحها أبونا بالمنديل وبارك الجميع.

أمام بهجة هذا الطقس الجميل ما معنى التفسير العلمىّ أو التحليلات الفرويديّة أو الرجوع إلى مقومات اللاوعى ومخزون الذاكرة الطفلية أو حتى رصيد الأساطير البدائية الجماعية، أياً كانت صحة ذلك

كله أو خطله؟

هل تنتقض هذه التفسيرات والتحليلات التى قد أسلم بها، روعة الخبرة التى لا مثل لبهائها؟

توما، توما، ضع إصبعك على مكان الجرح وتيقَن، حتى ذلك لن يفضى بك إلى اليقين.

هأنذا أريد أن أثبت الطقس وأن أنفيه معاً، إكليل الأمجاد الجسدانية شوك غائر في نسيج الروح المكلوم المحلَق في العُلا.

خرج الحيوان الديونيزىَ من معمودية مياه النيل زئيره يترجرج في أرجاء الجبل وأنينه ينبع من صخرة السماء كما ينبثق سلسبيلٌ عذبٌ من حجر كَنُود إذ ينصب سيل القمر المشعشع على حنيات المذبح المكرَس يخترق حجب النوافذ بزجاجها الملون المعشق الذى ران عليه تراب القرون وينسدل على الأستار الأرجوانية الموشاة بالصلبان الذهبية المورقة الأطراف والتى تهتز حواشيها متكاثفة الخيوط الحريرية دَفن الميناتور في جرن الماء المقدس وهبَ من على سطحه قائماً من ميتة خاطفة لم تدم إلا لحظة واستغرقت طول الأبد بلا نهاية صعد مصبوغاً لن تمحى عنه صبغته مهما أنكرها رذاذ الرشَ أو طسَ الرشاش لا يجدى أمام دروع الجحود وإن كان ينفذ منها في خيوط صلبة مستقيمة كسيوف من نار في غاية الرهافة والوثاقة معاً لا تنكسر ولا تنثنى إكليل سعف النخل والياسمين إكليل الشوك ثقوبه في الجبهة الضيقة عميقة لا برء لها ندوبها المدورة سوداء كل شوكة كالمخراز إكليل الأغنوصى الذى يطوَح بذراعيه الضاويتين يريد أن يطيح بالرواسى فهل تزحزح الجبل بخردلة يقين أم انهالت الأطواد الراسخة أمام هبات الأسئلة الحيوان المشرئب بعنقه أظلافه المشقوقة تتشبث بالأرض يلتصق بأعمدة الشيطان ويحفر بأظافره بمخالبه بأسنانه في صخور السماء فلا ينالها

خدش ولا يختظ فيها أثر جرحٍ واحد أم هي تتفتت مثل رفات عظام وهياكل بشرية عفت عليها حقب ودهور لابدء لها ولا نهاية أهواؤه وشهواته السرية مكنونة أو مستباحة سواءً وأشلاؤه ممزعة ومنتهكة وموشاةً بتطاريز عضوانية ونمنمات جسدانية تخترقها سهام القمر المشدوق المشروم في صرخةٍ يرتفع لها مد البحار ويفيض النيل بطوفان الطمي الطامي فيض حنو أمَ متكررة وحبَ عشيقةٍ لا نهاية لها في غمر الماء في سرّ السماء رفرفة جناحي الأب العريضين نزلت بقاتيزما أفراح وآلام بصبغة ملذات وأوجاع دخول أورشليم الجوانية ظافراً كالرمح المستقيم وليلة النبذ الطويلة لا يطلع لها صباح دموعها تحت بصر النجوم الميلاد الجديد بالمعمودية والموت القديم الذى لا قيامة منه أحلق وحدى في سماوات موحشة خوت جنباتها الوسيعة من روحها الفاعل أتمرغ في ثالوث الماء والنار والتراب بلا راحة لا تكتمل أقانيمي شموع مشتعلة في برتقالة قلبي المجوفة يشع نورها من خلال حبيبات قشرتها أين ذهب حشوها الطرى لتحلَ محله وقدة لا تنطفئ مهما رميت نفسى في غمرات أمواج الفيضان الضارب بضراوة تدفقه ضفاف جسدى الضاوى الذى مع ذلك لا يضعف ولا يستكين وطقوس غطاسٍ أرضىَ بحت فيه السقوط والصعود بمحض الإرادة.

هل يقدم عن نفسه صلوات وأصواماً إلى آلهة غير وثنية لا يعترف بها أحد إلا المتعبد المستوحد في سحابات سماديره الخاصة التى يسقط فيها الكون وتستحيل كينونة الذات إلى تخوم ما وراء الذات ذبائح التسبيح محترقة أمام هذه الآلهة التى تردها غير مستجابة لأنها غير مطلوبة حبه منكور مهما كان مُثبتاً في اللوح المسطور لكنه محمىٌ مستور وشاح النعمة المنساب المبذول من غير ضنَ ولا شحَ ولا تقتير فهل الإثم مغفور أم أن الموت هو قوام الخطيئة التى ليس منها فرار فهى المآل وهى المصير، وفي صهد الماء الذى يفور نهائية التطهير ولا نهائية

الظمأ الحرور هأنذا ألتمس المعاذير لأسجاعي التي تتردد أصداؤها كترتيل فقه ركيك ومكرور ولكن سطوة انسيالها لا غلاب لها فاعذروني أو اقتلوني يا ثقاتي سيان فما لي في نهاية الأمر من ثقة ولا من ثقات دائماً الكل في غيهب يسدرون أو يستكنون في انتظار المنون وعليّ الآن أن أقاوم غوايات السجع وبلاغات البديع التي مهما بدت زخرفية كمشربيات الكنائس أو الجوامع فإنها من الزخرف البحت براء وإنما هي تريد أن تقول: ألا هل بلغت؟ ألا فاشهدون .. ●

الفصل التاسع

تراتيـــــل

كنت بعد الظُهريات عندما تنكسر حدة الشمس أحب أن أذهب إلى بيت منّة وصموئيل أفندى باشكاتب حسابات المركز الذى كان ينهى عمله في أخميم، ويركب حماره الأبيض الفاره، ويعدىّ النيل إلى بيتهم فى أباهور.

كنت أدفع قرش تعريفة مخروماً، خمسة مليمات كاملة، للمعداوى الصموت حازم الهيئة الذى يلف على عنقه تلفيحة طويلة تنزل على صدره وظهره، صوف، حتى فى عزّ بؤونة، وعمامته صغيرة ملفوفة حول لبدة قديمة رصاصية اللون يترك طرف شاشها مدلّى على جانب وجهه الأيسر، فإذا هزّها هواء النيل بانت عينه المبقورة البيضاء جاحظة المُقْلة. وكنت أحب صوت الجنزير الحديدى عندما يسحبه الرجل بقوة فيشتد طرفاه على ضفتى النهر الفسيح، مثبتتين فى وتدين عميقى الغرس فى مقامهما من الأسمنت القديم، بينما يتهدل وسط الجنزير وهو يُحرك المعدية باستمرار، وله صلصلة مبتلّة إذ يغوص ويطفو بينما يسقط منه خيطٌ متقطع من قطرات الماء.

حتى إذا نزلت من المعدية سرت مسافة نصف ساعة على المدق الترابى الذاهب بين الغيطان جنب ترعة صغيرة منخفضة الماء فى أيام التحاريق هذه، قبل أن توافينا الدميرة، إذ تمتلئ وتفيض بالماء، أمشى نشطاً سريع الخُطى تحت ظلال أشجار الجميز والنبق والصفصاف وشجر البلخ وشجر المسيح وارفة عالية ومتحدرة إلى الماء وكثيفة الأغصان، ومن غير هذه الظلال ما كان من المستطاع أن أمشى حتى أباهور.

عندما أصل إلى مشارف القرية وأدخل حواريها وأمر تحت بيوتها

المحترقة المهدمة وأطلال جدران متقوضة ومتراكمة، أصل إلى حارة بيت عم صموئيل أفندى، أحاذر من روث البهائم فى الطريق. أحجار البيت العتيق ينفتح فيها باب الزريبة المعتمة يشتغل فيها سايس ليس عليه إلا خيش شوال متصلب داكن الصفرة المغبرة من الروث المتيبس عليه، من غير أكمام. ذراعاه النحيلتان العضلتان تجمعان روث البقر، يصنع منه أكواماً منتظمة يرصّها فى الشارع حتى تأتى مسعودة لتعمل منها أقراص الجلة المدوّرة تفرشها على الأرض أمام الزريبة لتجففها الشمس وتحيلها صلبة وإن كانت هشة قليلاً، فكرتُ أنه بدونها لا يصلح حقاً وقيد الفرن.

أرفع مطرقة حديدية على شكل رأس أسد أدق بها على الباب الخشبى الضخم، وتفتح لى مسعودة وهى تخفى وجهها بطرحتها السوداء القديمة ثم ترخيها عندما ترانى، فأنا من أهل البيت الآن، وربما لأننى مازلت ولداً وإن قالت: «راجل ملو خلجاته عاد» أو يفتح لى صموئيل أفندى نفسه، وفى أحيان نادرة خاصةً إذا جئت فى الصبح فى غير مواعيد قعدة المندرة، تفتح لى الست منة نفسها، يبهرنى جمالها وتفتحها وانطلاقها ونظرة عينيها العميقتين المليئتين بالسرّ.

دائما ألمح فى الحوش الداخلى الفسيح متراوح الضوء، غسيل اليوم، صوف قطن شيلان جلاليب فساتين لفف أطفال بيضاء وحتى اللباسات الحريمى الملّونة الطويلة ذات الكشاكيش، على الحبال الممدودة بين شجرة النبق العريقة الهائلة وبين مسامير مدقوقة فى الحائط الشرقى السميك الذى فيه فجوةٌ غائرة.

بعد الظهريات أدخل من الباب مباشرة إلى الرواق الطويل الواسع الذى اصطفت على جانبيه دكك حجرية مبنيّة بلصق الحيطان ومفروشة بالشلت الطرية، وأجدهم، فى الغالب، جالسين يتحدثون فى حفلة سمرٍ متصلة الحلقات يومياً.

ألقى عليهم بتحية حيية «سعيدة»، وأجلس. مع صديقي مصطفى قاسم اسحق، في نهاية الرواق - الدهليز أستمع إلى حكايات اليوم وأخبار المحصولات والزراعات ومبيعات البصل والفول وتطورات الحرب واكتساح جيوش هتلر أوربا ودخولها باريس وتحصيل الإجارات من المزارعين وأسعار الذرة وانهزامات دنكرك وانسحابات الجيوش وتقدم فيالق روميل ثعلب الصحراء وأثمان سماد نترات الشيلي الذي شح الآن ولم يعد سهل الاستيراد وتطورات الأحداث في الدير الكبير بعد رحيل الأنبا باخوميوس وتولي الأنبا تاوضروس مهام الرئاسة وحوادث القتل والثأر وسرقات البهائم وأيضاً أخبار المواليد والزيجات.

كان كبار العائلة وأصدقاؤهم، ومنهم ونس أفندي سمعان كاتب النيابة، والحاج على الطحاوي شريك زكري أفندي، والخواجا برتي يعقوب ناظر أرضه، والشيخ ياسين الجارحي عمدة ساقلتة. وأحياناً المقدس جلبي بلامون عمدة أباهور نفسه. والحاج حسين الخطيب صاحب أنوال النسيج. والدكتور صبحي متى مفتش الصحة في المركز وجيصر أفندي الجواهرجي وغيرهم طبعاً، يأتون إلى أباهور - وخاصة بعد أحداثها الدامية - ويحبون اللقاء في هذه المصطبة المرحِّبة يتناولون الحكاوي ويتبادلون الأخبار. وكان آخر الأخبار في تلك الأيام ما حدث في قرية قريبة من أباهور هي نجع الخور.

قال عم زكري أفندي إن توفيق بيه مأمور أخميم أصدر أمره بالتحقيق الإداري مع رئيس مباحث المركز وعدد من ضباط وعساكر البوليس بعد أن قاموا بحملة شرسة في هجوم مفاجئ على نجع الخور.

أيامها (على فكرة لم تكن كلمة الشرطة قد استحدثت وكانت تبدو متفيقهة). ثنى عليه مرقص أفندي - الذي كان موجعاً ومنكوباً بفقدان سالومة حبيبته وبنت عمه، ومن ثم عميق التعاطف مع الموجوعين - إنه سمع إن سبع سيدات من النجع، سبعة، تعرضن

للضرب والحبس والإهانة، وأن واحدة منهن أجهضت، وأن طفلاً لم يبلغ عمره سنتين أو ثلاثاً قد جرح جروحاً بليغة.

قال الشيخ ياسين الجارحي إن السبب وراء هذه الحملة رغبة رئيس المباحث في ترضية مقاول كبير، ما انتو عارفينه إياك، نجيب حسين دياب، على حساب الفلاحين الغلابة.

(كان واضحاً أن بين المقاول والعمدة حسابات بايتة)

قال: أصل الحكاية أن أهل نجع الخور لقوا أنه بجوار بيوتهم المطرفة على حدود النجع، أراضي صحرا، وصلوا لها المياه وجاءوا لها بالسماد البلدي والكفوري، وزرعت الأرض وصلحت وانزرعت، شعير وفول وبرسيم، لم يقل لهم أحدٌ شيئاً، حفروا آباراً ومدوا قناني لم يقل لهم أحد «لا». واحد من الأهالي قال لهم إنهم حطوا في الأرض شقا السنين حتى باعوا دهب الحريم.

قال صموئيل أفندي: اليوم الصبح جاءني في المركز الحاج محمود شعبان الإبياري الراجل الطيب الذي كله بركة، حكى لي إنهم زرعوا الأرض فول ودره شامي وحتى تين شوكي ونخل بلح، وإنهم كانوا يروحون لإدارة الأملاك لربط الأرض عليهم وتسجيلها ويرجعون دائماً دون نتيجة، قال لي: «دُخنا السبع دوخات في مكاتب الحكومة في المركز وفي المديرية في جرجا، قدمنا لهم الخرائط المساحية المعتمدة، وآخر مرة برقم ٣٤٥٢ في شهر خمسة، في بشنس دون جدوى».

صموئيل أفندي باشكاتب الحسابات لم ينس رقم الطلب بالتدقيق، اختتم صموئيل أفندي كلامه: «قال الحاج محمود أن الحال لم يعجب نجيب حسن دياب، وهو بالمناسبة شقيق عمدة الأنصارية، وعائلته تمتلك أكثر من ٣٠٠ فدان في زمام النجع، و٢٠٠ فدان في زمام العيساوية، وأكثر منها في الإمام والشيخ منصور. لكن هذا كله لا يكفيه، عين بني آدم ما يملاها إلا التراب، وادعى أن أراضينا إللي

رويناها بعرجنا وشجانا أرض تخصه، شغلته هوه اللى ما رآها بعينه وجال أنها أرض محجر من أملاكه هوه».

مضت الحكاية يتداولها الكبار، ولكنى وصديقى مصطفى قاسم إسحاق كنا نعرفها مباشرة ومن قبل أن نجئ إلى هذه المندرة.

يوم الاثنين الذى فات هجمت عساكر البوليس على نجع الخور، الكرابيج نزلت على أبدان الفلاحين، الجرارات واللوريات دخلت فى وسط الزراعات ودمرتها.

العساكر نزلوا النجع الصبح بدرى، لم يكن فيه إلا النساء والأطفال، الرجال كلهم كانوا فى الأرض. أخذوا النسوان وساقوهن إلى نقطة البوليس، حشروهن فى اصطبل الخيل، أجهضت الست وهيبة شلبى من الضرب والزحمة، وعندما ارتفع الصراخ وسال الدم على أرض نقطة البوليس اضطر العساكر أن يطلقوا سراحهن.

قال الحاج على الطحاوى: أنا وصلتنى أخبار أن العساكر استمرت فى الحملة، حتى بعد ذلك، أرادوا أن ينتقموا من رجال القرية طبعاً كيف يجرؤون على الوقوف فى وجه أسيادهم.. أرسل البوليس وسيطاً إلى القرية التى كانت تغلى، وقال لهم إن الصلح خير ياجماعة وربنا أمر بالستر. هاتوا لنا ١٢ رجلاً منكم فقط، ولا داعى لكل هذه الطهجة والزعولة.

وطبعاً أول ما وصلوا للنقطة أدخلوهم بالكرابيج إلى الاصطبل، على روث الخيل، وحبسوهم.

قال زكرى أفندى: آخر معلوماتى أن هناك لجنة تجتمع بكره الصبح بمهندس المناجم والمحاجر والمهندس الزراعى فى مصلحة الأملاك ونجيب دياب المقاول لوضع الحد الفاصل بين الأراضى المزروعة والقابلة للزراعة وبين المحجر.

ربما كانت هذه من المرات القليلة التى تدخلت فيها بالكلام مع كبار

عائلتى فى هذه المندرة، وإن كنت خارج نطاق الأسرة كثير الكلام، قلت إنه على الأقل من حق الذين عرقوا وتعبوا واشتغلوا أن يحصلوا على العدل، ولكن من سيعيد للست وهيبة شلبى جنينها المفقود؟

نظروا إلى بشئ من الدهشة، وشئ من الموافقة والتحبيذ غير معلن، ولم يتكلم أحد.

أما أنا وصديقى مصطفى فقد تبادلنا نظرة خاطفة وعارفة.

ما كان أحدٌ هنا يعرف أننا - كلينا - كنا فى قلب هذه الأحداث، أو على الأقل وراءها، أن مصطفى كان ابن عم الحاج محمود شعبان الأبيارى، وأنه جاءنى بالأمس، على وش الصبح، ثائراً مستشيطاً، حكى لى وصوته يتدفق بالغضب كيف امتهنت النساء وعُذب الرجال وسلبوا ما كدوا وكدحوا فيه - كان معظم أهل النجع من الإبيارية - قال لى تعال معى الآن إلى نجع الخور، سيارة المصلحة واقفة تحت، لا تقلق سأعطى السائق ما يرضيه، ونحن نعمل على كل حال فى سبيل الخير. وعندما وصلنا كان الكبار والشباب مجتمعين فى دوار الحاج محمود شعبان، كان صخبهم عنيفاً عالياً، يقاطعون بعضهم بعضاً، الشباب يهددون ويحلفون بكل الأولياء أنهم سيأخذون بثأر الإهانات التى لحقت بالرجال والنسوان، أنهم سيطلعون بالبنادق والموازر والشماريخ والفؤوس على النقطة، الشيوخ ينصحون بالصبر وتطويل البال والتصالح مع أولى الأمر، كان لصديقى اعتبار فى القرية، ولأننا كنا المتعلمين المتنورين فقد نجحنا معاً، بعد لأى، فى أن نصل بالتمرد الأهوج الطائش إلى تصرف محكوم يحفظ الحق ولا يضيعه، وقلنا إن لهم فى آخر الأمر أن يردوا الحقوق إلى أصحابها بأى طريقة، أما الآن فمادام هناك لجنة ستنظر فى الأمر فقد اتفقنا على أن نرسل من النجع مندوباً يطلب الاجتماع بها وجئ لنا بورق عرضحال ودواة وريشة بسن نحاس، وكتبنا معاً صيغة مذكرة للعرض على اللجنة.

وهكذا كان.

كان هذا الرواق المستطيل ينتهي برحباية واسعة مفتوحة غير مسقوفة. في وسطها شجرة النبق الهائلة. ثم ينعرج الحوش إلى طُرقة ضيقة أمام سلالم البيت الصاعدة إلى أعلى بين حائطين مسدودين أحدهما هو الجدار الداخلي للزريبة وفيه باب داخلي لا يكاد يفتح، لأن بابها الخارجي الرئيسي، على الحارة. هو مدخل البهائم والسياس وأصحاب المصالح. أما الحائط الآخر فهو سد على حارة جانبية.

أمام السلالم فتحة كبيرة في الحائط الحجرى القديم الذى يحد الطُرقة، أُقيمت عليها عوارض خشبية متعامدة، ومائلة، ومثبتة بعضها ببعض بمسامير ضخمة ومربوطة أيضاً بحبال مفتولة قوية الضفر انعقد فيها تراب السنين. وتحيط بالفجوة، على الأرض من الخارج، حاشية من الحجر القديم تسند الأرضية من الانهيار.

كانت هذه الفجوة الغامضة تسحرني.

قالت لي الست منة - كانت بنت عمي على التقريب، هي على الدقة بنت ابن عم أبي - إن ثعابين ضخمة وديعة تخرج أحياناً من هذه الفجوة، تنسل ببطء ونعومة، دون شر، على أرض الحوش، تبحث عن رزقها من الحشرات أو الزواحف الصغيرة، وأنهم منذ صغرهم وحتى الآن يقولون عليها « باسم الصليب وشارة الصليب » فتنصرف الثعابين إلى جحورها دون أن تهتم بأحد.

كنت أذهب إلى فوهة هذه الفجوة، وأطلّ عليها بحرص من وراء العوارض الخشبية، أجد الأرض منخفضة عدة درجات عن أرض الحوش، ومضطربة المستوى، فيها أكوام من التراب المتحجر ووهدات غائرة، ولا يكاد البصر يحيط بنهايتها حتى في عزّ النهار فهي تذهب وراء الحائط الحجرى، من تحت، إلى بُعد كبير، النور فيها معتم أو متراوح التضوىء، وعلى الجانبين فيها تلوح لي فتحات وحنيّات وما يبدو أنه

بدايات أنفاق أو قاعات واسعة فيها هدد وأنقاض وركام غير واضح القسمات.

وعلى مستوى أرض الحوش أقيمت عارضة خشبية كبيرة بارتفاع نصف متر أو أقل قليلاً لتحمي الأولاد من التدهور في الفجوة، أو لتحمي الفجوة نفسها من اقتحام الأولاد وخاصة بعد أن جاء أباتوب آخر أولاد منة وصموئيل.

سألت صموئيل أفندى عن سرّ هذه الفتحة، وسألت منة ، وسألت زكرى أفندى صاحب البيت ، فلم أجد إجابة حقيقية. قال لى عم صموئيل إنها جزء قديم من البيت ليس عندنا جهد ولا مال لترميمه الآن، وقالت لى منة بنت عمي مالك انت والسؤالات ديه ياخوى والله ما حدّ يوعى ع الملجة دى كيف كانت ومن ميتى، كُلاتنا خلجنا من يومنا لاجيناها كده وقالت لى مسعودة، همساً وفى السر إن الست منة مخاوية، وإنها تنزل تحت الأرض من هذه الثغرة وإن قرينها السفلى هو الذى يكسب وجهها هذه النضارة وهذا الشباب وهذه القوة. والأ يعنى ليه تلاجيها ملعلعة ومنورة كيف نوّارة الغيط؟

قال: أنا أيضا كنت أرى أمى في صباى الباكر مزدهرة يانعة وقاسية الجمال فأقول لا هذه ليست أمي بل قرينتها ومثيلتها تصعد لى من تحت الأرض، بعد أن أخفت أمي الحقيقية، هذه البديلة هي التى تصرخ بى وتعنفنى وتضربنى بوحشية وغل.

هل منة التى نُحسّ بغموض أن حبها الجسدانىّ العارم أكثر مما يحتمل صموئيل أفندى هى أيضاً قرينتها السفلية؟

كنت أشير أحياناً إلى صديقى مصطفى الذى يصحبنى إلى قعدة المندرة، فيفهم عنى ونقوم معاً بهدوء من آخر المصطبة اليُسرى حيث مكاننا المعهود، ونعرج لكى نطلّ، مسحورين، على هذه الفتحة الغامضة وما وراءها من خفايا.

قال لي زكرى أفندى إنه في هذه الأرض بئر مهجورة عميقة جداً ليس هناك طريقة للنزول إليها، لا يستطيع الواحد أن يرى الماء في قاعها من شدة عمقها، ويقال إن فيها سراديب، وإن أحد هذه السراديب يؤدى إلى كنز مرصود أو إلى معبد الرامسيوم العتيق، والله أعلم يا بنى. قيل إن سبعة شبان نزلوا إلى هذه البئر واحداً بعد الآخر لم يخرج منهم أحد حتى الآن، لم يغرقوا، مازالوا أحياء ينعمون مع ساكنات البئر اللائى ليس لجمالهن مثيل.

في ذات صباح كنا في بيت عمتى ديماريس، وكانت تعمل لنفسها القهوة السادة على السبرتاية، تماماً كما يفعل أبى، في الكنكة النحاسية الصفراء التى تُعنى حنينة بتلميعها كل يوم، فتنطق النقوش الدقيقة المحفورة على جوانبها.

كُنا كلنا معها ذلك الصباح، أمى وعايدة التى تشبه عمتى الخالق الناطق، وأخواتى هناء ولويزة ومعنا ألبير غنن الصغير، نجلس على بسطة السلم الواسعة أمام باب غرفة النوم الكبيرة، فرشت حنينة الكليم - كعادتها كل صباح - غير بعيد من الزير وقصعة الفخار العريضة العميقة التى أذكرها تماماً وفي قاعها نوى المشمش وفصا البلح يترقرق فيها الماء النظيف المروّق.

كانت أمى تناديها، كما نفعل نحن: «عمتى» فلعل أمى كانت أصغر منها بنحو عشرين سنة، وأصغر من أبى بنحو خمسة وعشرين سنة، تزوجها وهى في الثالثة عشرة ربما، في ١٩٢٣، عندما خطفت قلبه وهى تنط السيجة أمام بيتهم في غيط العنب.

سألتها أمى: مالك ياعمتى؟ خير إن شالله، سرحانة وبالك مش معانا.

قالت عمتى: خير يا بنيّتى خير، البارحة حلمت منام اللهم اجعله خير.

ألحت أمي عليها: تفسير الحلم يجئ بالخير يا عمتى.

قالت عمتى ديماريس:

- حلمت أن الملاك ميخائيل كان يملأ علينا السماء، جناحاه الكبيران يا بنيتى يخفقان ولهما رفرفة عظيمة ترج لها البيوت ولكن القلب يرتاح لها ولا يضطرب. لم أكن أستطيع أن أطل فى وجهه من نوره الذى يعشى البصر. وعجيبة أن كيريا أم تاوضروس كانت تكلمنى فى الحلم باللسان القبطى الأخميمى الذى تتقنه وتوارثته أبا عن جد. وكنت أفهم ما تقول وأنا لا أعرف اللغة يا بنيتى، وكأنما كانت تقول ما جاء فى الكتاب «الحكمة تنادى فى الشوارع تدعو فى رؤوس الأسواق فى مداخل البيوت من يسمع صوتها؟ انصتى يا ديماريس إلى صوت قلبك وتشجعى» وكأن بيتكم أنتم يا بنيتى - اللهم اجعله خير - هو بيتكم فى درب بطة وبيتكم فى غيط العنب فى الوقت نفسه، وكان يميل إلى اليسار واليمين، يوشك أن ينقض، ولكنه أيضاً كان هو نفسه بيتنا وبيت منة وصموئيل، وكنا كلنا قدام هذا البيت، كلنا هناك. حتى سالومة الله يرحمها بقى كانت معنا، ولم نكن نحن نعرف أنها ماتت ولا هى تعرف، ربنا يسامحها ويقدس روحها، وأخوى أبو أولادك كان معنا أيضاً وكأنه لم يترك أخميم ولا راح الفيوم ولا إسكندرية، مع أنك كنت معنا يا بنيتى يا سوسن يا حبيبتى، وكل أولاده، حتى أمين الله يرحمه كان معنا، وكأننى رأيت من خارج البيت ما يجرى جواه، رأيت العمود الصغير الذى بناه أخوى قلدس فى آخر الرحباية، وهو زينة البيت ونوارته، يهتز ويسقط من غير صوت ولا وقعت منه حجراية واحدة ولا طلع من تحته تراب الهدد، فقط نزل العمود، وكأنه كسر قلب أخى الله يحرسه ويباركه، وسقط قلبى معه، وعندما وقعت منة على الأرض مد الملاك يده وأسند الحائط الخارجى وثبت البيت فى مكانه، ولكنى أحسست الأرض ترج تحت قدمى، تنزل بى وتطلع.

عندما رفع الملاك يده عن البيت صرخت فى الحلم واستيقظت على صرختى. قمت شربت ورشمت الصليب على وجهى وقلت «أبانا الذى...» لكنى حتى الآن يا بنيتى مازلت أحس الأرض تتزلزل تحتى.

ارتشفت عمتى حسوة من فنجان القهوة الذى صبته لنفسها، وتنهدت. قالت أمى: خير إن شاء الله، الأحلام تتفسّر بعكسها يا عمتى، ربنا يديم علينا نعمته ويثبت الدار بشفاعة الملاك وكل القديسين.

الإسكندرية فى ٢١ يوليو ١٩٤١

ولدنا العزيز

أهديك مع أفراد العائلة وخصوصاً الست والدتكم مزيد السلام عزيزى سبق تحرير لكم خلافه واليوم استحضرت استمارة الملحق والشهادة ومرسلين طيه لملو الاستمارة وإعادتها لى بالتالى لتقديمها قبل يوم ٢٥ الجارى وبالاستفهام من حضرات الأفندية عرفونى بأنه يطلب الامتحان فى الجبر فقط وفيما تحصلت على خمسة تمر تكون ناجح إن شاء الله بحيث النجاح من ١٢ هو والمادة السابقة التى واخد فيها سبعة ومتأسفين جداً لرسوبك، والامتحان يكون بلجنة العباسية والاستمارة تحرر على هذا الأساس، وتحرر للوزارة بخصوص المهاجرين فإذا وافقت لابأس يعرفونا، والمهم إعادة الاستمارة قبل فوات الوقت، تحرر بعجلة وسنحرر خلافه بالكفاية سلامى لوالدتكم وأشقاكم وكن واثق بأنك ستنجح إن شاء الله.

والدكم

(إمضاء)

أخميم فى ٢٢ / ٧ / ١٩٤١

حضرة والدى العزيز

أهديك تحياتى وأشواقى وأتعشم أن تكون متمتعاً بالصحة والعافية وأدعو الله أن يكون راعيكم والمحافظ عليكم فى هذه الظروف الصعبة .

وبعد وصلنى خطابكم اليوم صباحا وبه الاستمارة والشهادة ، وقد حررت الاستمارة كطلبكم ولكنى تركت الجزء الخاص بالرسوم خاليا لأنى لا أعرف إذا كنت دفعت أو معافى ، وكذلك تركت الجزء الخاص بالعنوان ويمكنكم أن تكتبوا عنوانكم بالإسكندرية أو بأخميم لأننى لا أعرف على ماذا سوف يستقر الأمر .

استلفت كتاب الجبر وكراريس وبعض الكتب الخارجية من لويس فكرى سدره ، وأخيراً تجئ مسألة الامتحان ، وهل سوف أؤديه فى لجنة العباسية أو لجنة أسيوط وقد كتبت خطاباً لرفلة أفندى أستفهم منه عن ذلك .

نرجو تعريفنا أين تنام وهل أنت مرتاح أو لأ ،

منتظرين خطاب منكم بالكفاية لأننا مشغولين جداً

فى الختام جميع أفراد العائلة يهدونكم السلام والأشواق ،

وتفضل بقبول تحيات وأشواق ووفاء

ابنكم المطيع

(إمضاء)

تصحيح ، كتبت عنوانى على المدرسة العباسية مباشرة

فيلزم تعريفكم . .

$\frac{\text{٢س}}{\text{٢م ٢أ}} \quad \frac{\text{٢ص}}{\text{٢م ٢ل}} \quad \frac{\text{- ٢ع}}{\text{٢أ ٢حـ}}$

$\frac{\text{- ٢س}}{\text{أ+ب+حـ ٢أ}} \quad \frac{\text{- ٢ص}}{\text{أ+ب+حـ ٢ل}} \quad \frac{\text{- ٢ع}}{\text{٢أ+حـ ٢حـ}}$

$\frac{\text{س}}{\text{ب+حـ+أ}} \quad \frac{\text{ص}}{\text{أ+جـ ل}} \quad \frac{\text{ع}}{\text{أ+ب حـ}}$

$\frac{\text{أ-حـ ب+أ+ب حـ ب حـ+أ}}{\text{ص+ع+س}} \quad \frac{\text{- ٣أ ل حـ}}{\text{ص+ع-س}}$

$\frac{\text{أ-ب-جـ+ل+حـ-أ أ+ص+ب}}{\text{- ع+س-ص}} \quad \frac{\text{٣ل أ حـ}}{\text{ع+س ص}}$

$\frac{\text{ب-١حـ+أ+أ+حـ-ل أ-ب+حـ}}{\text{أس+س-ع}} \quad \frac{\text{= ٣حـ-أ-ل}}{\text{س+ص-ع}}$

$\frac{\text{٤أ - (أ+ب+حـ)}}{\text{س+ص-ع}} \quad \frac{\text{٢أ م}}{\text{س+ص-ع}}$

وهو المطلوب

أخميم فى ٢٤ / ٧ / ١٩٤١

والدى العزيز دام سعيداً

أهديك، من ابنتك المحبَة، سلامى وأشواقى الفريدة الكثيرة وشوقى لرؤية طلعتك البهية المباركة المحبوبة الغالية وبعد أخبرنا ماذا تفعلون عندما تضرب الصفارة هل تنزلوا فى المخابئ أو تبقون فى المنزل وأين تستحم وتغير ملابسك ومن يغسلهم لك وهل قابلت خالى سوريال أم لا هل أم عبد المسيح موجودة بالإسكندرية أم هاجرت والدتى بتقول إنت بتضحك علينا يوم تقول لنا يوم ١٥ أحضر ويوم تقول آخر الشهر ويوم تقول بعد صيام السيدة العذرا أخبرنا بالحقيقة ولا تضحكش علينا .

أما من جهتنا فالمعيشة غالية جداً جداً والنقود التى كانت معنا

نفدت ولم يبق منها سوى جنيه واحد فقط ومع ذلك نصف مؤونتنا خبز تصرفه لنا الحكومة ويوجد عندنا دقيق كيلتين تقريباً ومن جهة البيت الذى نسكنه فهو يعجبنا جدا أما من جهة أخي الكبير فهو متكبر ومنفوخ علينا وكل ما والدتي تقول له شئ يضحك عليها ولا يعجبه كلامها نحن مشتاقين لرؤيتك جدا جدا ولا نقدر على غيابك تلك المدة ونحن نبكي على بعدك عنا ألا يمكنك الحضور لكى ترفع معنا رفاع العذرا وتصوم معنا الصيام لأجل الناس الذى تأكل عندهم. هل زوجة المعلم موجودة بإسكندرية أم سافرت ثانية. والدتي اشترت وزتين وبتسمنهم علشان الرفاع فاعمل كل جهدك أن تحضر قبل الرفاع وتقضى باقى الصيام معنا. والدتي وأخي الكبير وهناء ولويزة وإيزيس وإيفون وألبير يهدوك السلام تقبل تحياتي الخصوصية ، لا تقول لأخي الكبير عن هذا الخطاب ولا تنسى الخطابات .

وإن شالله تبعث لنا في كل خطاب نصف ريال

ابنتك

(عايدة)

الإسكندرية فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٤١

حضرة ولدنا العزيز

بعد التحية .... ورد جوابكم وطيه الاستمارة واليوم توجهت للمدرسة وقدمتها جعلكم الله من الناجحين ثم عند تقديمها إلى حجازى أفندى استحسن بأن تضيف علم الهندسة ووضع بخطه بعد لفظة الجبر والهندسة وقدمناها لحضرة وكيل الناظر فتحى أفندى فقال لنا كان كفاية الجبر ومع كل لا يصح نشطب لفظة الهندسة، فهذه الحالة يلزم أن تذاكر في العلمين الجبر والهندسة وربنا يساعدك لكي تأخذ نمر عالية فى الدرسين وبإذن الله تنجح بتفوق وأرجوك الاجتهاد فى المذاكرة فى الدرسين وتأخذ كتاب الهندسة أيضاً من لويس أفندى

فكرى سدره. أما من جهة العنوان فهو على المدرسة العباسية وبعد أسبوعين أو ثلاثة أتوجه لاستحضار تذكرة الجلوس حسب كلام وكيل المدرسة لنا فمن جهتى كون بطمان كافى وإن شاء الله هذا الأسبوع لم يحصل غارات والمدينة هادية وأصبحت تقريبا مثل العادة وقد رجع مهاجرين كثيرين جدا، أول أمس توجهت بالصباح بغيط العنب وقابلت الأخ سوريال ووجدته غسل الهدوم وكلفته بمكوة القفطان وينتظرنى فى الغروب لكى استحمى وأبات عندهم وبالاسف توجهت فى المسا وجدته كوى القفطان إلا أنه توجه حضرته كفر الدوار وبايت. القصد استحميت وبت هناك وتركت الهدوم الوسخة مع إن المعلم سالم ألحَ على بالحموم بمنزله وغسيل الهدوم عندهم لاكن أنا لم قبلت مع العلم بأنى بأدفع لخالك أجرة الغسيل والمكوة بزيادة قوى. والحمد لله

سلامى للعموم ولشخصك المحبوب ودمتم والسلام

الإسكندرية فى ٢٨ يوليو ١٩٤١

ولدنا العزيز

أهديك مع السيدة المحترمة والدتكم وأشقاكم مزيد السلام وكثير الأشواق أتعشم تكونو جميعاً حايزين كل الصحة والسرور سيدى من جهتى بغاية الصحة والمبيت طبعاً معلوم لكم بمنزل المعلم سالم وعند حدوث غارات بننزل فى الجامع بجوار البيت أحسن من المخبأ والحمد لله لم يحصل غارات إلا يوم السبت صباحاً حصلت غارة بسيطة وألقت قنابلها بجوار العامود والقبارى وهدمت بعض منازل والخسارة بسيطة لأن أغلب الناس بل الجميع عندما تصفر الصفارة تنزل المخبأ والله بيسلم ومن جهتى حضورى غير متيسر إلا بعد صيام العذرا لأن المحل هنا لا يستغنى عنى ولا يوم واحد وربنا لا يحرمنا من الشغل طيه ورقة بخمسة وعشرون صاغ الموجودة الآن وعن قريب جداً يعنى تاتى جواب يرسل لكم مبلغ وافر. أرجو الاجتهاد فى المذاكرة وفى الوقت نفسه

أتعشم تكون على أتم طاعة لوالدتكم وأنشالله تعالى ينجح مقاصدك وينجنا جميعاً من شرور هذه الأيام، سلامى لأخوتكم والسيدة والدتكم أرانى الله وجهكم بكل صحة وعافية.

ختاما أقبل سلامى ودعواتى دام،

الاسكندرية في أول أغسطس سنة ١٩٤١

ولدنا العزيز

أهديك مع السيدة العزيزة والدتكم وأشقاكم..

الله وجهكم جميعاً وأنتم على أتم صحة..

الأستاذ رفلة أفندى فهمتك بأن..

تعليمات من الوزارة بخصوص تحويل المهاجرين إلى..

ويخابرونا وسنباشر هذا الموضوع ويفادكم ويلزم..

فيما كنت قوى في الدرسين تحصل على نمر عالية..

طيه ورقة بنك نوت بجنيه واحد بالاستلام ل..

بعد صيام السيدة العذرى وإذا كان امتحان حض..

نقوم نُسوِّيه من جهة صحتى لله الحمد إلا أن..

ألم شديد والحكيم أمر بخلع الكل فلذلك زعلان

من الساعة ٢ إلى ٣,٥ ولم يحصل إلقا قنابل كليتاً

للاسكندرية سلامى للوالدة كثير وإن..

خـــــتـــــامـــــا

أبى، كم أنت عظيم

هل أستطيع أن أرقَى مع أولادى إلى مثل عظمتك؟

وأى دراما تلك التى كانت تدور مع هذه الرسائل إذ تذهب وتجئ من شمال مصر إلى قلب جنوبها بدقة وسرعة لا نحلم الآن بما يقاربها.

هذه الأشواق والحيرات والآلام والاهتمامات بالرموز الصغيرة - التى كانت تبدو ما أخطرها عندئذ - من عدة وابور الجاز إلى مصير الامتحان، من بلاص الجبنة إلى مصير حياة أو موت الجيران، من القلق على المعارف والأقارب وعناوينهم بالضبط إلى أسئلة الغد وأحوال الحياة.

امتحان الجبر والهندسة؟ أى امتحان؟

هل انقضى هذا الامتحان - هذه المحنة - حقا؟

أم أن اللجنة مازالت منعقدة فى مكان مجهول، مازلت لا أعرف أين، مازلت أسعى بالجهد الجهيد أن أصل إلى إجابة أسئلة - ومعادلات - يبدو - بل من المحقق - أنه ليس ثم إجابة عنها.

مازال كاتب هذا الصبى يعانى فى عمقه دموعاً مكتومة.

وكما قال وزاد وأعاد: ما جدواها؟ ما قيمتها؟

من الفجوة الغريبة فى الحائط الشرقى العتيق لبيت منة تصعد تراتيل قدسية تصدح بها أصواتٌ لا مثيل لعذوبتها وبهائها، روائح عبقة من بخور المستكة واللبان الجاوى والطيوب الأفريقية تتهادى إلينا تتطاير من بين عوارض الخشب القديم الذى أخذ لونه يحول، وتبين عروقه الداخلية الدقيقة.

تراتيل التماجيد والتسابيح مرفوعة للقوة التى تفوق كل إدراك وكل تعقُّل.

تراتيل مجرات الشموس التى لا يحيط بها العرفان، فى دورانها وفْق قانونٍ صارم الدقة، تندرج فى رقصته الكونية الهائلة نجومٌ وكواكب وأقمار لا عداد لها فى نظامٍ موسيقاه غير قابلة للخلل أو الزيغ، أم هل نحن الذين نُضفى عليها هذه الدقة فلعلها مضطربة هوجاء؟ الإلكترونات والفوتونات فى قلب الذرة - المجرة - هل إيقاعها يؤلف تناغماً بين حفيف الأشجار وفحيح الثعابين بين صرخة الطاووس

وترجيع الكروان بين زقزقة الطيور وسقسقة خرير المياه بين عجيج الرعود ودوى البحر ووشيش النحل وهزيم العاصفة وأزيز النار ووجس أدنى الكائنات حساً؟ إيقاع الجسد فى كل مثوله روحىٌ محلق الروحانية أيضا.

تأتى التراتيل ملحَّنةً بزخارفها النغمية الطبيعية الكامنة فى نسيج أصوات رخية تفوق أصوات البشر فى عذوبة جرسها، تصعد من عمق الفجوة. فى الليل، نستمع إليها فى خشوع وصمت ومن غير سؤال، تنحدر إلينا من تراتيمهم عبر ألفى عام متسلسلة من هارمونية موسيقى تطاول الأزل ولا تعنو لسلطان الزمن وتظل سنداً لإيمان عتيق تتغير هيئاته ولا يحول جوهره، يزداد الترتيل الصوتى المتموج ثراءً بدخول ترنان موقَّع من المثلث النحاسي أو صفق قرقعة وجيزة من ضربة الصنوج، ثم يعود الترتيل صوتياً بحتاً من غير آلات، غنياً بذاته.

فى الساعة الأولى من النهار يشرق الإله بنوره السماوى ينهض من ظلمة القبر الليلى، ضوؤه باهر يكسف نور الشموع العالية التى تهتز شعاليل فتائلها فى عمق الهيكل المحجوب عن الأنظار، تحت الأرض وفوق السحاب معاً، ترفرف فى الغور الفسيح أجنحة الصقر القدسى محبَ البشر فى مخلبه الأيسر سيف النار وفى مخلبه الأيمن سنبلة الحنطة الناضجة المغسولة يلقيها تحت قدمى الأمَ الإلاهة أمَ الإله الكرمة الحقانية حاملة عنقود الحياة فاتحة باب الرحمة باعثة الشهوات الهيولية فى حواشى السماء المتقدة.

أعطنى أن أعتبر عذابك كنزى، وإكليل الشوك على جبينك الناصع مجدى، وأوجاعك تنعّمى ومرارتك حلاوتى ودمك حياتى ومحبتك فخرى، يا جراح إجرحينى برمح الحبَ الإلهى الذى ما أعمق إنسانيته، يا موت أسكرنى بحب من عاش ومات من أجلى، يالدمَ المراق طهّرنى.

ما أعظم الإيمان

وما أفدح فقدانه

وبالكبر العقلانية التى لا معدى عنها

موكب الكهنة يمر من خلال فجوة الزمن، هذا أنا أسير وراء كبير كهنة الديانة القديمة، مثلى مثلهم، عراة إلا من جلد فهد، أجسادنا ورؤوسنا ممسدة ملساء ليس فيها شعرة واحدة، ترتيلنا يصاعد تحت شجرة النبق الوارفة خافتا فى سكون الليل.

يامن نستقى مياهك من مهاوى السماء أوصافك مخفية عن العالمين أنت الروح الكامن فى كل شئ أنت الأقدس رب مدينة الروح البيضاء ورب مدينة الجسد السوداء معا أنت انبثقت من ذاتك سيد الأبد والأزل قلبك يتكاثر فى كل مكان فينبجس النور أنت فاتح صرح السماوات، النجوم والشموس التى لا تغيب قط تحت عرش وجهك تتضرع إليك، حدود الكون القصوى لك، ولك المجد فى الأرضين أنت المحبوب والمرهوب فى الشمال والجنوب معا اسمك فوق كل اسم سيد جماعة الآلهة أنت تقيم معت بعد أن سحقت الشرير تحت موطئ قدميك يارب أبيدوس.

أخر كهنة آمون – رع – أوزيريس أول كهنة ابن الإنسان مرتديا جلد الفهد على الوشاح الأرجوانى رافعا كأس نبيذ الكروم الأخميمية التى لا تقربها خفافيش الغسق ولا تنالها ثعالب الحقول.

دخان سيجارة الستايفسنت منفوثا يتلوى من شفتين ورديتين طرف السيجارة مبلول من قبلة مهدورة.

موسيقى الدف رخيمة الإيقاع فى عمق الفجوة من مقادس مدفونة تتطاير على أعمدتها طيور إيبيس وتترقرق على صوانها خطوط الماء وتحلق فى سمائها الداخلية الصقورمن نسل حوريس وتسكن فيها الصلال ناشرة قبازعها الملكية محدقة بعيون لوزية وتمتد الأيدى مبسوطة الأصابع بالابتهال. القنديل الكبير الخبئ فى الأعماق تحت

الأيقونات الاثنتى عشرة معلقاً بثلاث سلاسل ثلاثة أقانيم يتقد فى بطنه الشفاف زيت الزيتون النقىّ سراج الجسد والحس والشوق وسر الخفاء، بينما مجامر البخور المجلوب من پونت والطيوب المجلوبة من أزهار البرِّية فى سيناء وجبل لبنان. أرباعُ الناقوس تُتلى بالتماجيد. طغمات الأجساد السماوية قد اصطفت بين الأعمدة الجسيمة تيجانها منحوتة من زروع خضراء زاهية تتمايل كأنما تهزها رياح غير منظورة أعمدة بيت الإيمان ثابتة أمام ضربات العاصفة الهُوج تعلوها أكاليل البشنين وسعف النخيل الغض وأغصان الأكانتس مصفوفة فى ترتيب كورنثىّ أخميمى معاً.

عتبة البيت محفورة بالهيروغليفية والأبجدية العربية كالأحجار الضخام فى برابى أخميم المطمورة.

صوت ينادى من قلب الحجر: النحات صاحب الكتابة هو أنا، صلوا من أجلى حتى لا أتدهور فى حمأة اليأس، صلوا من أجلى حتى أظل يقظاً بالسؤال غير المجاب حتى آخر نفسٍ من أنفاس حياتى على هذه الأرض. صلوا أو لا تصلوا سيان، أمجاد النشوة الشاهقة وتمرغات السقوط والمهانة كلها عرفتها كلها سواء، ضوء المسارج المشعة وحنادس دياجير الروح القانطة تتقد فيها فتائل القناديل من وراء زجاجها الأزرق الصافى، تدور عجلة فى وسطها الصقر الإلهى بأجنحته المبسوطة بين أربعة وعشرين ثقباً دائرياً محفوراً حول أوراق عنخ وثمار الصليب وأقواس الأهلّة، مع تراتيل القدامى وترانيم الكنائس وترجيعات الأذان.

نبتة شجرة القشطة الوارفة تتثال منها المياه على الپاركيه اللامع المصقول فى بيت الشِّعْرَى اليمانية المفقود إلى الأبد، نزفت دماء الشجرة وماتت فى الطريق إلى دمشق أو فى الطريق إلى قِينَا.

لستُ الصارخ برقرقة الدموع وماء القلب المسفوك

أذكرونى أو لا تذكرونى .سيان.

قبور المطارنة ورؤساء الكهنة رخامية مكسورة أنقاض السماء أمحت من فوقها الألفا والأوميجا معا وهم الخلود وهم الأبد ونكتار النهود تبقى أثارته كالعسل المضمحل على شفاه مريرة.

ملفوفاً بالخرق مطروحاً جنب روث البهائم مهرقاً دمه فى الكتابات التى لا جدوى فيها.

الصوت يصعد من عماء اللامرئى: آلو.. آلو.. محملاً بحزن لا يطاق «أنا عارية كما تعرف أمام نسمات الليل التى تهب من نافذتى المفتوحة» جسم الإلاهة ناضج السمرة مترعٌ بلحم الشهوات.

أيقونة تتأرجح على جدار الروح المشروخ بشقوق غائرة لكنه لا يسقط، قائماً فوق الهوة الساطعة، الأيقونة بالليقة الذهبية التى نال منها الصدأ أو تراكم عليها تراب الأسئلة والحيرات وتحتها قنديل هو مشكاةٌ عربية مخرمة النحاس تشتعل فيه نار اللغة التى أحترق بها باستمرار أخذتها إلىّ - النار فى حضنى - وحولتها إلى وجدٍ إلى وجودٍ إلى انصهارٍ حىّ بلحم كينونتى العربية وقد أحالتها كيمى الكامنة فى كنّ كيانى بكيميائها الخاصة إلى ذهبها الخاص الذى لا يناله دثور فيما أظن أو فيما آمل على الأقل. بيضة النعامة إلى جوار أيقونتى قنديلى حشوها ذوب قلبٍ قد تهرأ من نهش معاشقه موشاة حواشيه بصلبان قديمة من العاج وأهلّة مشرقة. الوحوش البحرية تناوش سفينتى المتطوحة بين بحار الشكّ واليقين شعاليل النار تنشق عنها أشرعة تدفعها رياح شرسة جامحة هل توشك السفينة أن تنقلب على جنبها وتطويها الأمواج؟

هل رموزى وإشاراتى مبتذلة جداً؟

سوف أرثى لنفسى مع إرميا ولكنى سأرفض هذا الرثاء بل تنتابنى منه نوبات سخرية واستهزاء. فمهما رأيت مذلات نفسى وناسى فلست أقبلها ولا أعنو لها. ومهما وجدتنى أسير فى ظلمة كوابيسى

فإن الظلمة تنجاب. ومهما وجدت طرقي مسدودة مزدحمة حاشدة بآلات إلكترونية صاخبة وصرخات التزمت وسوء الفهم وفساد النيات فإنني مازلت أستمسك بما أجد فيه إيماء للخلاص حتى لو لم يتحقق ولن يتحقق خلاص فإن بهجة العيد اللغوى الذى يأتينى في ١٢ بؤونة أو أول توت، في عيد النيروز أو عيد الأضحى الكبير، في عربدات العشق الديونيزى أو عرامة أعراس العرى وعمايات الغياب، هى التى فيها إيماءة مضادة. ومع هذه البهجة حنين لموروث يوشك على الاندثار مارى بيك ناى نيم تيك هيرينى أوى السوفت إميك لاوس كيمى لتكن رحمتك وسلامك حصنا لشعبك مصر.

ⲘⲀⲢⲈϤⲦⲈⲔⲚⲀⲒ
ⲚⲈⲘ ⲦⲈⲔϨⲒⲢⲎⲚⲎ
ⲞⲒ ⲚⲤⲞⲂⲦ ⲘⲠⲈⲔⲖⲀⲞⲤ
ⲬⲎⲘⲒ

حتحور التى لا تموت مهما ذُبحت مرةً بعد مرة بلا انتهاء ترتطم عظامها بعضها ببعض فى حلمى ويند عنها من الفجوة السفلية فى بيت الجدلية أنين اللذة والاحتضار معاً تقوم من قبرها وتقيمنى من بين الأموات.

ثياب الزفاف البيضاء المبلولة بمياه التقديس من البركة المربعة تحت أعمدة الكرنك أو من جرن الرخام الرمادىّ المدوّر سميك الأضلاع فى الهيكل البحرى.

هل نوّرت الأنفاق والسراديب السفلية التى حفرها أجدادى الأقدمون عند تفكك الأسرات الفرعونية أو عند الاضطهاد الرومانىّ والبيزنطىّ وما بعده فى أرض ميراثى؟ تمتد من تحت قدس الأقداس، تنزل فى الأرض الخصيبة الصموت تحت ازدحام الناس، فوق، بالمشاغل والهموم بالمكائد والأحقاد تحت بيوتهم وأسواقهم ودكاكينهم

المتراكمة بما لا قيمة له. حتى تصل إلى براح الأفق الآمن المفتوح، ليست الأنفاق مظلمة ولا متربة ولا مهدمة سراديب الطوايا الدفينة، وخبايا القلب هل هي تستضئ وتظل مع ذلك مستسرة غير مبذولة؟

نزلت مدينة الصلاة التحتانية أمّ الأسرار، فوجدت أنها زهرة منحوتة في القلب المرمريّ الملطخ بدماء الذبيحة ودماء الإثم بمقتل الأخ القديم، تقدمةً وقرباناً مرفوضاً. ووجدت أنها قويمة سواءً كانت التقدمة مرفوعة أمام بتاح - أمون أم الفادى المصلوب أمام أيزيس أو مريم أو الزهراء.

«في ذلك اليوم يكون مذبح الربَ في وسط أرض مصر وعمود الربَ عند تخومها».

أما زال وسط أرض مصر عامراً أم خربه التتار من مستنزفي الخيرات وناهبي عناقيد الكرمة وحيتان الانفتاح وعُملاء الكاوبوى وجفاة البدو أصحاب الأكباد الغليظة؟ هل «نامت نواطير مصر عن ثعالبها»؟

لكن عمل الآلهة السرّى لا يخيب. أحشاء الآلهة ولودٌ معطاء.

فإذا كانت الهاوية والهلاك لا تشبعان، وكذا عينا الإنسان لا تشبعان، فإن ثمار كيمي تتجدد كل يوم وكل عام على الأغصان الوريفة، لأن كل مرير يستحيل عذباً - ولو كان مشوباً - في أرض هيكوبتاه، معجزتها - رغم كل شئ - كالثلج في الصيف وكالمطر في شهر هاتور الذهب المنثور، لن يستطيع التتار الآتون من الغرب أو الشرق سواء أن يضعوا على هدب عينيها ظلال الموت أبداً، زهر أرضك يا أخميم لن ينحسم ●

الفصل العاشر
الدير الكبير

«كانت ليلة حارة في آخر الصيف. القمر مشرق في سماء جبل أخميم، والصحراء الشرقية تئن فيها الريح. الدير الكبير يبدو بأسواره الضخمة ومنكبيه الكبيرين، قلعةً مكينة، نصفها غارق في الظلمة ونصفها متوهج بنيران القمر البيضاء، كحيوان خرافيّ من رؤيا يوحنا.

أحد الرهبان يطوف على السور العريض، للحراسة، معلقاً إلى كتفه بندقيةً عتيقة حتى إذا وصل إلى كتف القبة الكبيرة جلس تحتها مستنداً إلى الليل.

النجوم القليلة تلمع بعيداً عن القمر في حِجْر السماء الحريرى، وثَمّ عواءُ ذئب يسرى بين الرمال.

على مبعدة من البناء الضخم تتناثر أبنية صغيرة متداعية، يتكوم معظمها في صمت، مهجورة.

بين الدير الشامخ وبين هذه الأبنية المبهمة كأنها مقابر، تتخذ الحجارة وأنقاض السماء أشكالاً غريبة في الليل المقمر كأنها أجسام متصلبة في كابوس ترمى بذراعيها متشنجة فاغرة أفواهها بلا صوت، وثَمّ جماجم قديمة مرمية بيضاء من طول التعرض للشمس تبتسم أبداً عن نواجذها وعن عيونها المفتوحة، عظام الموتى ملقاةً على الرمل، يخرج الرهبان الأتقياء فيهيلون عليها التراب وهم يصلّون بصمت ويدفنونها في حُفر عميقة في الجبل، لكن الضوارى والضباع تنبشها باستمرار، وتكشفها في العراء.

في القديم كانت الذئاب تقف على أبواب الصوامع الصغيرة حول الدير، في خشوع، تحرس سكانها المتوحّدين، كان الرهبان يقضون في

هذه القلالى أيام التجربة على الأرض في وحشةٍ مباركة بالروح.

لكن الرهبان هجروا هذه الصوامع شيئاً فشيئاً، وهجرت الذئاب هذه الناحية من الجبل. أما البذور التى ألقاها الزارع الصالح فلم تهلك كلها في الرمال والصخور، بل نمت وترعرعت منها نبتةٌ طيبةٌ أو اثنتان. وها الضوء الأصفر مازال يشع من بضع قلالى متناثرة على هضبة الجبل، في انتظار ملكوت السماوات، في هذا السفح الموحش المهجور إلا من الثعابين وحشرات الأرض والثعالب التى تأتى أحياناً فتقف على أبوابها بهدوء وتمضى وهى تقرقر بأسنانها.

الآباء المتوحدون القلائل في هذه القلايات الصغيرة لا تنقطع صلواتهم وترانيمهم بكلمات الله وتسابيحهم للآباء والقديسين. يذهبون في الأعياد السيَدية إلى كنيسة الدير، ويعودون محمَلين بزادٍ روحى من التقوى، وبقفف مملوءة بالخبز الجاف، والترمس الناشف، يأكلونه على مدار السنة مبللاً بالماء الذى يمتحونه بأنفسهم من البئر في صحن الدير. يعودون يعيشون هذه الأيام في عزلة النُساك الأقدمين، بعد أن يتناولوا القربان الأقدس وينالوا بركة الأب الرئيس.

بعضهم يرجع من الدير بكمية من الورق السميك الأصفر، وحزمةٍ من بوص الغاب للكتابة، وزجاجة كبيرة من الحبر الأسود وبضع زجاجات مليئة بالألوان والأحبار الأخرى، ولا ينسى أن يدس في المنطقة الجلدية الغليظة حول وسطه محبرة نحاسية أو اثنتين، ومجموعة من أقلام البَسْط المبريّة الجاهزة. هؤلاء يقضون أيامهم ولياليهم - بعد أن يفرغوا من قراءة الكتاب وأداء الصلوات والترانيم بالمزامير والتسابيح - في نسخ الكتب المقدسة والميامر في سيرَ الشهداء والأشعار التى قيلت في تمجيد الحَمَل الوديع وتقديس أمّ النور، وفي زخرفة حواشى ما ينسخون، ورؤوس الفصول في أوّل الصفحات، بصورٍ للعذراء وعلى ذراعيها الطفل الإلهى، حول رأسها هالة النور باللون الذهبىّ الوهاج،

وعباءتها السابغة باللون الأزرق الزاهي، وعينيها بصبغة عسلية أما عناوين الفصول وأرقام المزامير وأسماء الأناجيل والرسائل فهي دائماً بالأحمر، وأما النباتات والأوراق وعناقيد الكروم التي تزين الإطارات المستطيلة حول النصوص والآيات القدسية، فهي دائماً باللون الأخضر.

كان لهؤلاء الرهبان أسوة في أبونا توما الذي عاش ومات هنا في الزمن القديم، وتجري حكايات الأقدمين بما جرى له مع أبونا متى من أحداث دبرها لهما الشرير.

أما بعض الرهبان المتوحدين القلائل، اثنان أو ثلاثة، فعلى غرار ما كان يفعل أبونا متى، يعودون وملء أيديهم حزم من سعف النخيل والجريد وخيوط الكتان والإبر الطوال ونحوها من أدوات خصف القُفف وصنع الأقفاص، وبعد أن يؤدوا واجباتهم الروحية كلها يباركون المواهب المتواضعة التي منحها الرب إياهم، يعملون بأيديهم في ابتهاج مقلدين النجار الإلهي، مترنمين بالتسابيح، ليعودوا في العيد التالي على أكتافهم وملء أيديهم السلال المجدولة بشكل ساذج وجميل، والأقفاص الخشبية من سعف النخل في غاية القوة والدقة، والقفف المخصوفة في دوائر تامة الاستدارة.

على هذا النحو كان الرهبان المتوحدون القلائل يتأسون- بقدر ما يستطيع الخطاة الفانون - سيرة الأنبا أنطونيوس القديس كوكب البريّة أبُ جميع الرهبان الذي لم يكن ينطق إلا باللغة المصرية القُحّ، لم يتكلم اليونانية، لغة المتفيقهين والفقهاء، ولم يعرفها، كما يتأسون سيرة سائر الآباء الذين كانوا ومازالوا هم رسالة المسيح الحيّة المتجسدة ورائحته الزكية المتضوّعة أبداً، يعبرون أيامهم ولياليهم حالمين في غيبوبة من الكلمات المقدسة يرددونها بصوت خفيض أو عالٍ وهم ينسخون في غيامةٍ من جمال يسوع وطهر العذراء ونعيم الملكوت في أورشليم السماوية الآتية، أو يخصفون ويجدلون الأقفاص والسلال

والمقاطف، حتى امتلأت مكتبة الدير بالمخطوطات الجميلة التى لا أحد يعرف بالضبط من كان قد نسخها، وامتلأت الأروقة والقلالى بالقفف التى خصفها من راحت أسماؤهم طى النسيان كما طُمرت أجسامهم في أقباء الدير الغائرة المنحوتة في بطن صخر الجبل، بعد أن عاشوا ظافرين بالجسد على مكائد الشيطان؛ أم أنه كانت بذلك تجرى الحواديت والسير، فقد كانت ثم نهايات فاجعة وانهزامات مشهودة؟

على أيام الأنبا باخوميوس كبير القلب، منذ سبع سنين أو أكثر. ترهبن باسم أغابيوس الفتى لعازر الذى أنجبه سلوانس قلادة من أدرناه بنت عبد الملاك، كان لعازر أصغر أشقائه مرقص وليديا وجيصر.

أبونا متياس كاهن كنيسة أبو سيفين كان أول من اتجه إليه الفتى لعازر يسأله الهداية والمعونة، فهو أبُ اعترافه وابن عمه معاً، وكان - على عكس الفتى لعازر - رجلاً عاقلاً متزناً ضابطاً لأهوائه.

لعازر أغابيوس كان ويظل دائماً تشطَ به المحبات والمعاشق الإلهية والدنيوية معاً، يعرف في عمقه الداخلى القداسة والدنس معاً، ثبطه أبونا متياس في الأول وحاول أن يفلَ عزيمته.

بكى لعازر بالدموع الحارة، وهو واقف خاشع في طقس الاعتراف، لثم يد ابن عمه وأغرقها بالدموع في باحة الهيكل الجانبية المفتوحة فليس عند الأرثوذكس في أيامها وحتى الآن فيما أظن تلك المقصورة الضيقة وذلك الزَمّتُ والخفاء بين المعترف - أو المعترفة - وأبى الاعتراف، لأن الاعتراف إنما هو للّه وليس للكاهن، وسرّ الاعتراف يُصان في القلب لا في الحيز المغلق والوجه المخبوء، وفعالية الاعتراف تتأتى من علانيته.

لجأ أبونا متياس إلى الأنبا باخوميوس وقال له إن الوليدْ جاد وشديد الحماسة والشغف ويمكن نعمة ربنا تحلَ عليه، فقال الأنبا باخوميوس،

بطيبته المعهودة : فلتكن إذن مشيئة الربَ.

صعد لعازر مع أبونا متياس تلال أخميم الشرقية، ثم هبط الموكب الصغير قباب الرمال، كان لعازر يمشى على قدميه أما أبونا متياس فقد كان على حماره القوىَ أصهب اللون الذى يعرف الطريق إلى الدير لوحده دون دليل، دوامات صغيرة من الرمل والحصى الدقيق تثور تحت حوافره، ثم ارتقيا الهضبة الصخرية العريضة، وفجأة سمعا دقات أجراس بعيدة من كنيسة الدير، فتخففت عنهما وعثاء الرحلة الشاقة.

كان الدير الكبير يأخذ في أن يتضح لهما من بعيد، تحت كتف الجبل من ناحية، ويطلَ من الناحية القريبة إليهما على الرمال الشاسعة الممتدة على هيئة كثبان ووهاد تسوخ فيها الأقدام.

وفي طريقهما إلى الأسوار الضخمة، على بعد حوالى مائة متر في الصحراء، انبثقت أمامهما ثلاث عيون متفجرة ينبجس ماؤها على شكل نافورات مندفعة بلورية القطرات، فانطلقا إليها وشربا ماء عذباً - كما مدَ الحمار بوزه وارتشف منها ما يروى غُلته - قال أبونا متياس:

- هذا ماء خفيف على المعدة يابنى يا لعازر، يهضم أى أكلٍ مهما ثقُل، والرهبان هنا يعتمدون عليه في الشُرب وتحضير الطعام، ماء البئر الجوانية ثقيل وفيه ملوحة. ويقول لى الرهبان هنا أن في هذا الماء سرَ صحتهم ونأى الأمراض عنهم.

سأله لعازر: كم عددهم - الرهبان - هنا؟

- الآن ثمانية عشر راهباً بالعدد. الشيوخ منهم والشباب، أما في الزمن القديم فقد كان هذا الدير يزخر بأكثر من ألف راهب.

قام الدير أمامهما، ظهر من وراء أسواره، مبنيان كبيران، في الشرق والغرب، لا يصل بينهما إلا جسر خشبى ينبثق من برج واحد عالٍ وان كانت قد نالت منه عوادى الزمن، تساقطت بعض أحجاره العليا، وتخللته شروخ دقيقة بين الأحجار.

قال أبونا متياس: سوف ترى أن هذا البرج يغطي دهليزاً ضيقاً يؤدى إلى الباب، ولا يفتح الباب إلا بأمرٍ من الجهة الأخرى، في الداخل.

سأل لعازر: ذلك كان لحماية الدير كله، وخصوصاً هذا المبنى الغربى من اعتداءات الواغلين حتى يصعب على الدخيل أو الغريب - طبعاً - أن يعرف طريقة إلى داخل الدير. ولكن هل هذا هو الحال حتى الآن؟

قال متياس باختصار وشئٍ من الملل: سوف ترى.

ثم استدرك كأنما يعتذر ضمناً عن لهجة الضيق التى تكلم بها لابن عمه:

- طبعا في خلال قرون الاضطهاد وغزوات قبائل البدو تهدم الدير أكثر من مرة، وأعيد بناء أجزاء منه، سوف ترى عندما تعرف الدير، نقوشاً وكتابات باليونانية والقبطية والعربية على بعض الجدران، وأيقونات عريقة أمحت ألوانها ولكن عيون العذراء مريم مازالت تنظر منها إلينا، حزينة وعميقة، تتقطر منها دموعٌ نزرة عند ما يلمّ عذاب المحنة بأحد الأبرار.

عندما وصلا إلى الباب الأثرى الضخم المغلق تماما، شدَ أبونا متياس حبلاً مدلًى من السور، رنّت دقاتٌ بعيدة من ناقوس ضخم في الداخل، ولم يستجب أحد، شدَ أبونا متياس الحبل مرة أخرى، دون تعجّل، وانتظر، سمعا صوتاً ضعيفاً كأنه يأتى من السماء.

- مين؟ عايزين مين عادْ؟

قال الأب: متياس راعي كنيسة أبو سيفين، معاى لعازر، ومعانا ميعاد مع الأنبا باخوميوس.

ساد الصمت والهدوء.

بعد زمنٍ ليس بالقليل انفتحت في الباب الضخم كُوّة مربّعة تنفذ منها بالكاد قامة الرجل محنياً رأسه.

لمح لعازر أن السور العريض يمكن لثلاثة رجال أن يسيروا عليه معاً،

أحجاره منحوتة من صخور الجبل العاتي ليست فيه ثغرات إلا فتحة الباب الضخم المواجه للصحراء وقد التصق بأحجار السور وتكلست الفجوة الدقيقة بينه وبين الحجر.

لم يجدا أنفسهما في فناء الدير، بل انفتحت الكوة التي دخلا منها، على دهليز ضيق بين حائط مُصمت سدّ وبين حائط البرج الذي كان يتناوب الحراسة فيه ليل نهار، زمان، راهبان مسلحان بالإيمان وببندقية عتيقة، الآن لم تعد ثم ضرورة لصد هجمات العربان.

وعندما انتهى الدهليز انفتحت أمامهما باحة الفناء الشاسع. ووجدا راهباً شاباً يرحب بهما.

كانت أصداء القداس الإلهيّ تأتي إليهما من ناحية الكنيسة، وكان عليهما قبل أي شئ آخر أن يشهدا خدمة القداس.

وفي اتجاههما إلى الكنيسة إلى الجنوب من الفناء الفسيح حتى أن سور الدير البعيد لا يكاد يُرى، لمح لعازر بئراً عميقة سوف يعرف أنها ذاهبة إلى بطن الجبل حتى تصل إلى طبقة الماء التي تتفجر عنها العيون الثلاثة الخارجية، وسوف يعرف أن في ماء البئر طعماً معدنياً لاذعاً لكنه مع ذلك عذب صالح للريّ، والبئر تقع في وسط أرض سوداء مخضرة واسعة، يبدو أنه قد تعاقبت عليها أجيال من الخيرات، ففيها كرمة عنب وارفة معمولة على تكعيبة خشبية تتدلى منها عناقيد كبيرة الحبات يضرب لونها إلى سوادٍ مليء ناضر، تحتها ممرات مستقيمة مرصوفة بالحصى الملوّن، وسوف يرى لعازر أن الآباء الرهبان يتمشون عليها وهم يقرأون لأنفسهم بصمت واستغراق فصولاً من الكتاب المقدس، وعلى مبعدة تقوم خميلةٌ بتعريشة من النخل متشابكة الجذور تخرج منها النخلات مائلة إلى جنب مقوسة تتكون منها ظُليلة ندية النسمات يجلس تحتها المتعبون المرهقون الذين قال عنهم: «تعالوا إليّ يا حاملي الأثقال أزيح عنكم أحمالكم» ورأى لعازر في هذا البستان

المزدهر وسط صخور السماء أشجار توت ورمان وأحواضاً مزروعة بالجرجير والبقدونس والملوخية والطماطم، وغيط ذرة.

قال في نفسه: ثمانية عشر راهباً فقط؟

قال له أبونا متياس مرشده الأمين:

- لا تستغرب. بركة الرب معهم، في الزمن القديم حُفرت تحت الأرض أنفاق ضيقة تمر فيها أنابيب من الفخار كانت توصل الماء من البئر بانتظام، وحدها، بترتيب هندسيّ عجيب، من البئر إلى الموقع الحصين الذى اتخذ الآن مكتبة. سوف تعرف كل ذلك، كل شئ مرهون بأوان.

قبل أن يدخلا الكنيسة قال له الأب متياس:

- أعرف أن مباني الكنيسة ترجع إلى القرن العاشر، وأُقدّر أنها تبلغ حوالى ٢٨ متراً طولاً وحوالى ١٨ متراً عرضاً، يعنى إيوانية الشكل، على الطراز البازيليكي.

دُهش لعازر قليلاً إذ وجد أن الجزء الغربى من الكنيسة قائم على صخور طبيعية مرتفعة.

كانت الكنيسة تتوسط المبنى الشرقى يحيط بها الفناء من الشمال والغرب والجنوب، وطبقاً للطقس الأرثوذكسى العريق تمتد من الشرق إلى الغرب.

دخلا إلى صحن الكنيسة من المدخل الجانبى الوحيد، وكان الرهبان فيها يبدو أنهم جماعة قليلة في الصحن الفسيح المغطى بقبة من الطوب مازال بعض نقوشها واضحاً وإن تآكل معظمها، الصحن مبلط بحجر جيّد بارتفاع عن مستوى الأرض بنحو نصف متر، ويتكون الصحن من ثلاثة أجنحة أو رواقات مسقوفة.

سار القادمان، ببطء مُحْنيَيْ رأسيهما، بعد أن رشما علامة الصليب على وجهيهما بالماء المصلّى عليه عند المدخل، وهما يتمتمان بالصلوات، حتى وصلا إلى جماعة الرهبان الواقفين في الخورس أمام

الحجاب، ومن باب الحجاب بدا لهما الهيكل، على شكل رأس الصليب، وعليه قبة نصف كروية مصنوعة من الطوب الأحمر، تتفرع عنه ثلاث غرف معتمة.

كان المذبح مكسواً بنسيج أبيض سميك، وعليه الشموع الكبيرة، والكأس والصينية والملعقة، وكان الأنبا باخوميوس عندئذ يرفع الإبروسفارين ويبدأ القداس.

«جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق»

تؤمن كنيستنا الأرثوذكسية أنه بعد تقديس سر الشكر واستدعاء حلول الروح القدس على القرابين يستحيل الخبز والخمر استحالة سرية إلى جسد المسيح ودمه الأقدسين. وتؤمن أن ربنا يسوع المسيح حاضر في هذه الخدمة لا بوجه الرمز أو الإشارة أو الرسم أو الصورة أو المجاز بل حضوراً فعلياً.

طقوس القداس تمضي في طريقها المرسوم، تخفف روع الحدث - كما في الحياة نفسها.

قال: تصور أن المسيح قد جاء وتجسد فعلاً وحقاً وأن الخبز هو جسده فعلاً وأن النبيذ هو دمٌ، دم المسيح فعلاً، كيف كان يمكن احتمال ذلك من غير أن يُحاط بالترتيل والبخور وكل الطقوس؟ وكيف يمكن احتمال الموت، والحب، من غير الطقوس التي تحيط بهما؟

كانت قبة الخورس مزينة برسم مازال زاهياً للأربعة وعشرين كاهنا حول العرش الإلهي.

ولم يفت لعازر أن جُرن المعمودية كان في الجزء الأسفل من صحن الكنيسة، حسب القوانين المرعية، في الزاوية البحرية الغربية، وأن بيت العماد فيه ثلاث كوى مستطيلة كل منها يعلوه نصف قبة.

تناول الرُهبان والزائران القربان المقدس وشربا دم الفادى، وعند تمام الصلوات ونهاية القداس، مرّ الموكب الصغير في طريق الخروج بمحراب صغير في مقابل الخورس، مزخرف برسوم حائطية، وفي الكوّة الوسطى من المحراب رسم للمسيح واثنان من الملائكة ينحنيان أمامه ساجدين.

عندما خرج الجميع من الكنيسة رأى لعازر كهوفاً أو قلالى من الحجر الرملى تحيط بالكنيسة، قدّر أنها مساكن للمتوحدين داخل الأسوار.

اقترب منهما شيخٌ صارم التقاطيع -- سوف يعرفه لعازر بعد ذلك معرفة جيدة وشاقة -- وقال لهما: «تفضلا.. المضيفة من هنا»

ذهب بهما إلى غرفة فسيحة قديمة حجرية البلاط وحجرية الحيطان، تتردد فيها أصداء الكلام، تدور بها مصطبة مبنية ليس عليها إلا فرشة من رُقع أقمشة قديمة ملضومة بعضها ببعض، فوق حُصُر مستطيلة.

ما كاد الزائران يستريحان على المصطبة المفروشة حتى جاء راهبٌ يحمل بين يديه طشتا نحاسياً واسعاً، وإذا بجماعة من الرهبان قبعت على الأرض حول الزائرين، وأخذوا يخلعون عنهما الأحذية والشرابات، امتنع لعازر خجلاً واستحياءً أن يعطيهم قدميه، فمال عليه الراهب المتجهم الوجه - سوف يعرف حالاً أن اسمه أبونا طانيوس، قال له:

- يا وليدى هذه عادة وتقليد قديم مأخوذ عن الربّ يسوع، نحن نغسل قدمى الزوّار بأيدينا، فلا يأخذك الكبر والعناد أبداً يا وليد.

كان أبونا مَتياس قد استسلم للتقليد العريق، وكان راهبان يغسلان قدميه في الطشت الواسع، ثم يمسحانهما بمنشفة كبيرة، وتبعه لعازر وقد اهتز بإحساس غامرٍ من العرفان والمحبّة والاستعداد لبذل الذات.

عندما انتهى هذا الطقس قام أبونا متياس ليعتكف قليلاً في قلاية واسعة معدّة لإقامة الضيوف، ودّع لعازر قائلاً بصوتٍ متهدج:

- ربنا يباركك يالعازر يابن عميّ ويقويك في اختبارك. ربنا معك.

ولم يره لعازر بعد ذلك طيلة سنوات ثلاثٍ، حتى أتم فترة الاختبار.

هجس في نفس الفتى لعازر عندئذ

- هأنذا آتى إلى الدير، أدخل اختبار الرهبنة، وأنا في خوف عظيم، كيف أخلص نفسى لمحبة الله وحده، وأنا أحب الناس؟ وأحب بنت عمى منة وأموت فيها عشقاً؟ وأحب سماع الموسيقى، المزمار والناى، والتحطيب وصخب الموالد وفرح الأعراس ورقص الغوازى؟ كيف أنقطع إلى الله وحده وأعزل نفسى عن العالم وأنا أستمتع بحكايات الأصحاب وأستمتع أيضا بصحبة النساء من قريباتى وجيرانى ومعارفى؟ كيف مأحتمل قسوة العزلة عن مباهج العالم؟ هل سيملأ الله قلبى، وبهجة محبته تعوضنى؟

تغير كل شئ فجأة.

لم يسمح للفتى لعازر أن يدخل على ابن عمه الأنبا باخوميوس، رئيس الدير - هو ابن عم أبيه على الحقيقة - فقد اندرج منذ الآن في نظام الاختبار القاسى، حتى يعجم عوده وتمتحن صحة عزمه على الانخراط في سلك الرهبنة بشروطها الأساسية الثلاثة: الطاعة، الفقر، البتولية.

عندما طُلب إليه بصرامة فخلع جلابيته الحرير الأخميمى وفك حزامه الرفيع القصب، وأسقط عنه الشال والعمامة الأنيقة، أحس أنه يخلع عنه زينة الحياة الدنيا، وأعطاه أبونا طانيوس مسوح الاختبار: جلابية زرقاء من الصوف الخشن على لباس طويل من العبك، في عزّ الحر هذا، وحزاماً مفتولاً من ليف النخل المجدول بإحكام، وصندلاً جلدياً جافى الصنعة، ولم يقل له كلمة بل ظل متجهم الوجه، لحيته الشهباء الخفيفة تضفى عليه مسحةً أبعد ما تكون عما تصوّره لعازر من سماحة الرُهبان ووضاءتهم، فهو صارم حادّ الملامح، ضيّق العينين وليس نظيفاً تماماً إذ تند عنه رائحة العرق والكدّ والزُهد وكراهية البشر.

ألمّ به راهبٌ شيخٌ جليل المظهر، أعاد إليه هدوء الروع المفقود، وقال له:

- أنا يا بنى أبونا ثاوفيليس - يعنى كما لعلك تعرف «مُحبَ الله»،

أنت عندما تجتاز الاختبار وتدخل معنا نعمة الرهبنة - بمشيئة الرب - بماذا تريد أن تتسمى؟

قال لعازر دون تردد، فقد كان ذلك مما حلُم به طويلاً:

- أغابيوس

قال أبونا ثاوفيليس: وهو كذلك. فليكن بمشيئة الرب.

قال له أبونا طانيوس باختصار:

- ادخل ع الشغل ياوليد. عندك المطبخ، مع الرهبان الشغالين هناك.

تحيّر لعازر - أغابيوس قليلاً. لم يدلّه أحد على شئ. أين المطبخ؟ اهتدى إليه بعد قليل. بروائح العدس أبو جبّة التى فاحت من ناحية الزاوية الشمالية الغربية من الدهليز الطويل.

دخل ردهة كبيرة قبوها محمولٌ على صفٍ من أعمدة أسطوانية، فيها مائدة واحدة مستطيلة من الخشب الزان العارى اللامع من الاستعمال وحولها من الناحيتين دكة خشبية من غير ظهر.

في الردهة رسوم معمولة بالفريسكو الملوّن. بُهت لعازر من جمال أشكال الرسل والقديسين فيها، وإن كان قد شاهد أن معظم الوجوه - الوجوه بالذات، فقط - قد شوّهت وجُرحت وقدّر أن ذلك، كما سمع قبلاً، جاء من اعتداءات قبائل البدو وغاراتهم على الدير وخاصة تلك الغارة التى وقعت في القرن الثالث عشر وقضت على معظم الرهبان قاطني الدير، لم ينج منهم إلا القلائل، واستحالت المبانى إلى أطلال، أعيد ترميم بعضها وبقى معظمها مهدّماً.

إلى جانبٍ في المطعم، رأى لعازر راهبين يشتغلان أمام أحواض للغسيل: كان يتصل بالمطبخ خزان ضخم قديم من الجرانيت مملوء بالماء، وإلى الجانب الآخر كانت الأفران مشتعلة بالوقيد وعليها قزانات يغلى فيها العدس أبو جبة.

ومن باب المطعم الفسيح رأى لعازر قباباً صغيرة متتابعة عليها

صلبان حجرية وأدرك أن ذلك هو «الطافوس» الذى ترقد فيه، وفي الأقباء السفلية تحته، رفات وأجداث الآباء الرهبان القدامى، وكان قد سمع أن بعضها مازال طرياً حتى الآن، منذ عهود الاضطهاد.

قضى لعازر - أغابيوس نصف اليوم يذهب ويجئ من المطبخ إلى البئر، يستخرج منها الماء بالسطل الخشبى الكبير الثقيل المصفح بحلقات من الحديد، ينتح الحمل من العمق بالحبل الذى أوشك أن يدمى كفيه، وقد تورمت أصابعه وراحت تنبض بالوجع، ثم هو يدعك الحلل والمواعين، يوقد الحطب ويغذى النار في الفرنين الشغالين، يمسح بلاطات الأرض القديمة بالخيشة والماء والصابون، يسمع أوامر الراهبين العاملين في المطبخ، ويطيع. فقد كان عليه أن يتعلم درس الطاعة، وكان أبونا متياس قد روى له في هذا السبيل أن أحد الآباء القدامى كان يأمر الراهب الشاب الجديد أن يسقى عصا جافة مغروسة في رمال الصحراء، يرويها بالماء - وهو شحيح صعب الحصول عليه - مرتين كل يوم. لم يكف الراهب الجديد عن إطاعة الأمر، حتى لو كان الأب الشيخ لا يراه ولا يسأله، يوماً بعد يوم، شهراً بعد شهر، سنة بعد سنة، كل يوم، كل يوم، حتى إذا اكتملت سنوات ثلاث اهتزت العصا الجافة. سرت فيها مياه الحياة، اخضرت وأورقت وأعطت ثمراً من توت أبيض محبب لاذع الطعم مع حلاوة، فقال الأب الشيخ لجماعة الأخوة الرهبان:

- خذوا كلوا من ثمار شجرة الطاعة..!

كانت تلك رواية مشهورة وأثيرة ولكن لعازر - أغابيوس لم ينسها، وكان يعزى نفسه بقول الكتاب:

- اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقى للحياة الأبدية.

عندما جاءت الساعة الثالثة التى في مثلها حكم بيلاطس على المسيح، وفي مثلها حل الروح القدس على التلاميذ، أخذ الدير يدوى، فجأة، بقرع الجرس الضخم من البرج العتيق، قرع النحاس الممتلئ بعث

في روح لعازر - أغابيوس صدى رعشة ارتعد لها جسمه، فقد رأى الراهب الضئيل الذى يجذب حبل الجرس الضخم إلى تحت، يكاد يرتفع به الحبل إلى فوق في كل مرة يقرقع فيها الجرس بتنغيمات بطيئة حاشدة؛ إيقاعها المتمهل، مع ذلك، يوحى بأن الساعة قد جاءت وأن شيئاً عزيزاً أو خسيساً، على السواء، يوشك أن يمضى، أن يذهب بلا رجعة.

اجتمع الرهبان الثمانية عشر في ردهة المائدة الكبيرة، جلس لعازر - أغابيوس في آخر المائدة.

قبل الأكل رشم الرهبان علامة الصليب على وجوههم وصدورهم، وأقيمت الصلوات الجماعية بالقبطي والعربي، وقُرئت المزامير والتسابيح، وتلا أحد الرهبان مترنماً بصوت رخيم وبلهجته الصعيدية فصلاً من إنجيل يوحنا، ثم ألقى الأنبا باخوميوس بنفسه تحليل الساعة الثالثة، بصوته الحزين الخافت، في قلب سكون مطبق: «يا إله كل الرأفات ورب كل عزاء، الذى عزانا كل حين بعزاء روحك القدوس، نشكرك لأنك أقمتنا للصلاة في هذه الساعة المقدسة التى فيها أفضت نعمة روحك القدوس بغنى على تلاميذك القديسين ورسلك المكرمين الطوباويين مثل ألسنة نار... طهرنا من كل دنس الجسد والروح... لكى نسعى بالروح ولا نكمل شهوة الجسد، واجعلنا مستحقين أن نخدمك بطهارة وبر كل أيام حياتنا، لأنه يليق بك المجد والكرامة والعزة مع أبيك الصالح والروح القدس، الآن وكل أوان وإلى الأبد آمين».

وفجأة رددت الردهة أصداء ترنيمة كيرياليصون، بصوت الرهبان جميعاً، عدها لعازر فوجدها ٤١ مرة كيرياليصون.

مدّ الرهبان أيديهم وأكلوا من أطباق العدس أبو جبّة والخبز الساخن الطالع من الفرن وبعض الجرجير من زرع الدير.

ثم عاد كل منهم إلى حيث كان، وعاد لعازر - أغابيوس إلى المطبخ.

دق جرس الغروب، صلصلة الجرس الكبير ترنّ في الدير بإيقاع

حزين وشجي ومؤس.

أخذ الرهبان يتوافدون من حيث كانوا، جاءوا من الحظيرة حيث تخور البقرة وتموء الماعز ومن حظيرة الدجاج ومن ورشة النجارة ومن المكتبة التي كانت على طول الأزمان تحتل مبنى الحصن الغربي، للمبنى سلم منفصل عن مدخله وجسر خشبي كان يُرفع قديماً بعد أن يلجأ الرهبان إلى الحصن، فيمتنع الدخول إلى الموقع تماماً، أما الآن فقد تآكلت بعض أخشاب الجسر ولكن لعازر رأى ألواحاً جديدة من الخشب، وتساءل في نفسه هل هم سوف يرممونه تحوطاً لأزمان قادمة؟ وسوف يدخل لعازر - أغابيوس الحصن ويرى صفوف الكتب القديمة المهيبة والمخطوطات والموسوعات المجلدة الضخام، على رفوفها أو في دواليب لها واجهات زجاجية سميكة، وسوف يعرف أن وراء المكتبة - في آخر الحصن - مطبعة صغيرة تطبع فيها كتب دينية قليلة باللغتين القبطية والعربية، هي إحدى المطابع النادرة المتبقية التي تملك حروفاً قبطية موضوعة في خانات مربعة صغيرة متعاقبة لا يعرف أسرارها إلا أبونا تاوفيليس، وسوف يتعلم لعازر - أغابيوس لغة أجداده ويقرأ بها، ويحفظ السنكسار بالعربية والقبطية، وسوف تنمو بينه وبين أبونا باسيليوس أمين المكتبة صداقة قوية عميقة تصمد للتقلبات والمحن وتصاريف الأحداث، وسوف يعرف الفتى أن باسيليوس يملك ناصية أعمال السحر والتعازيم والرقى، مثل عم أبيه المعلم منقريوس، ولكنه على عكس سلفه، قدس الله روحه، كان لا يملك إلا أن ينساق وراء نوازع غير خيّرة تماماً، ثم يندم بعد ذلك ويصوم أياماً على الخبز والماء وينذر ألا يعود لمثلها، لكنه ينصاع لما يمليه عليه شئ كامن في دخيلته لا يقدر أن يلجمه ولا أن ينفيه، ويؤوب من جديد إلى الندم.

كان أبونا باسيليوس تنتابه نوبات من الصرع الخفيف، يعرف باسم «الألم الصغير»، يسقط فجأة على الأرض دون حراك، ودون إنذار، ومن

سير أن يُحس، يزبد قليلاً، ويصطك فكاه قليلاً وهو يهمس بصوت مخنوق «الحمامة، الحمامة، ترفرف فوق» وترتسم على وجهه أمارات غياب تام للإدراك والفهم، عيناه مفتوحتان لا تتوجهان بالنظر إلى شيء محدد، ملامحه ممسوحة كأنها بيضاء كاملة البراءة، على عكس نظراته المألوفة التي تنم عن حيطة ودهاء العارفين، وكان دائما يستند إلى عكاز ضخم متخذ من شجرة نبق عتيقة، مليئ بالعُقد الخشبية والنتوءات التي تشبه نتوءات العظام لامعة عند مقبضها المتضخم قليلاً في رأس العكاز المستقيم غير المقوس، ومصفحة بتلبيسة حديدية في أسفلها.

في أول يوم له، بعد الصلاة وتلاوة المزامير في صحن الكنيسة، فوجئ لعازر بأن كل راهب يمسك بيد زميله، ويقول كل واحد للآخر: «أخطيت. يابونا سامحني.. سامحني» وهذا الشيخ الجليل بجانبه، مربع الوجه تقريباً أبيض اللحية في وجه داكن السمرة، نفاذ العينين، يبدو شعره الأشيب قوياً شديد الجعودة تحت قلنسوة ثوبه الأسود، عرف فيما بعد أنه أبونا سيداروس أمين المخازن والمشرف على المزرعة وعلى الحظائر - يمسك بيد الفتى - كانت يده هو خشنة مشققة فيها خطوط سوداء غائرة في اللحم الصلب بينما كانت يد لعازر ملتهبة متورمة بالألم - ويقول له: «أخطيت يا خويا أخطيت سامحني»، ترقرقت الدموع في عيني لعازر وانحبس صوته وهو يقول للشيخ المهيب،: «أنا الخاطئ سامحني يا بونا سامحني».

وعندما دخل الأنبا باخوميوس عمل له الرهبان الثمانية عشرة كلهم مَطانية، تحيةً وإجلالاً، وأحنوا رؤوسهم له، ساعة الغروب.

في مثل تلك الساعة صُلب المسيح، دُقت المسامير في يديه ورجليه، ذاق الخلّ والمرّ عندما طَلَب ماءً، وفيها سأله اللص المصلوب على يمينه أنْ يذكره في ملكوته فأعطاه الفادى ما طلب.

تليت الصلاة الربانية: «أبانا الذى...» وصلاة الشكر والمزمور

الخمسون تدوى بها أصوات الرهبان جميعاً فترتطم أصداؤها الرنانة بجدران صحن الكنيسة الفسيح العتيق، ثم ارتفع صوت الأنبا باخوميوس، في قلب صمت مفاجئ، وهو يتهدج: «تسبيحة الساعة السادسة من هذا النهار المبارك أقدمها للمسيح ملكي وإلهى أرجوه أن يغفر لى خطاياى، وأنتم يا إخوتي وأبنائى سامحونى على إساءاتى».

ردّ عليه الجميع بصوت واحد منغّم:

- سامحنى يا بونا.

استمرت الصلوات والمزامير ساعة زمن، ثم وجد لعازر - أغابيوس نفسه أمام أبونا طانيوس كئيب الوجه الذى نهره بقسوة:

- عاودْ شغلك يا وليدى. فِزّ تُور، والاَ فاكر نفسك جاى تلعب، روح المطبخ...

ووجد لعازر أن أمامه كومة هائلة من الفول عليه أن ينقّيها ويغسلها، ثم أخذ يدشّ الفول في جرنٍ من الجرانيت، بمدقٍ من الصوان، كومة بعد كومة حتى كلّت ذراعاه وانقطع نفسه.

وبعد صلاة الساعة السابعة جاء أبونا طانيوس وأمره أن يسلق الفول المدشوش، مع كميةٍ من البصل كان قد قشره دمعت له عيناه بغزارة وسال أنفه، وأن يقلّبه في القدر الهائلة على الفرن، صرخ فيه وأنّبه على كسله، وإن كان لعازر لم يتوان لحظة، مع راهبٍ شيخ واهن العظام وقف بجانبه لا يكاد يساعده في شيء، وهو يغذى الفرن بالوقيد من الحَطَب والخشب الرفيع الناشف وأقراص الجلة المرصوصة أكواماً في جانبٍ من المطبخ الفسيح وبين صلاة الساعة السابعة وصلاة الساعة التاسعة علّمه طانيوس بالشخْط والنتْر كيف يصفّى الفول المسلوق، ويحمّر عدداً مناسباً من رؤوس الثوم وفحول البصل، يضعها على الفول المصفّى ويُحيّق الطبخة بالملح والفلفل والكزبرة الناشفة وحفانٍ من الملوخية الجافة المهروسة باليد، وأن يتركها على النار لا يكف عن تأريثها

وتحريكها حتى ثقُل قوام البصارة وتماسكت، وتركت لكي تبرد، سوف يأكلها الرهبان في الغد على الغدا.

حتى دق جرس المايدة عند منتصف الليل، وفي الظلمة كان للجرس إيقاع مهيب، مخيفٌ وأنيس في الوقت نفسه، كأنه آخر دقات الوجود نفسه وتكررت صلوات ما قبل النوم، استطاع لعازر - أغابيوس أن يتبين، في غبشة وعيه بالإرهاق المطبق: «هو ذا أنا عتيد أن أقف أمام الديان العادل مرعوباً ومرتعباً من كثرة ذنوبي لأن العمر المنقضي في الملاهي يستوجب الدينونة... تفضل يارب أن تحفظنا في هذه الليلة بغير خطية، مباركٌ أنت أيها الرب ومتزايدٌ بركة». وتمضي التقديسات والتماجيد ولعازر يغالب النوم، بل يتخطف النعاس عينيه لحظة ثم يستعيد نفسه..

في الآخر أشار له أبونا طانيوس بإيجاز:

- رحْ شوف نومتك يا ولْيدي.

سار لعازر - أغابيوس، لا تكاد تحمله قدماه إلى الغرب من المبنى الشرقيّ حيث تقع صوامع الرهبان في مبنى آخر أكثر ارتفاعاً إذ يقوم على أرض جبلية عالية، يضمها حصن آخر يمكن قطع الاتصال بينه وبين بقية أجزاء الدير، كان ذلك لحماية الرهبان من غارات البدو، وصل لعازر إلى صومعته، في ليلٍ منير بضوء القمر، عن طريق دَرَجٍ بالقرب من جدار الكنيسة، يؤدى بدوره إلى دَرَجٍ آخر على اليمين ينتهي برواق مقببَ، في الطابق الثاني الذى أخذ لعازر يتحسس طريقه فيه، يقتفى أثر رهبان آخرين عائدين إلى صوامعهم، ليس في الرواق إلا كُوى صغيرة في أعلى الجدران تنسال منها أشعة القمر خيوطاً ودوائر فضية ضعيفة تسقط على الأرض وعلى الجدران. أشار إليه أبونا باسيليوس وأخذه من يده إلى الغرفة التى سوف يقضى فيها الساعات القليلة من الليل طوال سنوات عديدة، معه ومع أبونا تاوفيليس، فقد كان من حظه - أو من

ترتيب الأنبا باخوميوس رئيس الدير - أن يأوى إلى غرفة ذات ثلاث مصاطب، ككل غرف الدير الستة المأهولة الآن، مع اثنين من كبار الآباء، وفي هذه القلاية الواسعة سقط لعازر على فرشته الخشنة المعمولة من ليف النخل دون مخدة ولا شئ إلا بطانية من صوف الغنم المجزوز. فقد كان الدير يتبع التقاليد التى أرساها القديس باخوم مؤسس نظام الرهبنة الديرية، إذ لا يتفرد راهب بقلاية وحده إلا بعد أن يبلغ قامة روحية عالية تؤهله لمجالدة الوحدة أو معاناة نعمتها، أما في البداية، وطوال أيام الرهبنة العاديَة، فإن وجود ثلاثة رهبان معاً في قلاية واحدة من شأنه أن يشجع بعضهم بعضاً، يصلون معاً، ويثبتون إيمان أحدهم الآخر في حياة النُسك الشاقة.

دارت عجلة الحياة بلعازر - أغابيوس في الدير الكبير، بلا هوادة، وعرف عناء الاختبار والإنهاك الروحى والجسدى بأن يكون تحت أنظار الآباء ليل نهار ترصد حركاته وسكناته ولا تغفل شيئاً، مهما هان أمره، من سلوك هذا المتقدم لنوال نعمة الرهبانية، بل توشك أن تنفذ إلى دخيلة فكره وهواجسه وصميم وجدانه ونزغات نفسه.

وكان يخفف قليلاً من هذا العناء - للغرابة - أن ثَم حيواناً شارداً عجيباً كان يأتيه، كلما جاءت لحظات وحدة نادرة، هل هو كلبةٌ سوداء وديعة العينين تذكَره وقلبه يتوجَع بالذكرى والندم والحرقة معاً - بعينين نجلاوين تحدقان إليه بسؤالٍ لا إجابة عنه، ولكن بحنانٍ لا مبرر له أيضاً؟ أم لعلها ذئبة صغيرة يراها أحياناً عفراء رمداء اللون وأحياناً حالكة السواد، مشتعلة العينين بنار شهويةٍ سيالة؟ تقرقر بأسنانها الدقيقة الحادة توشك أن تغرسها في جسمه، يحس أنفاسها الساخنة على ساقيه ثم ترجع برأسها وتزوم بأنين كأنه أنين ألم المتعة أو ألم الحرمان، تتمسح برجليه، وتترك الرهبان الآخرين لابسى الإسكيم الأسود، لتجيئه هو بجلابيته الزرقاء، وتركع تحته، تمد ساقيها الأماميتين قدامه، وتموء

بصوت متضرع خفيض.

كلبة أو ذئبة أو مزيج منهما أو لعلها شيطان صغير يقوده إلى الهلاك، أنثوية مغوية، لا يجد حرجاً أو إثماً في أن يداعبها ويتحسس شعرها الناعم وجسدها اللدن المتلوى تحت يديه.

ثم إذا هى دائماً تختفى.

ويصلىّ، بحرارة، طلباً للهداية، ولكنّ من غير ندم.

كان عليه أن يسأل نفسه: «لماذا أهرب من كرامات العالم؟».

وكان له أن يجيب على نفسه بأنها باطلة وتافهة، بأنها وقتية عابرة، بأنها محفوفة بالمخاطر، بأنها تحرمنا من بركات سماوية.

لكنه كان يحس في دخيلته أن بركات الأرض أيضاً خارقة، وكان يعرف أن حواء طلبت مجد الألوهية - بأن أكلت من ثمرة شجرة المعرفة - فتعرت من المجد الإنسانىّ. سأل نفسه: أم هى اكتست بهذا المجد الإنسانىَ أيضاً، واكتسبته؟

كان عليه أن يتعلم درس القديس باسيليوس الكبير أن يكون مع أخوته في الدير كنفس واحدة، أجسادهم وإن كانت كثيرة فقد صارت جملتها آلةً واحدة مجتمعة لتلك النفس الواحدة المجتمعة برباط المحبة، عليهم معاً أن يتحلوا بزينة الربّ وحدها، ألاّ يجاوروا ولا يفكروا في النساء، ألاّ يأكلوا اللحم، أن يشدوا أوساطهم بمناطق من جلد غليظ، أن تكون كسوتهم الصوف الخشن، أن يقدّروا في أنفسهم أنهم أموات.

صحيحٌ أن هذه القواعد الصارمة لم تكن ملزمة حرفياً ولم تلتزم بها جماعة الأخوة الرهبان التزاماً دقيقاً في كل الأوقات، لكنها كانت النبراس الذى به يهتدون، وكان الدرس مبرّح المشقة يؤود به حتى أولو العزم المكين من شيوخ الرهبان.

وجده أبونا طانيوس مرةً ساهماً مطرقاً على جنب في المطبخ، يستروح لحظة راحة من لغب العمل، زعَ فيه أبونا طانيوس:

- مالك يا وليد مطنجر كده؟ فز اشتغل ، من لا يشتغل لا يأكل ولا ينال نعمة .

كان أبونا طانيوس لا يرحم أحداً ولا يرحم نفسه ، ديدنه كراهية مركوزة في نفسه لكل البشر ، ربما لأنه يحبهم حبا مسرفاً على نفسه لا يطاق حمله ، وربما لأنه يمقت الإنسان الخاضع الذليل الخانع لكل سلطة زمنية أو دينية ، لذلك يأخذ نفسه بالانصياع التام دون حدود لسلطة الدير وسلطة النص معاً ، ويمقت الإنسان : القاتل العدواني الشره الطماع الأناني المتوحش كأنما تلك مقوماته التي جبل عليها ، بينما هو يعرف ويؤمن حقاً أن الإنسان جبل خيراً فيه بؤرة إلهية لا تنطفئ ، لذلك يسوم نفسه الزهد عن كل متع الجسد ، اشتهى مرة أن يأكل دجاجةً محمرة بالسمن الصعيدي فواحة بنفث خفيف من القرفة والمستكة كما كانت أمه تؤكله في صباه . وبالفعل حضرها له لعازر وزميلاه في المطبخ . عندئذ لاذ بقلاية مهجورة ومهدمة جنب الكنيسة ، خمسة أيام ، متوحداً ، صائماً على الماء والترمس الجاف ، وأمامه الدجاجة المحمرة ، لا يقربها ، حتى ظهر عليها العفن والدود فقال :

- كلي يا نفس ما اشتهيت . . ! كلي يا نفس ما اشتهيت . . !

فهل كان يكره نفسه حقاً أم يحبها حتى الموت ابتغاء لملذات سماوية لم تخطر ببال بشر ؟ كان أبونا طانيوس يردد كثيراً : - ألم يقل إرميا «ملعونٌ الرجل الذي يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعه» ما من طريق إلا الطريق إلى الرب» .

في ليلةٍ أخميمية دافئة أخرى ، بعد سنوات من الرهبنة ، حكى لي ابن عمي أبونا أغابيوس عن هذه الأيام الأولى من اختباره ، وكيف تلطم وداخ بين بيوت العمل في الدير المأهولة منها والمهجورة على السواء .

لفّ لعازر - أغابيوس على «بيوت الشغل» في الدير ، بالقرب من

.. سور الجنوبي، تعلم على يد غبريال وهو راهب عجوز، كيف يجدل السلال والقفف من سعف النخل وعلى يد راهب آخر هو ناشد كيف يخصف النعال من جلد الماعز المجفف المملح العصي تقريباً على المقص والخراز، وكيف يقطع الخشب بالمنشار اليدوي المهتز ذي الأسنان الحادة ويدقه بالمسامير من شتى الأبناط ويصنع الغراء برائحته النفاذة وقوامه الأصفر الداكن الغليظ ويغري به الخشب على يدي الراهب بسطا، وأخيراً تعلم القبطية على يدي أبونا تاوفيليس وقرأ الكتب القديمة على يد أبونا باسيليوس، قال كان الأنبا باخوم الكبير يشدد على أهمية الحياة الجماعية المشتركة للرهبان وعلى ضرورة العمل اليدوي بجانب الصلاة والدين، ويقول إن الراهب الذي يعمل يحاربه شيطان واحد أما الراهب الذي لا يعمل فتحاربه شياطين كثيرة.

وليلتها حكى لي أيضاً بتفصيل كبير حكاية الراهب بسطوروس كان مسئولاً عن المخابز والمطبخ والمطعم - قبل أبونا طانيوس - وعُثر عليه قتيلاً مضروباً بثماني عشرة ضربة من فأس، أيامها كان الولد بشاي معوض يصعد من قرية اسمها الديابات إلى الدير يشتغل أحياناً في الفرن وكان بسطوروس يخصه بكثير من الألطاف، يعطيه قرص فطير مخصوص أو يأتي له بسباطة بلح رُطب أو عدة عناقيد عنب من الكرمة، وشاعت أقاويل رديئة في الدير وتحت في الديابات، فاستدعي للتحقيق أمام لجنة من الأنبا باخوميوس، وأبونا تاوضروس قبل أن يتولى الأسقفية ورئاسة الدير، وأبونا تاوفيليس.

في اللجنة قال أبونا تاوضروس:

- طريق الحق هو طريق الدم، هو طريق إدانة الخطيّة والجزاء الحق. الذي يتصدى لقول الحق يقبل أن يكون مرفوضاً لأن كلمة حق لا تعجب الكثيرين. الحكيم ينتفع بها، محب العالم وضعيف الروح يقاومها. الخطأ لابد أن يدان بالحق، بسطوروس ألحق عاراً بإسكيم الرهبنة، وسواءً

خان عهد البتولية أو لم يخن، خطؤه أنه أتاح للأقاويل الرديئة أن تشيع، خطأ لا بد أن يُدان.

قال الأنبا باخوميوس، ملغزاً قليلاً:

- من كلامك تتبرأ ومن كلامك يُحكم عليك، الإدانة عمل من أعمال الله، ليس من شأننا، الله هو ديان الأرض كلها. هو الوحيد الذى يستطيع أن يدين بعدل مطلق لأنه فاحصٌ وعارفٌ بكل شئ. لا تُدن أحداً بل أرحم لأنك دائماً محتاج إلى الرحمة استر على غيرك ما دمت محتاجاً إلى ستر الله. نحن نسامح، ولا ندين. «لا تقضوا على أحد فلا يُقضى عليكم»

قال أبونا تاوضروس، بإصرار:

- ليست الإدانة عندى مجرد ذَمّ الآخرين وتوقيع العقاب عليهم، وليست هى التسرع في الحكم عليهم. الإدانة عندى جزاءٌ حق عن خطيئة في الحق، الإدانة انعزال عن الله والسير في تيه الضعف. الإدانة لا تأتى إلا بعد أن تفرغ النفس المدانة، من الله.

قال الأنبا باخوميوس بصوته الخافت الوديع القوىّ مع ذلك:

- يقول أنبا أنطونيوس «إياك أن تعيب أحداً من الناس لئلا يبغض الله صلاتك».

يا خُوى يا تاوضروس، لا نُسك ولا تعب ولا صوم يقوم مقام التواضع الكامل، اتضع يا بونا، لأنه قيل عن إنسان متوحد كان يخرج الشياطين فسألهم قائلاً «بماذا تخرجون؟ أبالصوم؟» فقالوا «نحن لا نأكل قط» فسألهم «أبالسهر؟» فقالوا «نحن لا ننام» فسألهم «أبترك العالم؟ فقالوا «مساكننا البرارى والخرائب» فسألهم أخيراً «فبماذا تخرجون؟» قالوا «لا يوجد شئٌ يسحقنا غير التواضع» الاتّضاع إذن يا أخوتى هو وسيلة غلبة الشيطان.

قال أبونا تاوفيليس، كأنما يحدث نفسه متمثلاً بالكتاب:

- تأتي الكبرياء فيأتي الهوان ومع المتواضعين حكمة. الكبرياء أمّ الرذائل، «قبل الكسر الكبرياء وقبل السقوط تشامخ الروح».

استأنف الأنبا باخوميوس حكاياته عن أبي الرهبنة المصرية، قال:

- يا أخوتي، أبصر القديس أنطونيوس فخاخ الشيطان مبسوطة على وجه الأرض، فتنهد وقال «يارب، من يفلت من هذه؟» فإذا بصوت يقول «المتواضعون يفلتون منها» وقال القديس أغسطينوس «المتواضعون كالصخرة قد تنزل إلى أسفل لكنها ثابتة راسخة، ومن هم المتكبّرون؟ هم كالدخان، يرتفع ثم يتلاشى سريعاً» لا أريد أن أعلمكم ما لا تعلمون، ولا أريد أن أضع نفسي فوقكم، مع أن الرب أعطانا سلطاناً على رعايانا، فقط أذكركم بتعاليم الأباء، لا تعطوا لأنفسكم ما ليس لكم.

لم يرد أبونا تاوضروس، نظر إليه فقط، مشتعلاً بغضب القلب الذى يشتهى الاستقامة، ولا يريد إلا صرامة الحق، مستعداً لدفع الثمن أياً كان، ومزدرياً في عمقه - إلى حدٍ غير قليل - ضعف السماحة والاتضاع، مؤمنا أنه لا مفرّ من أن يتسلح بقوة الحق.

ولكن هكذا عاش - ومات - الأنبا باخوميوس.

(قال: معذرة أيها الآباء الأجلاء، ساعات الكبرياء - العزة وشموخ الروح - هي التى تبقى كالجبل ولا تتطاير كالدخان. ليس الصلف ولا الغرور ولا الامتلاء بالذات ولا التعالي على الناس، بل كبرياء القلب المنيع. لا تبقى لنا إلا هذه الكبرياء أمام امتهان العالم)

أما في لجنة الدير، يومها فقد ركع أمامها بسطورروس متضرعاً،

- سوف ألزم نفسي بعقوبتى، أفرضها أنا على نفسي يا آبائى، ثلاث مرات في الأسبوع ألبس ثوب زفافى قميص الشعر الخشن لا أخلعه ليلاً ولا نهاراً، كل أربعاء وكل جمعة أصومهما من غير ماء، من النجمة

للنجمة، سوف ألعق جروح المرضى والمجذومين، وأشرب من قحف جمجمة ذئب مضروب، آكل على الأرض لا أقعد إلى مائدة، وكأني حيوان سوف ألحس بلساني بقايا الأكل المتروك في الصحاف، حتى الفتات الساقطة على الأرض، لكي يسامحني الرب. سوف أتوحد بعد إذنكم في قلاية مهجورة على الجبل.

اكتفت اللجنة بتوبيخه.

لكنه وُجد قتيلاً.

قال: اتضاعه المسرف كان موازياً دون أن يكون مضاداً لخيلاء نفسه، نزوله إلى حدّ العدمية بتزهّده القاسي كان مقابلاً وموازياً لتزهد القوميسير الذي يضحي بنفسه من أجل خير الشعب، أو الأمة، أو البروليتاريا.

قال: معنى الرهبنة الوحدانية - مثل معنى استشهاد القوميسير أياً كانت معتقداته أو أيديولوجياته - هي إدانة ورفضٌ للإنسانيّ فينا، انفصام عن جماعة الإنسان للالتصاق بما هو لا إنسانيّ، بما هو مفارق، مطلق، متعالٍ، فوق مقاييس ومعايير البشر.

عندما تكون الدعوة هي أنه يجب على الراهب - أو القوميسير - ألا يدع روح العالم، أو الشرّ، أو البورجوازية أو الكفّار، تتسرب إليه حتى من خلال أعماله الإنسانية، فهذا هو اللا إنساني. أما أن تبذل كل ما يسعك من محبة- ومن عمل المحبة، في عوْن الناس أو في الحدب على آلامهم أو التخفيف من قسوة البلاء النازل بنا جميعاً - بلاء الحياة نفسها - أو المشاركة في البهجة التي هي من حقنا كلنا- بهجة الحياة نفسها - وما أندرها - فهذا هو جوهر الإنسانيّ الذي يشارف تخوم اللاإنسانيّ ولكنه لا يسقط في هُوّته الساطعة.

قال: وما المعنى في ذلك كله على أي حال؟ أهذه عِظةٌ أم معاناة؟

قال: وما ضرورة أن يكون له معنى؟ ما ضرورة أن يكون له

توصيف؟ ذلك شيء، وشيء آخر ما قاله البابا الحادى عشر كيرلس عامود الدين «إذا صار الابن الوحيد كلمة الله مثلنا وحمل قياس الطبيعة البشرية، انحنى لنير العبودية فدفع بإرادته لجامع الجزية اليهودى الدرهمين حسب ناموس موسى، لكن هذا لم يمنع المجد الذى فيه، وكأن خضوعنا لكل نظام بروح الرضا لا يعنى إلا مشاركة للسيد المسيح في خضوعه لكى نتنعم معه بمشاركته مجدة الداخلى».

ومع كل الاحترام، قال: لا يا أبانا القديس اسمح لى، المجد الإلهى هو من صميم إنسانيتنا، فلا نخضع لنير عبودية أيا كانت، ولا نرضى بدفع الدرهمين، مجد الرب الداخلىَ لا يتأتى بدفع هذا الثمن.

الشهور تمرّ إذن، ولا حسّ ولا خبر ينبئ لعازر أغابيوس بأنه يجتاز الاختبار أو يتعثر أو حتى يخفق فيه، هو يؤخذ من المطبخ للزريبة، ومنها إلى ورشة النجارة والمزرعة، ويُعاد إلى المطبخ، لا يسمح له بزيارة المكتبة إلا لماماً يتعلمَ الصنايع ويدرس اللغة القبطية في ساعات الفجر الأولى، واستبدلت بجلابيته الزرقاء أخرى بيضاء.

ولولا الصيامات وأعياد التجلى وعيد صعود جسد العذراء مريم إلى السماء وعيد النيروز وتذكار رئيس الملائكة وبدء صوم الميلاد، وتعاقب أبيب طباخ العنب والتين، ومسرى الذى تجرى فيه كل ترعة عسرة وتوت الذى يطيب فيه الرُطَب، وبابه الذى زرعه يغلب النهّابة، وهاتور أبو الدهب المنتور حتى جاء كيهك الذى فيه صُبحك مساك، لولا ذلك لما عرف لعازر - أغابيوس ما الزمن. كما كان يعرفه في عالم الخطيئة والموت الذى أوشك لعازر - أغابيوس أن يفقده تماماً.

كان الأنبا باخوميوس يرعاه من بعيد، دون أن يعرف، يومئ إليه بالأُسوة الحسنة، فقد كان عندما تجئ ساعة المائدة يهيئها لنفسه بنفسه

وإن جلس على رأسها، ولم يكن يقبل أن يخدمه أحد، حتى الراهب بطرس الذى لم يكن بحاجة إليه إلا في أواخر أيامه، ويقول له: بطرس يا وليدى رُحْ اشتغل مع آبائك وإخوتك في الغيط أو في أى مكان، ليس لك وليس لى امتيازٌ على أحد.

بل كان يساعد المعدّاوى في جذب السلسلة الحديد عندما ينزل إلى أباهور.

عندما وجد بطرس قطعة من رمح، في فجر أحد الأيام، أمام باب غرفة الأنبا باخوميوس، تلمع وتومض بألف شعاع، أدرك أنها حديد سمائى لا يصدأ أسقطها رئيس الملائكة في عيده في ١٢ هاتور، ذلك التاريخ هو الذى حسم نسبة هذه القطعة إلى الملاك، ولعل ذلك كان إيذانا من الرب بأنهم - هؤلاء الرهبان الثمانية عشر - أبناؤه المختارون، أو لعله اختبار منه لقوة إيمانهم ومقدرتهم على الإيثار والتضحية. لكن أحداً منهم لم يقدر له اجتياز الامتحان، تسابقوا إلى الأنبا باخوميوس كلٌّ منهم يريد الظفر بقطعة ولو ضئيلة جداً من رمح الملاك ميخائيل، وتكلف لعازر - أغابيوس التزام التعقل، وهو الآن في أواخر السنة الثالثة، أمسك بزمام نزعته نحو الدخول في صراع مرير مع الأخوة والآباء.

وفي يوم من الأيام التوت الحديدة وصدئت فجأة وتثلمت قطعة الرأس الحادة منها، وعرف الرهبان أنهم أخفقوا في الامتحان، وصلّوا طويلاً طلباً للغفران.

في إحدى ليالى كيهك الباردة دخل الأنبا باخوميوس بنفسه قلاية لعازر - أغابيوس، وقف الرهبان الثلاثة وعملوا له مطانية احتراماً وإجلالاً، قال له الأنبا باخوميوس: يا وليدى يا أغابيوس اسهر الليلة في انتظار العُرس، صلّ للرب يُسبل عليك نعمته.

كانت تلك أول مرة يخاطبه، ويناديه باسمه الرهبانىّ.

فعرف أن يومه المشهود قد جاء.

في الفجر قام الرهبان الثلاثة تاوفيليس وباسيليوس وأغابيوس وساروا، في صمت متوترٍ بالشغف واللهفة، إلى هيكل الكنيسة، وكان الرهبان يتوافدون إليه من قلاياتهم.

عندما دخل لعازر - أغابيوس رأى إسكيم الرهبنة الأسود ملقى على المذبح، وفهم أنه قد تليت الصلوات على الثوب الرهباني طيلة الليل.

كان مشهد الرهبان المصطفين على جانبي الخورس مهيباً يلقي الروع في القلوب، والأنبا الرئيس باخوميوس يقوم بالخدمة في الهيكل يعاونه أبونا تاوضروس وأبونا سيداروس.

الرهبان في نور الشموع المهتز بثيابهم السوداء المنقوشة بالصلبان مسدلة عليهم، بينما الأنبا باخوميوس ومعاونيه في كل بهاء ملابسهم، التونية والبطرشيل والشملة والأكمام والتاج للأسقف الرئيس، أما الرهبان القمامصة فهما بالتونية والطيلسان والبرنس.

كان أمام المذبح نعش فارغ من خشب الجوز القديم، منزوع الغطاء كالتابوت.

وارتفعت أمواج القُداس والتراتيل في طريقها المرسوم.

قال لعازر - أغابيوس، كما كان أسلافه القدامى يقولون أمام أوزير:

- أتعهد أمام الله في هذا المكان المقدس وتشهد عليَ الكلمات التي تخرج من فمي. لن أدنس جسدىَ بأى وسيلة، لن أسرق، لن أشهد زوراً، لن أكذب، لن ألوث ماء، لن أكون سبباً في حرمان رضيعٍ من لبن أمه، لن أطفئ ناراً موقدة في الخير، لن أعمل بأى طريقة، أعمال الغش في العلن أو في الخفاء، فإذا نقضت هذا العهد فلا أشاهد ملكوت السماوات ولن أدخلها.

ثم ركع أمام المذبح وصلى همساً:

- يارب اقتلع من نفسي كل غرسٍ غريب، يارب افلح قلبي بمحرات

بركتك، أبعد الثعالب الصغار عن أرضك في روحى، لا تسمح للعدو أن ينبت في حقلك زواناً حتى ترتوى نفسى بماء النبع الصافى الجارى من كرسىَ مجدك.

رقد أغابيوس وهو مرتدٍ جلابيته الخشنة البيضاء في النعش الفارغ، وضع ذراعيه متقاطعتين على صدره وأراح رأسه على أرضيته الصلبة.

وتُليت على الراهب الراقد في تابوته صلاةُ الموتى:

«هذه النفس التى اجتمعنا بسببها، نيّحها بسلام في ملكوت السماوات، اقبل أيها السيد هذه الوديعة التى هى نفس عبدك لعازر واحفظها في النياح حتى تبلغ الموضع الذى هرب منه وجع القلب والكآبة والتنهد لأنك لم تخلق الإنسان للهلاك بل للحياة.. ونحن الذين هنا أيضا ارحمنا»

مضت صلاة التجنيز حتى نهايتها.

مات لعازر قام أغابيوس

نزعت عنه جلابيته البيضاء التى كان قد لبسها في شهر بابه، بعد أن خلع الأولى الزرقاء، حسب التقاليد، ألبس الأن إسكيم الرهبنة، بينما تتردد التقاديس والتماجيد في الهيكل وفي الخورس، ويهز الآباء محاجر البخور الذى يتصاعد بعبقٍ حريف، يتطاير دخانه الأبيض نحو القبة العالية.

قام لعازر من بين الأموات في ثوب أغابيوس المحب الأبدىَ.

«عندما يكون لعازر هو أغابيوس، لا أكون.

كينونة المحب تذيب في جوهرها كل كيان.

عندئذٍ مَنْ أنت؟ من أنا؟ مَنْ هو؟

عندئذ لا أعرف - حتى - أن أصيح بملء نفسى، صيحة المخطوف لله:

«هُو.. أنا.. ليس إلا هُوَ.. ليس إلا أنا الذى تلبّسه هو..»

وضع الأنبا باخوميوس يده على رأس أغابيوس، وبذلك تمت سيامته، ألبسوه قلنسوته وحزموا الإسكيم بحزام جلد وثيق، بينما أبونا تاوفيليس يقول له:

- البس قلنسوة النسك، تمنطق بحزام العفة والبتولية.

ترنم الرهبان بصوت واحد:

- البسوا سلاح الله الكامل

ضرب الصنوج وترددت صيحات التهليل ورنين قرع المثلث النحاسي البهيج افرحي يانفس وتهللي فقد كتبت لك النعمة وتضرعي إلى الرب أن يكون معك في مسيرتك نحو الملكوت.

وعندئذ أخذ الرهبان جميعاً يعانقون ويقبلون أحدهم الآخر قبلة رسولية مقدسة.

دهش أغابيوس إذ وجد أبونا طانيوس، بعد كل التجهم والصرامة وقسوته في العمل، يأتي إليه ويعانقه، وتنسال من عينيه الدموع ومن غير كلمة ترقرقت في عيني أغابيوس الدموع.

حظى أبونا أغابيوس أخيراً بالقبول في شركة الرهبانية، فهل يحفظها؟

أخذه الأنبا باخوميوس، على جنب، وقال له هامساً:

- يا وليدى يا أغابيوس، ربنا يتمم عليك نعمته، وتحظى، في المستقبل، بما لا يصل إليه إلا القلائل النادرون في كل جيل، أن تنعم برهبنة السياحة، أن تعيش في قلاية في الجبل، كما يعيش الآن أبونا ديميتريوس السوّاح الذى لا يعرف أحد أين هو، فهو في كل مكان، في كل حين، في الجبل وفي البلد وفي أورشليم، بلا اسم ولا لقب. ربنا ينعم عليك وعلينا ببركاته آمين.

«هوذا الرب راكبٌ على سحابة سريعة وقادمٌ إلى مصر»

«مبارك شعبى مصر» ●

الفصل الحادى عشر

أهل الهوى

رأيت أن الباب عليه قفل دائرى الشكل ومسطح، لامع، على هيئة أسطوانة محكمة لا يبدو أنها يمكن أن تنفتح أبداً.

هل كان مصطفى قاسم إسحاق بجانبى وأنا أحاول فك المستغلق المصقول الذى لا ثغرة فيه؟ أم أنه زال - بعد ذلك - كأنما لم يكن هناك قط، عندما تحرك ثُلُث القفل الدائرى إلى الخلف، فجأة، وانفتح. لكن الباب ظل مغلقاً.

كنت بالداخل، ولم يخطر لى أننى دخلت مع أن الباب محكم الإغلاق، كان طبيعياً جداً أن أمرّ بدهليز ضيق فى الشاليه الخشبى الذى يلوح أنه كان فى قلب الصحراء، ونفذت منه إلى الغرفة الواسعة.

رأيتها نائمةً، مستغرقة فى حلمها - حلمى - من غير غطاء، عليها قميصها الأبيض النايلون القصير الذى أعرفه من ثلاثين سنة، وقد انزاح عن فخذها الضخمة المدملجة السمراء مغوية اللحم ناعمة البشرة، انثنت ساقها، فى نومها، على سائر جسمها المسترخى فى راحة تامة على فراش منخفض.

هل نحن فى استراحة الآثار، فى رحاب المعبود توت؟

أم فى موقع الحفريات فى أخميم حيث عثرنا على الأميرة ميريت-آمون، قرينتها، ابتسامتها غير تامة، وشفتاها شهويتان ورقيقتان فى الوقت نفسه.

رأيتها تدخل علىّ، تامة اليقظة، قرّبت وجهها إلىّ، مغمضة العينين، مطبقة الشفتين، تركتنى أقبّل فمها المضموم، دون أن تتفتح لقبلتى، وقد تراجع جسمها إلى الوراء قليلاً. لم تدخل إلى حضنى، بل

وقفت مستسلمة لقُبلتى، ومستغلقة.

ومع ذلك فقد كانت سعادتى بجمالها وحضورها وقبولها سعادة لا توصف، هزت قلبى.

منذ متى - ياربى - لم أجد مثل هذه النعمة.

عندما يعودنى هذا المشهد، فأى فرق بينه وبين مشاهد الحب «الحقيقية» التى حدثت بالفعل؟

لعله أقوى حضوراً.

جسدانية الحلم هنا أملأ من أية جسدانية.

ما الفرق حقاً بين الدموع - حفان الدموع الصبيانية التى أرسلتها مدراراً على صفحات «غادة الكاميليا»، و«مانون ليسكو» وبين دموع الكهولة التى انهلت غزيرةً لا أملك أن أوقفها فى ليل تلك البلدة الشمالية النائمة تحت عواميد الكهرباء اتنقل من مقصورةٍ حمراء للتليفون إلى مقصورة، أبحث عنها، وأبكى فى الشوارع، ما الفرق؟

جسدانية الرؤى تسدّ فمي تماماً كما تسدُّه جسدانيتها الحميمة وأنا أغوص بين الكُتلتين العظيمتين المفتوحتين لى المغلقتين علىّ فى الوقت نفسه، وأنا أشهق، أترشّف الرحيق حريف الطعم نفاذ العَبق الذى ظُلمته الساطعة تملأ العالم علىّ، إذ أسمع - من بعيد - شهيق متعتها وأنين لذتها، فما الفرق؟

الآن، أيهما الحلم وأيهَما الذكرى، أيهما الغياب وأيهما المثول؟

من الذى يحلم بمن، ومن الذى يحلم بأنه يحلم؟ أيهما الغيبوبة وأيهما الصحو؟

هل مُسحت هذه الدموع وامّحت وانقضت؟ أم هى باقية لاتزول؟

تلويَات الألم وتلويَات النشوة، ما الفرق؟

كل شئ مكشوف وعريان أمام القلب الوامق، وكل شئ مخفىٌّ عنه.

هل تعب الحب ذهب باطلاً؟

ذبيحة المحرقة التي لا تنطفئ نارها أبداً.

هل القلب أخدع من كل شئ، أم أنه على كل هشاشته صخريٌ راسخ مثل رابية الجبل المُقام عليها الدير الكبير؟

لا نجدة لي من الأمل الميت الذي جعلني أحيا من خلال سر ما يريد.

فهل انحسر المجد الذي في قلبينا وأصبحنا مظلمين في روحينا أم نحن نرقد إلى الأبد في تابوت هذين القلبين مشعاً بسنى لا يخبو؟

زهرة النار تسطع في قلبي، مازالت. نار آكلة، والزهرة مع ذلك ناضرةٌ لا تحترق ولا تذوى بل تزداد بهاءً وسطوعاً. وكأنما بيني وبين أوراقها المتفتحة لغةٌ تفوق الكلمات وتقع في ساحة وراءها. كأن قلبي سراج شفاف تتقد فيه هذه الشعلة باستمرار وتنير العالم بضوءٍ حارٍ. عمود نار يقودني في متاهة الوجد متاهة الوجود. تنشرخ زجاجة السراج وتندفع شعلة اللهب تلتهم روحي المرفوعة كمحرقةٍ على مذبحٍ من صوان، ألقى عليها باستمرار حطباً من الكلمات، المحرقة ثمرة الحب، تشتعل كاملة لأن الحب - فيما يبدو - كامل، بلا تحوط ولا تحفظ، بلاتورعٍ ولا تُقى، بلا ثمن بلا حدود. أو هكذا يبدو.

«لأن من يحب نفسه يهلكها....» فهل التهلكة مضروبة حتى لو كان الحب كاملاً ومطلقاً يتجاوز كل حدود الذات، حتى لو كان الحبَ إلى المنتهى؟

«حوّلي عني عينيكِ لأنهما غلبتاني»

ذلك أن حبيَ إياكِ هو مقاسمةٌ للمطلقِ في ذاتك، مقاسمةٌ لتجسّد المطلق في ذاتك.

ها قد أسلمت طريقي للهوى

الطريق يفضي إلى لا مكان، ولا زمان له.

في ذاكرتي مشهدٌ في ذلك العام، في ذلك البلد، فهل رأيتُه حقاً؟

أنني مررت بأحد الشوارع الجانبية، غيرت طريقي، ومثل في بصري، في هذا الشارع الجانبي الخاوي ما خيل إلي أنه امرأة تقف على باب أحد البيوت، سافرة مكشوفة الشعر، مصبوغة الشفتين بحمرة قانية، ومكحولة العينين، لمحتها من بعيد، وكانت ترتدي ثوباً أبيض شفافاً به أقراص ترتر صغيرة لامعة يكشف عن قميص داخلي فضي اللون ساتان، بحمالات رفيعة، مستندة إلى الباب في نوع من التأود المتخلع.

لم يكن عندي شك عندئذ أنني مررت بما يشبه كوم بكير في إسكندرية، أو درب طياب أو كلوت بيه.

رأيت في طريقي إلى كوم الناضورة ومينا البصل، في وسط دكاكين بيع الهوى بالقرش والمليم، دكاكين البقالين والخضرية والعطارين والجزارين والحلوانية، أسماء أصحابها مكتوبة بالخط الثلث الذهبي على أرضية من زجاج أسود، أتهجاها وأنا قد تعلمت القراءة بالكاد، هل كنت في السادسة؟ أو قبل ذلك؟ والرجال يطلون وراء منصات من الخشب أو من الرخام، عليها الموازين والمكاييل وعينات البضاعة في فترينات زجاجية متربة قليلاً، السواطير والسكاكين معلقة تحت الذبائح الحمراء البذيئة مشبوحة بخطاطيف، وشوالات الفول والعدس والترمس الجاف والشيح وسائر أصناف العطارة مرصوصة على الأبواب، وبينها النسوان جلسن على عتبات البيوت اللي ما يشتري يتفرج، انحسرت فساتينهن الساتان ورمش العين عن أفخاذ بضة أو جافة، عيونهن سوداء بالسهر والكحل البايت، وقد بهت الأحمر على شفاه مليئة أو رقيقة، وبانت النهود المتهدلة أو المتضخمة من تقويرة الفستان الواسعة، ينظرن إلى العالم - الذي لا يتجاوز الحارة - نظرة لا مبالاة نهائية أو يأس نهائي.

هل تلعب بي الذاكرة؟

أرى هذا المشهد بأقوى ما يمكن أن تلعب به أية ذاكرة.

لكن ما أشك فيه هو أن هذه المرأة الواقفة متأودة على الباب، ذلك الصباح، لم تكن امرأة.

الثوب النسائي الشفاف ينسدل على الساتان الداخلي يشف عن ساقين قويتين مفتولتين، وإن كانت القدمان تحيط بهما، وتغوص في اللحم، سيور جلدية لحذاء حريمي من الجلد فضي اللون أيضاً.

عندما دخل ذلك البيت ليلتها، وجد أن هذه المرأة أطول منه، لم تكن صعيدية، فيما هو واضح، لم تكن داكنة السمرة بل على العكس كانت سمرتها دمثة هادئة ونظرتها من عمق العينين المحوطتين بسواد الكحل الحالك نظرة عميقة، وجهها غريب إلى حد ما، فيه شئ من الجفاف والصلابة، وفي أذنيها قرط نحاسي لامع بدلاية طويلة وحول عنقها - الذى لاحظ أنه قوى وكبير - عقد بنفس اللون النحاسي.

طلبت منه، بصوت مبحوح وأجش قليلاً، أن يدفع المعلوم أولاً، عشرة قروش بالتمام والكمال، قبل أى شئ، فوضع القطعتين على كومودينو خشبي تحت مرآة قديمة نصلت جوانبها، وامتحنت القطعتين بدقة على رخامة الكومودينو واطمأنت إلى رنينهما الفضي.

كان نور الشمعة في الغرفة الضيقة العبقة برائحة بخور وعرق ومني وطبيخ لا يكشف عن الكثير.

خلع جاكتته وأدار بصره إلى السرير المغطى بملاءة لاحت له غير نظيفة فيها بقع داكنة من بلل قديم.

عندما نضت عنها الفستان والقميص وجد أن السوتيان كان معمولاً على اليد، أيامها لم تكن قد عُرفت أو شاعت موضة السوتيان الجاهز عند الناس الذين على قد حالهم، وكان من كأسين من قماش حريرى فضي أيضاً، مشغول بتطريز على شكل زهور صغيرة بخيط أزرق لامع على الجانبين اللذين تربطهما خيوط تمتد من الصدر لتدور عدة مرات

حول الظهر والخصر حتى تنتهي بعقدة على الظهر، لم ترض أن تخلعه. لاحظ غرابة حشوهما ولا نزعت عنها لباسها المشغول بالدانتيلا السوداء الذى لم يخف انبعاجاً خفيفاً وإن كان البطن ممسداً ناعماً وفيه طية صغيرة نازلة على الفخذين، وأدارت له ظهرها.

فوجئ، اختطف چاكتته وانطلق من الباب يجرى إلى الشارع، وسمع الضحكة الخشنة خلفه تتردد بلا مبالاة.

قال: لم أكن أعرف حتى الأمس أنه يمكن أن يكون الواحد مزدوجا إلى هذا الحد. صحيح أن التأنيث فى داخل رجل، يونج يسميه الأنيما، هو صورة للأنثى الأبدية أو تجسد لها فى جوهر كل رجل يظل ينشدها ويتلمس وجودها الخارجى ولكن كمالها لا وصول إليه أبداً. وصحيح أن المرأة أيضاً لها مقابلها الرجولى فى صميم بدنها، وقرينها الأبدى، ولكن أن يخرج ذلك من الداخل ليتحول إلى عُهر صريح؟

قال: أجدادنا القدامى عرفوا ذلك أو حدسوه، وقالوا إن لكل منا، قرينه أو قرينته، الـ«كا» التى تحب ما نحب وتشرب معنا وتنام فينا. هى بالنسبة لكلَ هو، وهو بالنسبة لكلَ هى، آلامها عندما توجعنا الأحداث أقوى من آلامنا، تظلّ ترفرف فى رؤوسنا فى الحياة وفى الممات.

قال: وعند العرب أيضا شئ مثل هذا. الهامة، تظل ظامئة إلى الثأر إذا قضى المرء قتيلاً. هى البومة المقعية على شاهد القبر تطلب الماء وتظل تصيح: اسقونى اسقونى، وما من سقيا حتى لو استُوفى حقَ الثأر.

بسطت على الأرض أجنحتها بريشها الأسود اللامع وتقلّب جسمها الهضيم الصغير يحتكَ بالتراب الصلب يتطلب ريّاً لن يجئ قط حتى لو نفضتها رعشة الأورجازم المشفية على الموت، بانت بضاضة اللحم

البيضاء من خلال خروم الريش المحبوك تألقت عيناها من قلب هالة السواد الغائرة وهى تتضرع تئن فى تغم خفيض مكرور تستروح نعمة وتستقطر سقيا سمّ زعاف فيه لذة اللذة القصوى امتدت ذراعاها - من تحت الأجنحة - فأحاطتا بخصر العالم أوقفت ضمتها جريان الجانح والمسيحى والنيل الإله حابى المُخصب الذى انصبّ دفْقُه فتلقته فى عمقها المفتوح ينقع غلتها ولاسقيا وكان نهداها يشدان الشفتين الشبقتين إلى حلمة الحنان المتحدرة على هضاب الجبل الشرقىّ تحت البرج السامق الذى تتردد فيه أصداء قرع الجرس الضخم الرنان بين جنبات الضلوع التى انشقت عنها حوّاء ليليث أنانا رامة عشتروت والدُمى أو نساء كالدُمى من وراء الزجاج السميك بطنها عارٍ تحبك تحته تفاويف ساتان ملتمعة شريرة الشكل مبلولة بندى ذكورىّ عريق ولا سقيا نهداها يندفقان من سوتيان جلدى أسود يحزّ لحمها ويكوّره وفى عينيها المبقورتين حقدٌ على العالمين لا تعويض له إذ تصيح من غير صوت اسقونى عطشانة إلى ضربة مُصمية محيية ولا سقيا أثوب إلى حضنها الوثير رأسى يصطدم بالسُّرَّة الصغيرة المستديرة تجوس حولها سرحات سماديرى المجسدة التى تستحيل إلى سراب ولا سقيا. نور كهربى يومض ويمضى ويومض من جديد على ظهرها المنسرح العريض تحيط به أشرطة ممزقة وملفوفة تبرز من بينها ابنعاجات الجسد الممسود مصوحة تحت صهد الشمس الإليكترونية تصيح من غير صوت، ولاسقيا.

حس الحياة المغلق عليها من الداخل هى كل ما لى، فى داخل أسوارٍ ديرٍ سامق ترتفع فوقه الباجودات الخضراء ويمثُل بينها الحكيم البدين بنصف ابتسامته وبطنه المتعرج بطيّاتٍ بعضها فوق بعض، راهباته قد وهبن بضعة من أجسادهن وبضعة من أرواحهن للمارة وعابرى السبيل هبةً طيّعة رضيّة منهن على هيكل أشواق محرقة تتقد فى جسوم وقلوب

الرجال، أصوات خشخشة العبادة وأجراس صغيرة مجلجلة تتناهى إلى في هذا الحلم العتيق الذى كادت معالمه تمحى، أضواء شموع تهتز ذبالاتها من نوافذ صغيرة مفتوحة فى صلب بناء الدير الكبير في مواجهة السماء تحت ظل هذا الغسق الذى لا ليل فيه ولا نهار، كل نافذة لها نورها المتأرجح، وحده، معزول وصامت، لا تنفك شفرته، فى كل فجوة أمام السماء حياةٌ خاصةٌ سوف تمر وتنقضي لا يعرفها الا من عاشها، طعم الشبق المتدفق هو كل ما بقى لى من متاهات الحوارى والشوارع والساحات وأديرة بانجوك والحفرة العميقة الواسعة تتلوى فيها الثعابين المروضة وفى البركة الداكنة التى تبدو آسنة وفسيحة يصعد جسم التمساح بحراشيفه الخشنة يشقّ الماء ويموّجه فى دوائر تتسع حتى تذوب عند الحافة وللتمساح رأس صقر مدبّب المنقار حادّ العينين ثاقب النظرة كأنه لا يتحول عنى محدّقاً إلىّ يحدجنى كأنه يترقب حيود طريقي إليه فإذا قام التمساح ذو رأس الصقر بصدره فوق الماء بان نهداه الثقيلان بلبن الحنان المسموم.

هل إذا كشفت قلبي تنهار علىّ أعمدة الوجود ويغيض عنى ما في يدىَ من نزر العطايا؟ وهل يمكن أن أستعيد مرآها إذ تمتص «الموس شوكولا» وتلحس الآيس كريم والسكر المعقود فى أعمدة مستقيمة بلسان مدرب خبير ومستمتع بالمصّ واللحس واستدرار السائل المخصب الثقيل وابتلاع دفقه حتى الغصص ولاسقيا ،يغوص لسان اللهب الضارب من عاليج الزغب إلى سورات الصرخة بالانتشاء حتى حافة التهلكة ولاسقيا. ساقاى تسوخان فى كثبان قباب الرمال وتصعدان بصعوبة إلى السور المستحكم الذى لا ثغرة للروح فيه الحصار الذى يطوق جسمى محيقٌ أنحتُ فيه بأظافرى وأسنانى وأعرج إلى السماوات الفساح على بساطٍ سحرىَ من كلماتٍ لا غناء فيها ولاسقيا، طائر الموت جاثمٌ على رأسى أسمع رفرفة أجنحته متى يحلق

الصقر عائداً إلى مثواه في سماك العدم؟

طوفان من الدموع والمنيّ تجرى فيه خيوطٌ من دماء الحيض فيضان من سوائل إفرازات أحزان الناس ونفاياتهم وآلامهم ومسرّاتهم تتضارب أمواجه وتصطدم بالصخر القاسي تهدر تلطمه وتعود محسورةً تنهار وترتطم ويتطاير لها رذاذ الصبوات والأشواق المُهدرة لكنها عنيدة لا يوقف صعودها - ولا هبوطها - شيء.

هل نقاء الحب مُمكن أم لا مفرّ من أن تغرقه الأمواج الملوثة، لكنها لن تشوبه ولن تضير جوهره، الحب إذ يقترن بشهوات الروح والجسد إنما يحيا. من قال إن الشهوة آثمة ومحرمة؟ لعل فيها خيرا أسمى من كل أقوال وأفعال المترصّنين وسدنة التحريم والتأثيم، لعل فيها بهجة هي في صميمها نشوة لا يمكن أن تُغالب بل تكتسح كل شيء، كل شيء، نشوة فعل الحياة.

كنت مفتوناً بشهوة العدالة.

أطوف بالبلد، وحدى أو مع مصطفى قاسم إسحاق، من حارة الصّواف إلى شارع الفيومي، من شارع الست دميانة إلى شارع الشيخ زين الدين، من طاحونة البربا شرق البلد إلى شارع الشرقاوى، من شارع البحر إلى حارة أبو يونس ومن درب الطبال إلى جنينة تكلا، في آخر بعد الظُّهريّات عندما تخف حموة الشمس وحتى منتصف الليل عندما يرتفع نقيق الضفادع على الترعة وصئيّ الخنازير في الخرابات والشوارع، نطرق أبواب الشغّالين على الأنوال، سواءً كنا نعرفهم أو لا نعرفهم، يفتح لنا أصحابها منادرهم الصغيرة المتواضعة حيث أقاموا أنوالهم. كانوا يعرفون أن مصطفى هو ابن قاسم اسحاق رئيس الطبّ الشرعي في أخميم، ولذلك أهميّته وكانوا يعرفون أن عائلتي - حتى لو كنت أنا وافداً جديداً من البندر - لها اعتبارها ومكانتها، وكنا نحاول

إقناعهم أن يؤسسوا نقابة - أو حتى جمعية تعاونية - تحفظ لهم حقوقهم، صحيح أن الصناعة عندئذ كانت مزدهرة فقد انقطع الاستيراد من الحرب، ولكن خام الحرير كان شحيحاً، وأصحاب «المصانع» دائماً يشتكون من سوء الأحوال. كنا صبيين أوقدت روحيهما شعلة البحث عن العدالة وعن تضامن أصحاب الحق المهدور. ولم يكن أحد - تقريباً - يفهم ما نقول.

عندما استقبلنا عم عوض الله بشاى النساج، كانت على رأسه عمامة بيضاء صغيرة منحدرة للخلف على جبهته العريضة الداكنة. كان يقف أمام النول في قميص الشغل بنصف كُم على الصديرية، أصغى إلينا باهتمام ويداه لا تتوقفان عن العمل ذهاباً وإياباً في حركات سريعة كأنها سحرية، والحرير يتشكل تحت يديه في نقوش جميلة حتى وهي في أول تكونها، وقال، بعد قليل:

- بوه يا بوى. دى سكّة واعرة عادْ... وصمت نصف مقتنع نصف متردد.

ولكننا سمعنا من غيره ما كاد يثبط عزمنا.

- مالكش صالح بينا يأفندى.

بعد قليل لاحظنا - كيف كان يمكن ألا نلاحظ - أنّ أحد رجال الصاغ حسين البنهاوى ضابط المباحث يتبعنا من بيت إلى بيت، ويدخل بيوت النساجين بعد أن نخرج، وتأتينا النصيحة:

- يأفندى ما تزعولش الدنيا علينا، وكماني ما تودّرش نفسك ياوليدى أنت وهوّه. همّولونا وروحوا لحالكو ودروسكو..

مازلت أسمع طنين أنوال النسيج متواتراً ورتيباً من وراء الأبواب في أخميم...

ما كان فيه بعض العزاء عن هذا الجهد الجهيد أنه لم يضع تماماً، ففي ذلك العام نفسه، وعلى غير علم منا، تأسست «جمعية مدارس

الصعيد» التي ارتبطت بعد ذلك بجامعة لوفان البلجيكية، ومرت سنوات طوال قبل أن تعرف أوروبا على نطاق واسع مشغولات الفتيات الأخميميات، وتطريزاتهن المونقة، وعادت إلى أخميم في الثمانينيات شهرتها في النسيج.

وبعد هذه السنوات أقرأ في صحف الثمانينيات أن النساج الحاج محمد علي محمد، وقد بلغ عندئذ من العمر سبعين عاما أو تجاوزها، قال إن عنده ثلاثة أنوال «النول عليه الخيط وأنا واجف من وين ألاجي صنايعي يشتغل؟ النول لازم له اتنين عمال أجر الواحد جنيه في اليوم (في الثمانينيات) الأجر جليل ع يشتغل عندى ليه عاد؟ لو شال طوب ع ياخد له تلاته أربعه جنيه، مش لاجي حد يشتغل ع النول الملايه ع النول ع تتكلف يمكن سته جنيه وتاخد لها ١٢ ساعة شغل، ع نبيعها ٦ جنيه ونص سبعة بالكتير، طبعاً العامل يهرب، أنا خلاص حا أخلع النول وأهمل الشغل خالص. ما هي شغلة واعرة.

أما الحاج حسين الكاشف «صاحب أكبر مصنع نسيج في أخميم» فقد قال إن البلد كان فيها حوالى ألفي نول أما الآن فكم بقى؟ العمال لا يقبلون الشغل على الأنوال، العامل إذا اشتغل في البناء أخذ عشرة جنيهات في اليوم ويأخذ ابنه معه يدربه على الشغلة المربحة، أما في النول فكل عامل من الكبار يموت لا يطلع غيره، ولو ضاعفت الأجور زاد ثمن البيع وانخفض معدل البيع (طبعاً هذه دائماً حجة أصحاب المصانع صغيرةً أو كبيرة) ويمضى الحاج حسين: وعندى مشكلة أخرى العامل عندى يتعاطى المخدر ورغم فقره يتزوج اثنتين وثلاثاً، وتنخفض جودة الإنتاج. الصبى يحتاج لما لا يقل عن ثلاثة سنوات حتى يصبح عامل نسيج ماهر، لكن أين أجدهم؟ هل تنشئ الحكومة معهداً لتعليمهم، أنا مستعد لتدريبهم في مصنعي ولكن لا أتحمل أجر التعليم. ومع ذلك الروتين يمتع، مازلنا محلك سر.

ويمضي بنفس المنطق الرأسمالىّ العريق: والمشكلة الأخرى أن أخميم كانت تنفرد بالحرير الطبيعي، الآن الحكومة تفرض علينا ٢٠٪ ضريبة إنتاج عن كل متر طيب ينزّلوها لـ ٥٪ وإلا اضطررنا إلى إنقاص جودة البضاعة حتى يظل السعر معقولاً.

أما كلام الحياة الأبدية فهو الحُلم بالأبدية لدرء موت الهالكين

ها هو ذا كل تأوّهى فما أشد رهبة أن يقف الشعر - الحقّ على باب قلبك.

وما أشد الرعب في صراعك مع الحيّة العظيمة تنين الهاوية الذى غوايات شروره تدفعك كالأسماك التى تؤخذ بشبكة قاتلة وكالعصافير التى تؤخذ بالشرك، لأن شفاه المرأة المحبوبة تقطر دسماً فهل فيها السمّ أم الترياق؟ وهل هكذا نقضى أيام غربتنا على الأرض بين الأهوال والمخاطر المشتهاة؟

الإسكندرية فى ٣ اغسطس ١٩٤١

عزيزى، وصلنى جوابك بعد إرسال الجواب المسوكر لكم، اليوم توجهت المدرسة فأفهمونى بأن الاستمارة أرسلت للوزارة ويلزم ترسل جواب مسوكر برسم حضرة صاحب العزه مراقب الامتحانات بالقاهرة وتطلب تحويل الامتحان على لجنة أسيوط وفعلا حررت طلب وأرسلته مسوكر اليوم وطلبت فيه تحويل امتحانكم على لجنة أسيوط وإرسال تذكرة نمرة الجلوس لأخميم ويلزم بوصول جوابى هذا تحرر طلب منك بالصورة المرفقة طيه وترسله مسوكر منكم وربنا يسهل الأمور هذا وجميع الامتحانات يوم ٣٠ الجارى وموضوع إعلان بالمدرسة مكتوب فيه هكذا الامتحانات من ٣٠ / ٨ لغاية ٦ / ٩ ويجوز التحويل على لجان القاهرة وطنطا وأسيوط فلذلك أتعشم تباشر التحويل ثم إذا كان

الأستاذ رفله أيضاً مازال بمصر حرر له جواب لكى يلاحظ الطلب ويعمل طريقة بالتحويل وعرفنى عنوانه لكى أحرر له جواب من طرفى وأقابله بمصر أنا شخصياً ومن جهتى لله الحمد بغاية الصحة ومشكلة أسنانى علما هى وربما أخلع الباقين والعوض على الله ومن اليوم أنا صايم للعذرى وربما من الليلة الآتية أقيم بمنزل عبد المسيح مع الأخ سوريال بعد الصيام لأنه تعب من السفر ومقيم بالإسكندرية طوالى هو ولوندى يومين تاريخه بتحصل غارات كل ليلة إنما الطيارات المطاردة بتطرد طيارات الأعداء ولم يحصل شئ أبداً وحتى لم ينزل أحد من البيوت وأغلب المهاجرين بلجهات القريبة حضرو والبلد عادت مثلما كانت.

سلامى للسيدة العزيزة والدتكم وأشقاكم المحبوبين بارك الله فيكم وحفظكم من كل سوّ

والدكم

(إمضاء)

ملحوظة هامة: من حيث إنه يحل صوم السيدة العذرى يوم ٧ أغسطس الموافق ٣٠ أبيب وكل سنة وأنتم طيبين فتفهم والدتك أنه يلزم أن تعملوا أكلة الرقاع بالفتة والبيض المزغول الحمر ولا مانع من لحمة الضأن أو الزفر كيفما يكون.

وأرجو أن تبلغنى بأخبار العائلة وخصوصاً أبونا أغابيوس ابن أخى المرحوم سلوانس.

والسلام ختام

والدكم

(إمضاء)

قالوا فى الأمثال إن اللذة هى أكل اللحم، لكن لذة اللذة هى ركوب اللحم، أما لذة لذة اللذة فهى دخول اللحم فى اللحم.

نادانى قلبى إليه... لبيته لما نادانى

وتجافينى ليه ياسيد البدع   دا جسمى نحيل ما يحمل دلع

لأن كل متعة عندى مؤجلة للغد، كل متعة ستحدث غدا أحسن بكثير مما هى الآن، إلا لحظة عشق فيها الأبدية وليس فيها غدٌ ولا اليوم.

ولكن هذه الأيام لا يعود فيها خير، كيف الجبر ما يعودش منه ميت ما كنت قد حلمتُ به مات، ألم يمُت؟ ولن يعود الآن ولا أبدا. أليس كذلك؟

وإذا كانت الدنيا كيف الغازية بترجّص لكل حىَ شويَه، فلعلها قد رقصت لى وانتهى الأمر، وحتى لو كانت الرقصة لم تتم إلا أنها قد كملت، كانت لحظة الرقص كاملة، مطلقة، أبدية.

تَعبُ المحبة لا يُنسى، فهل يُثاب؟ أم فيه، هو نفسه، ثوابه؟ وربما عقابه؟

أحقاً أنه ما من شئٍ يضيع، وما من شئ تافه، أو مآله النسيان؟

لماذا يبدو أن الحبَ عندى قد ضاع، ونُسى، وأنه عفت عليه الأيام؟

بمن نستجير من موت حبنا، من موت أحبائنا؟

لا مجير.

أما أنا فأريد أن أكون أنانياً حتى لا أتحمل موت أحبائى، أعرف أننى لن أطيقه - حتى لو أطقتُ موت الحب - أريد أن يتحملوا، هُم، أن أموت قبلهم حتى لا أستجير بأحد من موتهم بينما أعرف أنه ما من مُجير. أم أن الفُرقة نفسها موتٌ؟ لكنها ليست موتهم. لأنه ما من أحدٍ سوف يمسح دموعى، ما من شئ سوف يُسكت صرخة الوجع، سوف تظل الحياة شريرة قويَة الشر، ظالمة، كما أنها خيِّرة ومروّعة الجمال.

هل ذلك كله مضروبٌ بالشك، لأن المحبة تتحمل كل شئ، حتى الفُرقة، وتصبر على كل شئ حتى الموت؟

مزقوا قلوبكم.

أما حين يتحد قلبان اتحاداً مطلقاً فإنه حتى تمزق القلب لن ينال هذا الاتحاد بشرخ، يظل الاتحاد حتى في التمزق.

حتى لو جاء هذان القلبان من عالمين مختلفين، بل متناقضين

فما أوسع الشقة بين عالم أحمد ناجي وعالم قلدس قلادة.

هل ثم في هذين العالمين ما دعا القلبين والجسدين أن يذوب أحدهما في الآخر؟

من يدرى ماذا تخفيه طوايا الروح؟

عندما دخل إسماعيل الحمدانى الصالون الأرابيسك الفخم، غاصت قدماه بالحذاء الجديد الذى اشتراه، خصيصاً لهذه الزيارة، من الموسكى بآخر جنيه مما دفعه له صراف «المصرى» عن قصة نشرت له في الجريدة. وبهرت عينيه - كالعادة - أنوار النجف الكريستال الأصلى المتلألئة، ونجوم مصر المتلألئة فى الصحافة والمسرح والسينما والسياسة، وجاءت جلسته بجانب أحمد ناجي وزوجته الممثلة المتألقة مديحة شكرى (قيل أن عباس الوقاد نفسه علمها الكتابة والقراءة والتمثيل ومعرفة الرجال) كان اسماعيل قد جاء لتوه من بيت مطرب الملوك والأمراء بعد أن اتفق معه أن يبيع له قصة، وأنه سيوقع العقد معه من الغد، في المكتب، حسب الأصول. لم يملك أحمد ناجي نفسه من أن يرمق الأوراق التى يحملها معه هذا الصحفى، على هذا النحو السافر كأنه يقول: «ياناس.. شوفوا..» واستأذنه بأدب جم أن يقرأ هذه القصة، وبالطبع تركها له، سعيداً، وبعد قليل جاءه أحمد ناجي يشده قليلاً من ذراعه، بنوعٍ من اللهفة، ويأخذه على جنب ليقول له: أريد شراء هذه القصة فوراً. وبالطبع قال اسماعيل بزهوٍ وانتصار إنه اتفق على بيعها بالفعل، ولمن؟ لمحمد عبد الوهاب، فلما أجاب أحمد ناجى أنه سيدفع

الثمن - أى ثمن يطلبه - الآن، نظر إليه اسماعيل مستغرباً قليلاً، كان يعرف كما كان كل الناس يعرفون أن أحمد ناجى فى تلك الأيام بالذات خاوى الوفاض، وربما مديون، وعندئذ مد أحمد ناجى يده بحركة تلقائية خاطفة إلى جيبه وأخرج سلسلة مفاتيح ذهبية لسيارته، ألقاها على المائدة بينهما وهو يقول بحسم: خذ المفاتيح، السيارة واقفة بالباب، وهات ورقة نكتب الاتفاق. وكانت الأنظار كلها قد اتجهت إليهما، بفضول.

أحمد ناجى، فى أضواء صالون يوسف بك علوى المحتشد بالفنانين ورجال الأعمال والسياسيين والمشاهير كان أقواهم حضوراً، وأقدرهم على فرض الإحساس بوجوده الطاغى، كانت فيه سمات نبل فطرى وعريق، أسمر وسيماً، لم ترث ابنته الوحيدة اتساع شفتيه لكنها ورثت حساسيتهما ودسامتهما، كما ورثت - أو لقنت - عنه لباقته واندفاعات جموحه وإشعاعات الذكاء المتوقدة المتطايرة فى كل اتجاه لكنها تنتهى إلى مصب واحد: شهوة لمجد الجسد ومجد الروح.

عندما استحضرت صورته فى حلة الطيران شبه العسكرية قالت لى رامة:

- أنت صورت يوسف بيه اسحاق

كان أحمد ناجى قد حلق بطائرة شراعية صغيرة ذات مسطح واحد من لندن إلى القاهرة عبر البحر وحده كأنه واحد من أبطال أو انصاف آلهة أوليمپ مصرى خاص به وحده، آتياً إلى وطنه بعد أن بدد ما ورث من طين على ملذات وشهوات بريطانية خاصة به وحده، وصنع من أسطورته الشخصية تلك وهماً طامحاً إلى خلود بالأبيض والأسود على السيلولوز تتماوج صوره على أجنحة الصحراء. فقد كان يسحره سر الفن السابع كما كانت تسحره السيارات السبور والحسان من كل صنف ولون، من بنات الذوات الارستقراطيات إلى بنات البلد صاحبات

الجسد، من شحرورة الجبل إلى راقصة الملك، اقترن بنت الشيخ العمرى ذات الأصول العريقة، حتى إذا خلف منها رامة بنته الواحدة الوحيدة، تركها إلى الغندورة سليلة أمجاد تركية، ثم إلى الفاتنة الوافدة من جبل الدروز بأغاريدها الكريستالية ومغامراتها المريبة الغريبة في قلب أحداث الأربعينات حيث انطلق الرصاص وانجرت أرجل السراية ودوت ضربات الصفقات السياسية والتورطات الدبلوماسية والصراعات الجنسية على السواء، ثم فتنته راقصة الملك الآتية من قاع حوارى الاسماعيلية صاحبة الجسم الذكى اللماح العارف بتهاديات الموسيقى البلدى والمخلص ذاته لإملاءات هذه الموسيقى، الجسم الرشيق اللدن الذى خانه ذكاؤه فاستحال إلى كومة هائلة من لحم متراكب حزين.

أما قلدس قلادة فقد كان - ربما فى ذلك اليوم نفسه - يبحث عن مكان يغسل فيه قفطانه ويغير هدومه، ويروح إلى بيت فلاحى فى الحمودية ينام فيه ليلة قلقة على فراش الله أعلم بما فيه.

الإسكندرية ٥ أغسطس سنة ١٩٤١

ولدى العزيز المحبوب

أبعث إليك وإلى السيدة العزيزة والدتكم وأشقاك سلامى المملوء بالشوق العميق نحوكم، سيدى مضى وقت حوالى أسبوع لم يصلنى منك جوابات بعد الجواب المرفق به جواب الأستاذ رفله بك مع أنه أرسل لحضرتكم جوابين أحدهم بداخله ربع جنيه والثانى بداخله جنيه فلذلك أنا مشغول وفضلت إرسال هذا مسوجر وطيه جنيه لكى تكون حضرة المحترمة مبسوطة وأنى أفضل وجود النقدية بطرفكم خيراً منى وسأداوم إرسال النقدية هكذا بالتوالى للآن لم أتوجه للمدرسة لكى نفهم تمام بنتيجة الامتحان يكون بالإسكندرية أو أسيوط وفيما وردت

تذاكر الجلوس بنفهم الحقيقة ونفيدكم ثم أول امس توجهت لمنزل أم فكرى ووجدت فكرى أفندى بالمنزل لوحده وبلغته سلامك وعنوانه هكذا (إبيار تبع بوستة كفر الزيات وتسلم ليد أحمد توفيق هاشم صندوق البوسته بابيار وهو والده) من جهتى لله الحمد كونوا بطمان أتعشم تعملوا رفاع الصيام علما يرام وتصوموا جميعاً كما أنا وبعد التحقق من مسألة امتحان حضرتكم بأى جهة نبحث فى مسألة الحضور وبخصوص الغارات يومى وكل ليلة بيحصل صفارات وفيه طائرات مطاردة بتمنع دخول الأعداء ولم يحصل شئ الحمد لله ومن جهة اشتياقى عليكم لا يعلم إلا الله بحيث غالب الليالى لم أنام وأفضل طول الليل قلق عليكم الله يورينى وجهكم على أحسن حال وأمور العيش تستلزم ذلك بلغ سلامى بأشواق باهرة لحضرة السيدة الوالدة وأخوتك فرداً فرداً ومنى لك السلام.

والدكم

فى ذلك الوقت كان أحمد ناجى يجول ويصول - كما يقال - فى ساحات مصر، يتولى إدارة الإذاعة، ثم يدير شركة وستوديو السينما الوطنية، ويقود اتجاهات الشباب نحو حرية الملابس فيظهر بقميص نصف كمّ عارى الرأس فى زمن كانت الجاكتة المزررة والكرافته والطربوش علامات الاحترام والمكانة الضرورية، ويطيل سوالفه بينما أصحاب الاعتبار الاجتماعى يحلقونها إلى ما فوق الأذن على الطريقة العسكرية، حتى جاءت قضية البنادق الفاسدة التى اهتزّت لها البلد كلها، واتخمت صفحات الجرائد والمجلات شهوراً طويلة تظهر فيها صور ابن الذوات الشهير من وراء القضبان يبتسم ويلعب.

كان أحمد ناجى قد تعاقد مع الجيش على توريد صفقة بنادق للعساكر واشترط الجيش أن تكون صناعة إنجليزية. وردَ المطلوب، ثم

اتضح أنها بنادق تالفة لا يخرج منها رصاص، بل ينحشر في الماسورة وتنفث البندقية دخاناً أسود وقرقعة خافتة. وكانت محاكمته مسرحاً لبلاغة المحامين وتهافت الحسان والصحفيين من كل الفئات والأحزاب، وفي النهاية قُضي عليه بسنتين في السجن. ولكنه حوّل السجن إلى مسرح آخر للسهر والولائم كل ليلة فقد اتخذ مقامه في جناحٍ بمستشفى حكوميّ جعل منه الديكور لبذخٍ خرافيّ يُراق فيه الويسكي الفاخر والنبيذ الفرنسي الأصيل ويجتمع فيه الكافيار والسيجار والتفاح الأمريكاني وتدور فيه مساجلات الطرب ومباريات البوكر والكونكان. أما الحراس من العساكر والضباط فقد لعبوا أدوار الخدم والحشم والأصدقاء.

وفي خلال مدة الحبس كان أحمد ناجي يخرج بصحبة ضابط وعسكري لاستيفاء أوراق واستخراج شهادات أو توقيع توكيلات، يرتدي معطفاً فاخراً من وبر الجمل وينزل ياقته العريضة فيخفي ملابس السجن (وهي مخصوصة على أي حال) ويأخذ التاكسي في فسحة طويلة يمرّ فيها بميادين القاهرة ومجاليها، في عزّ النهار وفي ذات مرة اتصل، بطريقة ما، بأحد العاملين معه ليشتري غرفة نوم كاملة الأثاث يهديها إلى ابن الصول حنفي حارسه في السجن بمناسبة زفافه.

وعندما خرج من السجن استعاد على الفور كل مجده وشهرته، مع أنه كان، كما يقال، ياربيّ كما خلقتني، خاوي الوفاض، صِفْر اليدين صحيح، لكن ربنا خلقه متألقاً وثرياً بالفطرة واللماحية.

أيامها كتبت عايدة بنت قلدس قلادة لأبيها هذا الخطاب:

حضرة الوالد العزيز

أهديك سلاما عاطراً بعبير المحبة والشوق ولهفة إلى رؤيتك أو لطلعتك المباركة لا يحدها بعد وصف ولا تقدير وأشواق كثيرة جداً بحيث أصبحنا نبكي لفراقك كل هذه المدة

وبعد ورد خطابكم تطمنا على غالي صحتك وأحوالك ورأيك هو الصواب ولكن نحن هنا مبسوطين جداً جداً على الغاية والحكومة بتصرف لنا خبز يومياً الغداء والعشاء ولا ينقصنا غير الفطار ولكن بعدك عنا يؤلمنا كثيراً جداً فإذا كان يمكنك إيجاد سكن لنا في الحمودية أو إيتاى البارود أو دمنهور أو كفر الدوار، ولكن الذهاب إلى الإسكندرية لا يمكننا أبداً لأن والدتى تخاف جداً أكثر من العام الماضى ونحن ننتظر هنا إلى أن تبعث إلينا باستمارة السفر لأننا لم نشترى خروفاً ولم نعمّد ألبير وإيفون ولم نجد من يشترى الخروف لنا لأن شفيق أفندى زعلان منا لأن والدتى لم تذهب إلى منزلهم ومرقص أفندى زعلان منا لأننا زعلنا مع أم ناسان ولأنه مشغول فى القطن ومحتارين جداً والمقصود سنشترى خروفاً صغيراً ونعمد ألبير وإيفون ونحضر. وإذا كنت تستطيع أن تكتب خطاب للمقدس مرقص لكى يساعدنا لأنه لا ينفعنا أحد غيره.

ابنتكم المطيعة

عايدة

الإسكندرية فى ٨ أغسطس سنة ١٩٤١

ولدنا العزيز

أشواقى وتسليماتى لشخصك العزيز وللسيدة المحبوبة والدتكم وأشقاك الأعزا بارك الله فيهم وحفظكم من كل شر ووفقكم بكل محبة وسرور وأرانى وجهكم جميعا وأنتم على ما يرام. سيدى الليلة الماضية حصلت غارة شديدة جداً بشكل مريع يفكك الأعصاب وإليك شرح ما حصل ابتدت الساعة ١٠٫٣٠ مساء واستمرت للساعة ١٢٫٣٠ يعنى ساعتين كاملين والمدافع تضرب والطيارات ترمى القنابل بحالة مزعجة ومقلقة جداً والنتيجة حصل هدم منزل عظيم بجوار المحافظة تماماً وشارع محرم بك جزء من الخلف بكنيسة اليهود التى أمام شريط الترام ومنزل

بجوارها وكذا بشارع منشي والحضرة وجملة أماكن والضرر للآن لم يعرف مقداره والله يسلم إن شاء الله أما أنا فكنت بايت مع الأخ سوريال أفندى بغيط العنب والحمد لله بجهات راغب وغيط العنب وغربال لم يحصل شئ، أتعشم بوصوله تكون أرسلت طلب مراقب الامتحانات مثلما عرفتكم أمس ومن جهة حضورى لا يمكنني البت فيه تماما إلا بعد التأكيد من اللجنة التى ستمتحن فيها وبعدها أعمل الترتيب وعرف السيدة العزيزة والدتكم كلما يتيسر نقدية بارسلها بلغ سلامي إليها كثير وإن شاء الله تعالى يورينا وجهكم قريباً عاجلاً عشمي وثقتي فيك ياسيدى أن تكون على استعداد تام فى تأدية أوامر ومطاوعة والدتكم وتكون راضية عليك سلامي لأخوتك ولشخصك الغالى

والدكم

(إمضاء)

إذا كانت حكايات عم قلدس قلادة لا تنتهى، فكذلك لا تنتهى الحكايات عن نجم الأربعينيات الوسيم اللامع أحمد ناجى.

فى آخر المدة المحكوم بها عليه طبَّ عليه فى مستشفى السجن الذى أحاله أحمد ناجى إلى جناح خاص باذخ، زائران مرموقان: النجمة السينمائية المتألقة جمالاً وذكاءً وشهرة ذائعة سامية إسحاق اليهودية المصرية بصوتها الناعم المتهدّج وقوامها الممشوق ومعها أقدر مخرجى السينما المصرية وأبرعهم ربما، أحمد عليم، يعرضان عليه أن يقوم بدور البطولة فى فيلم من إنتاج وبطولة سامية وإخراج أحمد، ومعهما العقد الجاهز، والشيكات على بياض، وعندما جاء اليوم الموعود كان فى انتظاره على بوابة سجن قره ميدان حشود من المستقبلين والمصوّرين والصحفيين ونجوم المجتمع، وأمام سور السجن مثّل أحمد ناجى أول لقطة فى الفيلم الخاص به وحده، وصوّره وهو يوقّع على العقد، يعنى،

ثم وهو يركب السيارة البونتياك الأمريكانى المجنحة ثم وهو يدخل شقته الجديدة فى عمارة «الاسكرازيونى» ويستريح على الأثاث الجميل والمنتقى بعناية قبل أن يفتح الدواليب ويقلّب فى أطقم القمصان والروبات الحرير.

أين كانت بنته الوحيدة فى غمار هذه المغامرات؟

فى السابعة أو الثامنة من عمرها طفلة واسعة العينين تطلّ على هذا العالم بحس من الغرابة يدفعها إلى جرأة وانطلاق واقتحام هى كلها آليات للدفاع عن قلة المناعة والقلق الذى لا يهدأ سوف يصبح قلقاً روحياً وعقلياً لا يستنيم وقلقاً للحواس المشرئبة المشتعلة باستمرار حتى لو ناوشتها ونهشتها نوبات من الكآبة الصموت والانطواء الحسير على الذات.

أما هو فقد كان الفتى الذى تمضه أشواق الإيمان والعدل والحرية ويحلم فى قلب الصعيد الجوانى بأنه يحب حبا لم يعرفه أحد ويحلم بتغيير الناس والعالم، ويستعد لامتحان الجبر والهندسة فى مدرسة أسيوط الثانوية.

أخميم فى ٤ أغسطس ١٩٤١

والدى العزيز

أهديك تحياتى العاطرة مشفوعة بتمنياتى وأصدق أشواقى، كما أرجو الله أن يحافظ عليكم ويسبغ عليكم رداء الصحة والعافية.

وبعد.. وصلنى خطابكم وما به علم، وقد وصل به ورقة بنكنوت بجنيه، وكان سبق أرسلت لنا ورقة بخمسة وعشرين ٢٥ وورقة أخرى بخمسة ٥ ووالدتى تقول إن كل جواب ابعث لنا ما معك حتى ولو كان نصف ريال، وكأن عايدة أو هناء أخذته

أما عن حكاية سفركم بعد سفرى أنا إلى الإسكندرية ثم رجوعنا سويا فهذا غير ممكن على الإطلاق، لأننى لا يمكن أن أذهب إلى

الإسكندرية وأؤدى الامتحان فيها.. لأنه ربما يتكرر ما حدث ليلة الامتحان وتحصل غارة.. ويضيع التعب والجهد الذى بذلته، ويجب أن تسعى بكل ما أوتيت من قوة لأن أمتحن فى لجنة أسيوط فأولاً فى ذلك وفر للمصاريف، وثانياً أمان من الغارات، وثالثاً: أستطيع فى اسيوط أن أنزل فى بيت زكى أفندى سلوانس فيكون هناك أكثر ملاءمة من نزولى فى بيت المعلم سالم، ثم أستطيع فى أسيوط أن أذاكر براحة أكثر بينما فى المحمودية غير متيسر ذلك لمسألة النور ولعدم استعداد بيت المعلم لتلميذ مثلى إذ لا يوجد عندهم تلاميذ بالطبع.

ومن ناحية أخرى يجب أن تحضر قبل عيد العذراء بيوم أو اثنين لكى تفطر معنا، وأسافر أنا إلى أسيوط بينما تكون أنت فى البيت إذ إنه لا يمكن أن نترك البيت أنا وأنت. ومعلوم لكم أنه يجب أن يكون مع الأسرة رجل كما تعرف.

أكرر إلحاحى فى مسألة اللجنة، وأرجو أن تسعى بكل ما يمكن من الطرق لأن أمتحن فى لجنة أسيوط، أما عن الإسكندرية فمن المستحيل أن أذهب هناك إلا بعد هدوء الحالة تماماً. ويكفى أن الغارات مستمرة وربنا يحفظكم ثم يجب أيضاً أن تحضر قبل عيد العذراء.

تكدرنا جداً لمسألة تعب أسنانكم وتألمنا أشد الألم ونرجوه تعالى أن يشفيكم وأن يمتعكم بالعافية والصحة والسعادة.

نحن هنا لا يعكر حياتنا غير شوقنا العظيم إليكم، ومرتاحين تماماً وعن مسألة النقدية لا تنسَ أننا فى أشد الحاجة إليها.

وللمرة الثانية أكرر رجائى الخاص فى حكاية اللجنة.. ولا تنسَ أننى إذا سافرت إلى الإسكندرية سأضيع وقتاً أنا فى أشد حاجة إليه، وسأضيع مصاريف لا لزوم لها ذهاباً وإياباً، وسوف أتعب تعباً شديداً من مسألة السفر الطويل، وقد تحدث غارات فيتم بذلك سوء الحظ وسواد الطالع.

أخيراً جميعنا يهدى إليك السلام الخاص والأشواق المتزايدة.

وفى الختام تقبل منى ازكي تحياتى وأحر أشواقى مع أطيب التمنيات والمحبة الخالصة

ولدكم

(إمضاء)

من وثائقى القديمة احتفظت بقصاصة «الجمهورية» المنشورة يوم ١٠ يونيو بعد ذلك الصيف الحافل فى أخميم باثنتي وأربعين سنة.

هل أستميحك عذراً فى أن أنقل إليك القصاصة بنصها وفصها.

«ذات مساء فى قاهرة الأربعينيات وفى الكازينو الفاخر «حلمية بالاس» بضاحية الزيتون - حجز السينمائى اللامع «أحمد ناجى» مائدة للعشاء مع ضيوفه العرب والفنانين يرصعها وجه جديد صارخ الفتنة والجمال اكتشفه أخيراً فى حوارى الإسكندرية وسوف يهز به قريباً بلاط الأفلام، الوجه الجديد اسمه كاميليا أو البنت القمر، أو شريحة التاريخ من عهد فاروق... ها هى وبعد صقل ومران وتدريب طويل من أحمد ناجى تظهر معه فى المحافل لأول مرة! مبهورة مأخوذة وانظرى يا كاميليا مَن على المائدة بجوارنا.. الأميرة فايزة أخت الملك ومعها الأميرات هان زادة والنبيلة ألفت، والصحبة معهن سفير بريطانيا وجنرال إنجليزى وكولونيل أمريكى!.. هذا الكولونيل هو صديق فايزة، أما هذا السمين الجالس يسكر على البار فهو الأرناؤوطى محمد علي رؤوف زوج فايزة... انظرى هذا المخبول وهو يغازل فتيات البار من خلف ظهر زوجته.

وعلى هذا المنظر التوت الأعناق نحو فاروق وقد ظهر عند الباب قادماً للسهر مع حاشيته الليلية..! ضخم متكور عارى الرأس يرتدى جاكته من القطيفة السوداء وحول عنقه كوفية فضية وفى يده عصاه

أبنوسية بمقبضها المرصع.. ! التفت فاروق يستعرض منظر الساهرين قبل أن يتقدم نحو مائدته.. ! انتقلت نظراته من مائدة شقيقته فايزة، ثم تسمرت على منظر رؤوف وهو مخمور وفاضح على البار.. ! اكفهر وجهه.. ! غضب للكرامة والتقاليد.. ! رأيناه غاضباً ومزمجراً وكأنه دبابة زاحفة نحو البار، ثم بقبضة عنيفه أمسك برؤوف من الجاكتة وجره من كتفه إلى حجرة مدير الكازينو وأغلقها عليه وهات يا تأديب.. !

خفتت الأصوات في الملهى.. تلاحقت أنفاس الساهرين وهم يتابعون ضجيج الضرب والاستغاثة، ضرب، وشلاليت ولكمات وبكل ما وسعت يداه وقواه حتى تركه طريح أرض، وبعدها فتح الباب عن وجهه المنفعل الغضوب وهو ينفض يده رافعاً رأسه في شجاعة إنسان شرقي غيور على الشرف والتقاليد!

.. حدثت من البنت كاميليا حركة طائشة وبلا إرادة.. ! وقفت فجأة وقد أخذها الحماس والإعجاب تصفق لفاروق بكلتا يديها.. ! شدها أحمد ناجي، في حدة لتجلس، بينما استدار فاروق أشد غضباً ليرى من هو هذا المستخف الجرئ الذى يسخر منه.. ! وعندما وقع نظره على الفتاة الباهرة فغر فمه ولعق لعابه برهة ثم تحرك منثنياً نحو مائدته!

بعدها.. جاء أحدهم ليهمس في أذن أحمد ناجي بأن جلالته قد صفح عن الفعلة النزقة بل قد استظرفها وسُرّ منها، ومن أجل هذا فهو يدعوهما إلى مائدته.

أحمد ناجي لم يكن يؤكل سهلاً.. ! وقف يعتذر منحنياً بأنه مضطر للانصراف مع ضيوفه فوراً للحاق بطائرة السفر.. ثم يعتذر جداً عن التصفيقة الحمقاء - عفواً ماجستيته - فقد كانت منها نداء للجرسون.. !

أليست - وحياة النبي - حكاية طريفة؟

في تلك الليلة نفسها كان يكتب من أخميم لأبيه عمّ قلدس قلادة الخراز في إسكندرية الغارات والكدّ الشاق أن يُحضر معه أكلة سمك، و ٤ وقات رز

كيف تنشعب المصائر وتتلاقى؟

أي سرّ يجمع بين الأشتات ويفرّق بينها؟

ما الفرق بين كل هذا وبين ما أجتازه في أرض الحلم - أرض الهوى - من ساحات خاوية أو معمورة بأشباح الموتى، وهم عندئذ في عنفوان الحياة، وما أنشط فيه من قاعات مألوفة أو غريبة مزدحمة بالعمل الجادّ بل المحموم وبالمرح أيضاً، بالدق على الآلات الكاتبة باللغات الفرنسية والإنجليزية والعربية، وحضور قامات إفريقية مكافحة وحارّة بالإيمان حضوراً ماثلاً يفتح في غيابات الليل آفاقاً مضيئة بالأمل ونور الشمس، ما الفرق؟

أيهما حدث وأيهما لم يحدث؟

هل ذلك كله، في الصحو، إن كان ثمّ صحو، أو في الحلم على السواء، بالفعل حدث؟

لم يخرجني الميناتور من كهف المتاهة.

في أسفل ساحة الدير الكبير، في أخميم أو في بانكوك؟ - عوى الذئب في الجبل عواءً طويلاً خائفاً كأن الفجر لن يطلع أبداً ●

الفصل الثانى عشر
المعرفة

عندما نزل أغابيوس من الدير الكبير جاء يسلّم على الخواجا بقطر في الشونة.

كنت عندئذ مع مصطفى قاسم اسحاق أمام باب الشونة نستروح نسمة العصر الطريّة، وكان معنا، جالسين على الأرض، لصوص الحمير.

كانوا عصابة مرحة، صنعتهم مشهورة معروفة تماماً وتقليدية، وحتى أسماؤهم لم تكن مفاجئة ولا غريبة: مجلّع وهريدى وحسنين. وكانوا على قدرٍ من ذلاقة اللسان وعذوبة الحديث وحبّ الدعابة والمقدرة على التضحيك لا يمكن لأحد أن يقاومه. بل كان الصول حسن شعبان مراسلة المأمور يجلس معهم أحياناً، يعرفهم ويعرفونه يدخنون الشيشة معاً ويتبادلون الحكايات والنُكَت.

مجلّع، على رسغه اليمنى وشم صليب داكن الزرقة، عمامته شال أبيض كتّان ملفوف على اللبدة الصغيرة، مبتسمٌ باستمرار عن نصف سنّة أمامية مكسورة، ذقنه دائماً خضراء ليست متقنة الحلاقة.

أما هريدى فوجهه الطيب وراء نظارة طبية سوداء (كان نظره ضعيفاً على قده) وعمامته البُنيّة الملفوفة عدة طيّات، والكوفية حول رقبته، كلها توحى بأنه رجل مأنوس محترم يوثق به.

حسنين هو الولد المجلّب الحَلَبُوتى العفريت، كلامه مطَهْمج متوفز بالحيوية سريع لا تكاد تلحق ما يقول، يعتمر طاقيّة بيضاء فقط، يدفعها، من باب العياقة والأناقة، إلى مؤخرة رأسه قليلاً.

وحتى طريقتهم فى سرقة الحمير تاريخية، يهوّشون على صاحب

الحمار في سوق التلات ، أو الجمعة ، على اعتبار أن هريدى رجل مزارع مدندش عم بيشخلل بالريالات الفضة في سيالته العميقة ، محفظته الجلدية منتفخة ومربوطة جيداً بالصديرى الذى يلمع تحت قفطانه الغالي. وفي غمار التفاوض والمساومة على ثمن الحمار الذى ينوى الحاج هريدى أن يشتريه يتدخل الخواجا مجلّع في الصفقة ، ويتبين أنه هو أيضاً بحاجة ملحة إلى شراء مثل هذا الحمار بالضبط ، وأنه كربان متلهف لأن زراعته على وشك أن تبور إذ يعوزها هذا الحمار الجيد الذى يحمل إليها السماد والتقاوى ، وانت خابر كيف يا بلدينا ، ويعرض ثمناً أعلى ، فيغضب العم هريدى الطيب ويؤنبه فإن البيعة كانت قد تمت أو أوشكت على التمام ، والحديث الشريف يقول إنه لا يدخل خاطب أو مُشتر على آخر ، ويكاد الرجلان الكبيران في السن والمقام ، في حموة الأخذ والرد ، أن يتماسكا بالأيدى ، ويعاتل صاحب الحمار أن يصلح ذات البين ، وإن كانت البيعة الجديدة قد أغوته ، فإذا كان منهمكاً في المصالحة وفض المشكلة يتلفت فإذا حماره قد اختفى ، كان حسنين المفرفش خفيف الحركة قد سرح بالحمار في لمح البصر ، وما أن يصرخ مالك الحمار يندب حظه ويدعو الناس لنجدته ، ويبحث عن حماره ذات اليمين وذات اليسار حتى يكون هريدى ومجلّع ، بدورهما ، فصّ ملح وداب ، في وسط زحمة السوق .

وما كانت هذه الحيلة - على أنها مأثورة ومشهورة - تخيب معهم قطّ ، في أباهور أو ساقُلته ، في الحواويش أو السلاموني ، في نجع الخور وحتى في طهطا أو سوهاج .

واللصوص الثلاثة بعد ذلك لا يغلبون ، يصبغون الحمار بالأسود أو الأبيض صبغة ثابتة متينة لا تحُول إلا بعد أسابيع أو شهور ، ويحلقون غُرّته أو يطيلونها ، بل يجزّون ذيله قليلاً في بعض الأحيان ، ويبيعونه بالثمن المعقول ، دون بخس ولا استرخاص في سوقٍ أخرى

بعيدة، يعبرون النيل من شطّ إلى شطّ، بلد تشيل وبلد تحطّ، لكن الرزق يحبّ الخفيّة عاد، ولهم شبكة علاقات واسعة بين أصحاب الأراضى وتُجار البهائم وبين الفئات الصغرى من رجال البوليس والخبرين الغلابة الذين يغضون الطرف مادامت الأيدى تمتلئ، وكُل الفم تندعن العين.

يومها كانوا فى مهمة لحساب الخواجا مرقص الذى سُرق منه حمار الأسبوع الماضى، وكان عليهم أن يستردّوه.

وكانوا يحكون لنا عن شيخ الغَفر الذى زرع المكرونة، كان قد التقى بزكرى أفندى ومعه شئ ملفوف فى ورقة جورنال، فقال:

- واه.. إيه دى ياعمَ زكرى؟

- ما تعرفش ده يا عم الشيخ مرجس يا شيخ البلد؟

- لعَ

- ده مكرونة.

- مركونة؟

- مكرونة.. مكرونة.. كنت فايت على الجنينة لجيت دول طارحين طازه، جمعتهم وجيت.

- باه.. هى المركونة عم تتزرع؟

- لانت متعرفش يا عمَ الشيخ مرجس؟ أمَال.. طب خُد شويّة كده ازرعهم وشوف.

وهكذا كان، زرع عمَ الشيخ مرجس المكرونة، كانت التقاوى مكرونة لسان عصفور. أرسل زكرى أفندى أحد فلاحيه، فى الخفاء، وضع بدلها قليلاً من الذرة، وسعد عم مرجس ودهش إذ رأى «المَركونة» تخضر وتنمو زاهية ناضرة.. وكم كانت خيبة أمله مُرّة عندما رأى أنها ليست إلا عيدان ذُرة.

سحب أغابيوس كرسيّاً آخر من داخل الشونة وهو يتمتم، من بين

شوالات العدس والبصل وسماد نترات الشيلي الأصلي، بينما كان الخواجا بقطر يقفل حسابات الأمس في دفتر الأستاذ الضخم ويقيد الفواتير والإيصالات وبوالص الشحن، وهو يرقبنا من على مكتبه الصغير وراء حاجزٍ نصفه العلوىّ زجاج بلچيكى مضلع ونصفه السفلى خشب زان، والمصباح الكمثرى أبو حبل يتدلى عليه فإذا انتهى منه جذبه ثم تركه ليرتفع وحده حتى يقارب سقف المكتب.

الإسكندرية فى ١٧ أغسطس ١٩٤١

ولدى العزيز المحبوب

أبعث إليك قبلات حارة من صميم قلبى وفؤادى وأتوسل للرب يسوع المسيح أن يحافظ عليك ويحميك من شرور هذه الأيام وينجح مقاصدك ويساعدك بمعونته الربانية في كل ما صوبت إليه ويجعلك من سعدا الدارين فإنه سميع مجيب سيدى العزيز المحترم سلامى وأشواقى الكثيران المملوآن بمزيد لهفة لرؤياها السيدة العزيزة المحبوبة. الشوق بذاته لسى غنى، ألبير باشا حفظه الله وللأعزا هناء وإيزيس وإيفون أرانى الله وجهكم بخير وأنتم على أتم صحة وسرور منعمين بكلَ طمان. جوابكم وصلنى أمس وكان قادم لكم جوابى طبعاً وصلكم أمس خمسون قرش وفى هذا أيضاً نصف جنيه ليدكم بالسلامة وفيدونى باستلام هذا وذاك أما بعد بخصوص امتحانكم أمس توجهت إلى المدرسة العباسية وللآن لم ترد تذاكر الجلوس ولا أخبار وفهمنى بأن الوزارة تخابرنا بخصوص التحويل رأساً فإذا كان ورد لكم أخبار عرفونى سريعاً للاطمئنان، من جهة حضورى يعلم الله لا يأخرنى سوى مسألة امتحانكم مثلما أشرت لكم فى جواباتي السابقة أرجو تعرفونى عما يلزمكم من هنا لا ستحضاره معى شرطاً الجواب يمضى بخط يد والدتكم وعايدة وهناء وألبير كلاً منهم يضع إمضاءه عليه لكى يبل

خاطرى نوعاً ويخفف اشتياقى الغير محدود (والدتك تجهز وزّ مزغط وعسى يكون باقى من الفراخ) سلامى لجميعكم غير خافى عليكم حفظك الله،

والدكم

(إمضاء)

الإسكندرية فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤١

ولدنا العزيز

أشواقى كثيرة وأصبحت بدون عقل لكثرة تلهفى على رؤياكم جميعاً فرداً فرداً ولا داعى لزيادة الإيضاح بما أنه مفهوم لكم ومثلما أنتم أنا. جوابك ورد ومنه اطمنت على غالى صحتكم وأشكر السيدة المحبوبة والدتكم على فكرتها فى راحتى لا حرمنى الكريم منها إلا أنى أود الحضور لطرفكم لأجل الراحة من عناء الشغل قدر أسبوع أو اثنين وبعدها نفكر فى مسألة حضوركم جميعاً وانكان هذا غير موافق والدتكم فلا داعى للحضور ثم اليوم توجهت المدرسة وعليه نفيدكم تذاكر الجلوس وردت إنما تسلمها بمعرفة مراقب الامتحان ولنفس التلميذ شخصياً لأن عنوانكم على المدرسة ثم بالاستفهام من حضرة القايم بأعمال الناظر الذى بطرفه تذاكر الجلوس فأفاد أن أحرر لحضرتكم وأن أعرفكم أن تعملو ترتيبكم على الامتحان أمام لجنة أسيوط والتذكرة إما تُرسل لكم بجواب مسوكر أو لمدرسة سوهاج الثانوية وضرورى من توجهى باكر الساعة ١١ لمقابلة المراقب ويمكن تسلمها إلى وأرسلها لكم وإن شاء الله باكر بعد مقابلته أفيدكم بالكفاية. وإذا كان الست صممت على تنصير غتن بمعرفتها لا باس أنا موافق على كلما يوافقها وهى صاحبة الأمر وكلما تعمله فهو يرضينى بارك الله فيها وحفظها لنا وأرانى وجهها بخير وباكر لقيدكم الكفاية

سلامي لكم جميعاً وللسيدة غنوتي خاصة

ختاماً سلامي لشخصك حفظك الله

والدكم

إمضاء

الإسكندرية في ٢٩ أغسطس سنة ١٩٤١

ولدى العزيز

أهديك كثير الشوق وأبعث إليك بدعواتي سيدى مرسل طيه تذكرة رقم الجلوس على لجنة أسيوط ليدكم بالسلامة والنجاح وأنت تقوم لأسيوط صباح الجمعة وتعرف ولدنا زكي أفندي سلوانس ينتظركم بالمحطة مقدما نجح الله أمورك وحفظك من كل شر وإن شاء الله تمموا تنصير غنن وإيفون بمعرفتكم حسب رغبة الست والدتكم أما أنا إن شاء الله عزمت بالقيام لطرفكم يوم الخميس المقبل ٤ سبتمبر ١٩٤١ أصلكم صباح الجمعة خمسة منه بحيث إنكم تكونوا انتهيتوا من تنصير ألبير وإيفون مثلما يكون بطريقة اقتصادية بقدر الإمكان حسب رغبة السيدة المحبوبة والدتكم وبحضوري إن شاء الله تنتهى من مسألة عودتكم للإسكندرية أو بقاكم بطرفكم بسوهاج يهيئ الله خيراً

سلامى وأشواقى العظيمان للسيدة العزيزة والدتكم وأشقاكم المحبوبين بارك الله فيكم وأرانى وجهكم بخير

ختاماً دعواتى وأشواقى مبعوثين إليكم من صميم الفؤاد

والدكم

إمضاء

أخميم ١٩٤١/٨/٢٨

حضرة والدى العزيز

أبثك أشواقاً لا تنتهى ولا يمكن وصفها، وأهديك تحيات عاطرة من صميم القلب المتلهف إلى رؤياكم، وأبعث بأطيب تمنياتى وأرجو أن

تكون فى صحة جيدة وخير حال.

وصلنا خطابكم المسوجر اليوم، ووصلنا أمس خطاب آخر، والتذكرة وصلت ولكم الشكر.

أما عن مجيئك هنا فهو أحد الأمانى التى نتمناها، ونرجو أن تسرع بالحضور ومنتظرينك يوم الجمعة كما جاء بخطابكم، والرجا أن تحضر معك أكلة سمك جامدة كما تقول والدتى وإذا كان الأرز رخيص عندكم أحضر لنا ٤ أقات إذا كان ثمنه قرشان صاغ، ٤ تعريفه.

وكذلك الرجا إحضار عدة وابور «بريمس» وشوية بطاطا والرجا حضورك بأسرع وقت

وسوف ننتظر حضورك لتعميد غنى وإيفون بطريقة اقتصادية

ونحن لا يمكن أن ننتظر أكثر من هذا وإذا لم تحضر فنضطر للقيام به، ونحن نعد المسافة بين الآن وبين ميعاد حضورك بالدقائق والثوانى.

جميع من هنا يهدونك السلام والأشواق الحارة

فى الختام تقبل منى أعطر تحياتى وأصدق أشواقى الصادرة من أعماق الفؤاد

ولدكم

إمضاء

فى ذلك اليوم ونحن مع لصوص الحمير وأبونا أغابيوس أمام شونة الخواجا بقطر، فوجئنا بالمعلم محمد على محمد - كان ومازال فى عزّ رجولته، فى الثلاثين من عمره تقريباً، مع عم حنا الله سدره النساجين، ومعهما حشد عريض من النساجين، شيوخاً وكهولاً وشباباً، صاخبين ثائرين، يشوّرون ويلوّحون ويتكلمون معاً بأصوات عالية مضطربة، التقطتُ من بين طَهْجة الأصوات المهتاجة يعنى عَنْموت وهُمّه بيودُّرونا؟ عادْ.. يَاىْ عَنْشَرتْ الحرير ونكسّر الأنوال يَجى؟ دى غَفْلَجْتَ قُوجنا.. دا الراجل منّا جَرّبْ ما يلاجى يِمْلُط واصِل ولاّ

عنـدَوا خشمنا بجواليص طين؟

كش فيهم الخواجا بقطر فهدأت ضجتهم قليلاً وعرفنا الحكاية لم يعد الحرير يُستورد، سكّة البحر انقطعت من جراير الحرب، وتربية دود القز على ألتوت عالية الكلفة وروحها طويل، أرزاق الناس شحت وأسعار كل شئ نار الله المُوجدَة، كانوا فخورين بعملهم على الأنوال، يغزل النسّاج عليها خيوطاً في سُمك شعر الرأس ويصوغ منها الجلاليب والقمصان والفساتين والملايات والمفارش، من يشترى الحرير الآن؟ لم يعد يشتغل في أخميم إلا ما يُعد على أصابع اليد أى والمسيح الحىّ، ما يزيد عن عشرة رجال، في الزمانات كانوا ميات، سعر الخامة اتنطر فُوجْ في العلالى، والحال واجف يا بُوى، والضرايب حتُجْطُم الضهر عادْ.

رهن ديمتريوس مكسيم الطحطاوى بنته في مقابل صولد ذهبي واحد دفع به الضرائب المستحقة عليه وردّ غائلة العسكر بخوذاتهم النحاسية وأحزمتهم الجلدية العريضة، جاءوا إليه يضربون الأرض بنعالهم ذات السيور التى تدور بالسيقان المفتولة العارية تحت الأوشحة الأرجوانية القصيرة، وسياطهم المصنوعة من جلد الجاموس. خبطوا على الباب في درب القيسارية وحطموا له زير الماء فإن لم يدفع سوف يُجلد ويُرمى في الحبس. رهن بنته الصغرى واشتغلت بنته الكبرى في تجارة الفسيخ في هرموبوليس لتستخلص أختها من الرهن ولجأت إلى السكيناريوس فلم يستجب لتوسلاتها.

كان جاره أوترنيوس الهيراكوبوليسيّ الذى يقطن حارة القيسارية نفسها في بانوبوليس قد وشَى به.

كيف أمكن له تبرير الوشاية؟

رحمة الله تسع الأرض والسماء والمخطئ يُغفر له ليس فقط سبع مرات بل إلى سبعين مرة في سبع مرات، فلماذا لا يُغفر لى؟ حتى لو

كنت وشيت بجارى، لماذا يُلقى بى فى غياهب السجن الداخلى فى نفسى؟

لم يكن ما فعلت خطأ بل خيانة.

تنين الفضة والسلطة فتح فاه وأغوانى وأنذرنى بألسنة نار نفثها فى وجهى، خفت أن يلتهمنى قلت لهم هوذا أخى وجارى، ثلاث مرات، فعرفوه، عندئذ ذهبوا إلى داره فاضطر إلى أن يرهن بنته حبيبته مقابل صولد واحد.

أما هو فقد أدخل يده فى كير الحداد وأمسك الحديدة المحماة المتوهجة بالنار قابضاً عليها بأصابعه العارية ويده المتقبضة، ووضعها على يده الأخرى، قال:

- هذا هو حالى.

مجدى رزق الله أخذ مهنة النساجين بالوراثة عن آبائه وأجداده، قال إن الخامات أسعارها غير محتملة، ثمن الحرير والقطن فى السماء، وحتى المعلم محمد على محمد تدخل فى ضجة الكلام والاحتجاج، يتصبب منه العرق: الكساد يابوى، ما عاد فيه زباين، الناس كنت وكفت عن البيع والشراء.

قال عبد الفضيل أبو رجيلة: طب أتور وين يا ولدى أنا والجماعة شغلتى والولاد. نعمل كيف؟ حتى اللى نسجناه أهو ملجح فى الدار، بس يبعدوا عنا مآمير الضرايب، عنلافيهم نجدية من وين؟ من وكلنا ولأ عنبيع النول ونجول عشانا عليك يا كريم؟

قال لى: طيب يا فندى أدى المشط شعلة النول خليه حداك ما عادش لىَ صالح بيه. خده يأفندى.

لم آخذه بالطبع وإن كان قد سحرتنى أسنانه الخشبية المدبّبة الطالعة من كف مستطيل مستقيم الحواف نقشت عليه دوائر محفورة فى

الخشب كل دائرة تحتوى فى داخلها ثلاث دوائر أصغر فأصغر وفى بؤرتها نتوءٌ دقيق، وله يد مدوَرة عند التصاقها بالكف ومسطحةَ الطرف.

قال الشغالون على الأنوال إنهم هجروا أنوالهم لن ننسج خيطاً ما دام الكساد ضربنا، والحكومة رفعت يدها عن مساعدتنا وتطالبنا بضرائب باهظة فوق طاقتنا. سوف نكف عن النسيج أصلاً. سوف نموت من الجوع.

قالوا: ما من أحد يموت من الجوع، لكن الحال ضنك.

ومع أننى كنت فى عز الاستعداد لامتحان ملحق الثقافة العامة فى الجبر والهندسة، فقد وجدت حماسةً ووقتاً وكتبت لهم بياناً ثورياً أدخل عليه مصطفى قاسم اسحاق تعديلات طفيفة.

ذهبنا إلى مطبعة عم لوقا أبسخيرون الذى يطبع عنده الخواجا بقطر، وكبار عائلة الخرَازين، فواتير الحساب وإيصالات الإيراد وورق المراسلات بالاسم والعنوان والسجل التجارى وتلغرافياً كذا.

تردد عمَ لوقا قليلاً، كان الليل قد تقدم، أقنعناه بالحجة والتوسلات والرجاوات والقرشين الكويسين، فأغلق باب المطبعة، وأخذ يصفَ البيان بنفسه، يلتقط الحروف المفردة واحداً واحداً من خانات مربعة كثيرة، بسرعة وخفة ونحن نرقبه مفتونين، يضمَ الحروف ويلضمها ويفرزها، ويحدَق إليها فى نور الكلوب الغازى الذى كان قد خفض فتيلته حتى لا يظهر من خارج المطبعة الصغيرة، صنع لها بروفة وصححناها. كان الفجر قد أوشك أن يطلع على أخميم، عادت الخنازير إلى زرائبها وسكتت الضفادع، خرجنا من عنده إلى بيت المعلم حنا الله سدره فأخذ مائة منشور ثورىَ مطبوع يُدين تقاعس المسئولين وجشع كبار أصحاب مصانع الأنوال، ويطالب بتحديد حدَ أدنى للأجر اليومىَ للشغال وحد أقصى لساعات العمل، ويدعو للعدل وسقوط

الاستعمار والاستغلال، ولصيانة حقوق العُمال، والتأمين عليهم من أخطار البطالة والكساد.

وفي الصبح وجد المسئولون على مكاتبهم هذه المنشورات، من أول صاحب العزة مأمور المركز إلى آخر كاتب في المركز. بما فيهم صموئيل أفندي الباشكاتب وحتى يحيي أفندي وصفي معاون الإدارة، وطبعاً توفيق بك خاطر وكيل النيابة والصاغ حسين البنهاوي ضابط المباحث.

هجمت العساكر على البلد بالخيول والبوكس الفورد والهراوات والكرابيج، بقيادة الصاغ حسين البنهاوي في سيارته الحكومية، انتزعوا العمال المضربين من بيوتهم ومن القهوة ومن الشوارع، ساقوهم بالضرب والشتيمة والعنف إلى المركز، كنا في حالة حرب والأحكام العرفية مُعلنة وللحاكم العسكري ومعاونيه حتى أصغر ملازم ثانٍ في البوليس سلطات واسعة.

استطعنا بالكاد بما يشبه المعجزة، عند تدفق حملة العساكر على البلد، أن نلوذ - أنا ومصطفى قاسم اسحاق - بالعلية فوق سطح دار الخواجا مرقص، صعدنا إليها سطوح البيوت المتراكبة المتجاورة، تسلقنا سطحاً بعد سطح وقفزنا فوق أكوام الحطب وتفذنا من بين أبراج الحمام وبلاليص الخزين وصوامع الغلّة، حتى ارتفعنا في النهاية إلى مأوانا الأمين الخبئ الذي لا وصول إليه إلا للعارفين، وهناك، طيلة سبعة أيام، كانت مارينا تصعد إلينا بالأكل والشرب والماء تصبه بالكوز من الطشت الذي ترفعه بذراعيها الناعمتين القويتين، عاريتين حتى ما فوق المرفق، في فستانها الحريريَ المشجّر، تغسل به أيدينا وتشطف وجوهنا وتضمد الجراح والكدمات التي نالتنا من ضربات الهراوات الحكومية العشوائية، بصبغة اليود وماء الخلّ من أجزخانة الدكتور ميساك.

الآلاف ومئات الآلاف من المضروبين المهانين والمحبوسين والشهداء

من كل ملة ودين، من كل جنس وعقيدة.

ما معناهم؟

من أقباط مصر فى أخميم إلى الشيوعيين الروس الأوائل فى سيبيريا، من سواد الفلاحين المسخرين في الحروب بانكساراتها وأمجادها إلى المدفونين فى عمق ترعة ديليسبس واسماعيل، من قتلى الإيمان أو الجنون القبلى وعنصرية اللون المغاير فى المسيسبى وموزمبيق، في أندونيسا أو التبت، فى كوسوڤو أو صربيا، من التوتسى إلى الهوتو ومن أنجولا إلى المكسيك.

ما معناهم؟ هل ذهبوا هدراً؟ إلى الأبد؟

معت ياذات الريشة العالية أين ميزانكِ الذهبيّ؟

اختل الميزان وسقط قلب الإنسان إلى أرضٍ صلبة من الكفَة المهتزة التى لم تحتمل ثقل أحزانه.

لم تعد الأفلاك المتوازنة بك يا معت محكومة الحركة تجرى فى مسارٍ لها مرسوم بل شطحت بها الأهواء والمظالم.

سُننُ الحق أنت تشقَينها، فلماذا سقطت عليها أحجار الخطيئة؟

أنت خبزى، أشرب من الندى المتقطر على جسدك البهيّ.

عين رعَ التى لا مثيل لها: الحق

(إلام تلوذ بأساطير أجدادك، كأنما ترجو أن تحتضنك الإلاهة الرشيقة صغيرة القد عظيمة القوة، تذود عنك قسوة تباريح الوقائع؟ أمْ حبيبة أخرى؟

ألا تنزل إلى أرض الوقع وتحدق فى عينيَ البشاعة دون أن تستحيل إلى رخامٍ من شعْرٍ؟)

بينما كان أبونا تاوفيليس العارف بالله يصلى فى قلايته، وحيداً مع الله، طرق أغابيوس على الحائط الحجرى بجانب باب القلاية المفتوح

الذى لا ضلفة ولا مصراع فيه، مجرد فتحة فى الحائط السميك، جانبها العلوىّ مدوّر وجانباها غير مستويين فيهما نتوءات قديمة.

رنّ الحائط بطرقات أغابيوس رنات مكتومة وهو يقول:

- أريدى أغابى.

صمت أبونا تاوفيليس قليلاً ثم ردّ مُرحِّباً بعد لحظة:

- أغابى.

وبذلك سمح له بالدخول

لم يكن لعازر - أغابيوس قد لبس إسكيم الرهبنة بعد، كان فى طور الاختبار الذى استغرق ثلاث سنوات كاملة.

القلاية معتمة ليس فيها نافذة، حيطانها خشنة رمادية عليها آثار من دخان المسارج، فهى منقورة فى صخرة ضخمة قائمة فى الجانب الشرقى من باحة الدير الشاسعة؛ وعلى حائط القلاية أيقونة واحدة عليها طبقة داكنة من تراب القرون وزيت الرسم والفريسك، تشققت بشروخ رفيعة متلوية ضاربة فى جسم يسوع الذى أنزلوه من على الصليب، ليس فى هذه الپييتا القبطية القديمة دقة تشريحية بل وحده شطح الإيمان والألم، ساق المصلوب عجفاء ناحلة ملتوية تحت جسمه الذى يبدو قصيراً مضغوطاً بالنسبة للساق الأخرى المبسوطة على أرض الجلجثة، مثقوبة ثقباً أسود كبيراً تنز منه دماء لا تجف أبداً، والمريمات الثلاث أحطن به نائحات صغيرات القامة جداً ليس فى وجوههن الكاسفة نور القداسة بل حزن الفقدان المقيم.

وتحت الأيقونة قنديل من الفخار موضوع على نتوء حجرى فى حائط القلاية الصخرى، به زيت داكن ساكن فيه فتيلة مشتعلة تنبعث منها رائحة الزيت المحترق ونفح دخان قليل.

رأى أغابيوس عندما اعتادت عيناه عتمة القلاية وجه أبونا تاوفيليس كأنما هو جزء من أيقونة إنزال المسيح من الصليب، منحوفاً

مستطيلاً لحيته الشهباء طفيفة ومستدقة الطرف، وما بقى ظاهراً تحت لحيته، من وجنتيه الشفافتين بسمرتهما الصافية ينمّ عن عظامٍ قوية حتى إن بدت هشة في العتمة المهتزة بنور فتيلة القنديل، ورأى أن الجزء العلوى من جسمه هو أيضاً صغير ومدكوك وأن ساقيه طويلتان مدّهما أمامه، تحت الإسكيم السابغ باهت السواد، وهو جالس بانخفاض على مصطبة واطئة منحوتة في الصخر، ليس عليها إلا حصيرة من السمار، عليها بطانية ناحلة لها رائحة الصوف القديم ورائحة السهاد والتهجد الطويل.

قال أغابيوس: سامحنى يا ابونا. أريد أن تساعدنى أن أعرف نفسى، أحس أننى في ظلام، أن غمامة من الجهل وسواد الروح تحط علىّ، أبكى وحدى أو أخافت بالبكاء حتى لا يسمعنى أحد.

قال أبونا تاوفيليس: تشجعْ ياولَيدى وليكن الأمل نبراسك سوف ينبثق نور الله فى نفسك، بمشيئته، طالما أنت تواصل المجاهدات الروحية، نور يكشف لك عن دواخل نفسك، لست وحدك يا ابنى فى هذه المحنة، فحتى موسى النبى صلّى لله: عرّفنى.. حتى أعرفك. وداود النبى يقول: اكشف عن عينى فأبصر

قال أغابيوس: علمنى معرفة الله.

قال تاوفيليس: فليسامحنا الرب جميعاً يا ولَيدى. كيف أعلّمك ما لا أعلمه؟ أنا أحب الله، لكننى لا أعرفه، لأنه غير قابل للمعرفة، ألم يقل بولس الرسول لأهل أثينا، عندما احتدت روحه لكثرة أوثانهم إن عندهم مذبحاً مكتوباً عليه «لإله مجهول» وإنهم يطلبونه ويتلمسونه مع أنه عن كل واحد ليس ببعيد، بل به نحيا، فخرج معه ديونيزيوس الأريوباغى وامرأة اسمها دامرس، وقبلا الكرازة، قل لى يا ولَيدى، ما اسمك؟

- اسمى فى عالم الخطيئة لعازر، أُصلّى أن يكون اسمى أغابيوس.

- لعازر، القائم من الأموات، أغابيوس؟ اسمك المحب، المحب الكامل، ربنا يستجيب لصلاتك يا بنى.

- أبونا تاوفيليس.. أنا أحترق بشهوة معرفة الله

- أعمال الله غير المرئية ترعانا، لماذا يا أغابيوس؟ لأنها غير مرئية. ما من سبيل لمعرفة الله كما تتصور أنك تريد معرفته، الله لم يره أحد قط، هو فينا ونحن فيه. لذلك أنا أعرفه كما يعرف هو نفسه، بقدر ما تسع ذلك قدرتى المحدودة بما أنه هو غير محدود، وأعرف اسمه هو غير المخلوق غير المنبثق من غيره. كل اسم آخر له ليس إلا تزيداً. الله - يا أغابيوس يا وليدى - يتجاوز العقل، فلو أنه مفهوم ومعقول، وقابل للمعرفة في حدود المعقول والمفهوم فهو إذن في نطاق البشرى الإنسانى أى أنه ليس الله.

- نعم يا بونا، ولكنه إذا كان غير قابل للمعرفة لا من خلال العقل ولا من خلال العالم المرئى، فما العلاقة بيننا وبينه إذا لم تكن معرفة ولافهما؟

- أغابيوس أغابيوس الحب هو المعرفة التى تتجاوز كل معرفة. الحب هو أنه فينا، ونحن فيه، بلا انفصال، من غير علاقة ولا ارتباط، بل بأنه هو نحن، ونحن هو.

- أبونا تاوفيليس، سامحنى. مادام أن الله يضئ العالم، ويضئ التاريخ، لأنه جاء متجسداً في التاريخ، فهل هو إذن قابل للمعرفة؟

- يابنى سوف أعود بك إلى ما قاله آباؤنا، إذ وضعوا لنا تفرقة بين نعم ولا، بين الوجود والمعرفة، هذه تفرقة قديمة في فلسفة اليونان، أظن أنها تعود إلى أرسطو، هل تعرفه؟

- نعم يا بونا قرأت عنه شيئاً.

- التفرقة هى بين أن الشئ قائم، نعم، ولكن ما هو الشئ؟ هنا، لا. يابنى لا سبيل للمعرفة إلا بالحب والتوحد، كما قلت. وهو مصداق ما

قال به كيرلس الأورشليمي: «في أمور الله، الاعتراف بالأغنوصية، يعني باللامعرفة، هو نفسه الغنوصية يعني المعرفة الكبرى»

أى يابونا، أعرف هذا ولكني أتحرق إلى الفهم.

- سوف أحيلك يا بني إلى حركة الفهم نفسها، هي حركة تبدأ بلحظة التأكيد والإيجاب، الله كائن. ثم تأتي لحظة النفي أو الإبعاد: إن الله كائن ولكنه على غير هيئة وعلى غير شكل، لأنه غير مخلوق، غير نابعٍ من غيره، وأخيراً تأتي لحظة التسامي والتجاوز: أنني أعي أن الله كائن، أنه هو ما هو، كيان لا محدود، أى في هيئة غير القابل للفهم، ياوليدى أقوال الآباء قد تنير لنا الطريق، بمشيئة الرب، أو قد تعمى علينا، لأننا ضعاف ومحدودون، اسمع يا أغابيوس ما قال القديس توماس الأكويني: «نعرف أن الله كائن، ولكن لا نعرف كيف، ولا ما هو» ولذلك فنحن إذ نتحد به فإنما نتحد بما هو غير معروف. وبذلك يؤكد القديس توماس الأكويني الخطوة الثانية من حركة السعي إلى معرفة الله: كما أوضحتها لك منذ قليل: أنه مغاير تماماً وإطلاقاً لكل ما نعرف عن هذا العالم مادياً أو روحياً لهذا قال أشعيا النبي: «حقاً أنت إله محتجب». كل ما يبقى في أذهاننا يابني، أنه هو، أنه كائن، لا شئ أكثر من ذلك.

- نعم يا أبي، لكنني أحاول حتى الآن أن أدرك الخطوة الأخيرة في حركة السعي إلى المعرفة. أتصور أننا ننزع عنه الكينونة نفسها عندما نقول إنه غير قابل للمعرفة، وهنا يبقى العقل في ظلمة الجهل، ظلمة عدم إمكان المعرفة،

- يابني في هذا الجهل الكامل بالله نتحد بالله، طالما كنا في هذا العالم، هذه هي الظلمة التي يحتجب فيها.

- نعم الآن أدرك أنه عندما تستنفد كل إمكانيات الكلمات، أليست الكلمات هي سبيل الفهم يا أبي؟ فإن الإنسان يبحث في كل وقائع

الحياة، في كل إشعاعات هذا العالم، حتى تندمج كلها، كلها، في ظلمة واحدة هي نفسها النور النهائي الذى لا يمكن القربى منه.

قال أبونا تاوفيليس، بنبرة فيها حزن لا يتصور وفيها تسليمٌ كامل:

- الظلمة، الصمت، هذه اللغة هي لغة المحبة، لغة التوحد.

أبونا تاوفيلس استطرد يشرح أفكاره وتأملاته:

- يابني ليست معرفة الله نتاج تأمل فلسفي، بل المعرفة هنا هى الفعل، هى الاعتراف بالله قوةً فاعلة مؤثرةً، قوةً جبارة، موجودة ليس على المستوى الميتافيزيقي فقط، بل على المستوى التاريخى أساساً، قوة موجودة تاريخيا في شخص يسوع المسيح، عاش بيننا، عرف الموت، بالناسوت، على الصليب، وقام في اليوم التالى، وصعد الجسد الإلهى إلى السماء، قوة موجودة لكى تخلصنا، ولكى تديننا.

- يا أبى عقيدتنا الأرثوذكسية أن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة ولا طرفة عين.

- ألم أقل لك إن الحب - الإيمان - التوحد هو السبيل الوحيد للمعرفة، ومن هنا فإنه لا يهم - فلسفيا - أن يكون الله. الكينونة مفهوم يتضمن التحديد والمحدودية، المناط أن يوجد الله - وهو موجود.

- هو موجود يا أبى، نعم، لكن ما معنى أنه موجود في التاريخ؟

- ليس ذلك بمعنى التأريخ، فقط، بل بمعنى القوة الفاعلة المؤثرة في حياة الناس بارتباطهم به، بتوحدهم به، وبهذا المعنى هو فاعلٌ ومؤثر وموجودٌ معنا في التاريخ.

- أبى، هل يمكن أن نقول أن العالم إذن، شفافية نعرف فيها وجه الله، إذا كان بمقدورنا أن نعرفه على الإطلاق؟ وأن العالم ليس مادة كثيفة مصمتة؟

- لهذا يا بنى قالوا إن العالم ليس إلهياً، لكنه قُدسى، لأنه خلْق الله، وبهذا المعنى أيضاً قالوا «الله عمانويل» يعنى «الله معنا». يابنى

هو الذى أوحى إلينا «أنا باعتبارى أنا كائن سأكون هناك» ehyeh'ser ahyeh «الذى أنا هو سأصير هو».

عندئذ انشق سقف القلاية المعتمة، أضاءت بنور كنور النهار ساطعا غير محرق، مشعاً شاملاً غير حارٍ.

عندئذ نهضا وتمنطقا ورفعا أيديهما إلى السماء، وباركا الله، وبدت لهما السماء، من فتحة السقف، زرقاء ناصعة الزرقة تتوهج كالبلور.

وسرعان ما هبطت عليهما خفافيش ضئيلة جداً وقوية الأجنحة. تصيئ وتزقو بصرخات ثاقبة رديئة، بعضها يكاد يسقط على وجه أغابيوس، بعضها يكاد يتشبث بثيابه- كان مازال يلبس الجلابية الزرقاء التى يرتديها طالبو الرهبنة - لكنها تحوم حول أبونا تاوفيليس، صارخة، دون أن تقترب منه.

وعندئذ نزل ملاك الرب إلى القلاية وبيده سيف من نار يحوطهما به ويطرد عنهما الشياطين الصغار التى ظلت تصيح وتخفق بأجنحتها الجلدية السوداء التى يغطيها الشعر الكثيف.

كان أبونا تاوفيليس يتلو صلاة هامسة توشك أن تكون صامتة، من غير أدنى وجل، فتنبثق من فمه عند كل آية شعلة ملتهبة تستحيل لساناً من النار تحرق شياطين الشكوك والهواجس والتساؤلات.

ثم انطبق شق السقف على نفسه، وعادت القلاية صامتة، خاوية إلا منهما، بنورها نصف المعتم، شعلة القنديل الثابتة تصعد من فتيلته لا تهزها نسمة.

قال لعازر - أغابيوس بصوت خفيض ومتضرع:

- أبى سامحنى مرةً أخرى. اسمح لى بسؤال لا يأتى عن إنكارٍ أو رفضٍ بل عن محبة.

- أسئلة المحبة مغفور لها باستمرار

- الله هو الأول، غير المنبثق من غيره، هُوَ - هُو، مقابل لا شئ، هو مقابل العدم، صنع الأرض والسماء والأفلاك والنجوم، سطوته على العالم، على كل القوى فى العالم الطبيعى وفى العالم الروحى، على أقدار الناس ومصائرهم - سطوة كاملة، لا مشاركة فيها. هذا كله صحيح وقائم، فكيف نفهم قوة الشيطان، والحيَة التى أغوت حواء وآدم وأخرجتهما من الجنة؟ كيف نفهم الشرّ، والظلم، والخيانة، والخطايا؟

قال أبونا تاوفيليس، وقد تسلل الرهق إلى صوته:

- لا نفهمها يابنى يا أغابيوس، لا نفهمها. لا يمكن أن نفهمها، مهما قال الفقهاء من تبريرات، فى مقابل ذلك فقط نُحبَ. وحدها المحبة هى الأمينة، المحبة والإيمان، لأن المحبة هى معرفة فاعلة وقادرة. أما الرفض والإنكار أياً كانت أسبابه ومبرراته، إن كانت له مبررات، فليس إلا تخلياً وتنحياً وفراراً.

قال لعازر - أغابيوس، بإلحاحٍ وحُرقة: « يا أبى قالوا إنه إذا لم يكن الله فكل شئ مباح. أبى، أليس كل شئ مباحاً على مستوى المظالم والألم والشرّ الكونى، موت الأطفال، عذاب الأبرياء؟»

قال تاوفيليس: « ألم أقل لك يا وليدى أن ذلك غير قابل للفهم أيضاً؟ أما على المستوى الأخلاقى الأرضى إذا صح القول، فإن وجود الله هو عند الناس وجود الثواب والعقاب، ووجود الجنة والنار.»

- أبى أليس ملكوت الله هنا والآن؟ أليس ملكوت الله فينا؟

- أنت الذى سوف تكون «أغابيوس» تسأل؟ .... المحبة

المحبة وحدها هى الإجابة، كما نظل نقول، ونفعل أيضاً فيما أرجو. هى والإيمان.

- هذا أسلّم به، طواعية، منذ البداية. هل ذلك يتناقض مع المعرفة؟ هذا سؤال يمضنى.

سيف الملاك الملتهب يحرس شجرة المعرفة معرفة الخير والشر، معرفة الضعف والقوة، معرفة المرأة والرجل، معرفة الموت، معرفة جسم الموت الرازح الثقيل، معرفة وجع المخاض وبهجة الميلاد والكد على الأرض، بينما كان آدم، قبل المعرفة، ينادى الوحوش بأسمائها، وهو الذى سمى كل شئ فيما كان بعيداً عن كل معرفة، وإذا بشجرة المعرفة - وحدها - هى شجرة الموت، للمعرفة ثمن فادح هو الوعى، هو السقوط. ولكن الثمرة المحرمة للمعرفة هي التى كشفت للإنسان عن إنسانيته، مجدها الإنسانى وسوأتها الإنسانية معاً، ألم الموت وشبق الحياة معاً. تلك أيام الإنسان السبعة، أيام الحزن والوجع، أيام النشوة والشهوة، واستحالة العرفان، فهل فى المحبة أيضاً استحالة؟ أما اليوم الثامن فهو بدء الخلود، هو بدء انتهاء الوجود.

- يابنى، لن أمل من أن أعود بك إلى جذر المسألة، غنوصية المحبة عرفان كامل يتجاوز كل معرفة.

- هل معنى ذلك أنه لا معرفة حقيقية أبداً إلا بفعل الحب، فى الاتحاد مع المجهول.

- نعم، نعم، نعم ياوليدى. إذا كان القديس توماس الأكوينى كما قلت لك يحاول أن يتبع منهج العقل الأرسطى فيصل إلى ما هو غير قابل للعقل، فإن القديس أوغسطين كان قد عرف أفلوطين، وعرف أن المعرفة لن تأتى إلا بالفيض الإلهى. عندما يغرقك الفيض الإلهى، يغمرك، يذيبك، يسحقك كما تغمر الموجة الهائلة قطرة ماء، عندئذ فقط تتحقق المعرفة، وتسقط أنت الذى تتساءل بحيرة أو بغباء، تسقط فى الظلمة الشاملة التى هى نور المعرفة.

- نعم يابونا، فهل الحب وحده هو المعرفة.. ولكن الإيمان؟

- حتى نصل إلى الواحة لا مفر أن تجتاز محنة الصحراء.

- أبى.. الصحراء لا حدود لها لا نهاية لها

- يابني. فلتحب، فلتؤمن. هذا يابني هو جوهر القداس الإلهى الذى فيه نتحد بالرب - محور القداس - نتناول جسده ودمه الأقدسين ويسرى فينا روحه القدوس وتنسكب في داخلنا نعمته الإلهية، جوهر اللتورجيا هو محبة الله حتى التوحد به. اذهب الآن يا لعازر - أغابيوس. أنا متعب،، أريد أن أصلى، أذهب وليباركك الرب.

ذهب، غادر القلاية مثقل القلب وممتلئا نعمة في وقت واحد.

لكن لعازر لم يغادر أغابيوس قط ●

الفصل الثالث عشر
أحداث أباهور

حدث ذلك كله في زمان بعيد

مضى ، أم هو آتٍ ؟

أم هو في كل زمان ؟

كان لعازر سلوانس قد عاد إلى أخميم من مصر ، في المسامحة الصيفية لمدرسة الزراعة العليا ، وكان في طريقة لزيارة بنت عمه منَة زكرى في أباهور .

في الصيف كان يخلع اللبس الأفرنجي ويعود إلى الجلابية الكتّان الغالية الفضفاضة ، تقويرتها المدوّرة ، مفتوحة عن شق يصل إلى منتصف الصدر ، فتحة ملمومة لا يبين منها بالكاد قميصه البوبلين من غير ياقة ، ولكنه يحتفظ بالطربوش العالي والجزمة البُنّي الـمُحْمَرَة المتينة .

كان يحاذر أن يمس طرف الجلابية تراب الحارة وبقايا روث البهائم ، وكان أذان ظُهر الجمعة يتردد في البلدة اللاهثة الخامدة تحت وطأة الحر .

دقَ على الباب الكبير المعمول من خشب الجوز ويعلوه إفريز منحوت بأشكال أوراق وأغصان الكروم وعناقيد العنب وقد كَساها تراب السنوات الطوال وغار في داخل نقوشها فاسودّت تقريباً بينما ظل سطحها الخارجي على لون خشب الجوز الداكن القديم .

توتر الحبل الذي يشدّ السقاطة من الداخل فارتفعت ، وجاءه الردّ من منَة : ادخل يا لعازر .

دفع لعازر الباب بشيءٍ من الجهد ، وعندما دخل ردّه إلى مكانه فانزلقت السقاطة إلى مقرها المحفور عَبْر الباب والحائط ، وهبّت عليه أنفاس رطبة من حوش الدار ، وجاءه لغط الحياة الداخلية ، مسعودة تثرثر

بصوت ثاقب فتيّ وهي تدق في الهُون النحاسيّ وللدقات المتوالية العنيفة رنين وصدى، مارينا الصغيرة لما تكد تبارح طفولتها، تلعب على المرجيحة لوحدها، تغنّي لنفسها بصوت خفيض وهي ترتفع وتنخفض، ومن الزريبة الملاصقة للبيت يأتي صوت نزح روث البهائم من تحت سيقانها، حمّاد النجعي يقول أشياء غير مستبينة بصوت أجش لصبيان الزريبة، منة فوق، البنت البكر الصغيرة مع أختها فوتنة العروس الجديدة، تأتي من غرفتها العلوية المفتوحة غمغمة نسائية.

أما سامي أفندي فقد كان في غرفته البحرية في الدور العلوي التي تطلّ على الحوش، هو أيضاً عاد من المسامحة الصيفية من مدرسة الطبّ في القصر العيني، والمفروض أن لعازر قد جاء لزيارته والحقّ أنه إنما يسعى لرؤية منّة، فإن ساعده الحظ فلعله يختلي بها لحظات أو ساعات فهي بنت ابن عم أبيه، ويقول لها باختصار «يابنت عمي» وقد حفيت أقدام ابن عمها صموئيل أفندي الموظف المعتبر في المركز جرياً وراء خطبتها ولكن يحول دون ذلك تردد أمها -الست أنجيل أم فيليب الذي أصبح كاهن كنيسة أباهور باسم فيليبوس، بينما زكري أفندي أبوها وهو عميد الخرّازين قد رضي «من حيث المبدأ» كما قال.

بعد قليل وصل مرقص أفندي ليعود مع عروسته فوتنة من بيت أبيها إلى بيته في أخميم آخر النهار.

في ذلك الظهر الحزين كان البدن المثقوب بآثار خمسة جروح قد استكان إلى حضن مادونا جميلة رقيقة حانية وعلى رغم الشجن تبتسم للبدن المستلقي على حجرها ابتسامة صغيرة لا تكاد تبين.

تدور بحقويه خرقة بيضاء كبيرة معقودة بين فخذيه، تتدلى أطراف عَقْدتها على ساقيه المنحرفتين الضاويتين، تجمدت على القدمين قطرات دم جافة مدوّرة كحبات عقيقٍ منطفئ وينز من خاصرته ندىً مصفرّ له رائحة الخلّ النفاذ، مغمض العينين تحت رأسٍ مدرّع بخوذة

نحاسية لها واجهة سميكة من البلاستيك تحز أطرافها الحادة في لحم وركي المادونا المضمومتين اللتين تحملان البدن المسجي. تظل أنفاسه القوية تتردد وتغبش واجهة الخوذة البلاستيك من الداخل ببخار سرعان ما يتطاير في الحر الظليل. كان غائر العينين في المحجرين العميقين وعندما فتح عينيه من وراء البلاستيك كان في نظرته حزن العالم كله وفيها أيضاً بشكل غير مفهوم يقين عميق بالفرح.

أما المادونا فقد انسدل شعرها الكثيف على جانب وجهها وعندما انحنت عليه غطت غدائر شعرها المسترسلة خاصرة البدن الجريح، وبلغت أعلى الساقين المفرودتين ومدت يدها فمسدت، برفق، العظام المكلومة، بينما دموعها تبلل قدميه.

ثم وقعت الواقعة

استطارت في أباهور صيحة واحدة :

- الخواجا زكري منقريوس يبني كنيسة.

تلاميذ المدرسة الابتدائية وبينهم غرباء لم يرهم أحد من قبل، أطلقوا لحاهم وحفوا شواربهم واعتمروا طواقي صغيرة مخرمة وتحت جلاليبهم القصيرة سراويل بيضاء ضيقة، خرجوا من صلاة الجمعة، ارتفعت صيحاتهم بمرح ورعونة وبصرامة وجهامة، لفح وقدة الظهر يحمي دماء العيال الذين ظهرت في أيديهم فجأة كرات من الخرق المغموسة بجاز وفياسكات وصفايح صغيرة يترجرج فيها الكيروسين.

عندما سقطت أولى كرات النار على مخزن زكري أفندي وقد انكسر بابه تحت ضغط الجموع التي يتهيجها الفرح والمغامرة والتمرد وما يشبه التفاني في الإيمان، اشتعلت شوالات قش الأرز وتوهجت الشعاليل واندفعت ألسنة النار، تتأجج ولها دخان كثيف، إلى الحارة ثم إلى البيوت.

الجدران المبنية من الطوب اللبن على عوارض خشبية متقاطعة وأفقية

والمسقوفة بسطوح عليها أقراص الجلة وحزم حطب القطن وأعواد الذرة وجريد النخل سرعان ما التقطت اللهب وتفجرت دقدقات سقوط الأحجار على البيوت وقعقعات تكسير زجاجات الجاز على الأبواب.

خرج عم دميان العجوز - جار زكرى أفندى - وأولاده لوقا وجبرائيل وسوريال، وفى أيديهم صفائح الماء يطشون بها بيت الشيخ محمود ياسين جارهم من الناحية الأخرى، وانطلق من بيت الشيخ محمود رجاله حسين وعلى وشعبان وعوضين يحملون بنادقهم ويقفون على باب زكرى أفندى، يوجهونها نحو جماعة صغيرة من العيال كانوا مندفعين إلى الباب فارتدوا، أولاد الشيخ محمود يصرخون فى العيال: «ارجع ياواد، ارجع من هوتيك لاطخك» بينما العيال يردون: «اضربوا الواد الكافر بن الفرطوس... ودروا الجبطى المنحوس... اشمل يا نصرانى... غور من جدامى الساعة دى.. ملحة فى عين اللى ما يصلى ع النبى..»

- طب مش مصلى عليه عاد جولى عتعمل ايه؟

البندقية الطويلة على كتفه منذرة الشكل

- صلى عليه يعنى ترحم يا راجل. موسى نبى عيسى نبى محمد نبى وكل اللى له نبى يصلى عليه.

- يسوع الرب الحى

- «لو دخلتك يا مصر فاتحاً لجعلت من شعور النصارى حبالاً ومن جلودهم نعالاً»..

التهمت النار بيت الست عطيات إبراهيم محمد وبيت عم بنيامين يواقيم فى وقت واحد، خرج عم بولس مترى وأولاده حفاة من غير لبدة ولا عمامة يكافحون النار، وبناته وامرأته يوليانا مكشوفات الرؤوس رمين الطرح السوداء على أكتافهن كيفما جاءت وفى جريهن خارج الحارة السد دخلن إلى حارة مفتوحة سالكة، كان باب الحاج سيد

الفضلى مواربا بالكاد، أولاده على الباب بالبنادق والشوم يدفعون عنه الغوغاء. اندفع الهاربون إلى داخل البيت. الحاجة علية أم عفيفى أخذت الست يوليانا بالحضن، وسقت البنات كوز ماء.

- ربعى ياختى.. ربعى يا ضناى حصل خير والنبى. طيب وحياة العضم فى التربة لتربعى وتكنى عاد. والله الجرمين دول ما يجدروا يزعولوكى دول ما يسوا ميلم فى سوج الرجال. والله اللى اندعنوا ماتوا صحيح. بسم الله الرحمن الرحيم أهم غاروا، هبجوا بعيد دلوكيتى، جاهم سنة غم.

وعندما تصاعد أذان العصر فوق صخب الحريق وعربدة التدمير قامت الحاجة علية أم عفيفى توضأت داخل البيت، فرشت سجادتها الصغيرة، اتجهت للقبلة وصلت العصر، بينما ركعت الست يوليانا وبناتها فى الجانب الشرقى من الحجرة إلى جوارها، رشمن علامة الصليب على جباههن وصدورهن وقلن بصوت خفيض «أبانا الذى...» وتلون قانون الإيمان «نؤمن بإله واحد الله ضابط الكل...».

ارتد حاملو الفؤوس والمعاول وزجاجات الجاز عن بيت الشيخ سيد وانحرفوا إلى البيت المغلق الذى بعده ببيتين، انقضوا على الباب فانهار، نزعوا النوافذ وعروق الخشب وكوموها على الأرض فى نشوة التخريب وصبوا عليها الجاز، هبت النار فجأة قانية متطايرة الألسنة أطرافها لا تكاد تبين فى نور النهار، بين أعمدة دخان أسود كثيف.

جاءت صيحات من الناحية الأخرى: «الجامع ياولاد.. الجامع بيتحرج. حرجوه الكفار ولاد الفرطوس».

الجماعة القليلة تضخمت فجأة وإذا بهتاف صاخب يتردد ويرتفع:

«لا إله إلا الله الأقباط أعداء الله»

كان الدخان يتصاعد كثيفا من تحت باب الجامع، وألسنة النار تلعق سقف الخشب البغدادلى القديم المشغول فتسقط عوارضه بقرقعة مدوية

يزيد من اشتعالها احتراق السجاد وانبثاق رائحة شياط الخشب مع رائحة احتراق الصوف. وسرعان ما انطفأت النار، وحدها، ولم يبق إلا أعمدة الدخان.

«النيابة التى حققت الحادث وجّهت إلى الفراش تهمة الإهمال بناء على تقرير المعمل الجنائى الذى أكد أن النار انبعثت من أحد البطاريتين الجافتين وذلك بسقوط جسم أو سلك عليها سبّب انبعاث شرارات كهربائية، أمسكت ببقايا علب زيت البوية وكانت هناك زجاجة بقايا مادة تانر القابلة للاشتعال...» (المصور..)

قال أحمد عبد العال، مزارع، إنه بتعاون المسلمين والأقباط واعتمادهم على مضخة المياه الوحيدة التى يمتلكها وتقع فى أرض زراعية بجوار الكنيسة، نجحوا فى إطفاء الحريق فى فترة لا تتجاوز ١٥ دقيقة.

«ذكرت إحدى الصحف أن بعض المسلمين تعرضوا لأسلحة نارية والضرب على يد أسرة مسيحية بحجة أن أحد أبناء هذه الأسرة قد ضُرب. أما بقيَة الأحداث فيكاد يأبى القلم تدوينها كإلقاء البعض بامرأة من منزلها من ارتفاع ١٠ أمتار، وقفز ابنتها من نفس الارتفاع خوفاً على نفسها من هجوم المهاجمين وكإجبار بعض الأقباط على عدم ارتداء الصليب وعلى خلع الصليب بالقوة» (الأهالى)

بعد ثلاث ساعات وصل وابور الحريق الأحمر، بصهريجه المدوّر الكبير الممتلئ بالماء، جرسه يصلصل عبر الشوارع والحارات التى خلَتْ فجأة من جموع الصبية والرجال الغرباء ولم يعد فى أباهور إلا حفنات من الرجال يحاولون إطفاء النيران التى أمسكت بجدران البيوت وقد أخذت تنهار بدوىً مكتوم ويصعد عنها غبار كثيف لا يكاد يخمد ألسنة النار لحظة حتى تعود الشعاليل فتنفجر من جديد وهى تطقطق

وتنفث فحيحاً وتنبعث عنها روائح مختلطة نفاذه من احتراق اللحم البشرى والحيوانى وتصدر عنها صرخات لا تكاد تطاق من فرط الألم، وخوار البهائم الحيــــة بين الأنقاض المحترقة. مع شياط قش الأرز ولفح حريق شوالات البصل اللاذعة.

مدّ وابور الحريق خراطيمة القليلة بينما وقف صفٌ طويل من الرجال يتناوبون إلقاء الماء من الصفائح والجرار والزلع، واحداً بعد الآخر، من أول شط الترعة حتى أول حارة القبة.

«بدأ الرجال يواجهون النار التى بلغت أشدها واندفع ضابط المطافئ عدلي باسيليوس يحاول وقف النيران إلا أنه اختنق وهوى على رأسه عمود خشب فخر مغشياً عليه لولا أن أحد زملائه حمله خارج محيط النار. وجاءت الإسعاف فحملته إلى المستشفى العام» (المصور..)

في وسط المحرقة قام أبونا فيليبوس فى الهيكل أمام المذبح وصلى، وحده، وقد ابتعدت ضجة التخريب وصيحات العربدة الوحشية. وعندئذ رأى يد المسيح تمسح معه المذبح، يده ترتفع من تحت الأسباديقون، مازالت ندبة الجرح العميق غائرة سوداء جافة تخترقها من ظهر الكف نافذة إلى بطنها، لكنها مشعة بهالة لم يكد يطيق أن ينظر إليها، سقط أبونا فيليبوس على وجهه خائفاً، وفى التوّ جاء أحد ملائكة الشاروبيم وجهه يضئ كالشمع وجناحاه يرفرفان ويملآن الهيكل بسلام عظيم، أقامه الملاك على قدميه وأزال عنه الخوف.

لم يصل الحريق إلى الكنيسة العتيقة، بقيت جدرانها التاريخية قائمة.

«وصلت قوة بقيادة مفتش المباحث وضابط من البحث الجنائى والصاغ محمد عبد المنعم الذى اتجه في سيارته إلى قبلى البلد وفاجأ الصبية وهم يندفعون إلى الداخل فاندفع خلفهم مع

رجاله، قفز الشاب الذى كان معه وعاء الكيروسين ثم ألقاه، لكن بعد أن انسكب بعضه على ملابسه، قفز الشاب داخل ثغرة في مبنى بجوار الكنيسة فإذا به داخل شقة سكنية، وثب الضابط خلفه وقبض عليه وتبعه رجاله، كان المهاجمون ثلاثة كلهم دون العشرين، أحدهم عاطل، والثاني عتال على سيارة نقل والثالث عربجي، وقد اعترفوا أمام النيابة بأنهم هجموا للبحث عن شئ ثمين يمكن أن يستولوا عليه لا أكثر ولا أقل»

(المصور)

«وفى سنة عشرين وسبعمائة... فى يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الآخر... وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة والعمل على الحفر بطَال، فتجمع عدد من غوغاء العامة بغير مرسوم السلطان وقالوا بصوت عالٍ الله أكبر ووضعوا أيديهم بالمساحى ونحوها فى كنيسة الزهرى وهدموها حتى صارت كوماً، وقتلوا من كان فيها من النصارى وأخذوا جميع ما كان فيها وهدموا كنيسة بومنا التى كانت بالحمراء. وكانت معظمة عند النصارى من قديم الزمان وبها عدة من النصارى قد انقطعوا فيها ويحمل إليها نصارى مصر سائر ما يُحتاج إليه ويبعث إليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة فوجد فيها مال كثير ما بين نقدٍ ومصاغ وغيره وتسلق العامة إلى أعلاها وفتحوا أبوابها وأخذوا منها مالاً وقماشاً وجرار خمر، فكان أمراً مهولاً، ثم مضوا من كنيسة الحمراء بعدما هدموها إلى كنيستين بجوار السبع سقايات تُعرف إحداهما بكنيسة البنات كان يسكنها بنات النصارى وعدةٌ من الرهبان فكسروا أبواب الكنيستين وسبَوا البنات وكنّ زيادة على ستين بنتاً، وأخذوا ما عليهن من الثياب ونهبوا سائر ما ظفروا به وحرّقوا وهدموا تلك الكنائس كلها...»

أمر السلطان بتدارك هذا الخلل

«وإذا بخبر قد ورد من القاهرة: أن العامة ثارت فى القاهرة وخربت كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة وجاء الخبر . . . بأن العامة قامت بمصر فى جمع كثير جداً وزحفت إلى كنيسة المعلقة بقصر الشمع فأغلقها النصارى وهم محصورون بها وهى على أن تؤخذ، فتزايد غضب السلطان . . . وأمر بقتل من قدروا عليه من العامة . . . وفرت النهابة فلم يظفر الأمراء منهم إلا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر».

(فى الإسكندرية وجدت أربع كنائس أكواما، فى دمنهور هدمت كنيستان، وفى قوص ست كنائس)

«وتواتر الخبر من الوجه القبلى والوجه البحرى بكثرة ما هدم فى هذا اليوم من وقت صلاة الجمعة وما بعدها من الكنائس والأديرة فى جميع إقليم مصر كله، ما بين قوص والإسكندرية ودمياط فاشتد حنق السلطان».

ويتابع تقى الدين أبو العباس أحمد بن على المقريزى وقعة الحرائق المتبادلة والنهب والقتل وقطع الرقاب والأيادى وقيامة العامة على النصارى وردود النصارى الذين يعملون النفط ويشعلون الحرائق.

«وخرج مرسوم بلبس النصارى العمامة الزرقاء وأن لا يركب أحد منهم فرساً ولا بغلا ومن ركب حماراً فليركبه مقلوباً. ولا يدخل نصرانى الحمام إلا وفى عنقه جرس ولا يتزيا أحد منهم بزى المسلمين ومنع الأفراد من استخدام النصارى . . . وكثر إيقاع المسلمين بالنصارى حتى تركوا السعى فى الطرقات وأسلم منهم جماعة كبيرة»

كان ذلك فى الزمان القديم، وكان الظُّلم يقع على الجميع، فإذا ثار العامة والغوغاء فلأنهم مسحوقون تحت نير الأمراء والسلاطين وسائر الوُلاة والحاكمين، كباراً وصغاراً، فلا يعلّمنا أحدٌ من المتفيقهين أن نسيج مصر واحدٌ وعضوى، ذلك بديهىٌ وصحيح، ولكن لا تهوين هناك كما أنه لا تهويل- فى تباريح الوقائع وتواريخ الأحداث.

لم تتوقف دقات الطاحونة فى غرب البلد بل ظلت تخبط السماء برتابة وانتظام، بصدمة وراء صدمة دون مبالاة، بينما أباهور تحترق. كان مسيحة الميكانيكى قد أغلق بابها على نفسه ولبد فى عتمتها الداخلية، خفت ضجيج التخريب وفحيح النيران وطلقات الرصاص المتناثرة، لكنه لم يطفئ موتور الطاحونة، كأنما يستمد منه قوة وأنسا أو مقدرة على البقاء حيا.

دخل لعازر البيوت التى تحترق، حمل الأطفال والجرحى سواء كان يعرفهم أو لا يعرفهم: احمل معى يا عبد القادر ياخوى، احمل معى ربنا يخليك يا عبد المقصود.

ونفذ من تحت عوارض الخشب التى أمسكت بها الشعل وهاجمته سحب الدخان السوداء العطنة ونشق ريحها الخانق وتلوثت جلابيته الكتان الغالية برماد المحبة.

قال: «قبطى دينا مسلم وطنا» قولة مكرم عبيد الشهيرة، لا، بل مصرى وطنا ودينا على السواء أيا كانت ملتى واعتقادى.

قال: نحن، مع كل أولاد الوطن، نحفظ روحه ونحفظ حساباته معا: نحفر أرضه معا، ونعيش ونموت عليها معا، بلا انفصال ولا فرقة.

أهذا كله حدث فى زمان بعيد؟

كيف حدث؟

ماذا حدث؟

الإخوة لا فصل بينهم

كحبة القلب الخصيبة يريد أصحاب الأرواح المغلقة أن يشقوها.

لن تنشق، حتى لو انشعبت فيها، تحت وطأة الضيق، شروخ محرقة.

تحريرا فى ٢٣ اغسطس ١٩٤١

حضرة المحترم عمنا الخواجا قلدس قلادة الأكرم

بعد الاحترام والعشم أن تكونوا بصحة جيدة وبعد يبلغنا أن حالة الإسكندرية هادية ولم نعرف عما إذا كان هذا الخبر صحيح أم لا فعليه أرجو بوصوله التكرم علينا بالرد بالحالة طرفكم هل فى غارات أو الحالة هادية كما يشاع. ويفادنا سعر البيض بالحقيقة ربما دعت الحالة لإرسال شوية بيض رسمكم. سلامى لشخصكم المحبوب ومن خصوص نجلكم بالأمس تقابلنا معه وهو وجميع أفراد العائلة بخير يهدونكم السلام ولا يكون عندكم أى فكر بخصوصهم. ختاماً تجدونا منتظرين الردّ منكم بإفادتنا عن الحالة طرفكم بالحقيقة ختاماً تجدونا مستعدين لأى خدمة تلزمكم وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

بلغ سلامى لعمنا المعلم سالم ودمتم

أخيكم المخلص

رفلة يعقوب بأخميم

عزيزتى المصونة المحبوبة

أرسل اليك قبلات حارة وأشواق عزيزة جداً أرانى الله وجناتك الحلوين بخير مع الأنجال الأعزاَ اليوم وصلنى جوابكم وفيه تطمنت على غالى صحتكم، وبعد فأعرفك يا سيدتى العزيزة بأن بعدما عزمت على الحضور لطرفكم وعرفتكم فأفيدكم اليوم بأنه من يوم الاثنين الماضى وحضرة المعلم سالم مريض وملازم الفراش بالمنزل ولذلك لا يمكننى ترك المحل والحضور فقد عدلت وتتبع مشورتك الأولى وهى نوفر مصاريف السفر وأنتم عمدو غنّن وإيفون مثلما يكون ورأيك هو الصواب واستعدوا للحضور لطرفنا حيث أنى مللت من البعاد عنكم وزاد بى الشوق إليكم بدرجة لا توصف وأرجو أن تعملو ترتيبكم على القيام من طرفكم إن شاء الله بالكثير يوم السبت ٩ سبتمبر القادم،

وعرفونى برجوع البوسته هل تودوا السكنة بالإسكندرية بجهة راغب أو غيط العنب حتى نتفق مع أصحاب المنزل لأن المفتاح مازال بطرفى أو المندرة بالرمل أو المحمودية أو دمنهور حسبما يتراءى لكى وتكونى مرتاحة وربما سهل ربنا وأتحصل لكم على استمارة بتذاكر درجة ثانية وذلك إذا كان يمكنكم الحضور قبل يوم ١٠ سبتمبر ١٩٤١ القادم وكفى تعب لأنى تعبت كثير واستقلت من وجودى بمنزل المعلم طوال هذه المدة مع علمك يا عزيزتى بان الأشيا مبسوطة جداً بفضل الله والخير كثير زايد ومغطى كونى بطمان ومنتظر الرد برجوع البوستة عن موعد الحضور وهل تحضروا لهنا طوالى أو على دمنهور حتى نتفق معاً على رأى. سلامى للأنجال ولشخصك العزيز المكنون المحفوظة بعناية الرب يسوع.

قلدس

الإسكندرية فى ٣سبتمبر ١٩٤١

عزيزتى المحبوبة

أبعث إليكى بكثير أشواقى وأرسل قبلاتى الحارة من صميم القلب والفؤاد وأتعشم أن تكونوا جميعاً فى أحسن صحة وسرور أمس ورد جوابكم وما به علم وقد حررت جواب لولدنا المقدس قيصرسلوانس لكى ينهى لكم مأمورية تنصير ألبير وعرفته الكفاية ولو تتوجهوا للدير فى الصباح البدرى جداً وتخلصوا شغلكم وترجعوا قبل الظهر يعنى توفوا النذر والسلام لكى تعملوا ترتيبكم فى الحضور لدمنهور فى بحر الأسبوع القادم واليوم حررت جواب للأخ ناثان أفندى لكى يجمع لنا سكن بدمنهور بسرعة وان يوفق بسكن كويس وتفضلوا بدمنهور حتى ربنا يصلح الأحوال أما الباشا الكبير فسيكون بمدرسة العباسية ونعمل له أبونيه لدمنهور يحضر فى الصباح ويعود بعد الظهر كباقى التلامذة

والعمال وها أنا فى انتظار جوابكم بموعد القيام لإرسال لكم النقود اللازمة للسفر حسب طلبكم ويلزم بوصول هذا تحررون تخريم آذان عايدة وهناء ولويزة لأنى اشتريت لهم ثلاثة حلقان مع حلق لحضرتك وموجودين بطرفى لحين حضوركم وذلك على أساس أنى كانت عازم على الحضور لطرفكم ولاكن ما حصل فهو الصواب وعدم الحضور خير لا تنسوا إحضار عرقى البلح مثلما عرفتكم ثم نعرفكم بأن الست وديدة وضعت بنت وجميع أهل الطرانة بخير لأن سوريال أفندى حضر أمس فقط وأنا إنشالله يوم السبت أتوجه لدمنهور لأجل أشوف السكن وأدفع الأجرة انشالله يكون ولدنا قد حضر بالسلامة وادى الامتحان علمايرام وربنا يجعله من الناجحين وقادم منه ما يطمنى ، سلامى لجميعكم وأكرر عليكم طلبى الاستعجال بالحضور ختاماً السلام لشخصكم العزيز الغالى.

قلدس

تحريراً فى ٥ سبتمبر ١٩٤١

قيصر وشفيق الخراز، تجار بأخميم

حضرة الفاضل المحترم والدنا الخواجا قلدس

تحية وسلام وشوق واحترام، إنشاء الله تكون بكل صحة وسرور وصلنى خطاب حضرتكم اليوم وتألمت جداً بالنسبة لما جاء فيه من كون أنى زعلان مع امرأة عمى حيث أنه لم يحصل أى شئ بالمرة وفعلاً بعد أن قرأت خطابكم ذهبت للمنزل وتقابلت مع نجلكم والست والدته لكى أعرف ما هو الزعل الذى عرفوك عنه فعرفت منهم أن تقصيرى هذين اليومين عن الذهاب طرفهم فكروا بأنى زعلان ولكن فى الحقيقة عدم ذهابى لسبب مشغوليتى فى موسم القطن.

أما من جهة طلباتهم فإنى على تمام الاستعداد ورهن الإشارة ومستعد

لأى خدمة وإنشاء الله ننفذ لهم جميع ما يطلبوه منى وقد عرفتهم بذلك.

مسألة القش فقد عرفنى قدوس الفرارجى عن شخص فى دمنهور فإذا كنت غير واثق من الراجل الذى أرسلت له أرجو إفادتى حتى نطلب من الراجل صاحب قدوس .

من هنا جميع العائلة بخير يهدوكم السلام ومنى لكم ألف سلام.

ختاما تنازل بقبول عظيم الاحترام

قيصر

(إمضاء)

الخواجا قيصر الذى كان يأتى الإسكندرية كل صيف، فى الثلاثينات، قبل أن نذهب إلى أخميم، وينزل فى فندق «نانا» فى سيدى بشر، وهى التى كانت تحبنى وتحبونى بالشيكولاته وأرفض أن أقبل معاملتى كطفل، وتفهم ذلك منىّ فأحبها أكثر حتى لقيت حتفها قتيلة وعرفت معنى الحزن على غريبة هى الحبيبة.

أما فى أخميم فقد كان يملك محل صاغة وجواهر، يقع بين شونة عم بقطر وأجزاخانة الدكتور ميساك، وكان محله من المزارات التى أحبها جداً، أذهب إليها بعد الضهريات، بعد أن تنكسر حموة الحرّ، مع مصطفى قاسم اسحق، فنلقى ترحيباً خاصاً من الخواجا قيصر الذى كان دائما أنيقاً ومجاملاً وحسن الحديث، طربوشه العالى مكوى وجاف دائماً، وجلابيته الحرير السكروته، المقلّم بخط بنّى رفيع، لا يشف عن قميصه الأفرنجى على جسمه الفارع، يرفّ ويهفّ، وهو دائماً يرتدى حذاءه الأسود اللميّع اللاّستيك.

طراوة محله تأتينا ونحن على بابه، بكل أناقة محتوياته اللامعة الغالية تبرق وتومض فى الفترينات الزجاجية. وكان دائماً يأمر لنا بفتح زجاجتىْ كازوزة «يحيى سعد» يقول عنها مداعباً «أزوزه» وتأتينا

الزجاجة باردة من الماء المروق تحت الزير المندى وفيه قطع الثلج المكسورة من لوحها الأبيض، ونجد عنده أحيانا أعدادا قديمة من مجلة «التوفيق» التى كانت تصدر في الثلاثينيات، ومجلة «الجنس اللطيف» لصاحبتها ملكة سعد.

كان ترحيبه بى يبدو غريبا، فقد كان ثم توتر عائلى بيننا وبينهم وحتى مع عمتى ديماريس وابنها شفيق مترى أندراوس، إذ كنا أول ما وصلنا إلى أخميم نزلنا عندهم فى البيت الكبير ولكن أمى قالت «إكرام الضيف ثلاثة أيام، ونحن قد بقينا فى ضيافتكم أكثر من أسبوع» ولم تهتم أمى بما قالته عمتى من أننا أصحاب بيت ولسنا ضيوفا، ودعانا الخواجا قيصر أن ننزل فى بيته، فلم نبق فيه إلا أياما قلائل، كانت أمى - ولها حق - تريد أن تعيش فى مكان مستقل خاص، هى وقبيلة أولادها، فترجت الخواجا مرقص أن يجد لها مكانا مناسبا للسكنى حتى عثر على الشقة المستقلة فى درب بطة، نصعد لها إلى الدور العلوى مباشرة من باب الشارع، وتطل على الأرض الخراب المعشوشبة بالحلفا والتى تنبثق من أرضها نخلات باسقة، وهى الشقة التى كانت لنا مستقرا وملاذا، فيها ماء جار وكهرباء، وهو ما لم يكن متاحا بعد فى البيوت الكبيرة القديمة، ولذلك كان ثم استياء فى هذه البيوت، لعل فيه أيضا شئ من الارتياح غير المعلن.

فى أغسطس سنة ١٨٨٣، قالت «الأهرام» الغراء عن «بعض إخواننا»

«لقد أصبحنا نجد أصغر القرى فى داخلة القُطر على حالتها الصحية بعد أن كانت مدينتنا مطمحا لأعين الحاسدين. وكنا قبل العلم بظهوره فى أول مرة نتأمل مستقبل البلاد ومصيرها فيطيب منا الخاطر ونتوسم الخير بعد التخلص من عقبات السنة الماضية التى كانت وشيكة النهاية، وراقت الأحوال وأخذت التجارة تنمو والعمارة تتمثل فى الربوع وبدأت

تتحقق الآمال وتمحى آثار الحزن التى رسمتها حوادث الثورة فى صدور ذوى النفوس الطاهرة. إلا أن الدهر الخؤون أبى إلا إعناتنا وتنغيص عيشنا بالكدر وأوقف حركة الأشغال وغلّ الأيدى عن الأعمال»

فهل كان «بعض إخواننا» حزيناً لإخفاق الثورة، أم كان حزينا لأن الثورة أصلاً قد قامت؟ وهل كانت «عقبات السنة الماضية» هى الثورة العرابية أم الاحتلال البريطانى؟

عندما خمدت النيران أخيراً ودخل الليل كانت قطع الحقول بين بيوت أباهور القليلة على حافة البلد تبدو جافة وملوثة وسط الخراب والعفن والحطام، كل شئ يبدو ملوثاً ويزداد مع الظلمة تلوثاً، وكانت أطلال أباهور ماثلة فى الليل، شواهد قبور مائلة لم تعد حيطان بيوت آمنة، الخرابات امتلأت بالأنقاض، الحجارة والطوب اللبن وعوارض الخشب المحترقة وحطام الأثاث وضُلف النوافذ والدواليب ومرايا مكسورة وبقايا الكراسى ونُتف من قطن المراتب والمخدات شاط قماشها وانبعج قطنها الملبَد، كلها أغرقتها المياه التى انداحت على الأرض فى برك آسنة، وفى الجو كله روائح عطنة وحريفة ومختلطة من الدخان ونفثات الجمرات الهامدة ونفح اللحم الحيوانى المحترق.

عندما طلع القمر، مازال مكسوراً غير كامل الاستدارة، سقط نوره الشاحب على غيطان الذرة والفول المتكاثفة، وعلى ضباب خفيف أبيض سيظلّ يغلّف البلد كلها وحقولها، حتى شمس الغد المحرقة.

على حافة الحائط الساقط جنب بيت منَة رأى لعازر، فى الضوء الليلىّ الباهت، زهرة صفراء يانعة منبثقة من بين الشقوق.

كان مشعثاً، على كتفه بندقيته التى لم يطلق منها رصاصة واحدة، وجهه ملطخ بالدخان وفيه آثار حَرْق خفيف، جلابيته الكتان المكوية قد تحولت إلى هدْمة مغضنة علق بها رماد الحريق طرفها التحتانى لم تجفّ عنه المياه ولوثات الوحل المتفشى، دخل بيت زكرى أفندى مع سامى

الذى كان من غير جاكتة، بنطلونه الضيق متهدل راحت طيته التى كانت كالسكين. ينهج، وجهه الممتلئ مندى بالعرق من الحر ولهوجة الجرى والكدّ فى إطفاء الحرائق مثل كل أبناء البلد الأكابر والصغار. سواء بسواء.. وكان مرقص يربط يده المحترقة بالشاش. وقد ظهرت ثغرات الاحتراق في جلابيته الحرير التى تحولت إلى لون مغبر وتمزقت.

بعد رجوعهم من الحريق قعدوا على الشلت، قعدة أهل البلد، بعد شطف الوجوه وتصبينها جيدا وتغيير الهدوم. لعازر ومرقص استلفا جلاليب من سامي. منة وماريا، بأنفسهما، كلتاهما صبت لهما الماء النظيف بالابريق النحاسي الكبير على الطشت.

كانت نظرة منة وهى تقترب بوجهها الفتى ناضج السمرة من وجه لعازر، نظرة لا ترى شيئا خارجها، كل شئ عندها داخلى منصبٌ إلى الطوايا الخفية، وهي مع ذلك كلها هنا، فى الخارج، شيئا مجسما ماديا له وجوده الذاتي المستقل، كأنها ليست من صميم مخلوقات الروح. قال له لعازر بعد ذلك بسنين: يا أخى، عندما قرأت فلسفة باركلى فى مكتبة الدير عرفت ما يعنيه، كل شئ إنما هو من صنعنا، من صنع وعينا، بهذا المعنى أيضا الله كامنٌ فينا، عرفت ذلك من نظرة منة لى يوم حريق أباهور.

لم تصل الهجانة وقوة صغيرة من البوليس بقيادة الصاغ محمد نبيه إلا بعد منتصف الليل. كان نصف القمر المكسور يريق ضوءه الباهت علي أطلال أباهور وحيطانها المهدمة حينما دخلت الهجّانة على جمالها الشاهقة. فى أيدى العساكر السود كرابيج يفرقعونها في صمت البلدة التى استيقظت فجأة بعد همود الأحداث، وبعد أن استكنت وراء الحيطان، خرج شباب البلد إلى الشوارع، فاجأتهم صيحات الهجّانة ولذعات الكرابيج: «ادخل جُوّه.. جُوّه يازول.. ممنوع.. جُوّه البيت انتى وهوّه» دوت طلقات رصاص فى الهواء من طبنجة الصاغ محمد

تبيه لتؤكد أمر الحظر، وبدأ هو وضباطه وعساكره حملة تفتيش واعتقال.

كان لعازر وسامى ومرقص - ومعهم سيدات العائلة وبناتها - قد غادروا أباهور بمجرد همود الأحداث، في أول الليل، عدّوا إلى أخميم، ومعهم مسيحه وروماني، قطعوا شوارع أباهور التي مازال يتصاعد دخان أسود من بعض بيوتها، وعبروا النيل على آخر معدّية.

طافت الهجانة بالبلد على جمالها التي تركت آثار أخفافها الطرّية على تراب شوارع أباهور وحواريها، وقوة البوليس في البوكسفورد المربعة، من قبل شأشأة الفجر، تقتحم البيوت وتأخذ الرجال من على الفرشة في حيشان البيوت، ومن على المساقي في الغيطان، يجرونهم بين صرخات العيال ونظرات الزوجات القاسية، ومن على رؤوس الغيطان حفاةً عُراة السيقان مبلولين من الريّ ومن مياه إطفاء النار، يلزّونهم إلى البوكس، يدفعونهم في ظهورهم ومن أقفيتهم دفعاً مع سيل الشتائم بلا اعتبار لسنّ أحد أو مقام أحد.

صهيل الخيل المدرّعة المكسوة بالزرديات ترمح في الحوارى الضيقة صليل السيوف التي يسلّها العساكر من أحزمتهم الجلدية العريضة التي تمنطقوا بها على أرديتهم الأرجوانية، خوذاتهم النحاسية ينوس فوقها الريش، صيحات باللاتيني البزرميط والقبطي والعربي. فرسان الصحراء في عباءاتهم البيضاء الفضفاضة تطير بها رياح الرمح، في أيديهم الرماح الطويلة والدروع الجلدية السميكة، الناس يجرون أمامهم يتعثرون ويرتطمون بعضهم ببعض، تحت ثقل صلبان من الخشب بوزن الخمسة أرطال تسقط عمائمهم الزرقاء وتتمزق ملابسهم السوداء القاتمة أو الصفراء تدوسهم سنابك الخيل يقعون تحت عجلات الفورد تصطدم بهم أخفاف الجمال المهرولة اذ ترفع سيقانها النحيلة الصلبة تدق العظام، النساء في البرد السوداء السابغة قد انحسرت عن

أكتافهن وانكفأن فى التراب وبقع الدماء ورماد الحريق عربدة القمع عارمة العنف فى مرحها الوحشى وجموح أهوائها الحارة الصرخات والهتفات المبحوحة مازالت حتى الآن تدوى روما دومنى

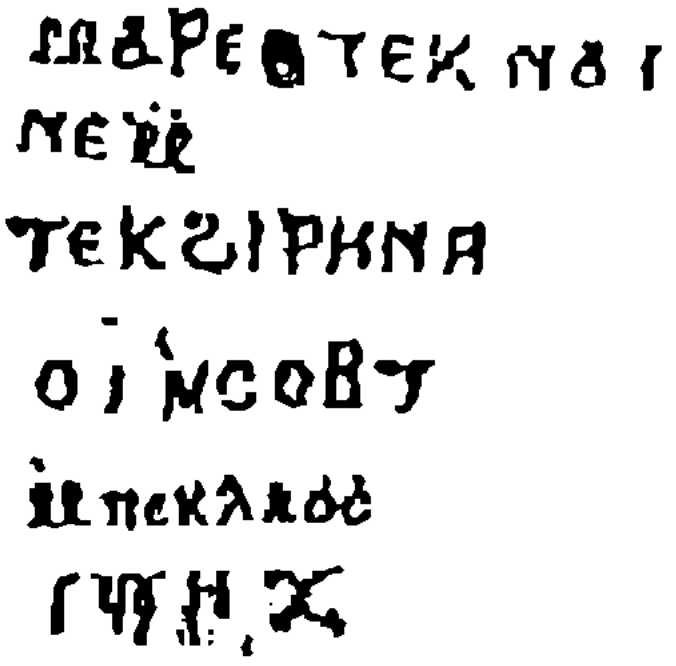

الله غـالب زيوس جلوريا يارب ارحم كيرياليـسون أشهد أن لا إله الا الله يسقط الاستعمار مارى بيك نأى الله أكبر الحق فوق القوة سونى امون أووه ناى نان الأمة فوق الحكومة خلصنا وارحمنا يارب القرآن دستورنا لتكن رحمتك وسلامك حصنا لشعبك إلسوفت إبيك لاؤوس مصر كيمى.

وكان غوغاء الإسكندرية قد انتشوا بإيمانهم الجديد وجاشت أرواحهم غضباً على الوافدين عبدة الأوثان انطلقوا فى جموعهم الحاشدة يهتفون بالقبطى يريدون القضاء على فيلسوفة الأوثان ويحطمون وجه زيوس وجسم سيرابيس وتندفع طلقات التومى جن من سيارات الجيب المفتوحة والإنجليز حُمر الوجوه فى الشورت الكاكى الطويل ينظرون إلى حشود الأهالى فى شارع سعيد نظرةً لا ترى فيهم إلا أرقاماً وكائنات معادية والرصاصة القاتلة تئز بجانب أذنى ويقع الصبى الذى لم يكن يصغرنى إلا بسنة وقد نز الدم من ركن فمه وقنبلة الغاز المسيل للدموع تنفجر فى الناصرة وحجارة الأطفال تنهال على العساكر المدرعين المدججين برشاشات عوزى والرصاص المطاطى ينفذ إلى داخل الأجسام الغضة.

كان جريحاً ينزف، ثابتاً منحوتاً لكنه لم يكن غزالاً مذعوراً ينظر إلى الخلف بل كان فخوراً يقف أمام هجمة الضباع إذ تترصد سقوطه لتنهش الأشلاء التى تنتفض بالحياة. سوف يقوم لعازر من قبره. كانت البرية تدوى بزئير الوحوش المختفية بين الحلفاء والهيش ونبات

الأكانتس الملفوف حول أجساد السباع.

قال سدره جاد الرب: يؤلمني أن الحكومة تخلت عني، أريد حقي من الحكومة بعد أن أحرقوا بيتي وكل ما أملك، وإلا كيف أكون مواطناً في هذا البلد؟

ياسدرة تظل مواطناً لأنك بالضبط لا تأخذ حقك مثلك في ذلك مثل حسين محمود وعلى عبد الموجود وملاك عبد المسيح سواءً بسواء.

قال: دخلوا المنزل حرقوا الفرش سرقوا الأمتعة وتحويشة العمر وماكينة خياطة كانت تساعدنا على المعايش، ونُقلت إلى المستشفى بقي لي مدة شهرين.

«لأن مسئولية الدولة تكمن في جوانب عديدة تتجاوز أهميتها وخطورتها مجرد التعويض المادى.. إنها مسئولية الرسالة التى ينبغى أن يعكسها موقف الدولة فى شجب وتجريم الأحداث التى أدت إلى هذه الواقعة، فلا يقتصر هذا الموقف على بعض التصريحات أو المجاملات وإنما يمتد بفعالية إلى تقديم الضمان والاطمئنان إلى المجنى عليه مع توقيع العقاب والردع على الجانى، كما أن على الدولة مسئولية التعامل مع الأحداث بما يتناسب مع حجمها وخطورتها فلا يتم التقليل من شأنها بدعوى الاعتبارات السياسية أو الأمنية لأن فى ذلك أثراً سلبياً يترسب فى نفوس الجناة بالاستهانة بالسلطة والقانون مما يشجعهم على التمادى فى فعلتهم أو الإقدام على تكرارها، وأخيراً ليس من حق الدولة أن تقبل فى مثل تلك الأحداث أن يتم تسوية الأمور بافتعال مصالحات وهمية لإلباس الأحداث رداء النزاعات الطائفية أو السعى إلى الحصول على تنازلات من المتضررين عن حقوقهم المغتصبة لأن ذلك لا ينبغى أن يغلق ملف القضية بل تظل مسئولية الدولة قائمة فى استرداد حق المجتمع

والنظام والقانون الذى تم اغتصابه». (وطنى)

أما العساكر فلم يكن فى مقدورهم أن يصعدوا إلى العلّية. لم تكن ثم سلالم مبنية تصل إليها، لم يكن مرآها يسيرا أو حتى ممكناً من الشارع. تحت أشجار النخل المتكاثفة ودوحة من شجر الجميز الهائل تظلل حيطان البيوت الملاصقة للبيت الكبير، ومنها بيت أبونا متياس، الذى يقع على تلّ نسطور، حيطان البيوت العالية المبنية بالطوب اللبن متراكبة. طبقة فوق طبقة. سطوح بعضها تطل على البعض الآخر من الداخل لايمكن أن يراها أحد من الشارع. أعواد الحطب والوقيد تغطيها أقمشة سميكة لحست الشمس لونها فغدت كابية رمداء تغطى برانى السمن وصفائح المش والجبن الحادق وزلع العسل الأسود فوهاتها كلها مسدودة سداً محكماً بجواليص الطين الناشف، صوامع الغلال التى لا تفتح فيها ثغرة، من تحت، إلا كل حين ومين.

تقف خيول محمد نبيه أو أجوستوس أوريليوس أو الأمير ايدغمش أو عسكر المأمون بن الرشيد، كيف تصعد إلى هذه التركيبة الحميمة من الحيطان العالية وحيطة الأرواح، كيف يصل إليها فرسان العامرية أو الجنود البونابرتيّة أو العساكر القيصرية؟ العليّة بؤرة البذرة الحصين التى لن ينالها شئ، هل هى منة أم سالومة أم مارينا التى تروى عطش المؤمنين والساعين إلى واحة اليقين بلا وصول، وتمسح سيقانهم بغدائر الشعر الوحف الجميل.

دُعى - وهو العلمانىّ اللادينى، أو الأغنوصى على الأقل، أن يقول كلمة فى اجتماع شباب كنيسة أباهور. كانوا قد رصّوا الكراسى على الأرض المعشوشبة فى باحة الكنيسة الخاوية داخل سورها العتيق، ومازالت بعض الأحجار الرخامية المنقوشة بالخط الهيروغليفى ملقاة إلى جانب حائط الكنيسة؛ كانوا ينظرون إليه بصمت، عيونهم لامعة تتدفق بحيوية يحبسونها ويحوّطون عليها، قال إن التقاليد تجرى بأن

الكنيسة هي جسد المسيح، وهو تصورٌ قد يكون تاريخياً وقد يكون مثالياً، أو ميتافيزيقياً مفهوماً في سياقه الخاص، لكن الكنيسة الآن - في خارج المفهوم العقائدي وفي خارج الطقس الديني، إذا أمكن افتراض هذا جدلاً - هي مجتمع قائم كجزءٍ لا يتجزأ من مجتمع أوسع وأعرض، وعلى هذا المجتمع الصغير أن يستعيد دوراً نهض به على طول التاريخ في مقاومة هجمات استعمارية متلاحقة. فإذا كانت الكنيسة القبطية من أعرق الكنائس بالمعنى التاريخي والاجتماعي ومن أكثرها محافظة على تراثها فعليها أن تعرف كيف تطور نفسها وأن تتجنب ما يترصدها من جمود وتحجر من جراء هذه الصيانة - المحمودة في ذاتها - لتقاليدها.

ولكن الكنيسة ليست هي الممثل السياسي لأقباط مصر، هذا تصور قد يفضي إلى فصل طائفيٍ بغيض، الممثل السياسي للناس هو الحزب والجماعة السياسية لا الجسم الدينيَ ولا العقائدي.

قال إن قبطيتي ليست ديناً أو عقيدة، بل هي نفسها مصريتي، هي مقوم من مقومات هُويتي المصرية.

قال أنا إذ أتكلم فإنني أخاطب كل أبناء هذا البلد دون تفرقة، كم مرة عليَ أن أكرر البديهيات؟

قال إن لغتي العربية هي لغةٌ مصرية، مصر حولتها إلى لغتها هي، قال إن الانتماء إنما يكون لمصر أولاً وأساساً، حبة القلب التي لا يمكن أن تُشق.

قال لهم إن ما نُتهم به من انعزالية وسلبية ليس من نصيبنا وحدنا، إنما الانعزالية أو السلبية هي ردُ الناس جميعاً - رداً صامتاً وفعالاً - على الاستئثار بالسلطة، على الفساد، على القمع، وعلى هامش الديمقراطية التي يزداد ضيقاً.

وكرّر مرة أخرى، بعناد وتصميم إن الكنيسة ليست، لا يمكن أن تكون، هي ممثل الأقباط باعتبارهم جماعة سياسية، سواءٍ على الساحة

السياسية أو فى الشئون العامة. فإذا كانت الكنيسة نفسها تدرك أن فكرة الحزب القبطى مرفوضة فإنها لا تقوم بدور الحزب القبطى، ذلك أيضا شق لحبة القلب الواحدة، شأنه فى ذلك شأن جماعات العنف والتعصب، كلها - كما هو واضحٌ وبديهى - من عقابيل الفقر والقمع والهوان والإهمال، تغذوه أيديولوجية تسعى فى النهاية إلى السلطة وإلى التسلط، هكذا قال

وكانوا يسمعونه صامتين، لم يعلقوا بشئ. لم يرفضوا لكنهم لم يقتنعوا كل الاقتناع.

متى قال ذلك؟ وأين؟

قال ستطاردك نظرة منّة - مارينا - رامة حتى دهر الداهرين، حتى بعد أن تنقضى أيامك، سيبقى حبك، ستبقى هذه النظرة، هذه المرأة، خالدةً بعد عبورك، كما هى خالدة فى هذا الحلم الرومانتيكى الكبير.

قال: لم يبق إلا هذه النظرة من العينين الخضراوين الصفراوين، واسعتين تحيطانك وتحدقان بالعالم، الخط الأسود ثقيل لكنه غير رازح الوطأة بل ناطق جميل على الجفن العلوى، تحت العينين خط مكحول رقيق جداً يؤكد هذه النظرة المسددة إلى الداخل فقط، لا يوجد ولم يوجد قط ثم شئ خارجها، وهى فى الوقت نفسه تضرب العالم الخارجى - وتضرب روحك فى الوقت نفسه - بوهجٍ لا ينطفى. نظرة القطة الفرعونية قاتلة وصانعة حياة أبدية.

ضحك فى داخله بلا صوت: أبدية..؟ أبدية قال..! أبدية..؟ يعنى..!

كانت عندئذ نحيلة، جداً، جسدها الضاوى المنحوف يشع بشبقية نيران مكبوتة تحرق دخيلتها، سوف تنفجر وتؤجج النيران الجنسية فى كل شئ حولها، وداخلها. عندئذ، وهى تنحنى عليه تصب الماء على

يديه اللتين شعفتهما النار، ممدودتين كأنهما بضراعة. رأى ثدييها مخروطين صغيرين، حبتي كمثرى من اللحم الشهي العذرى تحت فستانها الحرير الناعم الذى يحبك البطن البكر الراسخ المتهضم، وقد لمح - لم يستطع أن يحول بصره عن - منبع الثديين فى فتحة الفستان الضيقة النازلة بشق ملموم حتى أوائل البطن. ومازالت فى عينيها قطرات دموع مترقرقة على مرآة نقية صافية ضاربة اللون إلى صفرة عباد الشمس وخضرة الغيطان المتموجة.

الألم يصدر عن بؤرة معقدة فى صميم الأحشاء يغمرها بدم أسود.

كيف حدث؟ ماذا حدث؟

كأن لم تبق عندئذ إلا أحلامه التى مازالت تطوف بها، بعينيها وشفتيها، وكأن هذا الجسد الصغير - بعد - قد أصبح من الآن شيئاً عزيزاً تلفه رؤى حارة بعيدة لم تأت بعد.

تحولت طاقة هذا الجسد إلى توق عنيف مشبوب محبوط ثائر بغضب، توق إلى الانصهار، هو نفسه توق إلى الموت.

يريدها ويريد أن يموت.

لا أريح حياتى إلا بالموت.

لأن الرجاء الماطل يمرض القلب، وبحزن القلب تنسحق الروح.

لأنه مدينة منهزمة بلا أسوار الرجل الذى ليس له سلطان على روحه. أسوار الروح قد سقطت.

لأنها - هى - صلبة وغير حنون - مع كل حنوها الكامن العميق - أنوثة قوية لم تتفتح تماماً بعد، ليس فيها امتثال.

أنوثة البوادى الشرقية

أنوثة نسوة الصعيد التى لا تعرف التنازل ●

الفصل الرابع عشر
مولد العذرا

لم تكد الشمس تولد بعد على الجبل الشرقى، وتأتى أشعتها المحيية على سطوح البيوت التى ارتفعت عليها أكوام الوقيد، وصوامع الغلال والأبراج المخرمة التى تبرز من جوانبها نتوءات قصيرة من عوارض الخشب، حتى انطلقت منها سحابة هائلة مرفرفة من الحمام، أوشكت أن تغطى السماء سمع لخفقها دوىّ عظيم وهى تحلق إلى أعلى وامتزجت ألوان ريشها الأبيض والبُنى والمرقط القلاب إلى حمرة داكنة مع زرقة السماء البلورية.

على أول معدية عبرت أسرة صموئيل أفندى، ومازال على النيل ضبابة الشبورة البيضاء الخفيفة تخترقها ذؤابات النخيل المتكاثفة الصامتة الثابتة المنحوتة ولا تكاد تبين من بينها قمم أشجار الجميز والنبق الوارفة وأغصان الدوم الرفيعة الناحلة الصاعدة بعناد إلى أعلى.

عم زريج المعداوى العجوز يمدّ ذراعيه القويتين المفتولتين ليرفع الأولاد من على الجسر الترابى الصلب وعر المنحدر، ميلاد الصبىّ الطويل بالبنطلون الشورت والجاكتة الشاركسين التى ضاقت عليه قليلاً رفض مساعدة المعداوى ونزل يتحدّر متمالكاً نفسه.

جيَد تبع أخاه بسرعة فى تحدّره ووثبته إلى المعدية حتى أوشك أن يقع فى فجوة الماء الضيقة الراكدة بين الجسر وحافة المعدية.

عزيز ألقى بنفسه باطمئنان إلى ذراعى عمّ زريج، أما سلوى فقد حملها أبوها فى حضنه إلى المعدية، وبعده جاءت منة، تحت الألتس السابغ عليها ولكنها مكشوفة الوجه فلا غريب هنا أما عمّ زريج فلا يكاد يُحسب له حساب فى سوق الرجال، وهى تحمل أبانوب الصغير

تحت قماش الألنس.

ثم أخذ عم زريج الحمارة البيضاء وهي تنفث نفثات قوية خائفة وتحرن قليلاً على أعلى الجسر الترابي، مسكته الحازمة بخطمها ودفعته الرقيقة المصممة مع ذلك كأنما أدخلت الطمأنينة على الحمارة، فعاودتها رشاقةٌ ومعرفةٌ أولية وقفزت بأمان إلى المعدية التي تأرجحت تحت قوة الاندفاعة. وعلى الفور أخذ عم زريج والواد ابنه الذى عليه هدمة واحدة قصيرة مصفرة مغبرة اللون لا تكاد تغطى ركبتيه القشفتين الناتئتين عن ساقيه مثل كرتين سوداوين صلبتين، يجذبان السلسلة الحديدية، فانسابت المعدية بنعومة، وهبت نسمة هواء بدرية من مجرد حركة المعدية على صفحة النيل شاسعة الاتساع مترقرقة الأمواج التى بدأت بشائر الدميرة تصلها هادئة الهدير هادئة الاحمرار فنحن في مسرى - ميورع شهر ولادة الشمس - إذ تجرى المياه فى كل ترعة عسرة.

عندما نزلت القافلة الصغيرة إلى الشط الشرقى انحرفت جنوباً، وشقت غيطان البصل الذى سطعت رائحته النفاذة وغيطان القطن الذى نور وأوشك على الجنى، وحقول الذرة الصيفي والذرة الجيضى التى علت أعوادها وتكاثفت وتحولت خضرتها إلى دكنة متربة عميقة.

كانت منة هى التى تمتطى الحمارة البيضاء وهى تحمل أبانوب على ذراعها، وأمامها سلوى وعزيز، وهى تلجم من سرعتها حتى يلحق بها صموئيل أفندى ومعه ميلاد وجيد اللذين يسيران بخطوات رجولية على المدقات الترابية الضيقة بين الغيطان وقد بدت حقول قصب السكر إلى الجنوب غابةً متراكبة صغيرة على البعد، حتى وصلت الأسرة إلى ما تحت سفح الجبل حيث بدأت بشائر مياه الدميرة تغطى الحياض.

وأخيراً لاحت على هضبة الجبل قبة صغيرة تومض عليها أشعة الشمس التي أوشكت أن تغدو عفية حامية، ولما تكد، وتحتها بدا السور

الشاهق صغيراً في البُعد والعلو، أحجاره الخشنة تبدو حنطية اللون، وتخايلت للأسرة التي تتوقل المدق الجبل الوعر جموعٌ محتشدة من الناس كأنها جماعات النحل يصدر عنها طنين خافت لا تستبين فيه أصوات مفهومة.

وهناك التقت الأسرة بجماعة مرقص أفندي وقد سبقتهم، إذ انطلقوا من أخميم مباشرة دون أن يعبروا النيل. كان مرقص أفندي - في جلابيّته الكتان الفضفاضة وطربوشه العالي - شامخاً على ظهر فرسه الفخور، يرفد وراءه امرأته الأمينة الصَموت فوتنة في الألَنس الحريري الأسود تمسك طرفيه أمام عينيها بيدٍ، وباليد الأخرى تسند إلى ذراعها دميان الصغير - كان في عمر أبانوب تقريباً - سنتين أو أكثر قليلاً، ووراءها على ظهر الفرس العريض جلست فيرونيا التي أنزلت ساقيها الاثنتين على الجانب الأيمن للفرس وأسدلت فستانها الحريري اللبني الفاتح وشعرها مكشوف، وهيلدا الصغيرة تمسك بها بذراعيها وتنزل ساقيها الدقيقتين على الجانب الأيسر من الفرس التي تتهادى وتخبَ برشاقةٍ وجلال.

أما دانيال وبشاي فكانا قد جاءا معنا في السيارة الفورد التي استأجرناها، ونحن الآن نسير على المدق الجبلي، وهما معنا يخطوان خطواتٍ وئيدة واثقة، رجلين صغيرين فيهما كل كرامة وعزة نفس كبار البلد.

صديقي مصطفى قاسم اسحاق يتبعني في مسيرة الصعود.

أما عمتي ديماريس فلم تقدر أن تحضر معنا مولد العذرا، كان الصوم الطويل قد أرهقها وألزمها الفراش لكنها صلّت لنا طويلاً ودعت لنا دعوات كثيرة.

على الهضبة الفسيحة، تحت سور الدير الضخم ضُربت الخيام، وأُقيمت سواتر من ملاءات السرير والبطانيات على قوائم من الخشب دُقت في أرض الجبل الحجرية.

كنا قد صُمنا خمسة عشر يوماً - صيام العذرا - من ٣٠ أبيب إلى ١٥ مسرى، عمتي ديماريس على الماء والخبز والزيتون. حتى أوشكت، علاوة على دقة جسمها، أن تكون خفيفة مجنحة، قالت لى: يا بنى الصوم سلاح بتار ضد عمايل إبليس.

أما الصيام المقنن الذى اتبعته عائلات صموئيل ومرقص وأبونا فيليبوس وأبونا متياس وسائر أسر الخرازين، فهو من غروب الشمس إلى نحو الساعة الثالثة صوما انقطاعياً ثم الإفطار على أطعمة نباتية مثل مآكل آدم وحواء في الفردوس فقد قال لهما الرب «إني قد أعطيتكم كل بقل يبذر بذرا على وجه الأرض وكل شجر فيه ثمر يكون لكم طعاما» وقال لآدم «وتأكل عشب الحقل» وعلى سبيل الاستثناء في صيام العذراء أكلنا - كما هو المسموح - السمك ومشتقاته بلا حرج، قال أبونا متياس إن الصوم هو الذى أنقذ أهل نينوى من الدمار الذى كاد يحيق بهم من غضب الله على آثامهم، وقال إنه بالصوم استطاع موسى النبى أن يدخل جبل حوريب واستحق أن يرى مجد الله فى العليقة المشتعلة وأن يتسلم لوحي الشريعة التى كتبها الله بأصابعه.

ومع العائلات القبطية فى أخميم صام معى صيام العذراء صديقى مصطفى، مع أنه كان، مثلى، يضع كل شئ موضع سؤال، وصامت عائلات الحاج على الطحاوى والحاج عوض العشماوى والشيخ ياسين الجارحي، تبركاً بالسيدة العذراء، والصوم هنا طقس عائلى وفاء بنذور سنوية لشفاء مرضى وإطلاق محبوسين وإنجاب عواقر.

مازالت موائد الإفطار - بعد خمسة عشر يوماً من الانقطاع - تتخايل للصائمين في بيوت النصارى والمسلمين الذين انعقدت نيتهم على الصوم ووفوا بنذرهم، ارتفعت ولائم البطّ والفراخ وبراني الرزّ المعمر باللبن والحمام المحشي بالفريك من الأفران، أفرغت أطباق السليجة من حسائها العطر بمرق الزَفَر المحوّج بالقرفة والمستكة والبصل

وجوزة الطيب، تصاعد بخار الكشك الشهى وحلل البامية باللحمة الضاني. وها هي ذى تحملها الشغالات مع أطايب فطور العيد. بوابير البريموس والكوانين المرتجلة توقد فوق الهضبة بين الخيام والبطانيات المفرودة والمراتب التي بسطت على أحجار الجبل، متلاصقة.

السيدات قد تخففن من البرد والألانس والطُرح بعضهن اكتفين بالشيلان وبعضهن في فساتين مكشوفة. معظم الرجال قد خلعوا الجلاليب وفكّوا العمائم وبقوا بالفانلات وقد شمروا أكمامها واللباسات الطويلة في الحر المتصاعد، ويتردد في الجبل لغط الحديث والنداءات وزياط العيال وصيحات الأمهات وترانيم الشباب في تطويب العذراء مختلطة كلها مندمجة في تركيبة بهيجة يصدر عنها طنين ودوىّ له أصداء، اليوم عيد صعود جسد مريم الطاهر إلى السماء في الهند كما رآه توما الرسول.

كانت منة الآن في خيمتهم، يبدو وجهها شاحباً في سمرته التي آضت إلى شئ من الجفاف، وكأنما تضامت الفجوات الدقيقة بين أسنانها العاجية، كأنما انسدت ثغرات غوايات قديمة وأصبح الوجود نفسه صلباً مغلقاً، عيناها الجميلتان أخذتا تغوصان قليلاً في محجريهما وحولهما هالة داكنة ليست من الكُحل بل من إرهاق روحىّ، كأنها تحس أنها تحمل في داخلها عبء سُكنى روحٍ هائمة أخرى، لا تفارقها أطياف سالومة المغدورة وهنية التى اقتادوها إلى سقيفة الجنينة وقالوا غرقت في النيل ولم يعثر أحد عليها، المتمردة الفخور التى كانت تمشى في شوارع أخميم من غير بردة ولا طرحة كأنها من بنات البندر، وشاع أنها تحب الفلاح المسلم الذى يزرع أرضها، وما من أحد عرف حقيقة الأمر، ماتت أمها الست زاخورة أم بقطر كمداً عليها، كما امتزجت هذه الأطياف التى تحيق بها بطيف أجيّة التى هاجمها البدو، وقيل بل النداهة، أو الذئاب، نهشوا صدرها

الغض وراحت قبل أن يطلع عليها الفجر .

انحسرت عن منة حيويتها وإن بقيت منها أثارةٌ متمردة ، تحمل بين ذراعيها الآن أبانوب الطفل ، جسمه أصغر بكثير من أجسام أنداده في سنيه الاثنتين ، ينظر إليها بعينين واسعتين جدا فيهما سؤال صامت لا إجابة عنه ، تهدهده على هينة وتدعو له بالسلامة وتتضرع بحرقة الأم للعذراء أن تحميه وتراعيه ، لماذا هو وحده غير قادر على اللعب والجرى والانطلاق مع العيال ؟ تذهب به في الخيمة وتجيء ، شالها النسائى بلونه البرتقالى العميق وذوائبه المشرشرة تنسدل على كتفيها وظهرها ، يلتف برأسها من تحت رقبتها التى بدت الآن طويلة ومعروقة ، وحول وجهها حتى يغطى شعرها المسترسل الناعم الذى مازال يحتفظ بكل بهائه وسواده ولمعانه كأنه اكتسب حياة لا تغيض من مسه وتمسيده لساقين قدسيتين مُحبتين ، مسعودة فتية شابة وعفية ملفوفة الرأس ، بإحكام بطرحتها السوداء ، قد أوقدت وابور البريموس تكمل عليه طهى غداء العيد ، يفوح من الحلة النحاس الكبيرة عبق الزفر الغنى ، بينما لغط المولد يصل إليهما من الخارج ، الأولاد قد لحقوا برصفائهم وأندادهم يذرعون ساحة المولد ، يصفرون فى نوى المشمش المثقوب بعد أن حككوه فى قطعة من الصوان ، ينفخون فى بالونات ملونة زرقاء وحمراء وصفراء سرعان ما تنفجر بفرقعة عالية لا تكاد تسمع فى صخب العيد .

زفات مزيكة حسب الله تطوف بالأطفال قبل تنصيرهم ، الشحاذون يتسولون باسم العدرا وبالدعوات المسيحية الرب يسوع يرحم أمواتكم بشفاعة ستنا العدرا إلهى يبارك لكم ، مختلطين فى الزحام بالشالين وباعة الجوافة والبلح والمنجة والتسالى حمص ولب وسودانى ترمس ومجيلى ، والجزارون ينحرون الذبائح التى نذرها الناس للعدرا ، الدماء تشخب على حجارة الهضبة والذباب يتكاثف فى أسراب سوداء على

الرؤوس المجزوزة والفشش والمصارين تنبعث منها روائح نفاذة وحارة مع الزغاريد الثاقبة وقرع طبول وترامى أنغام المزامير الصعيدى الطويلة وحولها حلقات رقص بلدى تنخلع فيه الأجسام فى عربدة ديونيزية بهيجة، ثم ترتمى النسوة الراغبات فى الحمل على المنحدر الجبلى الذى يقولون عنه «القطعية» ويتدحرجن على الربوة طلبا للخلف، وإذا بجماعة من الشباب يلقون بأحد زملائهم بين النساء المتدحرجات ويضحكون بأصوات متطلقة «عجبى للبكارى عاد.. يرزجك بالخلف الصالح بنين وبنات يابوى».

تنحنح أغابيوس قبل أن يرفع طرف الخيمة. دهمته روائح الكتمة وبخار الزفر وعبق القرفة والمستكة، قالت منه: أدخل يا أغابيوس

كان مكسورا. عيناه مشتعلتان بنار عميقة كأنه منفى إلى داخله.

سلم عليها، مدت له يدا رخصة طرية مستسلمة ليس فيها القوة القديمة ولا صلابة القوام الأنثوى.

قال: ننصر أبانوب اليوم، لم يعد ضرورة للتأخير الآن. خصوصا أن الست سوسن امرأة عمنا عزمت على تنصير ألبير وإيفون اليوم حتى لو كان عمى قلدس لم يقدر أن يأتى إلى أخميم. خلاص لا داعى للتأخير.

نظرت إليه بحدة، وخوف، قالت: تأخرنا عليه، لم نطلع الدير من سنتين، علينا نذر نفى به.

قالت مسعودة: ولا تأخرنا عليه ولا شئ ربنا يخليه وينصره على من يعاديه ويجعل له فى كل خطوة سلامة.

خرج أغابيوس مسرعا كأنما يخشى على نفسه وعليها من شئ له رهبة وسطوة.

شق طريقة بصعوبة، وجد نفسه يجرى وجبته السوداء تطير مع الهواء بين جماعات وعائلات المحتفلين بالعيد، فرشوا على صخر الجبل أحرمة وأبسطة وأكلمة صوف وقطن، وحصر وبطانيات وملايات،

راقدين، أو جالسات أو سائرين وسط الناس، الباعة أقاموا أسواق الفاكهة، تلال البطيخ والشمام الاسماعيلاوى الطويلة فواحة الرائحة، وأكوام حبات المنجة البلدى والهندى والعويس والتيمور بجسدانيتها الملساء، وسباطات الموز البلدى أبو نقطة معلقة فى خطاطيف على قوائم حديدية مغروزة فى الرمل والحجر الجيرى الهش بين الصخور الصلدة، القفف والمقاطف تفيض بحبات العنب البناتى مدورة صافية، وحبات العنب الأسود توشك أن تطفح بعصيرها المكتوم، إلى جانبها نصبات الشاى على كوانين مرتجلة من الطوب والحجارة تتقد فيها شعل النار تحت الأباريق والكيزان المسودة بالهباب والنافثة بخاراً أبيض لا يكاد يرى فى حموة النهار الجبلى، وهو يجرى كأنما يهرب من شئ لا يحتمل، أو يطارد شيئاً ما أغلاه، يجرى بين الخيام تخفق عليها رايات حمراء، الفرسان، على خيول مطهمة مزردة ومكماة تصهل وهى ترمح وتدور من أول الهضبة الواسعة العريضة إلى آخرها حول سور الدير الشاهق، يرقع الفرسان رماحاً طويلة مسنونة الشباة فى الهواء، على صدورهم دروع مرسومة بعلامة الصليب الكبيرة، عليهم خوذات حديدية مصمتة ساقطة على وجوههم لا يظهر منها إلا عيونهم المتقدة من شق طولى، الفرسان فى عباءات بيضاء وعمائم سوداء ملفوفة على رؤوسهم، يمتطون صهوات خيول من غير سروج يكفكفون من غلواء جموح مطاياهم يوقفونها أمام خيمة الراقصات العاريات المتمنطقات بحزام رقيق حول خصورهن وبين سيقانهن المسودة، شعرهن الكثيف المجدول فى ضفائر طولية رفيعة متصلبة قليلاً، تحيطه أطواق نحاسية مذهبة تماثل الأطواق المتألقة حول الجيد، ينحين ويصفقن، يرفعن أرجلهن السمراء الناعمة أمام بتاح ومعت بينما آتون رع يغمر الساحة بأصابع نورانية لا عداد لها، المباخر تصعد منها أعمدة بخور الصندل وعين العفريت والقرنفل الحريف، السجاجوة يحملون دنان الماء المعمولة من جلود

الماعز السوداء، منداة تشر بالماء، يمسكون فوهاتها بأيديهم لا يفكونها إلا لرى العطاشى أو ليملأوا المواعين بالماء الذى حملوه على ظهورهم من حنفية الحكومة تحت. حتى الجبل، وفى آخر الهضبة، على مبعدة من السور أقيمت سواتر من الخشب وضعت لها أبواب مؤقتة على مفصلات، وبينها حفرت فى الأرض حفر عميقة واسعة تصعد منها روائح الأمونيا النفاذة وعطن المخلفات الآدمية يطير بها الهواء البحرى، أمامها صفوف النساء والرجال، والصغار مع أمهاتهم، ينتظرون دورهم بنفاد صبر. أنين الناى يختلط بدقات الصنوج وخبطات الطبل المدوية.

يجرى لا يكاد يلتقط خطوه بين الجموع والخيول والمغنين والبياعين والأولاد والبنات الصارخين فى مرح صاخب ثاقب.

فى طرف المولد كانت الغازية تقعى على الأرض، تضرب حول رأسها عصابة حمراء باهتة تحيط بطرحتها الضاربة إلى زرقة داكنة والموشاة بحبات خرز وترتر صغيرة لامعة لها صلصلة خفيفة، وجهها الأسمر الشاحب شيئا ما طويل مسحوب ذقنها مدبب تقريبا موشوم بخطين رأسيين داكنى الزرقة، عميقة العينين بنظرة سؤال هائمة، تتمنطق بحزام عريض أحمر باهت معقود حول بطنها الضيق فى ثوبها الأسود المحلى بحبات الترتر والخرز، كانت تقعى لا تقتعد الأرض بل تنظر إلى ما وراء الدير ما وراء الجبل، أقعى إلى جانبها كلبها الأرمنت الأسود الكبير، مد خطمه ووضع رأسه على الأرض يلهث، لسانه الأحمر الطويل يتدلى من الفم المشدوق، خارج خيمتها رجل قمىء قصير القامة مدكوك الجسم متين العضل، كان قد أوقد النار التى خمدت الآن، فى انتظار الرزق، يدق حدوات الخيول على أظلافها بمساميره المحماة، يبيض النحاس، الحلل والمواعين والطشوت، ناداها الرجل بصوت أجش خشن على غير المتوقع: «يامريم فزى تورى يابت، وين الوكل عاد؟ حضرى لنا لحمه يابت».

عاد أغابيوس على عقبيه، هبّت رائحة عرَقى البلح النفاذة عليه من خيمة تحلّقت فيها جماعة من الشباب، سمع ضحكاتهم البذيئة تقريبا، تاقتْ نفسُه، وأنّبها بصرامة، إلى أيام الخطيئة والشهوات:

-- «نحن نعيش بلا أمل، في الشهوة»

توقف أغابيوس، وهو ينهج قليلاً، يلتقط أنفاساً صعبة، أمام نصْبة الوشْم في جانبٍ من ساحة المولد، وتراءت له - دون توقع - كفّ أبيه المغموسة في دم حتحور، زمان، وانطباع الأصابع الخمسة على بطنه وما بين ساقيه، وسطع له أنه مع ذلك ليس عنده وشم الصليب على رسغه اليمنى.

نظر إليه الوشام العجوز، عيناه الثاقبتان كأنما حدَستا دون كلام ما يريده هذا الراهب الذى وقف أمامه، جامداً، يرتفع صدره وينخفض، تحت نور كلوب الغاز الساطع الذى يصدر عنه وشيش وفحيح منتظم النبض، مدّ إليه الوشام يده وقبض على رسغه اليمنى بقوة، وأزاح كمّ الإسكيم، ورفع كُم الفانلة إلى أعلى، وكالمسحور أو المفتون عن نفسه ترك له أغابيوس معصمه، بينما أخرج العجوز، من جرابٍ صغيرٍ مُعلّق فى جانب النصْبة الخشبية، ثلاث إبرٍ طويلة ملفوفة فى خيطٍ أسود من الكتان لفاً محكماً، ووضع المعصم بحسمٍ ورفقٍ معاً على خشب النصْبة المسطح السميك اللامع وإن كانت عليه بقع داكنة غائرة فى لحم الخشب المصقول، وبيدٍ مجرّبة وعارفة، وتحت سُلْطة النور الذى يفحّ من الكلوب المعلق فوقه تستضئ فتيلته المدوّرة بوهجٍ يسلب الألباب، أخذ يغزّ المعصم الممدود بالإبر الثلاث فى وقت واحد، ينقش عليه رسم صليبٍ صغير، يخز الجلْد دون أن يخترقه، حتى سال دمٌ قليلٌ نزل على الخشبة ببطء، تناول الوشّام كوزاً نحاسياً لامعاً مدوّر البطن ورفيع الفوّهة فصبّ منه بحذر سائلاً ضارباً إلى السواد شمّ منه أغابيوس رائحة لَبَنٍ وكُحْل، وبخرقةٍ نظيفة ناعمةٍ من الكتان مسح أثر الوشم: الدم واللبن والكحل، وهو يمضغ عود ملوخية أخضر صغيراً، بورقه وفرعه

معا، يديره بين شدقيه بقوة وسرعة حتى اطمأن إلى أن عمل المضغ والهرس والعجن فى فمه اكتمل فاستخرج العجينة الخضراء من فمه بالإبهام والسبابة اليمنى وضغطها على النقش الحمر الممسوح ولف المعصم كله لفة وثيقة بخرقة نظيفة أخرى استخرجها باليد اليسرى من جرابه وقال بصوت مفاجئ: «مبروك يابونا» وعندما أدخل أغابيوس يده اليسرى في سيالة الإسكيم يتلمس القرشين هتف به العجوز: «على النعمة، والمسيح الحى، مانت ملاقيني ميلم أحمر، بوه يابونا، دى حتى تيجى عيبه فى حج شيبتى، رح يابونا ربنا يسامحك ويسبل عليك نعمته، رح ربنا يرحمنا كلنا بشفاعة ستنا مريم العدرا، وينور لك طريجك يابونا» قال أغابيوس: «اكده. ربنا معك».

لم يكد يحس بألم الوخز وما يشبه أثر حرق خفيف فى معصمه، وهو يتخبط بالناس ويتعثر بالحجارة ويمرق بين الجموع وعيناه غائمتان.

فى صخب المولد سمع صوتا مألوفا يناديه: «آبا أغابيوس، تعال صل معنا، تشفع لأم النور».

كان أبونا باسيليوس يستند إلى عكازه القوى المعمول من خشب النبق، بعقده الكثيرة، يقف على رأس منة المصروعة المطروحة أمام خيمتها. هجس بنفسه: هل درت حول الدير دورة كاملة، ورجعت من حيث أتيت؟

كان شالها البرتقالى الداكن القلاب على البنفسجى والأرجوانى، مازال ملفوفاً حول وجهها وعنقها، مازالت شراشيبه مدلاةً على صدرها الناهد وراء فستانها الأسود، مغمضة العينين، هامدة، حافية حذاؤها ملقىً به إلى جنب، كانت قد دفعته فى حركة تشنج سقوطها، وشرابها منزوع، كأنها ماتت.

قال أبونا باسيليوس: تسكنها روحٌ غاضبة، صلّ معنا يا أغابيوس يا خوى صلّ معنا.

راح أبونا باسيليوس يعزم عليها ويرشم الصليب على وجهها ورأسها وصدرها، مرة واثنتين حتى ثمانية عشرة مرة بالعدد.

«كوك تباركوك باسم الصليب وشارة الصليب أقول لك بقوة السلطان الذى لى من الروح القُدُس أنت يا من رأسك على حافة الهاوية وقدماها فى النار، أقول لك اخرجى وبارحيها اخرجى الآن».

كان الصوت الذى ندّ عنها نسائيا ثاقبا جارحا: «ليه بتحرجنى يا سيدى؟ ليه بتحرجنى بنار الصليب؟ أفُطّ من عينيها؟»

-إوعى يا شيطانة إوعى حتى يحلّ العسل فى بطنها والمنّ على لسانها حتى يملأها نور شمس يسوع وتغمرها وتعلق بها البركة كقطرة ماء متعلقة فى قادوس الساقية.

- أفُطّ من ودنها؟ أفُطّ؟

- إوعى.. حتى تكونى مثل نخلة تطلب الشهد، مثل حمامة فى السحاب، بقوة علامة الصليب.

بصرخة حادة فى غاية الألم: آاى.. أفط من راسها.. أفط من عينها.. أفط من خشمها.. أفط يابوىَ من بين رجليها. .آاى.. أفطّ.

- إوعى ياجاسية.. ارحمى بنت عمك.. ياروح مالها جرار.. اخرجى من اصبع رجلها.. الإصبع الكبير. اخرجى الآن وامتثلى للرب حتى لا تكونى مثل كلبة تهيم على وجهها مثل قطة تثب من بيت إلى بيت مثل فرس تشتاق إلى الرمح.. كونى مثل الأيل الذى يشتاق إلى ماء الرب، امتثلى أيتها الروح، كوك كتشاروتوش بارسوبل، بحق ميخائيل وروفائيل وجبرائيل وكل طغمات الملائكة والقوات الإلهية بحق شفاعة أمّ الإله، عودى إلى مستقرك الأمين. الرب رحيم غفور اخرجى الآن من إبهام الرجل اليمين من غير أن تلحقى بالظفر أى ضُرّ، إوعى، الآن، الآن.. بسرعة الوحا الوحا..

انتفضت منة، صرخت صرخةً مدوية، انبثقت نقطة دم واحدة من

تحت ظفر إبهام قدمها اليمنى. فتحت عينيها ومازالت فيهما نظرة سؤال لا يريم.

تنهدت، جلست، ونظرت حولها إلى صموئيل وأغابيوس وباسيليوس ومرقص وشقيق وفوتنه وفيبيا ومسعودة، على وجهها تعبير إرهاق لا يوصف، سألت بضعف:

- وين أبانوب؟

كانت الغازية تحمله على صدرها وقد ألقمته ثديها. يرضع الطفل مضموم الشفتين بقوة على حلمة الثدى الذى تنصب منه مياه الحياة الغنية، وعلى الثدى الآخر حسنين طفل الغازية الأسمر والمتوفز يقظ العينين، يحيط بذراعيه صدر أمه وظهرها.

قالت لها الغازية: حمد الله على سلامتك ياختى، خدى وليدك عاد. كان عم يفرفر من الجوع يا ولداه، خله يزوط مع لولاد.

جاء في «كتاب ميامر وعجايب السيدة العذراء» على حسب ما وضعه آباء الكنيسة الأرثوذكسية:

«وجاء في ميمر القديس كيرلس رئيس أساقفة أورشليم في القرن الثالث أنه عندما شعرت العذراء بقرب وضع الجنين حالا، أخبرت يوسف فأسرع إلى البلدة ليستحضر قابلة لمساعدتها.. ولما وصلا المغارة ودخلا فيها وجدا أن العذراء ترضع ابنها الحبيب.

لم تظهر عليها أدنى علامة ولا تعب كبقية النساء حتى تعجبت القابلة من هذا المنظر.. وسألتها بقولها: أيتها السيدة ألم ينزل الخلاص المعتاد للنساء؟ فلم تجاوبها قط، فوضعت القابلة يدها لتنظر فلم تجد سوى عذراء بكر بتول كما هى، فتعجبت تلك المرأة وتركتها، وقامت بسرعة لتدخل بيت لحم وقد صادفتها سالومة القابلة الشهيرة، فقصت عليها الخبر من أوله، فقالت إنى فى شك وعدم تصديق لذلك الخبر

العجيب حتى أتوجه وأنظر بعيني، وقد كان وعادت الاثنتان مسرعتين وبوصولهما نظرت سالومة الطفل وأمه وقد تهورت بجسارة ومدت يدها تريد أن تكشف العذراء فوقفت يدها ونشف دمها وصارت تستغيث وصرخت بصوت عظيم وقالت: «يا إلهى ذنبى عظيم اغفر لى» وسجدت أمام الطفل، ووضعت يدها عليه فشفيت فى الحال...».

ظلّ جسيم سقط على الجموع، حجب عنها نور الشمس.

قامة أبونا تاوضروس الشاهقة ترتفع فوق الناس المحتفلين المعربدين، عيناه ينذ عنهما شرر الغضب والاستقامة، يرفع ذراعه اليمنى عليهم وهو يهدر:

«يا أبناء الأفاعى يابنات بابل جعلتم ساحة بيت الرب سوقاً لبيع العسل والحلى، وميداناً للخزعبلات، جعلتم مولد مدينة الله، المنارة الذهبية الحاملة للنور الذى لا يدنى منه فرصة لرعى بهائمكم ونهيق حميركم ونحر ذبائحكم ورقص غوازيكم، بناتكم ونساؤكم قد يغطين شعورهن ولكنهن يعرين أكتافهن وأذرعهن، ويكحلن عيونهن، يتجملن بزواق لخداع الناس، كل ذلك فى أقدس المواضع، عند مواطن الشهداء. لماذا لا تلزمون بيوتكم؟ كثيرون يأتون للموالد لإفساد الهيكل وليجعلوا من أعضاء المسيح أعضاء للإثم والفجور والمباهاة جهراً بالعبادة التى ليس لها مكان إلا وراء الأبواب المغلقة وفى صمت الخشوع. لا تجعلوا الموالد فرصة لتدمير أجسادكم وأرواحكم فى المقابر المفتوحة».

صوته الجهير ألزم الجمع المحتشد حوله صمتاً وجيزاً. ولكنهم سرعان ما تفرقوا، وعادت إلى المولد سطوته.

«بسم الله الرحمن الرحيم

مولد العارفة بالله الحاجة آمنة أم يوسف الأحمدية

بمشيئة الله تقرر إقامة مولد العارفة بالله تعالى الحاجة آمنة أم يوسف الأحمدية بمدينة ههيا شرقية ابتداء من يوم الجمعة ٢ سبتمبر.. الموافق ٢١ محرم.. وكل عام وحضراتكم بخير.

آل عوف

ههيا - شرقية»

قبل الغداء دخلت الست منه تحمل أبانوب، والست سوسن تحمل ألبير ومعها عايدة تحمل إيفون النحيلة عظمية الوجه كأنها منذورة للموت، كنا قد جئنا في سيارتين، مع بقية العائلة حتى حافة الجبل وصعدنا المدق الضيق مع الحجيج في زحمة الجموع البهيجة، منذ الصباح الباكر.

ذهبنا إلى الكنيسة في الجانب الشرقي من الدير مع حشود العائلات التي جاءت تنصر أبناءها وبناتها من عمر ثمانية أيام إلى عمر ست أو سبع سنين - كما كان عمري عند التنصير في دير الملاك ميخائيل منذ تسعة أعوام تلوح لي الآن كأنها من زمن سحيق.

أعمدة الكنيسة تدعم الحيطان المعمولة من أحجار الجبل وقد أكسبتها السنوات والقرون المتعاقبة صلابة، منحوتة من الصوان اللامع لها أكاليل حجرية تمثل سعف النخل المتجمع في سباطات بارعة التكوين، كان الهيكل البحري أعرض قليلاً من الهيكلين الأوسط والقبلي، الحنية أعمق قليلاً من نصف دائرة غير مكتملة، حائط الهيكل فيه ثلاث حنيات دائرية صغيرة غائرة وحجابه خشبي قديم مطعم بحشوات هندسية من العاج السمني الذى اصفر وشابت حوافه دُكنةٌ من أثر القدم والعراقة.

اقتربنا، وسط التزاحم والتراتيل والصلوات من أجران المعمودية الثلاثة العميقة، معمولة من الجرانيت الأشهب المحبب غير المصقول من

الخارج والمنحوت عليها نقش صلبان مورقة الأطراف داخلة فى لحم الجرانيت وإن كانت أطرافها قد أصبحت ناعمة غير غائرة، وكانت زحمة التناصير بهيجة، وتلاوة المزامير على قرع المثلثات النحاسية وصفق الصنوج تتردد لها أصداء فى الحجرة البحرية الفسيحة المغطاة بقبوة بيضاوية تحت عمق استدارتها وبها فتحات صغيرة عليها زجاج ملون أزرق وأحمر ينصب منها نور الشمس على الناس والكهنة والشمامسة والأولاد الصارخين والترانيم المتصاعدة وعلى أجران المعمودية وخزانات الكتب الضخمة الأثرية والبرانى الخزفية اللامعة يترجرج فيها زيت الميرون المقدس وزيت الغاليلاون، وعلى مفارش نظيفة من الكتان الأخميمى المشغول.

كان القسس قد شمروا عن سواعدهم وهم فى ملابس العيد البيضاء المشغولة بخيوط مذهبة وراحوا يغطسون الصغار، صبية وبنات، فى الأجران الثلاثة الضخمة، ويخرجونهم منها صارخين يدفعون بسيقانهم وأذرعهم العارية فى الهواء ثم يرشمونهم بعلامة الصليب بزيت الميرون على الجباه والصدور.

على الحائط الشرقى من حجرة المعمودية، غائرة قليلاً فى الحجر، أيقونة من الفسيفساء بالألوان الزرقاء والصفراء الداكنة والحمراء الباهتة، العذراء مريم، عيناها عميقتان فى محجريهما، طويلة الوجه، نحيلة فى ردائها الأزرق قديم الزرقة، تحمل على يمينها الطفل يسوع ترضعه من صدرٍ مخفى بالعباءة الزرقاء، فم الطفل مدفون فى صدرها، على وجهه المنوَّر تعبير سعادة.

أجهدتنى محاولتى أن أتذكر متى وأين رأيت مثل هذا المشهد، الوجه المريمى النحيف الطويل والعينان الغائرتان، والطفل يرضع بإصرار وتشبث ماء الحياة.

فى هذا الزحام الوضئ السعيد تنصر أبانوب، وألبير وإيفون، وَفَيَنَّا

بالنذر . وكان القسيس الذى نصرهم له لحية عميقة السواد ليست كثة ولا طويلة، وجهه مستقيم الخطوط يكاد يكون مربعا فى وسامة ودماثة، على رغم الضجيج وحشود المتزاحمين، والصريخ وتراكب الترانيم ودق الناقوس مع نداءات الأمهات وصيحات الرجال الخشنة القصيرة، وكانت عيناه فاتحتين. ونغمة خورس الشمامسة فى التسبيح فيها رجولة كاملة ليست فيها عذوبة الخورس فى الكنائس الغربية.

فى خروجنا من التناصير، مبتهجين، رأيت أحد المصلين وسط الزحام يحفر على حائط الكنيسة بمطواة حادة، فى إصرار من يحفر وصية أخيرة «للذكرى والتاريخ العبد الفقير راجى غفران المسيح بطرس الجاولى ١٦ مسرى ١٦٥٧»، وكان آخرون يتلبثون تحت أيقونة الفسيفساء يشبون على أقدامهم يتدافعون بلا رحمة حتى يمسوا الصورة يقبلون أيديهم ويمسحون على الأيقونة بأكفهم. وهم يتضرعون ويبتهلون ويستغيثون بأم يسوع أن تكيد لأعدائهم أن تشفى مرضاهم أن تفرج عن محابيسهم، تمتزج النداءات والاستغاثات، ياست يا عدرا تشفعى لنا يا بنت يواقيم انقذينى من ضيق الظلام بحق الرحمن ورسله الكرام يابنت عمران ياكنز النعمة يا والدة الإله من غير ألم ولا دنس يا مختومة البكارة اختمى على قلوبهم اصرفيهم عنى ياما فى الحبس مظاليم يا ست يا عدرا.

تناولت من أبونا الأولوجيا التى اقتطعها من القربانة، وقال لى:

- خذها يا بنى بركة، لقمة البركة.

قبل أن أغادر صحن الكنيسة توقفت لحظة أمام ستار الهيكل المسدل على الحجاب، كان نسيج القطيفة الأرجوانى عميق اللون قد نصلت حوافه، الناس تضع أيديها عليه وتمسح الوجوه المغمورة بالدموع على شراشيب الستارة المكتنزة بلحم القداسة فهى رداء المسيح الذى بكى فى البستان وتضرع إلى الأب أن تعبر عنه كأس الألم، وقد ابتلت

الستارة وكادت تنز بقطرات كثيفة داكنة تخللت جسد النسيج حتى العمق المليء.

بالليل خرج الموكب من الكنيسة بزفة أيقونة العذراء المرسومة بالزيت وراء زجاجها، في إطار بيضاوى من الفضة يعلو صولجانا من الفضة أيضاً، وأمامها المجامر يتصاعد منها البخور، يتقدم الموكب الأنبا تاوضروس بقامته الشاهقة ووجهه الصلب ومعه وخلفه الآباء الكهنة، والشمامسة، عليهم أمارات الإرهاق والفرح بالعيد معاً، وسط حشود الناس، فى ساحة الدير ثم حول السور الضخم على هضبة الجبل، الأرشيدياكون يحمل الصولجان والأيقونة المقدسة، ووراءه الدياكون يحمل صولجاناً آخر يعلوه الصليب القبطيّ الذهبى الكبير يرتلون فى نغمة فرايحى تطويبات للأم العذراء، وأعمدة البخور المتلوية البيضاء عبقة الرائحة وحريفة ومسكرة تقريباً تتصاعد أمام الأيقونة والصليب، دقات الناقوس تصلصل، الشمامسة الصغار فى صفين منتظمين يحملون الشموع الكبيرة الموقدة تتطاير منها شعاليل النار الصغيرة وتفوح برائحة الشمع المُذاب.

دوت صرخة جماعية هائلة.

كانت عينا العذراء فى الأيقونة تتقطر منها قطرات دم نزرة، وفى اللحظة نفسها تجلّت مريم بنورانيّة مُشعَة تبهر الأبصار وتتماوج قسماتها الجميلة فوق السور الشرقى للدير تحيط بها هالة تومض وتخفت ثم يزداد سطوعها وكأنما رفعت يدها تبارك الجميع.

انهمرت دموع الناس وعلى غير معرفة منهم بعضهم ببعض تعانقوا قبّلوا أحدهم الآخر يهتفون هاللويا المجد للرب يا سبحان الله بركاتك يا بنت عمران يا أم النور تشفعى لنا.

حسّ المعجزة غمر الجموع بروحٍ من البهجة والدهشة والشعور بأن كُلاً منهم على حدة قد ناله قدر من التفرد والخصوصية إذ شهد التجلى المعجز

للملكة القائمة على يمين الملك رأى الجمرة الذهبية تى شورى إذ المسيح فيها نارٌ بناسوته ولاهوته. أينعت الزهرة النيرة غير المتغيرة فوق الدير، اتقدت العليقة الخضراء بالنار وظلت غضة يانعة، نزل قسط المن وظهرت فوق السحاب عصا هارون التى أزهرت وسرت فيها مياه الحياة ارتفع سلم يعقوب من الأرض للسماء بان الباب الذى فى الشرق مغلقا لا يفتح ولا يدخل منه إنسان لأن الرب دخل منه فيكون مختوما غير مفضوض.

أما أنا فكان من حماقتى وسذاجتى الصبيانية أن حاولت تفسير ذلك بظواهر جوية ناجمة عن أضواء المشاعل والشموع والقمر وانعكاسها على شبورة الليل التى تصعد على الجبل وتصل إلى سحاب عابر تطير به رياح خفيفة دافئة تصطدم ببرودة صخور السماء ترتطم رياح الأشواق الدفينة بجبل العالم الصلب الثقيل.

وكان من حكمة صديقى مصطفى قاسم اسحاق أنه لم يقل شيئا واستمع لى بهدوء وتساؤلٍ دون حماسة.

وقد عرفت أنه مع صحة التفسيرات العملية والسيكلوجية المحتملة أيا كانت، فإن الظهور صحيحٌ أيضا، ومثير للتعاطف والاحترام، وأن السماء الداخلية للجموع - ولكل فرد - لابدَّ أن تشعَّ بنور التجلى يخايل لحظة ويتموج ثم يغيض إلى ظهورٍ جديد.

الترانيم تتصاعد بالعربى والقبطى تجمعت فيها أصوات الحشود بنغمات التماجيد التى تهتز لها القلوب.

سمعت الست كيريا ترتل وحدها باللهجة القبطية الأخميمية العريقة التى لم يكن يفهمها المعاصرون الذين تحدرت إليهم القبطية فى لهجتها البحيرية.

قال الأنبا تاوضروس: أمى تنطق القبطية نطقاً صحيحاً أرقى بكثير من النطق الغالب على كنائسنا: السلام لك أيتها الحمامة الحسنة السماء الثانية الجسدانية

Ⲙⲁⲣⲉⲛϯϩⲟ ⲉ̀ⲣⲟⲥ : ⲉⲑ-
ⲣⲉⲥⲧⲱⲃϩ ⲉ̀ϫⲱⲛ : ⲛⲁϩ
ⲣⲉⲛ ⲡⲉⲥⲙⲉⲛⲣⲓⲧ : ⲉⲑⲣⲉϥ-
ⲭⲱ ⲛⲁⲛ ⲉ̀ⲃⲟⲗ .

فلنسألها
أن تطلب عنا
عند حبيبها
ليغفر لنا

سليمان دعاها في نشيد
الإنشاد وقال أختي
وخليلتي مدينتي الحقيقية
أورشليم
لأنه أعطى علامةً عنها
بأسماء كثيرة عالية قائلا
اخرجي من بستانك
أيتها العنبر المختار

Ⲥⲟⲗⲟⲙⲱⲛ ⲙⲟⲩϯ ⲉ̀ⲣⲟⲥ: ϦⲈⲚ
ⲡⲓϫⲱ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓϫⲱ: Ϫⲉ
ⲧⲁⲥⲱⲛⲓ ⲟⲩⲟϩ ⲧⲁϣⲫⲉⲣⲓ:
ⲧⲁⲡⲟⲗⲓⲥ ⲙ̀ⲙⲏⲓ Ⲓⲗ̅ⲏ̅ⲙ̅.

Ⲁϥϯⲙⲏⲓⲛⲓ ⲅⲁⲣ ⲉⲣⲟⲥ: ϦⲈⲚ
ϩⲁⲛⲙⲏϣ ⲛ̀ⲣⲁⲛ ⲉⲩϬⲟⲥⲓ: ϫⲉ
ⲁ̀ⲙⲏ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϦⲈⲚ ⲡⲉⲕⲏⲡⲟⲥ:
ⲱ ⲑⲏ ⲉⲧⲥⲱⲧⲡ ⲛ̀ⲁⲣⲱⲙⲁⲧⲁ.

كان فى العيد، مثل كل أعيادى، ظلّ من الشجن وحسّ بالفقدان، وفى قلب صخب البهجة بل عربدة الفرح. كانت مارينا غائبة وقوية الحضور معا. كان بيت ميماك، على الأخص، فى حداد، وإن كانت الست كيريا قد حضرت العيد لتتشفع بالعذراء ترحما على بنتها، فالحداد لابد أن يطول حتى السنوية، أما بيوت الخرازين الأخرى فقد اكتفت بالحزن المعلن، أو الحقيقى حتى الأربعين.

لم تكن مارينا معى. ولكنى كنت، كما أفعل طول العمر، أرعاها فى داخلى، وأتخيلها: ماذا تفعل الآن؟ هل يحتفلون بعيد العذراء، رغم كل شئ، أم نزلت بهم سحابة الصمت؟

لم تعد مارينا رامة كياناً خارجياً فقط، بل هى مقوم من ذات النفس.

كان مرقص أفندى معنا، صحيح، لكن فى داخله فجوة، فراغ، خواء لا ملء له وكنت أستطيع أن أتصور إلى حد ما، مدى حسه بالفقد، لكنه كان فيما يبدو للجميع مازال قادرا على الفرح، أو على مظاهر الفرح، مازال شامخ القامة على فرسه، وظل يلوح علماً متفرداً بين نكرات محتشدة، كلٌ منها لاشك يرى نفسه علماً فى ذاته.

أما فوتنه الأمينة عليه وعلى عائلته الصغيرة، فوتنه الصابرة الهادئة العارفة فى صمت والصافحة فى صمت، فقد كانت مثل يونا التى كانت امرأة خوزى وكيل هيرودس، وقد شفاها المسيح من ضمن المرضى المذكورين فى سجل أعاجيبه، كما شفى ابنة لها أيضاً، كانت مثل فوتنه قد أعطت بلا ضن ولا من ولا حساب. وكانت يونا تكلم خوزى زوجها عن المسيح فى قصر هيرودس حتى صار اسم يسوع مشهوراً فى القصر، وافتكر هيرودس أنه يوحنا المعمدان الذى قطع رأسه. كانت فوتنه قد ذهبت إلى قبر سالومة فى مدافن العائلة ووضعت عليه أزهار البنفسج الدامى، ويونا كانت تحت الصليب كما وقفت فوتنة تحت خشبة العذاب

ساكنة الروع محافظة على كنزها الروحيَ الصغير الثمين.

يونا ذهبت إلى قبر المسيح تحمل الطيوب، ومنه كانت فى خيمتها، وقد استنفدت كل قواها، تحس نفسها مفرغةً من الداخل، خاوية وفى أثناء بهجة زفة الأيقونة، وقد خلت الخيمة قالت إنها مرهقة وإنها سترقد قليلاً، كانت تتقلب على أرض الجبل الصخرية، بطنها يحتك بالأرض الصلبة ونهداها ينهرسان، وحدها فى الصمت، أنين رحمها المتوجع مكتوم، تتخبط بذراعيها وساقيها فى صرعة الشبق المكبوت.

الإسكندرية فى ٣ سبتمبر ١٩٤١

ولدنا العزيز المحبوب

الشوق إليكم كثير لا يحصى ولا يعد وغير خافٍ عليكم، وصلنى جوابك وعلمت بتنصير غنن باشا وإيفون بدير السيدة العذرى ربنا يباركهم ويسعدهم، وتجدون طيه حوالة بوسته بمبلغ ثلاثة جنيهات كطلبكم وإن شاء الله تقوموا لطرفنا بالسلامة يوم الخميس أو يوم الجمعة بقطار الساعة ١٠ صباحاً الذى يصل مصر سبعة مساءً أو أقل، يعنى يلحق قطار إسكندرية الذى يقوم من مصر الساعة ٧٫٣٠ مساءً يصل دمنهور الساعة عشرة إلا تلت وأنا أكون فى انتظاركم بمشيئة الله تعالى ولا تنسى استحضار عرقى البلح معكم ويلزم تعرفنى عن القيام بالضبط يوم الخميس أو الجمعة للانتظار لغاية الآن خالك ناثان أفندى لم يرد علىَ وربما أقوم أنا باكر لدمنهور بخصوص مشكلة السكن.

سلامى بشوق عظيم للسيدة الوالدة وأخوتك الأعزا عايدة وهناء ولويزة وإيفون وإيزيس.

ختاماً سلاماً لشخصك المحبوب الغالى،

والدكم

(إمضاء)

أبو تيج في ١٨ سبتمبر ١٩٤١

حضرة المحترم قلدس أفندي قلاده

بعد التحية والسلام أنا عبد الملك بشاره مراقب شركة سوكوني فاكوم بمنطقة سوهاج - أسيوط، كنت مسافراً من سوهاج لبركة السبع وتصادف أن ركبت من أبو تيج بنفس العربة التي كانت بها عائلتكم. وقد عرفت منهم أن عدد ٣ طرود تركت بمحطة سوهاج بسبب قيام القطار قبل استلامها من الشيالين وبأن حضرة نجلكم تخلف بالمراغة للعودة لسوهاج للبحث عن الطرود المذكورة. ولتأثر الست حرمكم الشديد بفقد هذه الطرود وتخلف النجل قد وعدتها بأني بعودتي لسوهاج الأثنين ١٥ / ٩ سأستعلم من أصدقائنا موظفي المحطة عن هذا الموضوع والاهتمام به للوصول إلى الطرود وفي حالة عدم تسليمها لنجلكم. وفعلا بتوجهي أول أمس لمعاون المحطة عرفني أن الطرود الثلاثة صار تسليمها لنجلكم حال عودته وإن الشيال المختص قد سلمها رسمياً للمحطة ولم يكن هنالك أى خوف عليها، ويريد الله أن يكون الشيال هو أأمن شيالى سوهاج.

فأتعشم أن يكون النجل قد وصلكم بالطرود بالسلامة. ولو كان هنالك أى نقص أواستعلام فأنا مستعد للاتصال بالمحطة إذا عرفتموني وقد حررت هذا كوعدى قبل عودتي لسوهاج، وتقبلوا تحياتي

عبد الملك بشارة

الزرابى فيوم ١٩ / ٩ / ١٩٤١

حضرة المحترم والدنا العزيز قلدس أفندى

بعد السلام والسؤال عن عزيز صحتكم وأفراد العائلة جميعاً من مدة أربعة أشهر أو أكثر لم يصلني من حضرتكم جواب، مشغولة جداً جداً عليكم ودايماً بفكر فيكم خصوصاً في الحالة الحاضرة وطبعاً حضرتكم مقدر مقدار مشغوليتي عليكم فأرجوكم بوصوله سرعة

الإفادة عن صحتكم جميعاً أرجو تبلغ سلامي على الست قرينتكم ونجلكم الأعز وجدى ونحن نهديكم التحية.

من عند كريمتكم

عزيزه قلدس

الاسماعيلية ٧ / ٥ / ١٩٤٢

حضرة المحترم الفاضل أخي العزيز الخواجة قلدس قلاده حفظه الله

أعرفك يا أخي العزيز أني في منتهى الشوق إليكم وإني متألمة جداً وصعب على عدم مكاتبتك لي ومشغولة جداً عليكم خصوصاً في هذه الأيام، ولقد كتبت لك وعرفتك بأن بشارة ابني قد خطب فلم ترد منك خطابات قط فتألمت ولكن التمست لك عذر ربما تكونوا مشغولين ولكن بعدئذ عرفتك هو بزواجه على أحد الأكاليل فلم ترد منك رسالة فعظم تألمي وزادت صعبانية وخصوصاً إنكم مقاطعيننا الصلة حتى إن ابننا شفيق أفندي مرض مدة طويلة وانشغلنا انشغال عظيم فلم تدروا ولم ترسلوا للسؤال عنه وقد سألت عليك جميع الناس وانشغل عليك القريب والغريب فتجدني يا أخي العزيز تألمت لهذا كله لأنه ليس لي سواك وكيف تكون صلتنا متباعدة بهذا التباعد وما عسى أن يكون هذا وأي ذنب قد صنعته حتى منعت مكاتبتك عني ونحن ما إلا أخ وأخت. إن كل يوم يمر ونسمع عن الإسكندرية وحالها يذوب قلبي في داخلي وتملؤني المشغولية فأنا الآن راجية منك إفادتي بفارغ الصبر وتكون بذلك رحمتني من قلقي العظيم لأني مجربة الخاوف بما أننا الآن بالاسماعيلية، وأرجو إفادتي عن نمرة ابننا المحبوب الله يساعده في التوجيهية ويعينه ويحسن مستقبله ويجعله من المتفوقين النابغين إنه سميع مجيب. أرجو تبليغ سلامي مع شوقي إلى الست المحبوبة والغالية وإلى الآنسات المهذبات عايدة هانم وهناء هانم وإلى باقي الآنسات وإلى العزيز الباشا وإلى ألبير باشا ومني لشخصك المحبوب ألف سلام وشوق

عظيم. من هنا بشارة أفندى يهديكم سلامه وشوقه واحترامه وكذا وداد تهديكم سلامها وشوقها.

ختاماً تقبلوا شوقى وسلامى وعشمى فيكم ودمتم لأختك أم شفيق

على فكرة أرجوك أن تعرفنى عنوانك بالضبط وتعرفنى أين أنتم مقيمين الآن وأين الأسرة تقيم الآن، وهل الباشا الكبير فى أى مدرسة الآن، أعرفك أن ابننا شفيق قد عوفى تماماً ولا يكون لك أقل مشغولية من نحوه.

أختك أم شفيق

ملاحظة: العنوان: بشارة أندراوس الخراز المهندس بالإسماعيلية بمنزل إبراهيم تركية تقاطع شارعى فاروق الأول بهندبرج بالإسماعيلية.

«فى مثل هذا اليوم كان صعود جسد سيدتنا الطاهرة مريم والدة الإله، فإنها بينما كانت تصلى فى القبر المقدس أعلمها الروح القدس بانتقالها سريعاً جداً من هذا العالم الزائل، وبينما أكملت صلاتها كانت مضطجعة فى سريرها وحضر إليها السيد المسيح وحوله ألوف من الملائكة وعزاها وأعلمها بسعادتها الدائمة المعدة لها، فسُرت بذلك ومدت يدها وباركت التلاميذ والعذارى ثم أسلمت روحها الطاهرة بيد ابنها وإلهها يسوع المسيح وأصعدها إلى المساكن العلوية. أما الجسد الطاهر فكفنوه وحملوه إلى الجسمانية. وفيما هم قادمون به خرج بعض اليهود للتلاميذ لمنع دفنه، وأمسك أحدهم بالتابوت فانفصلت يداه من جسمه حتى آمن وندم على سوء فعله وبصلوات التلاميذ القديسين عادت يداه إلى جسمه كما كانتا.

ولم يكن توما الرسول وقت نياحتها موجوداً لأنه يعمد ابنة ملك

الهند فى هذه الساعة. واتفق حضوره عند دفنها فرأى جسدها الطاهر مع الملائكة صاعدين به، فقال له أحدهم «أسرع وقبل جسد الطاهرة القديسة مريم» فأسرع وقبله، وعند حضوره إلى التلاميذ أعلموه بنياحتها فقال: أنا لا أصدق حتى أعاين جسدها»، فأنتم تعرفون كيف أننى شككت فى قيامة السيد المسيح»، فمضوا معه إلى القبر وكشفوا عن الجسد فلم يجدوه. دهش الكل وعجبوا فعرفهم توما الرسول كيف أنه شاهد الجسد الطاهر مع الملائكة صاعدين به.

وكانت سنى حياتها على الأرض ستين سنة، جازت منها اثنتى عشرة سنة فى الهيكل وثلاثين سنة فى بيت القديس يوسف البار، وأربع عشرة سنة عند القديس يوحنا الانجيلى.

كتب أبوخورس من قول يوحنا ابن زبدى الإنجيلى من ميمر وضعه الأب القديس الطوباى الأنبا كيرلس أسقف أورشليم يقول: «إن السيدة العذراء الطاهرة عندما مرضت كانت فى بيت يوحنا الإنجيلى وفى السبت قالت ليوحنا: يا إبنى يوحنا أرفع البخور وصل على لأنى خارجة من الجسد فى مثل هذا الوقت غداً. ففعلت كما أمرتنى. ولما كملت صلاتى كان صوت عظيم من السماء يقول آمين. ولما تعجبت من الصوت نادانى الروح القدس قائلاً: يا يوحنا: إنه صوت السماء يجمع رفاقك التلاميذ هم الآن يأتون فى سلام المباركة فى النساء العذراء الطاهرة. سمعان بطرس يأتى الساعة من مدينة رومية وبولس من طرسوس وأيضاً يعقوب ابن حلفى أما توما فيتأخر لأنه يعمد ابنة ملك الهند فى هذه الساعة. وفيلبس ولوقا وسمعان القانوى وبرثلماوس ومرقص هؤلاء جميعهم يأتون الساعة لسلام العذراء لأنها خارجة من هذا العالم. ولم يمض الليل حتى أتت السحب بجميعهم الأحياء والأموات فى حضرة السيدة العذراء وباركتهم وأسلمت روحها الطاهرة فى الساعة الثالثة من يوم الأحد الحادى والعشرين من شهر طوبة

المبارك. «صلاتها تكون معنا ولإلهنا المجد دائماً آمين.»

قال: ما أجمل..!

قال: لكن جمال العالم وصرامته وقسوته تفوق أحياناً جمال الإيمان وصرامته وقسوته.

قال: أليس كذلك؟ ●

الفصل الخامس عشر
البرارى

مات أبانوب فجأة، على غير انتظار، بين ذراعي منَة.

كان الوقت ظُهراً، ساعة الوَحْشة.

في ساعة الظُهر التقى الخليل إبراهيم مع الله، ورُفع يسوع على الصليب ودُقَت المسامير في يديه وقدميه، في ساعة الظُهر، السنة التى فاتت، كان قد التقى فى الطرَانة بحميده البَرِصا والتصقت شفاههما فى قبلة فداءٍ مميتة، فى هذه الساعة أيضاً ماتت عايدة وبعدها بسنة مات غنَن أخي الصغير، وفيها أيضاً ماتت إيفون الصغيرة - وهي فى عمر أبانوب بالضبط - وكان وجهها الصغير العظميَ الجعَد يبتسم لى حتى وهى تموت، وعيناها تتعلقان بى بحب غيرِ مفهوم وغير مبرَر - مثل كل حبٍ حظيت به. فهل كان أمين أخي الأكبر غير الشقيق قد مات تحت عجلات قطار الدلتا فى ساعة الظُهر أيضاً، فى العام ١٩٣٦، عندما استيقظت ثانى يوم من نومي على صيحة أبي الملتاعة التى تخلع القلب: «ولدى.. ولدى.. ولدى»

كان أبانوب قد سقط مريضاً بعلّة غامضة محيرة، فَقَدَ كل شهوةٍ للطعام، وراح يزداد نحولاً يوماً بعد يوم، ذَبُل عوده وغارت عيناه، ما أن يشرب جرعة ماء أو لبن حتى يلفظها، ومهما غطَت منَة رأسه بالكمادات الباردة وغيَّرتها له كل رُبْع ساعة يظل سخناً لاتنزل حرارته، مع كل الحبوب التى يصرفها له الدكتور ميساك، بلا جدوى.

كان أغابيوس هو الذى يصحب منَة متلفّعة فى بردْتها السوداء فوق شالها القطيفة البرتقالى الداكن، يحمل الطفل المريض متهافت الجسم متراخى السيقان والأذرع، يثقل عليه الحِمل لكنه لا يكاد يحس الثقل،

حتى يكشف عليه الدكتور مير عشم الله، في مبنى المستشفى الأميرى ذى المعمار الكلاسيكيّ الضخم، صباحاً، أو في عيادته الخاصة مساءً، في العمارات الجديدة التى لا معمار لها، يمسح عن الولد مخاطه وإفرازاته وبلله المتخثر أصفر اللون، ويغيّر له ملابسه التى تلافيه إياها منّة.

كانت منّة قد نحُلت وضوى جسدها اللدن، غارت عيناها الواسعتان بعمق في عظام وجهها الذى شفّ جلْده ورقّ كأنما شحبت النضرة أو ابيضّت قليلاً، كأنما استطالت التدويرة الفرعونية لحاجبيها حول المحجرين حتى أوشكت أن تصل إلى وجنتيها الخاسفتين.

سقط أبانوب من ذراعيها، ولولا أن مسعودة كانت إلى جوارها لارتطم بأرض صحن البيت الفسيح نصف المنير نصف المعتم، التقطته المرأة وهى تتمتم: «بسم الله الرحمن الرحيم. تورى لنفسك عادٍ يا ستّ منة.. ربنا يصبرك على ما بلاك جادر على كل شئ يارب».

تحدّق إليها منّة، فارغة الذراعين. كأنها لا تراها، روحها قد استُلّت منها. كانت عيناه مازالتا مفتوحتين على السؤال الذى لم يستطع أن يصوغه أو يدرك معناه - ولا نحن استطعنا - وكان وجهه قد ابيضّ وبهت جداً غاضت منه كل دمائه.

كنت أحمل غنَن وقد خفّ وزنه وكأنما صغر جسمه فلا تكاد تتصور أنه في التاسعة من عمره بل تظن أنه لم يكد يكمل سنيه الثلاثة أو الأربعة، كان التيفود قد أرهقه طوال أشهر الصيف وهو يغالب الداء، وما كانت المضادات الحيوية قد عرفت بعد في العام ١٩٤٣، وكان شعره قد سقط وبانت فروة رأسه على الجلد في بقع غير منتظمة ملساء، يدهنها الطبيب بسائل كثيف القوام بنفسجى اللون تقريباً، وكنت أعبر به شريط الترام في شارع راغب باشا إلى البيت، وكنت قد أمضيت سنتى الأولى في الجامعة، وقدمت أوراقى للتحويل من كليتى إلى كلية

الآداب قسم اللغة العربية فى الإسكندرية، وهو ما لم يحدث، فلم يستجب أحد للطلب ولم يردّ على أحد وراح الطلب فى صمت أعرافٍ غير مكتوبة ونافذةٍ - حينذاك - أنه لا يُقبل قبطى فى أقسام اللغة العربية وقد انكسر هذا العُرف بعد ذلك بسنوات طويلةٍ على أى حال.

الإسكندرية فى ٣٠ يونيو ١٩٤٣

بنتى العزيزة سارَة هانم

أهديك سلامى وكثير أشواقى. اليوم وصلنى جوابك وتطمّنت على غالى صحتكم أما نحن فلله الحمد هناء وألبير متقدمين للشفا ببطء شديد، إيزيس تحصلت على تمام الشفا، إيفون توفت لرحمة الله ودفنت السبت ٢٦ الجارى والعوض على الله، الباشا الكبير ولويزه ووالدتهم بغاية الصحة كما نحن، أما الست أماليا والدتكم فهى عندنا ونحن بغاية السرور لوجودها معنا لأن بيتنا هو بيتها وهى علما يرام بصحة جيدة والحقنة عملت تأثير يومها فقط ربنا يتمم الشفا لألبير وهناء حتى يمكن للست والدتكم أن تحضر لطرفكم بالسلامة ولكنها تقدر أن تبقى معنا على الرحب والسعة كلما تريد. وسلامى للأخ فانوس أفندى والست وديدة وبنتهم العزيزة ومن هنا جميعاً يبلغوك السلام ومشتاقين لرؤياك جداً كما أنا وألف سلام عليك.

قلدس

(إمضاء)

تحصلت هناء على تمام الشفا، فعلاً، أما ألبير فقد مات يوم ٣ أغسطس ١٩٤٣. كيف أمّحت من ذاكرتى كل وقائع موته؟

بينما يبقى موت عايدة حياً فى روحى بكل عرامته.

عندما جاءنى عامل التلغراف، يومها فى دمنهور، يلبس جاكتة على جلباب رمادىّ أغبر ويعتمر عمامة صفراء مخططة، وهتف من حوش

السلم تحت: «... حياتك الباقية، عايدة ماتت.. التى كانت فى مستشفى الحميات»نزلت وأخذت منه البرقية.

بعد لحظات من الجمود التام أفقت فى ركنٍ معتم من البيت الخاوى وانفجرت ببكاء لم أعرف مثله من قبل ذلك ولا من بعده، بكاء لا يستطيع العقل ولا الجسم نفسه أن يوقف عنفه، كانت الدموع تنسال من عينى وأنا فى الأوتوبيس المسافر إلى الإسكندرية - كما لعلها تترقرق الآن بعد خمسين عاماً أو تزيد - وكانت الدموع تنهمر رغماً عنى وأنا أسمع صرخات أمى، وصيحة أبى «مع السلامة يا عايدة» وعندما أنزلوا الصندوق إلى القبر المفتوح فى مدافن الشاطبى لم أكن أعرف أننى أبكى وأنشج بصوتٍ لم أكن أسمعه، وهم يشدوننى - مَن؟ لا أدرى. أناس. أقارب؟ تُربيَّة؟- يشدوننى بعيداً عن حافة التربة وخالى ناثان يقول بصوت مخنوق: «خلاص يا بنى.. خلاص يا بنى.. تعال» أكان ذلك كله حُلماً؟

كانوا - مَوتاى كلهم - ينظرون إلىَّ، كأنما ينتظرون منى ما لا أستطيع أن أقدمه، ما لا أملك أن أستصفيهم منه، لويزة، بعد ذلك بسنوات، محترقة الظَهر، تُحتضر، لا تستطيع أو لا تريد أن تكلمنى، كأنما تتهمنى بموتها، تنظر إلىَّ فقط، عيونهم الآن أقوى حضوراً تحمّلنى بديونة لا أطيقها، لماذا أنا أحيا، لماذا عشت، بينما كانوا يعرفون أنهم على حافة الموت، وماتوا؟ فى هذا إثم أولىّ يقع على عاتقى، أو إثم أنا اقترفته، ما من إجابة - ربما - إلا أنه ظُلم كونىّ، فقدان جوهرىّ للعدالة فى هذا العالم، بل هو أكثر، كأنه خطيئة أصلية لم أتطهر منها قط، ولم يخلّصنى منها أحدٌ قط، وليس لها فداء.

البرارى الموحشة أقطعها دون دليل.

هل أنا أبكى؟

أقاوم - ما استطعت - اهتزاز قلبى

فى كنيسة أباهور القديمة نزلنا الدرجات الثلاثة من الجرانيت الذى انطمست عليه نقوش الكتابة المقدسة فلم تعد تستبين، وكانت سيدات الأسرة كلها إلى الجانب الأيسر من الكنيسة، خلعن البرد السوداء السابغة والألانس الخفيفة الغالية، رؤوسهن ملفوفة بالشيلان والطُرَح، يؤدين الواجب. وعلى الجانب اليمين جلس كبار العائلة ورجالها وأصدقاؤهم ومعارفهم، وفى رصانة الكنيسة وتوقُّر المناسبة كانوا يعقدون صفقاتٍ وينهون أعمالاً، بصوت خفيض، تأتى الكلمات الإنجليزية فى وسط اللهجة الأخميمية، وأبونا فيليبوس - خال أبانوب - هو أيضاً يؤدى شعائر الواجب، يصلى ويهز مجمرة البخور على الصندوق الأبيض الذى عليه علامة الصليب كبيرة بخطوط عريضة مستقيمة مذهبة، ويقوم بالخدمة دون حزن ودون تورُّط.

كانت المسرجة الكبيرة تتقد بشعلة الزيت، منقورة فى ظَهر ضفدعة ضخمة، عفيّة فتيّة، قائمة من بين القبور، ممتدة أطرافها الأربعة التى افترشت زجاج المسرجة السميك، أحاطت بها غصون الكرمة القبطية الأرثوذكسية.

انطفأت الشعلة فجأة، همدت الضفدعة، التوت أطرافها حول جسمها المثقوب. وكأنما سادت وحشة البرارى فى الكنيسة التى غمرها صمتٌ مفاجئ.

«يصبح الإنسان قطعة من الطين مخلوطة بالتِبن تدوسها الأرجل»

أما البارّ فإن المراحم القدسية وحدها تحمله - أحياناً - على أجنحةٍ علويّة، حتى قدمى العرش.

أو هكذا تجرى أسطورة الأمانىّ الساذجة.

١٩٤٣/٧/١١

حضرة المحترم أخينا الفاضل قلدس أفندى

إنى شديدة الأسف بل عاجزة عن وصف ألمى أن أقدم لكم تعزيتى بل أعزى نفسى أيضاً على الراحلة الكريمة إيفون الصغيرة أسكنها الله جنَات الخلود وألهمكم الصبر العظيم.

أخى أرجوك أن تكون من الصابرين، فهذا أمر الله فلا تجحد فالرب أعطى والرب أخذ وكن مدبَر لتعزية الست سوسن امرأة أخينا، واقتدوا بأيوب الصديق. حقاً إن فاجعتها عظيمة ولكنها استراحت من عالمنا المضطرب الهائج، إننا لا نعرف مصير حياتنا فالله يعزيكم ويدبركم.

إنى متألمة لعدم تمكنى من الحضور وذلك لثقل أرجلى الشديد ولقد أخبرتكم بذلك ومع أنى بعيدة لكنى معكم وشريكتكم فى المصاب.

ختاماً أرجو من الله أن يعزيكم أنتم والست قرينتكم.

أختك

ديماريس أم شفيق

ولحنا عندئذ الكلب الذئب ، حالك السواد، يجرى حول حوش المقابر من الخارج، لا نكاد نراه حتى يخطف بنا مرآه من فرط سرعته، لا نرمق منه إلا خطماً طويلاً ممدوداً، جسمه اللين الطويل يتموج إذ يهز ذيله شرير الشكل، وكانت نبحاته القصيرة خشنة عميقة تصدر عن صدرٍ سحيق الغور.

تحريراً فى سوهاج، ٢٤ أكتوبر ١٩٤٢

حضرة الوالد المحترم

أهديك أخلص التحيات وأبعث لكم مع الست امرأة عمنا والأخ الأستاذ وأخواته أسمى تحية مع أخلص تسليماتى القلبية راجياً لكم

جميعاً كامل الصحة مع تمام العافية وبعد تشرفت بورود مكتوبكم وعليه اطمأنيت على صحة سلامتكم.

أما عن تحويل الأخ نجلكم من كليته إلى كلية الآداب فالمسألة واحد تقريباً والخيرة ما اختارها الله ويتوقف معظم ذلك على ميله الشخصى والوجهة التى يريدها لنفسه وربما كان فى نظرى أن كليته أفضل من كلية الآداب حتى على الأقل فى العمل الحر فى المستقبل.

أما عن مسألة المصروفات فالجامعة مستقلة وما عُمل كان أقصى ما يمكنك، وربنا يساعدكم فى المسعى المقبل وعنوان سعادة إبراهيم بك تكلا هو:

١٨ شارع العباسيين بمصر الجديدة، وشارع العباسيين هذا متفرع من شارع الطيران، والله يهيئ لكم ما فيه الخير، وكنت أود أن أكون قادراً على عمل شئ ولكن ما باليد حيلة وقد كتبت لسعادة تكلا بك والحقيقة أن البعيد عن العين بعيد عن القلب.

سلامى الزائد للست امرأة عمنا والأخ الكريم نجلكم وأخواته ولكم منى فى الختام أسمى تحية وأوفى احترام ودمتم،

المخلص

رفلة يعقوب

سوهاج فى ١٢ / ٥ / ١٩٤٣

حضرة الوالد المحترم الخواجا قلدس

تحياتى وتسليماتى راجياً لك مع العائلة الكريمة والأنجال كل صحة ورفاهية.

تشرفت بورود خطابكم فسررت به جداً، والواقع أنى أعتذر عن تأخيرى فى الخطابات، وطبعاً هذا راجع لظروفى وخصوصاً أنى الآن وحيد بسوهاج حيث أن فوزى نقل لقنا، وحتى رزق ترك المدينة واشتغل محضر

بالجيش والحمد لله على كل حال، إنما كل ذلك لا يمنع من الاتصال بكم والحصول على دعواتكم ورضاكم لا حرمنا الله من محبتكم.

ومن جهة خبر وفاة المرحومة امرأة جدنا، فإنى فى ذلك الوقت كنت بأسيوط لمرض عيون زكى أفندى وكانت هناك مشغولية من جهتها والحمد لله الآن تم له الشفاء ولذلك لم أحضر إلا بعد الوفاة بيومين والبركة فيكم.

سررت جداً بالتحاق حضرة الأستاذ نجلكم الكريم بالجامعة وأتمنى له كل توفيق ونجاح وأرجو أن أراه قريباً أستاذاً عظيماً فى مركز عظيم يتناسب مع متانة أخلاقه، وقوة شخصيته وأسأل الله أن يساعدكم على إتمام هذه المرحلة.

من هنا الست الوالدة والإخوة والأنجال يرجون أن تقبلوا تحياتهم وتبلغوها لحضرات الأنجال والست امرأة عمنا - وأن لا تحرمونا من دعواتكم وأخباركم.

وتنازلوا بقبول خالص تحياتى واحترامى،

ابنكم المطيع

شاكر سلوانس

٦/٨/١٩٤٣

حضرة خالنا المحترم الخواجا قلدس

تحياتى وبعد،

حقاً لقد غمرتنا سحابة من الألم والحزن للبرقية المؤلمة بوفاة ألبير ولا ندرى الآن كيف نتقدم بواجب المواساة والتعزية ونرجو أن يلهمكم الله الصبر والعزاء والسلوا كذا الست امرأة خالنا وبقية الأسرة، تأخيرى فى كتابة هذا يرجع إلى حيرتى فى كيفية الكتابة فقد كانت مصيبة كبيرة يحتار مع فداحتها كل إنسان.

لعل الوالدة وصلت ولولا انشغالي الكثير هنا وطبعاً تعرفكم هي بذلك كنت حضرت معها ولكن أعتذر.

ختاماً تعزيتي ورجائي من الله أن يصبركم ويقويكم على مواساة باقي العائلة،

بشارة

رسائل كلها نُصُب تذكارية من الجرانيت الهش الورديّ الباهت، مصقولة وناعمة الحواشي، أو خشنة جافية، ولكن كساها غبار السنين، قائمة مهجورة في براري النسيان والوحشة، فيم يهمّ أي أحد ما تكرسه الرسائل النُصُب وما أقيمت لتخليده، سواءً كانت مصوغة بحرارة الإحساس الحميم أو ببراعة القوالب النمطية لمجرد تأدية الواجب أو استقضاء حاجة، آلام وأحزان وهموم ومشاغل ناسٍ ككل الناس قد تبلورت في جرانيت الكلام الذي لعلني أستنقذه قبل أن يتفتت ويتهاوى هشيماً.

أخميم في ٢٢ / ٨ / ١٩٤١

خالي العزيز

الله وحده يرعاك ولا يوجد إنسان في كل العالم يمكنه أن يدبّر أمرك ولكن الله وحده أسأله دائماً أن يبرد نارك. أكتب هذا ودموعي تسيل فما من قوة على ظهر الأرض يمكنها أن تردّ قضاء الله ولكنه أحكم منا وحكمته ارتضت ذلك فاترك له المشيئة فالحقيقة خطابك يا خالي ألهبني صراخاً لله أن يلاطفك.

أما أنا فباكر بإذن الله سأعمل العملية الثالثة في جسمي الذي لا هو حي ولا هو ميّت الله يرحمني بأحد الاثنين وله وحده فوضت أمري. قد أخفي بشارة أمر العملية الثانية على أمي فلم تحضر لتراني وباكر العملية الثالثة بعيادة حكيمباشي المستشفى. الأولى كانت في الخصية

والثانية فى الذراع وباكر عملية البواسير وقطع المستقيم لأنه أتعبنى جداً، ولم أعد شفيق السابق بل دائماً باكى شاكى والحمد لله، الحمد لله، ألف حمد وشكر.

ختاماً لك ياخالي العزيز أن تتوجه إلي الله وهو وحده القادر على حمل أتعابك، لامرأة خالي تعزيتي والله يدبرها ويشفى المريض ويبارك في الباقي. من هنا سمير وشقيقتيه وأمه بخير.

ولدك شفيق

لكن أبى لم يحتمل الضربة الأخيرة، بعد ضربات كثيرة سابقة، وبعد أربعة أشهر وعشرين يوماً لحق بابنه الصغير المحبوب الذى لم يكن قد أكمل التاسعة من عمره. ولم يتلقَ أبى خطاب رفله أفندى:

حضرة الوالد المحترم الخواجا قلدس

لقد بلغنى صُدفة اليوم ما أساءنى جداً وتألمت له الألم المبرح ألا وهو فراق الأخ المرحوم ألبير فكان لذلك أسوأ الوقع وقد زاد ألمى أنى علمت أن هذا الحادث المفزع له مدة فلفقيدنا رحمة ولنا عزاء وصبراً وعوضاً والبركة فى الأخوات أطال الله بقاءهم ويجب أن الإنسان يصبر على أمر الله الذى لا راد له وهو الحكيم في ودائعه فقد أخذ وديعته فى وقت مبكر فكان ذلك حكمه ولو أن هذا الحكم قاسي شديد لكن من أحدثه يدبر احتماله فلكم منى ومن والدتى وأخوتى وحرمى العزاء، لكم والست امرأة عمنا قرينتكم، والست امرأة عمنا أم شفيق الصبر والسلوان

ابنكم

رفلة يعقوب المنقبادى

١٩٤٥/٨/٢٥

قال: لماذا موت الأطفال - بكل براءتهم - ولماذا عذابهم وألمهم؟

أى حكمة فى ذلك الألم الذى لا معنى له، وأى عدالة؟

أمن أجل أن الخير لا يُدرك إلا بوجود الشرّ؟

أمن أجل أن البهجة لا يمكن أن يشعر بها إنسان إلا بما سبقها من أوجاع؟

أمن أجل أن الأشواق إلى نشوة الوجود لا تتحقق إلا بما يسبقها ويلحقها من إحباط وتردٍّ؟

قال: ربما. لكنّ شيئاً يفوق كل تبرير وكل فهم، هو عذاب الأطفال وأوجاع الأبرياء، والضربات التى تلحق بالأبرار والمجاهدين على هذه الأرض.

قال، مجدفاً تقريباً: الحكمة فى هذا تتجاوز كل معقول وكل تعليل وتظل خارج سياق التبرير.

١٩٤٣/٩/١٩

حضرة المحترم الأخ المحبوب الخواجا قلدس

تحية وسلام وشوق كبير أبعثهم لشخصكم الغالى والست أم الباشا الكبير حفظه الله لنا وأفراد العائلة جميعا، أعرفكم أنه سبق وأرسل لكم ابننا بشارة أفندى خطاب فيه يسأل عن صحة ابنتنا العزيزة الآنسة هناء وعن صحتكم جميعاً ولم يأتى الرد فلذا كنا فى مشغولية كبرى فالرجاء إفادتنا عن صحتها إن شاء الله تكون تقدمت كثيراً ونتمنى أن تكون شفيت تماماً، ولا تكن مشغول أو موهوم من اسم المرض لأنه الحمد لله عرف فى أول الأمر غير أنه يجب عليكم مراعاتها فى الدفء الكثير ووضع صوف على صدرها لئلا يصاب بهذا المرض ويجب أيضاً تغذيتها تغذية كافية للغاية حتى تتغلب بعون الله على المرض والله القادر على كل شىء يشفيها ويعيد إليها السلامة والبهجة وأرجوكم

كل الرجا إفادتنا برجوع البريد عن صحتها. كما نرجوكم أن تعرفونا ماذا عمل ابننا الباشا الكبير من حيث الشغل.

ختاماً أرجو تبليغ سلامنا إلى الست قرينتكم ولعلها صابرة على ما أنزله بها الله وكذا سلامنا إلى نجلكم الباشا الكبير وجميعكم، وفي الختام ابننا بشارة أفندى ونبيل وأم نبيل بخير جميعاً يهدوك أذكى السلام ومشغولين لعدم مكاتبتكك. ودمتم

أختك

أم شفيق

ملاحظة: أعرفكم أن سبب تأخير خطاباتنا هو إنه ورد خطاب لنا من أبونا كيرلس فيه يعرفنا بأن شفيق أفندى ابننا عمل عملية البواسير بعد أن كان له اثنى عشر يوم وقد أرسلنا لهم عدة خطابات ليفيدونا عن صحتة ولم يأتى منهم أى رد فتجدونى فى مشغولية لا أدرى أسافر أم لا والآن أنا فى حالة قلق فلأجل ذلك لم نرسل لكم نسأل عن تأخيركم الرد.

وكما تساءلت منذ قليل: هل تبدو هذه الهموم والأحزان مما عفا عليه الزمن وسفَ عليه غبار الفقدان؟ أم هل مازالت - فى صميمها - تعنى الناس جميعاً؟ ومازالت تكسر وترم القلوب والأرواح؟

ماذا يهم - حقاً - إن كانت هذه الأسماء ألبير وقلدس وبشارة وأغابيوس وسلوانس ومِنّة وسالومة «واقعية» أم غير ذلك؟ يظل ألبير وأبانوب وعايدة وإيفون سواء كانت هذه أسماء لهم أو لم تكن - هم ضحايا ضربات غير مفهومة وغير مبررة، أياً كانت الأسماء والأزمان والمواقع، الظُّلم الكونىّ واحد، وافتقاد العدل - بل افتقاد الرحمة - واحد، ومتكرر، كأنه أبدى بلا انتهاء.

قال: نعم، حتى مع نشوات الحسّ ومباهج الحب والشهوات.

قال: اصرخ بهذه الهواجس والشطحات وأمثالها ما شئت، وما شاء لك الصراخ والالتياع، قد ترددت هذه الصيحات على طول الزمن، فما جدواها؟ وماذا فعلت؟ بل ما معناها؟

ألبير يموت كل يوم بلا سبب

الفقدان شرطٌ للوجدان، نعم، لكنه يظل فقداناً بلا عوض.

في الأزمان القديمة استشهد طفل قديسٌ اسمه أبانوب، كان قد ولد في قرية نهيسة، مركز طلخا، وهي الآن كفر العرب، بالقرب من المنصورة، وتوفي عنه والده مقار وأمه مريم وهو في الثانية عشرة من عمره، وتركا له ثروة طائلة وزعها على الفقراء، وعندما ذهب إلى سمنود بجوار النهر ورأى عذابات المسيحين على أيدي جُند الرومان تَحدى الوالي لوسيانوس باعترافه بالمسيحية فعذبه وعلّقه في صاري مركب من رجليه ودمه ينزف، وظهر له الملاك ميخائيل في نورٍ بهيّ، بالليل، ليمسح الدم عن وجهه ونال إكليل الشهادة في ٢٤ أبيب - ٣١ يوليو وجسده موجود بالكنيسة التي تحمل اسمه واسم العذراء مريم في سمنود والتي تضم إلى جواره رفات ثمانية آلاف شهيد.

كم من آلاف وعشرات ومئات الآلاف، وملايين من الشهداء من كل دين وجنس وملةٍ وعقيدة ولون، نالوا جميعاً أكاليل الشهادة، ومازال للطغيان الظلم العسف اليد الطولى، فهل سيظل أبداً غلاّباً، هو الشرّ المقيم؟ يظل هذا الشرّ بكل معانيه ومستوياته الألم والطغيان والتعصب الأعمى والظلم والحقد والكذب ودناءة النفس، حقيقة ثنائية لها - مع ضدَها - وجودها الدائم - فيما أظن - مع وجود الإنسان كما نعرفه، ليس هذا الشر جانباً آخر للخير فقط، بل هو قائم بذاته - ليس فقط جانباً سلبياً يجهد الواحد الفرد أن يخلّص نفسه منه، قد يكون هذا صحيحاً ولكنه ليس كل شئ، وقد يكون الشر نتاج أوضاع اجتماعية،

ولكن ذلك ليس كل شئ. فهل أحلام الأمل والعدل والصدق تغفر الآلام والشرور وخيبات الطموحات النبيلة، تعوضها أو تعدلها؟ «النبيلة»؟ ما معناها؟ ما هى؟ هل تعادل أو تعدل الأحزان الملازمة لمجرد الحياة؟ أبداً.. !

قال: لا يمكن غفران الألم الذى فى العالم

قال: لا يمكن محوه كما لا يمكن تبريره

قال: مهما ارتفع الفرح ومهما حلّقت نشوات التحقّق والخَلْق الجديد، فإنها لا تعوض أبداً مرارة العذاب ونار الظلم وقسوتها التى لا تفسير ممكناً لها، أبداً، مهما تعددت التفسيرات.

قال: من ذلك جاء حنين الناس إلى براءة الإيمان، وطفولته.

البرارى الموحشة لا حدود لها، ولا وصول للأفق الذى يتراءى على تخومها.

الملاك المُهْلك لم يعبر عن كل باب ملطخٍ بدم خروف الذبيحة، لم تحدث البصخة ولن تحدث، لأن التهلكة تُحيق بكل باب.

«دخلت عليه وهى أحسن من النار المحرقة» كانت كسيلٍ من الحُمم الذائبة»

«أيأخذ إنسان ناراً فى حضنه ولا تحترق ثيابه؟ أو يمشى إنسان على الجمر ولا تكتوى رِجْلاه؟»

لم يحترق الثلاثة فتيان، بعد أن أوثقت أيديهم وأرجلهم، وأُلقى بهم فى أتون النار. «لم تكن للنار قوة على أجسامهم» لأن النار اتحدت بأجسامهم وتحول الجسد إلى لهبٍ وسلام.

هل عندما تعلو النغمات ينقطع الوتر؟ أم إذا كان فى النغم مجرد صخب وضجيج، وليس فيها ذلك التحليق إلى أعالٍ لا تُنال؟

كأنما وهى تدخل عليه قد طلبت مَجْد الألوهية بحبها اللانهائى، وشهوتها أن تحتضن العالم كله باحتضانه، فهل بقى لها المجد الإنسانى؟

بعد مدّ الوصْل من خضم الحب يأتي جَزْر الحُزن. Omne animal triste post coitum

لا. لم يكن هذا صحيحاً، أبداً، ولا أتته نوبة الحزن الحيوانيّ - الإنسانيّ الشامل للكل، بعد نشوة التحقق والتوحّد.

أين ذهب نذْر البتوليّة الكامل والانقطاع عن شهوات الجسد؟

قال: شهوات الجسد هي نفسها شهوات الروح.

قال: بعد انتهاء فعل المحبة - وهل ينتهي أبداً؟ - يأتي سلامٌ للروح وللبدن ما أعمقه، وهو مع ذلك سلامٌ تهيجه، من الداخل، أشواقٌ جديدة وصبوات لا تنتهي.

مغفورة لكما هذه المحبة - الشهوة، هذا الحب الذي في جوهره ليس خطيئة.

الآن كفِّر عن قدرٍ ولو يسير من هذا المجد.

باتضاعٍ أمام مجدك كنت في كامل الكبرياء، لم يكن تاج شعرك الغزير عثرةً ولا كان طريق الزلل، وإذ مسحت به قدميه المتعبتين وغمرتهما بالطيوب العطرة من جسدك وقلبك معاً فقد استحققت النعمة.

كان شعرها - ونهداها - كل ما بقي من مجد جسدها.

تهدل قميصها الفسدقي على عظام البدن، اتسعت عيناها السوداوان اتساعاً كاد يخسف وجنتيها، فيهما تتقد نار الفقدان التي لا تنطفئ.

ظمؤها إلى رجولته الآن مختلط بنوعٍ من الظمأ للانتقام - بعد أن راح منها أبانوب - تلوذ بحضنه، تحتضن فيه العالم - وكأنها إذ تضع فمها عليه تنهش هذا العالم.

فإذا كانت شهوتها للحب مغفورة فهل هي تغفر لنفسها شهوتها للانتقام؟

الظمأ وحده - ونوعٌ من الكَسْر الذى لا يُرمْ - هو الذى يوحّد بينهما.

صرخة الكروان المتكررة فى ساعة الظهر غير متوقعة وغير عادية، منذرة.

حرّ الهجير المتقد فى حارة القبَة - بعد أذان الجمعة فى البلد التى قامت فيها أطلال الأحداث الدامية، حلّ محلّه حرّ الأحشاء.

مسعودة فى بيت زوجها حماد النجعى، والأولاد ميلاد وجيد وعزيز وسلوى مع أولاد مرقص أفندى دانيال وڤيرونيا وبشاى وهيلدا فى أخميم. أما أبانوب - أين أبانوب؟

لعازر - الذى مات أيضاً من زمان - باقٍ حيٌ بينهما.

هل أضاع أبانوب بمحبته؟

يأخذها بين ذراعيه الناحلتين وكأنما علامة الأصابع الخمسة الدامية عليه، لا تمحى.

نهداها الممتلئان مازالا فى عنفوان قوتهما، إذ ينهضان على الصدر المسطّح الذى بانت عظام أضلاعه من وراء الجلد الأسمر المشدود، وهو يعتصرهما يريد أن يقضى على ينابيع الحياة لكى تخلص له وحده الذى لم يعد اسمه الآن لعازر، ولا أبانوب.

قال: لست مستحقاً للحياة

نظرت إليه بعينيها الغائرتين، لم تقل شيئاً.

كان رأسه على فخذيها الضامرتين الآن، تحت بطنها الذى أحسّه صغيراً وإن ظل ناعماً كما كان يعهده، كان العُقد «المشخلع» الذى يطوق جيدها من الذهب البندقى الخالص الطرى قليلاً عيار ٢٤، يبدو كأنه اتسع وتهدل إذ يصلصل وهى تنحنى على رأسه - وقد تخلّله شئٌ من الشيب وخفّ شعره كثيراً.

قال: إيزيس، هل تملكين أن تغفرى لى؟

قالت، بما يشبه الغضب: أنت لم تفعل ما يستوجب الغفران

قال، مرة أخرى: إيزيس، اغفرى لى.

قالت: لماذا تسمينى إيزيس؟ اسمى الحقيقى فى شهادة الميلاد مادلين. لماذا تسمينى إيزيس، أنا امرأة خاطئة، زوجة خائنة، أم لا تستحق أن يعيش لها ولدها.

إيزيس؟ إليست إيزيس الإلهة؟

قال: نعم. هى من جوهر الألوهية.

قالت: إيزيس اسم دهبية تمر علينا تحمل البهوات الكبار إلى الأقصر وأسوان، إيزيس اسم ماركة سجاير، إيزيس اسم ماركة عطور شرقية.

قال: لماذا التجديف وانتهاك الحرمات، والأقداس؟ إيزيس وجهٌ من وجوه الإله، وجهٌ رهيب وجليل ومفزع وجلاب للهلاك أو للخلاص.

قالت: أنا امرأة، مجرد امرأة خاطئة...

قاطعها: نحن لم نؤذ أحداً. لم نخدع أحداً.

قالت: الصمت أيضاً كذب.

قال: الصمت صدق لأنه وحده هو الذى لا يسئ إلى أحد بشئ.

قالت، ساهمة متفكرة كأنما تحدث نفسها: يجدنى كلما يريدنى. لا. لا أخونه، ما بيننا هو فقط احتياج واهتياج ولا شئ آخر، مازالت أمه، مازالت الستّ كيريا تملكه.

قال: لا نخون أحداً، لا نؤذى أحداً، ولا حتى أنا - إذ أكسر نذر البتولية - خائن، لا. لأن الوفاء عندى لشئٍ أعمق من معنى الامتناع الساذج. ليس قهر الجسد بالامتناع بل يتجاوز الجسد إلى سعيٍ روحى. ليس هذا مجرد تبرير. هو حقٌّ من الحقّ.

فى هذا الظُهر خانق الحر كانت النافذة الواسعة المطلّة على صحن البيت مغلقة الضلفتين، هواءٌ حارٌ قليل ينفذ من خصاص الخشب المردود بإحكام، وكانت الشمعة الكبيرة مثبتة فى حامل نحاسىّ معلّق

بمسمار فى حائط غرفة النوم، تتقد بشعلتها المهتزة تحت أيقونة العذراء حاملة الطفل يسوع على يمينها.

صاح ديكٌ على السطح، صيحة نداء.

نهض فجأة، انسدل على عريه الرداء الأسود، وقام حافياً، اختطف الشمعة الكبيرة المشتعلة ووضعها تحت باطن كفه المفتوحة الممدودة على النار وقال: عنى، وعنك معاً.

صرخت صرخة صغيرة، وقامت ليس عليها إلا الشال البرتقالى الداكن القلاّب، سابغاً على ظهرها النحيل، وشراشيب الشال تهتز على نهديها.

جرت، وانتزعت الشمعة بقوة من تحت كفه المبسوطة على الشعلة، ثابتةً لا تكاد تهتز، انطفأ اللهب، وصعدت رائحة الشمع الساخن واللحم المحترق.

دلقت كوز ماءٍ بارد على باطن الكفَ الذى احترق جلده فى دائرة حمراء سوداء مشعثة ونفذ الاحتراق إلى داخل اللحم.

رفض أن تلفَ يده بخرقة نظيفة مبللة، وتركها وقد بدأ الألم القوى يسرى ويلذعه ويرسل ومضات متلاحقة كالبرق من الوجع، ليس فى يده فقط بل فى جسمه كله.

كان صامتاً، فقط يكزَ على أسنانه.

مازال ندب الحرق فى يدى حتى الآن.

المحبة، كما هى حانية، ومبتهلة، قاسيةٌ تجلد مواضع الحب وتسحقها، ذبيحةً وكفارةً وقرباناً، ولا فداء. لأنها أمينة هى جروح المحبة، ربما، ولكن آلام طعناتها ليست أقل من نشوة متعاتها، وأمانة الجرح تطوى فى داخلها قهراً دفيناً.

لم يكن ما بينهما كذب، حتى لو كان فى عزَ توحدهما وحشة لا خوف بينهما، لا من العالم ولا مما هو وراء العالم، الخوف يقتل

والروح يُحيى.

يده المحترقة أمارة صدق نهائى، وطلب للغفران لا استجابة له.

كان قد هتف مرةً فى ذروة تحققه: كل قواتك وطغماتك لا تقوى علىّ، لا تملك الآن أن تسحب منىّ ما عرفته فى سماواتك.

قال: فى ظلام هذا الحب نورٌ لا يُطاق

قال: هذا نور يثبت فىّ إلى الأبد

وفى هذه اللحظة كمالٌ لا يحدث أبداً فى أفق آخر، ومعرفةٌ أعمق من أىّ كلمات.

كانت تحتل موقعها فى صَدَفة قوقعة ضخمة مفضوضة، تسع جسمها كله، وقد حملتها أمواج الفيضان من هضاب الحبشة، فتحت فخذيها الناحلتين المسفوعتين بشعاليل مكتومة وما بينهما غير مضنون به، ثعبان الكوبرا الملكى الطويل، جسمه المدوّر الأملس حراشيفه مستكنة داخل جلده، مرقّطة ولامعة، عيناه مفتوحتان بلا غمض، فمه ينبثق منه لسانٌ حاد مشقوق نصفين، يمتد ويعود، قائماً منتصب الرأس بكبرياء، يلتف حول خصرها الهضيم وحول نهديها المشرئبين باعتزاز لا يطامن منه شئٌ ولا فقدان الضَنَى بعد افتقاد القرين.

كانت أساور الذهب قد اتسعت حول رسغيها، وفى حميا فعِل المحبة إذ أحاطته بذراعيها سمع صلصلة الذهب ورنّة اصطدامه بعضه ببعض.

أخذت رأسه إليها ودفنته بين نهديها، وإذ أمِن إلى لدونة اللحم الخصيب ثارت فيه نوازع غامضة، نتر نفسه منها بينما ضمها إليه مبتعداً برأسه عنها، بحركةٍ بين الرفض والاحتواء، وكأنما عذوبة مُسْكِرة على شفتيه تستحيل مرارةً صلبة القوام وعطش العشق، الدائم، الذى لا يرتوى.

وما من وسيلةٍ لإغلاق الأحشاء أمام هذا العطش المقيم.

فهل كانت نزعته البتولية معرفة بأن عطش اللذة لا رِىَ له ؟

القداسة ليست في البتولية بل في بهجة التوحّد مع القداسة .

لا ينظر إلى الأمور التي تُرى ، بل إلى تلك التي لا تُرى ، ولا تُقال .

لأن الذي يزرع للجسد فمن الجسد يحصد مجداً ، هللويا للجسد ، ليس الفساد حصيد الزرع إلا إذا كان الزرع فاسداً .

عندما كانت شهوة القداسة تتمرغ بهما على أرض حوش البيت المخايل بنصف النور نصف العتمة ، في عزّ الضهر ، كان النمل قد زحف في قوافل منتظمة على حبات النبق الساقطة من الشجرة الوارفة ، تفوح منها رائحةٌ فيها عطنٌ حلوٌ وحريف يجفّ له لسانه إذ تنطوي عليه شفتاه المحترقتان في قبلة محبةٍ لا تنتهي ●

الفصل السادس عشر
التجسُّد

قد يبدو أنه لم يكن من الضرورىّ - أبداً- أن يأتى هذا الفصل هنا، ولا -حتى - أن تضمه هذه الرواية أصلاً.

هل هذه رواية؟ نعم ربما بالمعنى المألوف، وربما لا.

وعلى أى حال، فما الضرورى فى الفنّ وما غير الضرورىّ؟ ألسنا نحن الذين نوجد الضرورة إيجاداً فى قلب الحرية؟ عندما نقول أو نعتبر أو نجد أن شيئاً ما ضرورىّ؟

قال: لم أستطع أن أقاوم إيمانى بتجسد الإلهىّ فى داخل الإنسانىّ، ولماذا أقاومه؟

لك أن تقرأ هذا كله أو أن تطويه طياً، بطبيعة الحال. وليس ذلك من قبيل اللامبالاة أو الاستهانة بل، على العكس تماماً، فكم أحب أن تقرأ وأن تفكر وأن تختلف أو تتفق معي. لكنى لا أعرف إن كان ذلك كله يهمك فى شئ. ولاأريد بالتأكيد أن أثقل عليك.

وعلى أى حال مرة أخرى، من يضمن لك - أو يضمن لى أنا نفسى - أن ما يقال هنا، سواءً كان ذلك فى حكاية الأحداث أو ابتعاث الشخوص أو طرح الأقوال والأفكار والمشاعر هو شئ كانت له أو مازالت له ضرورة؟ أو أنه هو ما حدث، أو لم يحدث، أو هو ما تسميه الواقع أو حتى تسمَيه الفن؟ ليس ثم ضمان لشئ، كما هو بديهىّ.

كل شئ هنا - وفى كل مكانٍ وزمانٍ - مراوغ، مخايل.

مثلاً هل ما حدث بين مادلين منّة ولعازر أغابيوس قد حدث فعلاً أو هل حدث فناً؟ شأنه فى ذلك ما بين مارينا رامة وهذا الراوى الذى لا يفصح عن اسمه مباشرة قط، أم أن ذلك كله ثرثرة بلا غناء؟

وكيف مات - أو قتل - الأنبا باخوميوس، مع أن النيابة قد حققت في الأمر وسألت الشهود والمعنيين وأصحاب الشأن؟

قس على ذلك، على طول الخط.

عندما غضبت نساء البلد، فوتنه وليديا وفيبيا، على سالومة، الله يقدس روحها، هل كان ذلك من حبهن لأزواجهن وخشيتهن عليهم، أو غيرةً من تدفق حيويتها وبراءة وجودها أمام شعث الحياة؟

وهل ما بين منه وأغابيوس، أو رامة والراوى، حقيقيٌ ضروريٌ أم أنه من أضغاث الفن؟

ومتى وأين حدثت مطاردات العسكر للناس؟ ومتى وأين لم تحدث؟

وعندما كان أجدادى يرسمون سمكتين متقاربتين، تسبحان في فضاء النسيج الأخميمي، أو البردى، أو الحجر الجيرى أو حتى تراب الطريق، ويرسمون أحياناً، تحتهما، زهرة اللوتس التي توشك أن تكون صليب الحياة عنخ الفرعوني أو هي صليب المسيح القبطي مورق الأطراف، فهل هم فقط يتخذون من هذا الرمز علامة للتعرف على أحدهم الآخر في أزمنة الاضطهاد، أم أنهم يواصلون الكتابة الهيروغليفية المقدسة التي ابتدعها الأسلاف - وهي نفسها الديموطيقية والقبطية والعربية التي أكتبها الآن؟ وذلك كله في غمار صراعهم الجنوني ضد الأوثان دون أن يدركوا بوضوح أنهم قد سقطوا في الوثنية نفسها. ومهما أوغلنا في التجريد فما من معدى عن الوثنية والتجسيد.

ليست السمكة فقط هي «آكثيث». ألم يرسمها ويقدسها المصرى القديم منذ الدهور السحيقة؟

كل شئ له أكثر من مستوى للدلالة، طبعاً، يعني كل شئ مراوغ لا محالة، مهما أسرفنا على أنفسنا - حتى - في صرامة التدقيق والتحديد.

وهل إذا هتفت به «أخرج من سفينتي» يستجيب لي؟ وهل أنا بالفعل أعني ما أقول؟ أم أنني أمتحنه؟

وعندما أقبل على نفسي مهانةً أو إذلالاً، أو أنصاع، فهل تنكسر أبداً تلك الكبرياء الداخلية التي تقيم عودي؟

ها هو ذا أبادير - مثلاً - قد أوشكنا أن ننساه منذ أن قام بدورٍ غير محمود أثناء التحقيق في رحيل الأنبا باخوميوس، وفي مصرع أخته سالومة - نراه الآن يصعد السكة الوعرة إلى الدير الكبير، روحه معذبة بالأسئلة والهواجس وربما لواذع الندم غير المُعلَن.

فتح له الراهب الموكّل بالبوابة، حياه تحيّة مسيحية وسأله، من على الباب، ما الذي أتى به أثناء الصوم وانقطاع الزيارة؟ فقال أبادير إنه جاء أولاً للصلاة والتقدمة وزيارة أخيه الكبير الأنبا تاوضروس رئيس الدير، ثم أنه يعتزم اللقاء بالآباء - إذا سمح الربّ - لأن مسألة تجسد يسوع المسيح تؤرقه وتضنيه، والأنبا تاوضروس على معرفة باللقاء.

استمهله الراهب بالإذن، تركه في الجبل قليلاً، عاد إلى أبونا تاوفيليس، أكبر الآباء سناً، يسأله السماح، فقد كان الأنبا تاوضروس معتكفاً، فسمح له بالدخول، وإن كان ذلك من اختصاص رئيس الدير، إذ قال في نفسه: خطيّة عليَّ، الوليدُ عمَّ يفرفطُ في جلْبه، نسمع منّه، ونعتّل نجاوبه، باتضاع، ربنا ينورْ لنا طريجنا كلّنا عادْ.

عندما طرق أبادير قلاية أبونا تاوفيليس، كان قلبه مضطرباً وأفكاره تتنازعها الهواجس والأسئلة الصعبة.

كيف يتجسد الله إنساناً يدعى يسوع؟

ما معنى أن يسوع المسيح هو ابن الله؟

قال تاوفيليس: هو ابن الله بمعنى أنه قوة الله، وحكمته، عقل الله المدبّر، كلمة الله، هذا ما جاء في رسالة بولس إلى أهل كورنثوس. معنى ذلك ياوليدي أن الله وعقله وقوته وحكمته وكلمته واحد. لأن المسيح

قال : أنا فى الأب ، والأبَ فىَ ، وقال أيضاً : أنا والأب واحد .

قال أبادير : يا أبونا ، أصبر علىَ وحياة المسيح الحىَ . لأنى لا أفهم كيف يكون الأب والابن واحداً . فهمنى يا أبونا ، هل هذا معقول ؟ هذا أمر لا يصدقه العقل : كيف مات ابن الله ، إذا كان هو والله واحداً ؟ هل مات الله على الصليب ؟

– هو شئ معقول يا بنى ، لا لشئ إلا لأنه مما لا يقبله العقل ، إنه أمرٌ محقق ، لأنه مستحيل ، لكنه حدث ، حدث بالفعل . أما العقل فلا شأن له هنا .

– نعم يابونا ، لكننى لا أستطيع أن أُلغى عقلى ، إنه هناك ، دائم التفكير ، كالعجلة دائمة الدوران ، لا أستطيع أن أوقفها .

– طيب يا وليدى ، أنظر وتأمل معى . قبل تجسده من مريم العذراء ظهر ربّ المجد يسوع المسيح عدة ظهورات ، هذا ما اتفق الآباء على تسميته التجسد قبل التجسد . أول هذه الظهورات ما جاء فى سفر التكوين «فناداه ملاك الرب من السماء فقال إبراهيم إبراهيم فقال هأنذا فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً لأنى الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى» هذا أول ظهور .

– نعم يابونا ، أومن وأصدق . لكن هذا نداء . كيف يكون تجسداً

– هذا بالضبط ما أريدك يا بنى أن تتأمل فيه ، لأن النداء هنا هو الكيان نفسه ، هو تجسد مادى لما هو غير قابل فى جوهره أن يكون مادياً .

– أبونا ، أبونا ارحم ما أنا فيه ، قل لى ما يريحنى ، ولو قليلاً .

– طيب يا أبادير يا وليدى . ارجع إذن إلى ما جاء فى تكوين ١٤ : ١٨ عن ملكى صادق ، كاهن الله العلىّ ، والذى قال عنه القديس بولس إنه بلا أب ، بلا أمّ ، بلا نسب ، لا بداية أيام له ، وليس له نهاية أيام . مَنْ الذى تكون له هذه الصفات بلا أب ولا بداية أيام وليس له

نهاية أيام إلا المسيح له المجد ، فما كان ملكى صادق إلا أحد ظهورات السيد المسيح قبل ولادته من العذراء مريم.

- ولكن هذا الكاهن - أو هذا الظهور الإلهى - وُصف بأنه بلا أب ولا أمَ. أنا أسأل، سامحنى يا بونا ، عن أن يسوع هو ابن الله ، أى أن الأب هناك ، قائم ، وعن أنه تجسد من أمَ الإله مريم العذراء ، الأم إذن هناك أيضاً .

- طيب يا بنىّ ، انظر إلى ما جاء فى سفر الرؤيا ، قوله عن نفسه له المجد : أنا هو الأول والآخر ، البداية والنهاية ، الألف والياء - الحىَ وكنت ميتاً وهأنذا حى إلى أبد الآبدين. وكما جاء أيضاً فى تكوين أن الرب ظهر لإبراهيم مع ملاكين ، وجاء فى التلمود اليهودى أن إبراهيم كان قد قطع على نفسه عهداً أن لا يكسر خبزةً ولا يأكل إلا مع غريب ، فحنق عليه الشيطان ووقف ذات يوم فى الطريق المؤدى إلى خيمته ومنع كل العابرين إليه ومكث إبراهيم على هذه الحالة ثلاثة أيام حتى خارت قواه فبعد ذلك ظهر له الرب مع ملاكين مشفقاً عليه وأكل معه والملاكان ، مع أن اللاهوت لا يأكل ، بل الجسد الأثيرى الذى ظهر به فى هيئة ملاك هو الذى أكل.

- نعم يا بونا ، مجداً وإكراماً ، لا تظن أنى مكابر أو عنيد. أبداً يا بونا ، فقط أريد أن أفهم وأن يستقر إيمانى.

- اسمع يا أبادير يا وليدى. جاء فى سفر يشوع بن نون تلميذ موسى النبى الكليم : «وحدث لما كان يشوع عند أريحا أنه رفع عينيه ونظر وإذا برجل واقف قبالته وسيفه مسلول فسار يشوع إليه وقال له هل لنا أنت أو لأعدائنا ، فقال كلا بل أنا رئيس جند الرب أتيت فسقط يشوع على وجهه إلى الأرض وسجد وقال يكلم سيدى عبده فقال رئيس جند الرب ليشوع : اخلع نعليك من رجلك لأن المكان الذى أنت واقفٌ عليه هو مقدس ففعل يشوع كذلك». فهل حقاً كان هذا رئيس جند

الرب؟ إن مار يوحنا اللاهوتي قال في سفر الرؤيا : خررت عند رجليه لأسجد له فقال : انظر لا تفعل أنا عبدٌ معك ومع أخوتك الذين عندهم شهادة يسوع المسيح اسجد لله. يعني أن السجود لله وحده، الملاك لم يقبل سجوداً من يوحنا، على عكس رئيس جند الرب الذى قبل السجود من يشوع. يا بني أنا أكلمك الآن عن إمكانية التجسد الإلهي، الإمكانية فقط، أسوق لك أمثلة عن ظهورات الرب. الظهور هنا معناه التجسد.

– نعم يا بونا، نعم. لكن ذلك كله لا يعني في فهمي المتواضع، أنا الخاطئ، أن......

قاطعه أبونا تاوفيليس باندفاع من تراءت له الرؤى:

– اسمعني يا بني. سوف يأتي في قابل السنوات البطريرك البابا الذى ظهر بعد شنودة الأخميمي والذى سوف يقول كأنما يردّ عليك، إن المسيحية تنادى بأن الأقانيم الثلاثة الأب والابن والروح القدُس إله واحد. الثالوث يمثل الله الواحد، بعقله وروحه، كما نقول إن الإنسان بذاته وبعقله وبروحه كائن واحد، وإن النار بنورها وحرارتها وشعلتها كيان واحد.

– يا بونا تاوفيليس، أنا لا أجادل بل أريد أن أعرف، فقط، فقد سمعت وقرأت في التاريخ أن أوزيريس وإيزيس وحوريس هم أيضاً ثالوث إلهيَ عند أجدادنا القدماءْ.

– نعم ولكنهم ليسوا إلهاً واحداً، بل تزوج أوزيريس بإيزيس وأنجبا حوريس عن طريق التناسل. وليس في الثالوث المسيحى امرأة ولا زواج حاشا، الابن في المسيحية ليس نتيجة تناسل جسداني، حاشا، فالله روح، الابن في المسيحية هو عقل الله الناطق أو نطق الله العاقل، وبنوّة الابن من الأب هنا مثلما نقول «العقل يلد فكراً» ومع ذلك فالعقل وفكره كيانٌ واحد لا علاقة لهما بالتناسل الجسداني. الفكر يخرج من

العقل ويظل فيه غير منفصل عنه.

- أنت يا أبى تقول، على لسان هذا البطريرك، إن الأقانيم المسيحية لا انفصال فيها لأقنوم عن الآخر، وهو ما قال به كل الآباء حسب معرفتى، وحسب ما جاء فى الكتاب، فهل الأقانيم المسيحية متساوية فى الأزلية كذلك، لا تختلف فى الزمن؟ ألم يأت المسيح لاحقاً فى الزمن؟

- حاشا يا بنى. الله بعقله وروحه موجود منذ الأزل، عقله فيه منذ الأزل روحه فيه منذ الأزل، لم يمر وقت كان فيه أحد هذه الأقانيم غير موجود.

- سؤالى إذن يا بونا هل أن التجسد يعنى التحيّز، يعنى الوجود فى حيّز محدود؟ يعنى قصدى أن أسأل هل تجسّد الرب يعنى أن الرب صار يحده حيِّز محدد، فيتحيز، لكننا نعرف ونقول دائماً إن الله غير محدود.

- يا أبادير يابنى أسئلتك كلها هامّة ومحفزة، كلنا سألنا نفس الأسئلة، والجواب أن التجسد ليس معناه التحيّز فالله لا يحده حيّز من المكان، وإنما عندما كان الجسد فى مكان - مثل الناصرة أو أورشليم أو عندنا فى مصر فى رحلة العائلة المقدسة - فقد كان بلاهوته فى كل مكان. مثلما نقول إن الله كان يكلم موسى على الجبل، ومع ذلك لم يكن فى حيِّز الجبل، بل فى نفس الوقت فى كل مكان، مدبّر العالم، ضابط الكلّ، وهكذا حينما كان الله يكلم إبراهيم وحين ظهر له أو لغيره من الأنبياء كان فى نفس الوقت فى كل مكان. عندما نقول إن الله على عرشه لا يعنى ذلك أنه، تعالى، تحيّز أو تحدد على هذا العرش، بل هو مُمَجّد هنا وموجود فى كل مكان، عرشه السماء وعرشه كل مكان يتمجد فيه، هو فى السماء والسماء لا تسعه. أنه كان فى الجسد فى مكان، أى مرئياً بالجسد فيه، وفى نفس الوقت غير مرئىّ فى باقى

الأمكنة باللاهوت، هو بلاهوته فى كل موضع، ولكن رآه الناس بالجسد في مكان معين، وإن كان بلاهوته فى كل الأرض والسماء، لأن اللاهوت غير محدود.

تنهد أبونا تاوفيليس، وخفت صوته فجأة، بعد هذه الاندفاعة في توضيح رؤاه، وقال بصوت واهن:

- الآن اذهب عني يا أبادير يابن اسطفانوس، تعبت، وما أظنك قد فهمت أو آمنت تماماً. أشعر أنك مازلت تهجس بك هواجس لا أقول شريرة، لا أقول هواجس من الشيطان، فلعلها إنسانية جداً. ولعل الرب يدبر أن تجتمع والآباء في يوم قريب، وندعوك معنا إلى تأكيد إيمانك اذهب الآن، الربّ معك.

عندما انعقد، فعلاً، هذا الاجتماع غير العادى، دون أن تكون له صفة رسمية أو إعداد مسبق، بعد صلاة الساعة الثالثة، نهض الراهب فرج الأشمونى، ولفّ سفر المزامير بسترٍ من الكتان الأبيض، ووضعه على رأس أبونا تاوفيليس - كما يفعلون عادة فى ليلة الأبوغلمسيس، ليلة سبت النور - وطاف الموكب الصغير حول الآباء المجتمعين، ابتهاجاً وتبركاً، قال لى أغابيوس: لم يكن هذا مجرد تقليد شكلىّ، لأن سفر المزامير أكثر سفر تكلم عن آلام المسيح فى تجسده، فى الناسوت.

كانت القاعة التاريخية الفسيحة فى الدير خاوية، ليس فيها إلا مصطبة حجرية دائرية فُرش عليها كليم صوفىّ من نسيج أخميم، أمامها مائدة من الخشب، عليها نسخة من الكتاب المقدس، عريقة ضخمة، ورقها سميك مصفرّ، مجلّدة بغلاف من جلد غزالة سلمى البدوية التى كان قد اصطادها - فى الزمن القديم - واحدٌ من شباب نجع ساقلته.

كان الأنبا تاوضروس نفسه صارم الوجه، جاداً، ورئيساً، يتصدر

المائدة، يتدلى على صدره صليب كبير من الخشب، إلى يمينه أبونا تاوفيليس، مُرهقاً، نحيلاً، وضئ الوجه، ساكن الروع ولكن فى يقظة روحية، يليه الراهب أغابيوس، قلقاً، معذَب القلب بالحب، وعلى يساره أبونا باسيليوس، أمين المكتبة، العارف بالتاريخ والوثائق والرُقى والسحر، يليه أبونا سيداروس الطبيب تفوح منه - مازال - رائحة الجرجير والخس الطازج.

بعد الصلاة الربانية «أبانا الذى....» والدعاء ورشومات الصليب افتتح أبونا تاوضروس الكلام، قال:

- أخى الأصغر ابننا أبادير اسطفانوس، ربنا يمده بقوةٍ من لدنه، سألنا عن التعبير الوارد بقانون الإيمان عن ربنا يسوع المسيح، من حيث لاهوته، أنه «واحدٌ مع الأب فى الجوهر» وهل هذا التعبير هو الأصح لاهوتياً، لأن بعض الناس يقرأونه «مساوٍ للأب فى الجوهر» أى التعبيرين أصح؟

والجواب أن التعبيرين معناهما واحد، كل منهما ترجمة للعبارة اليونانية homooysios هوموسيوس، لكن التعبير الصحيح الذى يعبر بأمانة ودقة عن الكلمة اليونانية هو «واحد مع الأب فى الجوهر» «هوموسيوس» ولتعلم يا أبادير أن قانون الإيمان الذى قرره مجمع نيقيه المسكونىّ فى عام ٣٢٥ ميلادية وُضِع أصلاً باللغة اليونانية، لأنها كانت اللغة العالمية المستخدمة فى المجامع المسكونية، وبها كانت تجرى المساجلات اللاهوتية، وبعدها ترجم إلى اللغات الأخرى. وفى النص القبطى يرد النص هكذا هوموسيوس پى نيم إفيوت لكن الكلمة اليونانية تعبر عن الوحدة الجوهرية القائمة بين الأب والابن والروح القدس فى الذات الإلهية الواحدة. إذا تأملت الكلمة اليونانية يا أبادير تجد أنها تتألف من مقطعين أولهما «هومو» والثانى «أويسيوس» ومقطع Osysios هو الصفة الفاعلية من كلمة Oysis ومعناها «جوهر». أما

المقطع الأول Homo فيفيد حرفياً «مع» أو «معاً» أى أن الأب والابن والروح القدس «معاً» جوهرٌ واحدٌ، ذاتٌ إلهية واحدة. وهو مأخوذ من النطق الإلهى: «أنا وأبى نحن معاً واحد» ليس فى النص اليونانى ولا فى ترجمته القبطية ما يبرر ترجمته بلفظ «مساو» للأب فى الجوهر. ثم أن تعبير «مساو» قد ينقل إلى الأذن العربية ما يفيد الإثنينية فى داخل الذات الإلهية الواحدة، وهو ما يجب أن نتحاشاه، والكلمة اللاتينية المقابلة للتعبير اليونانى هى Con-Substantialis التى نقلت إلى اللغات المنبثقة عن اللاتينية، وخذ بالك يا أبادير أن البادئة «Con» ليس فيها ما يقابل الكلمة العربية «مساوٍ» بل بالأحرى أن معناها «مع» والخلاصة أن ربنا يسوع المسيح واحد مع الأب فى الجوهر أى أنه من نفس جوهر الأب ومن ذات طبيعته.

بعد هذه المحاضرة الدقيقة سقط صمت كامل، قصير

ثم سأل أبونا باسيليوس:

- كيف، ونحن نؤمن أن المسيح هو الله وقد تجسد، يُفرق الرسول بين الله وبين يسوع المسيح فيقول «إله ربنا يسوع المسيح» ثم كيف ونحن نعتقد أن المسيح قام من بين الأموات بسلطان لاهوته، يقول القديس بولس إن الله «أقامه من بين الأموات وأجلسه إلى يمينه فى السماوات فوق كل رئاسة..»؟

أجاب الأنبا الرئيس بثقة وعلمٍ:

- المسيح له المجد يجمع بين كونه إلهاً وإنساناً فى الوقت نفسه، بصفته إلهاً أقام الأموات بأمره، وطرد الشياطين وأخرجهم من أجسام الناس بكلمةٍ من فيه، جميع المعجزات صنعها بقدرة لاهوته، لم يطلب قوةً خارجاً عن ذاته، لأن «قوة كانت تخرج منه» وفى بستان جثسيمانى، وهو فى معاناته آلام الفداء إذ وضع ذاته فداءً عن الإنسان، ظهر له ملاكٌ من السماء يقول «لك القوة» لكن المسيح بصفته إنساناً

شارك البشر وشابههم فى كل شئ فيما عدا الخطيئة، حملته العذراء فى بطنها كإنسان، وتما جسده كإنسان، ارجع فى هذا إلى إنجيل لوقا ٢ / ٥٢، وتعمدَ وصام وصُلب ومات كإنسان وتم بذلك عمل الفداء والخلاص من عبء خطيئة آدم الأصلية التى تحمل وزرها كل أبنائه، يسوع بصفته إنساناً تحمَّل فى جسده الحكم الذى قضى به العدل الإلهى على الإنسان وهو الموت، عندما قال الله لآدم «وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت».

تدخل أبونا تاوفيليس قائلاً:

– وبهذا المعنى قال بولس الرسول «لأن الله واحد، والوسيط بين الله والناس واحد هو المسيح يسوع الإنسان الذى بذل نفسه فديةً لجميع الناس».

استمر الأنبا تاوضروس، بجدية كاملة واستغراق تام، كأنما لم يتكلم أحد، كأنما لم يقاطعه أحد:

– الخلاصة يا أبنائى وإخوتى أن مثل هذه التعبيرات على نظير قوله «أقامه الله».. «رفعه الله وأجلسه..» قيلت وتقال عن المسيح له المجد من حيث هو إنسان اتخذ له جسداً مطابقاً لجسدنا، وفيه قبل الصَلْب والموت كإنسان، على أن الله الذى أقامه ليس آخر وإنما هو بعينه اللاهوت المتحد بإنسانيته، لأن عقيدتنا أن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة ولا طرفة عين. لا فرق بين الله وبين يسوع المسيح إلا من حيث أن يسوع المسيح هو الله ظاهراً فى الجسد، فلا ننسى أن المسيح له المجد تجلى لبولس الرسول لابساً الجسد الذى اتخذه بتجسده، وإن كان «فى نورٍ أبهى من شعاع الشمس» لأن جسده بعد أن صعد به إلى السماء لم يعد يحجب بهاء اللاهوت. غنىٌ عن الكلام أن الله مخلصنا هو يسوع المسيح، ويسوع المسيح هو الله مخلصنا وربنا له المجد إلى أبد الدهور.

إلى أبد الدهور في الهيكلوت الأعلى

أبتهل إليك يا صاحب الصوت الذى انبثق منه العالم، يا مَنْ بثّ السحر في عيون الأطفال والحبيبات، أتضرع إليك وأنت على عرشك الواقع على يمين شجرة الحياة وعلى يسار شجرة المعرفة يدك اليمنى تقرع الناقوس الذهبي لكل المواقيت ويدك اليسرى تعزف على قيثارة الكون بإيقاع لا تتسلل إليه شَعرة من خلل، فإذا بالملائكة تشدو: سبّحوا للرب في ملكوته.

ربَ املأ هذه الكأس بخمر النعمة ونفح القداسة وبهجة الوجود، الآن.

لأن ملكوت السماوات هنا والآن.

اغرس في قلبي شجرة يانعة لأنني تنادى باسمك

لا تحجب اسمك عنى لأنه حينئذ فإن القمر في الغرب يُنازل مخلوقات السماء قائلاً: تحوّلى يا سماء القلب إلى رصاصٍ كابٍ، ويقول للأرض: تحوّلى يا أرض الروح إلى حديد قاحل لا يثمر فاكهة ولا يُعطى حُباً، حتى يرمى الرب برمح نوره المشتعل Iseosis Kai Diseos Auri-oukkakmrouk أيسيوزيس كاى ديسيوس أوريو كاكمروك.

امنحنى أن أقول كلمة ليس فيها بحّة ولا قرقعة ولا ضجيج، لا لعثمة ولا رنّة زيف، صوتاً يصّاعد في السماوات العُلى ويضرب في الأرضين، حتى يدخل قلباً ولو كان واحداً وحيداً، كلمة يسرى فيها نَفَسٌ من كل الموسيقى في كل الأزمان في كل البقاع في كل ملَجة في كل أوان، ولو كان نفساً واحداً وحيداً. اعطنى أن يكون في روحى ولو قبسٌ واحد ضئيل جداً، حتى، من إشعاع نورك. لا تجعل نعمة الإلهام تزورُ عنّى، أدعوك بأسمائك التسعة والتسعين أدعوك بحروف الفتح والكسر والضم في عناق لصيقٍ حميم. اسمع إلى ترنيمات فمى إذ تتوهج أمامى في رؤياى كالثلج الناصع حتى لا يغمرنى الخوف ولا

الشك ولا اليأس بلججها الطامية وإن كان لا مفرّ من طغيانها حيناً بعد حين. ضعْ حلاوتك - ولو ندعةً متطايرة منها فقط - فى حلقى حتى يفيض بى رحيق الحب نقياً عذباً بحتاً دون ماء دون نار على مائدة من رخامٍ جسدىَ نيّر من داخله. اغسل فمي بالنبيذ الأبيض من تسع حبات عنبٍ شفاف وتسع حبّات من عنب الدم الطهور. اسدلْ علىَ ظلمات وجودك الساطعة بضوءٍ لا يطاق، امنحني أن أفنى فيما هو وراء الحدود. تحلّقت حولى الملائكة السبعة لهم الحراشيف الذهبية الوهاجة وكلهم عيون متقدة هم الذين ردّوا عنّى هجمات التنانين ذوى ألسنة النار الشريرة الكاوية والتياتين العملاقة التى تعوى كالذئاب وتضحك كالضباع وتضرب بزعانفها اللزجة أمواج فيض الحبّ.

ترتيلة أغابيوس الباطنية لم يسمعها أحد

قال أبونا باسيليوس:

- أيها الآباء المغبوطين بنعمة الرب، يا أبادير يا بنى، فلنتذكر معاً أنه فى مثل هذا اليوم ٩ هاتور - ١٨ نوفمبر سنة ٣٢٥ لميلاد السيد المسيح اجتمع ٣١٨ أسقفاً فى مدينة نيقية، مكانها الآن قرية صغيرة فى تركيا اسمها إيزنيك، وكان بالمجمع البابا الكسندروس بابا الإسكندرية ومعه شماسه الخاص القديس أثناسيوس، كان سبب انعقاد المجمع، كما تعرفون يا آبائى - محاكمة أريوس الهرطيق الذى أنكر اتحاد المسيح ابن الله مع أبيه، فى الجوهر، وقال «كان الأب حيث لم يكن الابن» ولما لم يرجع عن رأيه الخاطئ حَرَمَه المجمع ومن معه. ثم وضعوا قانون الإيمان: «بالحقيقة نؤمن بإله واحد» وفيه على الأخص، رداً على تساؤلات ابننا أبادير «نؤمن بربٍ واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور نور من نور إله حق من إله حق مولود

غير مخلوق واحد مع الأب فى الجوهر . . . ».

للمرة الأولى فى هذا الاجتماع المهيب واتت أبادير شجاعةٌ كانت قد أوشكت أن تزايله ، خلّص زوره ، تنحنح ، تردد قليلاً ، ثم قال بصوتٍ بدأ خفيضاً ثم ارتفع شيئاً فشيئاً :

– صحيح ، أنا مؤمن أرثوذكسىّ الإيمان يا آبائى . لكن كلام الأسقف آريوس يلوح لى أقرب إلى العقل وأفهمه أكثر ، مادام الابن من الآب ، فهل الابن من طبيعة الخالق وهو الله ؟ أم أنه من طبيعة الخليقة وهى ليست الله : صحيح أنه المخلوق الكامل الذى بلا عيب ولا خطيئة ، لكنه جاء كما تجىء كل المخلوقات من خلال عمل الله ، أليس كذلك؟ من خلال إرادة الله ، بمعنى جاء ، تكوّن ، من لاشئ ، إذن فهو قبل أن يتكوّن ، قبل أن يولد ، لم يكن . كان هناك حينٌ لم يكن فيه ، مادام الله غير منبثق من غيره ، الله غير مخلوق ، فكل ما يصدر عنه بالضرورة هو مخلوق ، ذلك يتفق مع الفهم ، ويُخْلى المسألة كلها من السرّ ، الابن ، أو الكلمة ، هو غير الآب ، الكلمة والعقل بمعنى واحد ، صحيح ، هذا فهمته ، أحدهما ظاهر هو الابن ، والآخر غير ظاهر ، لكنهما واحد ، هذا صحيح ، وصحيحٌ أيضاً أننى أسلّم بأن هناك واحد لا غير ، هو الله ، هو الأوحد ، أسلّم بأن الابن كلىّ القدرة ، لكنه على كل حال غير الآب .

قال الأنبا تاوضروس بصرامةٍ أخذت الآن تشتد ، يُكاتم غضبه بصعوبة :

– يا بنى ، يا أخى ، لا تكابر ، لولا إقرارك بأنك أرثوذكسى مؤمن لأوقعت عليك عقوبة الحرمان ، بعد إجراءاتها ، ارجع عن غيّك ، احفظ قانون الإيمان ، يسوع المسيح له المجد مولودٌ غير مخلوق ، لا يكن حفظك بالفم بل بالقلب ، ما تقول هى بعينها الهرطقة الأريوسية ، وقد دحضها مجمع نيقيه ، ألم تسمع الأب باسيليوس ؟ فلتعرف أن الأب والابن جزآن غير منفصلين ، أقنومان من ثلاثة أقانيم ثالثهما الروح القدس ، وهى كلٌّ عضوىٌ واحد لا يتجزأ ولا ينفصل .

عندئذ صعدت النيريدات من بين أذرع حابى - تحوت، نهودهن بكر عذرية، وعيونهن نجلاء، سيقانهن التفت بى، قالت «ضع يدك على صدرى» فاستحالت يدى على نهدها إلى جوهر حىّ دائم الانتشاء لا يخفت توهجه مهما تعاقبت السنوات، حجر كريم مثل الذى كان يصقله قسيس إسكندرانى فى مصر القبطية وبثمنه يبحر فى مركب تشق به الأفلاك نحو نعمة لا تحول، المركب التى وضع الملك قسطنطينوس فيها الأنبا أثناسيوس الرسولى بعد أن قال للملك «إما أن تقتلنى أو تردنى إلى كرسىّ فى الإسكندرية عاصمة الكرازة المرقسية الممتدة من برقة والمدن الخمسة عبر الأشمونين وقفط وأخميم وإسنا إلى أسوان والنوبة» عندئذ تركه قسطنطينوس فى مركب صغير بلا ربان فى وسط البحر، ليموت، فسارت المركب حتى وصلت الإسكندرية على برّ مصر المحروسة، سالمة بعد ثلاثة أيام فاستقبله الشعب بفرح عظيم وطردوا جورجيوس الآريوسىّ البطريرك الدخيل، هل ترسو مركبى أبداً على شطّ الهوى أم تظل تتقاذفها أمواج الهوى؟

قال أبونا باسيليوس:

- الهرطقة الآريوسية وغيرها قد دحضتها كنيستنا من زمان بعيد، وحتى هنا فى أخميم دُفن نسطوروس بطريرك القسطنطينية الهرطيق، هرطقته أن مريم لم تلد يسوع، وانما ولدت إنساناً اتحد بمشيئة الله، فصار اتحاد يسوع بالأب اتحاداً بالمشيئة لا بالجوهر ولا بالذات، يسوع المسيح حلّ فيه الابن الأزلى، فهما إذن أقنومان وجوهران ومشيئة واحدة، تابعه فى تلك الهرطقة الأسقفان تادروس وديوادارس اللذان قالا إن المولود من مريم هو المسيح أما المولود من الأب فهو الابن الأزلى الذى حلّ فى يسوع المسيح، هذه هرطقة تنفى لاهوتيّة المسيح الكاملة.

قال أبونا تاوفيليس، كما لو كان يتألم:

– حتى الآن لم تسقط قطرة ندى واحدة من السماء على قبر نسطوروس الموجود قُرب نقطة بوليس أخميم، ولم تنبت بجواره شجرة ولم تورق زرعة. هرطقته تمتد إلى أن يسوع المولود من مريم جسد دون نفس إنسانية، أما المولود من الأب فهو الابن الأزلى، هو الكلمة «اللاغوس الذى حلّ فى يسوع» وهذه بدورها تنفى إنسانية المسيح الكاملة.

قال أبونا تاوضروس: عقيدتنا الصحيحة أن اللاهوت لم يفترق عن الناسوت لحظة واحدة، وأنهما جوهر واحد وطبيعة واحدة بلا انفصال.

قال أبونا باسيليوس المؤرخ حافظ الكتب:

– فى مجمع أفسس دُحضت الهرطقة الآريوسية، أما فى مجمع خلقدونية الذى انشق فيه عنا أصحاب عقيدة الطبيعتين، فقد دافع القديس ديسقوروس بابا الإسكندرية الخامس والعشرون عن عقيدتنا الأرثوذكسية الحقة أن الأب والابن والروح القدس طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، بالطبع والجوهر والمشيئة والعمل، كنيستنا المصرية وقفت بصلابة أمام اقتحامات بيزنطة وروما وعدوان الباباوات الملكانيين الغربيين، وذادت عن استقلالها ومصريتها وقبطيتها بلا تهاون، على طول تاريخها، فى خلقدونية ضربوا القديس ديسقوروس وشتموه، الملكة قامت وصفعته على وجهه، هل تتصورون أنهم نتفوا شعر لحية البابا الشيخ الجليل، هل تتصورون الصخب والتزاحم والزعيق باللاتينية واليونانية واللهجات البزرميط، هل تتصورون تمزق الملابس الأسقفية والأوشحة الكهنوتية المقدسة وسقوط التاج من على رأس القديس وآلام التجريس والإيذاء البدنى؟ وهو خليفة باباوات الإسكندرية الذين حملوا لقب «البابا» من أيام البابا هرقليس (٢٣٢ – ٢٤٩م) قبل أن يُطلق هذا اللقب على رؤساء كنيسة روما. لكنه ظل صامداً وقوياً، نُفى إلى جزيرة اسمها جاجرا، فأخذ شعر لحيته التى

سقطت وأضراسه التي خلعت من الضرب، وأرسلها إلى أبنائه في الإسكندرية قائلاً «هذه ثمرة الإيمان».

قال أبادير:

- أومن وأصدق. قانون إيمان كنيستنا الأرثوذكسية القبطية المصرية هو قانوني. فقط أسأل: هل الكلمة - الابن إشعاعٌ ومشاركة في الله؟ أمْ هو غير ذلك؟

- لا يابني. الابن هو كلّ ما هو الأب. له قوة إعطاء الحياة والحكم على القلوب تماماً كالآب، قانون مجمع نيقية الذي اتفق عليه الآباء الثلاثمائة والثمانية عشر أن الابن نابع من الآب وليس مخلوقاً منه، أي أنه في داخل النسق الإلهي، يظلّ في داخله وليس خارجاً عنه. الأصح، كما قلنا، أنه واحدٌ مع الآب في الجوهر.

قال أبونا باسيليوس:

- يمكن أن نقول بعبارة فلسفية إن الإجابة ليست في مقولة التجزئة أو النسبة: هل هو مخلوق أو غير مخلوق، وهل هو مغاير إذن مادام قد تكوَن، هذه من ناحية. وليست في مقولة الوظيفة: هل هو فاعلٌ مثله، هل إرادته واحدة أم اثنتان؟ ذلك كله لا يُفضي إلى شئ.

قال أبادير: ما الذى يؤدى إلى نتيجة إذن يا أبي؟

- المقولة الأنطولوجية - وحدها. مقولة الجوهر. مقولة الكيان، الابن هو الابن، مولود على نحوٍ فريد لاشريك له فيه، مولودٌ ابناً وليس مخلوقاً، هو كل ما هو الآب، كما قال الأنبا تاوضروس الآن، إلا اسم الآب.

قال أغابيوس، كأنما يحدث نفسه: فقط بالمحبة نعرفه، كيان خارق لا سبيل إلى عرفانه إلا بالمحبة وحدها، غير قابل للفهم ولا للتعقل. لولا أن الله نفسه محبة لاكتفى بأن يبقى متعالياً في برج السماء تاركاً إيانا في طين الأرض في حمأة الخطيئة الأصلية المقضيَ بها علينا. لكن شكراً لله

المحب الذى تنازل إلينا ليحملنا على منكبيه بعد أن يتألم ويتعذب ويموت بناسوته على الصليب ثم يقوم ليصعد بنا إلى سمائه لنحيا معه هناك إلى الأبد، وسماؤه في داخلنا. هل كان ممكنا أن ينظر إلينا من فوق ويقول: تعالوا إليّ أنا منتظركم فى السماء؟ كيف كنا سنصعد إليه بطبيعتنا الضعيفة الساقطة المثقلة بعبء خطيئة آدم وحواء؟ لذلك تنازل هو إلينا ليحملنا على ذراعيه ويأخذنا إلى حيث هو، ذلك الأمر الوحيد الممكن «حملتكم على أجنحة النسور وأتيت بكم إليّ».

قال أبادير: أخطيت يا آبائي. سامحوني. لكن فكرة موت الابن على الصليب تعذبني. كيف يموت بناسوته ونحن نقول إن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة؟ هل مات اللاهوت، استغفر الرب، سامحني يارب، لكن لا أستطيع أن أطرد الفكرة من رأسى.

قال أغابيوس: كلنا نموت معه على الصليب.

قال تاوفيليس: كلنا بالإيمان نقوم معه فى اليوم الثالث. وقد فدانا من خطيئة آدم الأولى، هو المخلّص.

قال أبادير وهو يكابد عناءً ممضاً: هو الله، كيف يكون جسده من لحم ودم، هذا ظهور، لا يمكن أن يكون قد تألم، لم يصلب، لم يقم من الأموات، هو فوق ذلك كله، ما معنى أنه قام من بين الأموات بجسدٍ مُمَجَّد، هل هذا الجسد المُمَجَّد يختلف عن جسده الذى قَبل آلام الصليب؟ انقذونى يا آبائى من عذاب السؤال.

قال أبونا سيداروس: يا بنى، معلوماتنا كما نستقيها من الإنجيل المقدس أن المسيح له المجد قام بذات الجسد الذى تسمّر بالصليب ودُفن فى القبر، وأن جسد المسيح الذى اتخذه من مريم العذراء لم - ولا - ولن يتغير، كما جاء عنه فى القداس الإلهى «جسده غير المتغيّر» دخل على تلاميذه المجتمعين بعد قيامته المجيدة: «وقف يسوع نفسه فى وسطهم وقال لهم: السلام لكم، ففزعوا وارتعدوا وظنوا أنهم يرون

روحاً فقال لهم: ما بالكم مضطربين؟ ولماذا تثور شكوكٌ في قلوبكم؟ انظروا إلى يدىَ وإلى قدميَ. إنى أنا هو بنفسى جسّونى وتحققوا فإنه ليس للروح لحم ولا عظام كما ترون لى - وفيما كان يقول هذا أراهم يديه وقدميه، وإذ كانوا لايزالون غير مصدقين أنفسهم من فرط الفرح والدهشة قال لهم: أعندكم هنا ما يُؤكل..! فقدموا له بعضاً من السمك المشوى وشهد العسل فأخذ وأكل أمامهم» جسده فيه ثقوب المسامير، جسده من لحم وعظام وفيه كل أعضائه، جسد يأكل ويشرب، الجسد الذى قام به هو ذات الجسد المصلوب، جسد المجد فى صورة البهاء التى ظهر بها للتلاميذ، لكن قدرة لاهوته هى التى بها دخل من الأبواب المغلقة كما كان قد خرج من القبر، بل كما خرج من بطن العذراء بينما ختوم البكارة غير مفضوضة، فالجسد لا يتعارض مع قداسة الله كما يتصور البعض، فالله يمكن أن يسكن جسداً كما يسكن فى كلّ مكان وفى كل شئ مهما كان بسيطاً أو حتى ملوثاً، إنه كالشمس المطهِّرة التى تتسلل إلى أكوام النفايات فتطهِّرها دون أن تتدنس هى.

كان وجه أبونا سيداروس المستدير يشع طيبةً وامتلاءً بالخير وهو يكمل كلاماً ينمّ على أنه فكرّ كثيراً وآمن كثيراً:

- يا بنى يا أبادير اسطفانوس خلاصة القول إن العقل الإلهى قد تجسد في يسوع، يسوع إذن ليس جزءاً من الله لكنه الله ذاته: العقل والمعقول والعاقل بذاته، وقد تجسد، وهو بهذه الصفة يُسمَى «الابن» بمعنى أن من رآه فقد رأى الله الآب. كما أن الروح القدس هو الله ذاته، الحىّ بذاته أى بروحه لأن الله روح، وإذن فالروح القدس ليس جزءاً من الله إذ أن الله لا يتجزأ ولكنه هو الله من حيث أنه الحىّ الأول وأصل الحياة باعث الحياة مبدئ الحياة.

قال أبادير بصوت متضع خافت ومتردد: وهل يمكن أن يكون لله

وجود من غير أقانيمه الثلاثة؟

قال أبونا باسيليوس: وهل يمكن يا بنى أن يكون لله وجود إذا لم تكن له خاصية الوجود، أو أقنوم الوجود، وهو الأب، باعتبار أنه تعالى هو أصل الوجود؟

لا يمكن

وهل يمكن أن يكون للّه وجود إذا لم تكن له خاصية العقل أو أقنوم العقل، أى الكلمة - الليجوس، باعتبار أنه تعالى هو العقل الأعظم؟

لا يمكن

وأخيراً هل يمكن أن يكون للّه وجود إذا لم تكن له خاصية الحياة أو أقنوم الحياة وهو الروح القدس. باعتبار أنه تعالى هو الروح الأعظم؟

لا يمكن

الأقانيم الالهية الثلاثة الأب والابن والروح القدس، الربَ والكلمة والروح، الوجود والعقل والحياة، هى الخاصيات الثلاث التى تقوم بها وعليها الذات الإلهية الواحدة غير المتجزئة.

قال أغابيوس، كأنه مازال يهمس إلى نفسه: مادام قد سكن فى أحشاء مريم العذراء - وهى حواء الجديدة - فقد ارتضى بذلك أن يسكن فى داخل كلٍ منا.

قال تاوفيليس: وليس فى توحُد الإلهىَ بالإنسانىَ أدنى مدعاة للصلف أو الاستعلاء من جانبنا نحن البشر الفانين، بل فيه ما يدعو إلى حسٍ بالمسئولية لا يكاد يُحتمل، وليس فيه أن العالم ملْكنا ولا أنه من صنعتنا بقدر ما أنَ العالم فينا كما أننا فى العالم.

الفرق الوحيد بين إنسانيتنا وناسوته المتحد بلاهوته، أننا فى الإثم ولدنا وبالخطيئة حبلت بنا أمهاتنا، أما هو فبلا إثم ولا خطيئة.

همس أغابيوس لنفسه: هل الخطيئة هى نفسها معنى الحياة على هذه الأرض؟

قال أبادير بشجاعة المستميت : سؤالي الأخير وسامحوني يا آبائي، هو : كيف نوفق بين قولنا : قدوسٌ الذى لا يموت، وبين قولنا : بموتك ياربّ نبشر؟ كيف يموت الرب؟

فأجابه تاوفيليس بأناة وطول بال، ودقة تفكير :

- عندما نقول «قدوسٌ الذى لا يموت» فالمعنى المقصود يتجه إلى المسيح من حيث لاهوته، أما عندما نقول «بموتك ياربّ نبشر» فنحن نعني المسيح من حيث ناسوته، لأن المسيح الإله «ذاق الموت فى الجسد» نعم يا بني، المسيح له المجد هو الله متجسداً، وهو لذلك يجمع بين كونه إلهاً وبين كونه إنساناً، فهو الله كامل فى ألوهته، وإنسانٌ كامل فى إنسانيته، لاهوته اتحد بالناسوت الذى اتخذه من العذراء مريم من طبيعة جسدنا فى كل شئ، كما سمعت الآن، فيما عدا الخطيئة وحدها. وبقوة هذا الاتحاد صار هو الله متأنساً، طبيعة واحدة لها خصائص وصفات الألوهية والإنسانية مجتمعة معاً بغير اختلاف ولا افتراق ولا تغيير. ولما كان اتحاد اللاهوت بالناسوت اتحاداً حقيقياً وكاملاً فهو اتحاد لا يقبل الانفصال ولا التجزئة ولا التقسيم ليس فيه اثنينيّة بل وحدانية. وبذلك نستطيع أن نقول عن المسيح أنه «حيّ لا يموت» إذا قصدنا الكلام عن لاهوته، إذ أن لاهوته هو بعينه لاهوت الآب والروح القدس، لاهوت واحد، لأن الله واحد والله حى لا يموت. أما إذا قلنا «بموتك ياربّ نبشر» فالموت هنا ليس للاهوت. ولكن الإجابة أن سؤالك عن موت الرب أن الموت للناسوت. ومعنى ذلك أن موت الناسوت مثل الموت فى كل إنسان : هو افتراق الروح عن الجسد، فكما أن الإنسان بالموت تفترق روحه عن جسده هكذا المسيح قد ذاق الموت فى جسده فافترقت روحه الإنسانية عن جسده مع دوام اتحاد كلٍ من روحه الإنسانية وجسده بلاهوته الذى لا يموت، لذلك لما قال الإنجيل والمسيح على الصليب أنه «أسلم الروح» كان المقصود بهذه

الروح ليس اللاهوت وإنما الروح الإنسانية، ذلك أن المسيح لم يكن قد اتخذ جسداً بدون روح، بل كان قد اتخذ له إنسانية كاملة من روح وجسد. إذن فاعرف يا بنى أن اللاهوت لم يفارق الناسوت على الصليب وإنما الافتراق كان بين الروح الإنسانية والجسد، لذلك ظل جسد المسيح حياً باللاهوت على الرغم من مفارقة الروح الإنسانية له، وهذا هو سبب تدفق الدم والماء من على جنبه عندما طعنه الجندى بعد أن أسلم الروح، كما أعلمنا بذلك القديس يوحنا الرسول، الأمر الذى لا يحدث بتاتاً لميِّت. لذلك صرخ الجندى قائلاً: «حقاً كان هذا الإنسان هو ابن الله» ملاك القول إذن يا بنى أن المسيح من حيث لاهوته «الحىّ الذى لا يموت» وأما من حيث ناسوته فقد «ذاق الموت بالجسد» ولاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين.

قال أبونا تاوضروس فى النهاية بحسم وقوة يصفّى جوّ السؤال والحيرة بيقين إيمانٍ حازم تامّ:

- اسمع يا أبادير، التجسد فى عبارة واحدة هو التقاء اللاهوت والناسوت في وحدة أقنوميّة تامة بدون أن يشوب أحدهما تحوّلٌ أو تغيير أو تبديل، اتحاداً يفوق الوصف البشرى، يعجز اللسان عن التعبير عنه، ويتجاوز حدود العقل البشرى،قائمٌ بالإيمان وحده، فلنصلِّ معاً الصلاة الربانية: «يا أبانا الذى فى السماوات..»

كانت ترجيعات الصلاة فى القاعة الأثرية الفسيحة تتردد أصداؤها كما لو كانت المخلوقات السماوية والأرضية تترنم معاً..

أى نعم. هأنذا أعطيك لمحة عن عقائد ومحرمات وطقوس هؤلاء الناس فى مصر، عن أهلك وناسك وأبناء أرضك، فهل كنت تعرف شيئاً حقيقياً عن هذا كله؟ هل عندك فكرة دقيقة عما يدينون به، عن تاريخ عقيدتهم؟ تلك لمحة عن صراعات الأساقفة الأجلاء الفقهاء، كانوا

يتقاتلون حتى الموت أحياناً حول كلمة أو حتى موقع كلمة من جملة. وبالطبع لم تكن مجرد كلمة، بل هى عندهم جوهر الحياة على هذه الأرض وما بعدها، هى أيضاً صولجان السلطة ولألاء القوة.

أهذا كله قد عفا عليه الزمن الطويل؟

أم حلت محله صراعات فقهية أخرى حول كلمات أخرى من قبيل البورجوازية والبروليتاريا والتوتاليتارية وديكتاتورية الطبقة وفائض القيمة، أو من قبيل العولمة والخصخصة والهوية، أو من قبيل الواقعية والرمزية والنص المفتوح وموت المؤلف أو موت الأدب أو قصيدة النثر أو الكتابة عبر النوعية والحساسية الجديدة وغيرها وغيرها؟

ليس معنى ذلك أنني بالضرورة أعتقد أو لا أعتقد.

ذلك أمرٌ لا صلة له.

فأنا كما لعلك تعرف أميلُ - كما قلت أكثر من مرة - إلى أن أكون علْمانياً وأغنوصياً حتى النخاع، لست ديِّناً بالمعنى المألوف على الأقل، لكنى مفتون بالمسيح، بأسطوريته الفائقة، برمزيته العميقة، بسرِّ الألوهية فى جسدانيَته، لكن حساً دينياً - بمعنى واسعٍ وشامل - يظل محرقاً ومؤرقاً يعنّينى ويضنينى دون هوادة، هو همٌّ مخامر لا يريم بمسألة الكينونة والوجود والمصير، مسائل الحق والعدالة والحرية - أى الخير والشر - هذا الحس الذى لعل مس كاترين، مدرّستى ومحبوبتى الأولى، قد غرسته فىّ، بوداعتها وجمالها الهادئ المنير، ببطاقات مدارس الأحد الملونة وفيها كلمات بالقبطية والعربية ولوحات متقنة ودقيقة وبارعة عن أحداث العهد القديم والجديد، سقوط آدم وذبيحة قابيل، سلّم يعقوب، وتيه بنى إسرائيل، والعلّيقة المشتعلة، معجزات المسيح من تحويل الماء إلى خمر فى قانا الجليل إلى إقامة لعازر من الأموات، وحديث السامرية عند البئر، وكلّ دراما دخول يسوع إلى أورشليم وصلبه وقيامته.

عشت صباى الباكر آلامَ المسيح وعذابَه وقدرته اللانهائية على الفداء، لم أكن فى سنتى العاشرة «أقرأ» الإنجيل، بل كنت «أحيا الإنجيل». وكم غمرنى حضور المسيح فى طوايا النفس العميقة، ولعله مازال يغمرني - على نحوٍ ما، غير طقوسىَ وغير عقيدىَ - بهذا النور الذى ليس من العالم.

ثم جاءت صبغتى بالمعمودية فى دير الملاك ميخائيل بختمٍ لا يمحى

ثم اعتناقى، عقيدةً وممارسة، العمل الثورىَ من أجل حرية الوطن والعدالة بين الناس، واستعدادٌ كامنٌ للاستشهاد.

هأنذا لا أبرأ من صبغتى القبطية ولا من صبغة أشواقٍ للعدالة والحب، صبغةٍ لا تهدأ ولا تستكين.

أُسائلهما - مع ذلك - باستمرار ودون استسلام ●

الفصل السابع عشر
الأنقاض

في ظُهر الخميس التالي دقّ الباب ودخل زكرى أفندى ..

قال لها إن ميعاد حسابات إيراد الطاحونة قد أزف، وإنه غير مطمئن إلى أن مسيحة حسب نصيبها من دخل الطاحونة حساباً صحيحاً، الأوراق والدفاتر في الطاحونة فيها شئ من الاضطراب يجب أن يوضَح وأن يستقيم، وأن نراجع الحسابات معاً بحضور مسيحة فهل يمكنها أن تأتى لكى تسوّى حساباتها غداً الجمعة؟ الطاحونة لا تشتغل غداً لأن مسيحة سيقوم بتزييت التروس وضبطها.

قال زكرى أفندى إن صموئيل أفندى لا صالح له فى هذه الحسابات لأنه لا يملك حصة فى الطاحونة، وإن اثنين من أصحاب الحصص هما جيصر وشفيق سيأتيان الطاحونة كذلك لتسوية الحسابات.

قالت منّة، وقلبها واجف، بنغمة تحدٍ وثبات: نعم.

كانت فى غيامة من فكرها ذكرياتٌ عن إشاعات قديمة، كان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة أنفسهم، عن اختفاء هنية بنت المقدس يعقوب المنقبادى.

خطر لها أنه بالإيمان حتى راحاب الزانية لم تهلك، بل كانت سبباً فى نجاة أهل بيتها، آمنت وقبلها الله ضمن سلسلة أنساب المسيح.

كان قد قرأ فى غمار قراءاته أنه فى قانون حمورابى: الزانى والزانية يُلقى بهما فى الماء موثقين فى حالة ضبطهما متلبسين، وغير موثقين فى حالة الاشتباه، حتى يحكم إله النهر فى أمرهما.

هأنذا ألقى بنفسى معهما فى ماءٍ لا قرار له، لُجتّه ناعمة ومشتهاة أى قضاءٍ سوف تقضى به يا حابى يا إله النيل، وبعد الحكم، أياً

كان، هل ثَمّ نقض؟ أم هو دائماً إبرامٌ لا سقوط له؟

كان في ذهابه إلى بيتها - بيت صموئيل - في بعض أيام الجمعة ظُهْراً، كل تبريرات الزيارة لبنت العم. لم يكن ينزل من الجبل في الصباح إلا في تلك الأيام، من غير انتظام، فلم يكن الانقطاع تماماً عن العالم مطلوباً، لكن البتولية نذْر لا يُكسر، والذى كسره هو الذى لابدّ أن يلقى به إلى غمرات النيل، موثقاً مكمماً، يعانى سكرات الغرق في ماء الحبّ، فما له من وطن في الأرض إلا وطن حبها.

حتى الدير غربة، هذا العالم كله وادى الغربة إلا موضعٌ، إلا ساعة.

أباهور، ظُهر الجمعة

الغربة ليست فقط على أرض البلد، بل على أرض العالم، غربة في وادى الحيرة واللدد، غربة مع الكلمات المقدسة، غربة في كل مكان، مع كل أحد، إلا في حضن محبتها، في ماء جسدها. هناك فقط.

لأنه حيث يكون كنزك يكون قلبك أيضاً، كنزه ووطنه بين ذراعيها، على فخذيها، في ساحة روحها.

أما هذا المنفى فيقتضى ثمنه فادحاً، هو ثمن الحياة نفسها.

سؤاله عما وراء العالم لا جدوى فيه، لأنه لن يعوّضه عن غربته، ولن يثنيه عن اللواذ بوطنه الوحيد.

ماء الحب الكثيف

إذا كان الروح يرفّ على وجه غمر المياه التى تنبثق منها ذوات الأنفس الحيّة الدفاقة بشبق الحياة وأشواق الروح فإن عَطَشى إلى ينابيع الماء الحىّ لا ينتهى، شجرة مصوُحة أنا، مغروسة على حافة المسقى، تمد فروعها بتضرّع إلى الماء الجارى في سبيله. فهل يرفع النهر البعيد صوته لينضم إلى صوتى الصارخ في الشوارع دون إجابة من أحد ولا من شئ.

لهذا أحببتك، لهذا أظل أحبّك حتى آخر لحظة، وهل ثَمّ حقاً آخر لحظة؟

الملاك ينزل إلى ماء قلبى يحركه فيفيض ليلة ١٢ بؤونة، وكل ليلة، أم هى نقطة الدمع من عين إيزيس الإلهية؟ كانت تبل قدمىّ بدموعها، هى الفَخور رفيعة الكبرياء، تغسلهما بالطيب الغالى وتمسحهما بشعرها المنسدل الجميل.

الروح القدس منذ بدء الخليقة جعل الماء مسكناً له.

ماء الحب الكثيف.

المحمّل بطمى حبشىّ وشهوانىّ

قال: «الحب» إذا أُخذ بأحد معانيه الشائعة على الأفواه، كلمةٌ متميعة مقززة وباهتة.

قال: إما أن يكون نشوة مشبوبة وهوىً مشتعلاً واختراقاً للجسد حتى يتجاوز حدوده ويشارف توحُّداً ليس من هذا العالم، أو لا يكون.

لا يكون أبداً انسياباً وتَمَسُّحاً ناصل النسيج.

معها ترتفع موسيقى جسدانية وسماوية ملء الأسماع والقلوب، موسيقى الشاروبيم والصاروفيم فى الأمجاد العُلى، بينى وبينها، فقط، وقد سقط العالم فى الخارج حيث الظلمة وصرير الأسنان أمّا البهجة الأخميمية الصِرْف فلا يعرفها إلا توحد مين وپان مع آتون أبوللو، توحد القضيب والرحم، توحد الجسدانى بالقدسىّ، أقنومين من جوهر واحد، لا ينفصل أحدهما عن الآخر لحظة ولا طرفة عين، النار المتوهجة فى قلب الجمرة المتلظية بعد أن كانت فَحمةً سوداء، فهى فى موسيقاها الداخلية البهيجة قانية الاشتعال، كيف تنفصل النار الإلهية عن جسد الجمرة؟ كيف تحتسى الخمر من غير كأسها؟ عربدة حسيّة بالبصر والفم المفتوح والأصابع الخمسة وكل أعضاء وأطراف وكتلة الجسد هى نفسها فناءٌ فى القدسىّ غير المرئىّ وغير المحسوس. كيف يتدفق ماء النهر من غير شطآنه؟

هل هذا الكلام ترداد تَفِهُ الطعم لأفكارٍ نصف مطبوخةٍ نصف نيئة؟

أم أن فيه جوهر المسألة؟ هي دائماً مسألة أو مساءلة فما من إجابة أو استجابة أبداً.

ومثل «الحب» فإن «الخير» و«العدل» كلها كلمات متميعة ومقززة ما لم تُعَرَّ عن مسوحها المبذولة المتداولة على ألسنة الكتبة والفريسيين.

لماذا لا يكون الخير مطلقاً، من غير أدنى شرّ؟ ولماذا لا يكون العدل مطلقاً من دون أدنى ظُلم؟

فإذا كانت اليوتوبيا وهماً، فلماذا تُخايلنا وتُغوينا باستمرار؟

أين الحدّ بين الوهم والجوهر؟

قال لي أغابيوس: استمع إليّ ما قال بولس الرسول «فإذا كان لدينا قوتٌ وكسوة فلنكتف بهما.. وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون في تجربةٍ وفخٍ وشهوات كثيرة غبيّة تغرق الناس في العطب والهلاك، لأن محبة المال أصلُ كل شرّ».

قلتُ: هل كان ذلك تعزية للعبيد والمسحوقين والجوعى في الإمبراطورية الرومانية؟ أم أن ذلك يصدُق على يوتوبيا منشودة باستمرار؟ القوت للبدن والروح، الكسوة من البرد ومن الحر ومن الشرّ أيضاً، ماذا يريد الإنسان أكثر من ذلك؟ الجشع، السلطان، الاستعلاء، البغض هي كلها الشرّ.

بحثاً عن وهم العدل إذنْ، لم يتوانَ صبيّان يافعان عن الإلقاء بنفسيهما في غمار حكاية تظل مع ذلك متكررة ولا حلّ لها، فيما يلوح، ولا صمت عنها مع ذلك، ولا نفض لليد منها أبداً.

قال علي بهاء الدين من أهل نجع الخور: هذه أرضنا. كانت صحراء خاوية، رويناها بالعَرَق، ماتتْ عليها سواعدنا من الكدّ، بعنا مصاغ الحريم ووضعنا فيها شقا العمر. كيف يأخذونها؟ عندهم أكثر من ٤٠٠ فدان على بعض، في الكولا والقيسارية والإمام والشيخ منصور

يقولون أرض محاجر، طَبْ ما دُخْنا بين المكاتب لنثبت أن المحجر بعيد عنها، ونطلب المعاينة من لجان وخبراء، ولا أحد يجئ، ولا حياةَ لمن تنادى كما يقال.

قال: نزلت علينا العساكر وضربونا بالكرابيج، مرة أخرى كأنما ينتقمون منا ساقوا الحريم للبندر، وجاءوا بهنّ إلينا في الدم والهتيكة، ولا لجنة واحدة حضرت ولا عاينت، قلعوا الزرع الذى شقينا فيه، رجعنا وروينا الأرض وراعيناها فاخضرّت.

وأخيراً خرج علينا الحاج نجيب حسن دياب، بحصانه ومعه عصابة من رجّالته ومن مطاريد الجبل.

لكننا هذه المرة كنا مستعدين.

كان معنا السلاح وكانت عزيمتنا لا تنكسر

العدل عدل يأفندية، والحقّ معنا، والقوة.

وقف أهل نجع الخور كلهم في وجه الذين جاءوا ليخربوا أرضنا، وقفنا لهم والسلاح مرفوع.

دوّت طلقاتهم في الهواء، فلم نتحرك عن حدود أرضنا، لم نرجع خطوة واحدة عن حافة الترعة التى حفرناها بأظافرنا وأسناننا، ورفعنا منها الماء في أنصاف الليالى وحتى الفجر بالشواديف والطنابير وقوة سواعدنا. حتى حريمنا - لامؤاخذة - كان معنا في الغيط على حرف الترعة ذراعاً بذراع في تدوير الطنبور، وفى الزرع والقَلْع ورعاية الأرض.

لم نردّ على الرصاص الطائش عمداً، في الهواء. لكنْ عندما ضربت الرصاصة صدر الحاج محمود شعبان الإبيارى وأصابت المعلّم رؤوف سدره واثنين ثلاثة من الشبّان وقعوا على حافة الترعة أمامى، تقلبوا فى دمهم الطرى، واصطدمت وجوههم بالماء، من غير كلمة ولا صرخة، عندئذ صوّبت سلاحى وضربت، أنا وكلّ من كان معه سلاح ضرب، وثبنا على الجسر الخشبى الذى بنيناه نحن على الترعة وعبرنا إليهم،

كان دياب قد أخذ بلجام حصانه ودار به يحاول أن يرجع، ورجاله يضربون علينا، الهراوات والشماريخ ارتفعت كالرماح، ونزلت، والله ما كان يهمنا أن يسقط منا عشرة أو عشرون أو نسقط كلنا حتى.

الأرض عزيزة يا بُوى والعرض أعز، الأرض والعَرْض كلّ حقّنا، ساعتها ماكنا نفكر، كان عزمنا أقوى.

في شارع النبي دانيال نزل العساكر من العربات المقفلة، بخوذاتهم وهراواتهم ودروعهم، وطاحوا فينا ونحن نتجمع ونتراجع ونتحلّق من جديد، يسقط الاستعمار يسقط الاستغلال، يسقط الاحتلال يسقط أعوان الاحتلال، دوّت طلقات النار، شتائم العسكر البذيئة لاحقتنا يا بن القحبة يا بن الكلب ياخول انت وهوّه ارجع ياولد عربة الترام مقلوبة وقد اشتعلت فيها النيران، والجموع مازالت تتدفق، وتتفرق، أعمدة النور الكهربائي قد مالت وتحطمت فوانيسها شظايا على أسفلت الشارع، ونحن نجرى ونلف، ونرجع، ونهاجم، منا من خطف هراوة أحد العساكر وانهال عليه ضرباً، فالتفّ حوله الجنود وحملوه إلى السيّارة الكبيرة المغلقة، ومنّا من أوقع أحد الجنود بأن شكّه المقلب التقليدي في رجله فانكفأ العسكري على وجهه وانطلق الولّد وقد رفع جلابيّته مهللاً، انطلق الرصاص بكثافة، وتفرقت الجموع بسرعة، وحملنا جرحانا وقتلانا على أكتافنا، ولجأنا إلى الحواري المتفرعة من الشوارع، طرقنا أبواب البيوت التي رحبّ أصحابها بنا: يا ضناى سلامتك ياخويا ربنا ينصركو على من يعاديكو، يفاجئنا البعض: ياواد ابعد عنّينا شوفولكو حتة تانية تاويكو هوّحْنا ناقصين، ويفتح البعض أبوابهم: ادخلوا ادخلوا هانشوفوا الجرح دَحْنا نشيلوكو في عنينا، وكان دوّى الرصاص يتردد في الشوارع البعيدة الخاوية، وفي الهدوء المتوتر كانت أصداء الطلقات تصطدم بالسماء الفسيحة.

في ذلك اليوم كنت أنا ومصطفى معهم، على حافة الترعة، اختلطت صرختنا بصرختهم ربنا على الظالم ربنا على المفترى، رجع المطاريد ورجال دياب أمام تدفقنا، نحن والفلاحون وحريمهم معاً، جرّوا وراءهم جرحاهم واختفوا على خيولهم في الجبل وراء تلال الصحراء الغربية.

عدنا إلى نجع الخور وقد نال منها الإرهاق والفرح بالنصر، ليلتها أكلنا وشربنا معهم على طبلية أولاد الحاج محمود شعبان، كنّا قد أخذنا بثأره، وأخذنا العزاء فيه.

قال: وعندما جاءت العساكر في أول ضوء وهجمت على البيوت وأخذت الرجال في الحديد ضربوهم بكعوب البنادق على ظهورهم وأفواههم ورؤوسهم دون تمييز، وربطوهم معاً بالحبال، كنا مع ذلك رافعي الرؤوس، ضرباتهم لم تنل من إيماننا، ولا الحريم صرخت، بل وقفن صامتات، ملفوفات الرؤوس في الشيلان والطرح، مُخفيات جانب الوجه ولكن عيونهن لم تكن مختفية بل كانت نظرتها - من غير جدوى - أقوى من شتائم الكلاب.

قلت: رأيت مصطفى يفاديني إذ يتلقى عنى ضربة هراوة على رأسه. ويتعثر في جريه معنا، ويقوم. وكانت أنفاسي مبهورة ومقطوعة وأنا أنظر إليه نظرة امتنان لا تعبر عنه الكلمات، ولكن كلّي حماسة وإيمان واستعداد للاستشهاد. أين ذهبت السماء؟

قال: دياب الكلب كان وراء حثالة العسكر، يتخطّر على حصانه الأسود من غير أن يجرؤ على أن يتقدمهم.

كانت العساكر تطاردنا، على حافة الترعة، وعلى شاطئ الكونغو، على ضفّة الأردن تنفجر القنابل المسيلة للدموع بدخانها الأبيض اللاذع، وتنطلق الرصاصات المطاطية ويسقط الأطفال بعد أن يقذفوا حجارتهم، سهام التوتسي المسمومة وحراب الهوتو المسنونة تنغرس في

الأجساد الطرية لامعة السواد على المسيسيبي سياط المُلاّك تشق ظهور العبيد في غيطان القطن المزدهرة بنوّارها الأبيض، الحرق والذبح وضرب النار وانفجار القنابل والصواريخ في سهول كوسوفو وهضاب البوسنة والهرسك، وبراري تيمور الشرقية، وفي كل مكان وأوان، وعلى ضفاف النفيا الصارخون من أجل العدالة حتى قصر الشتاء في بطرسبرج القديسة حيث يحصدهم رصاص القيصر حصيد الهشيم.

كان معنا في نجع الخور حسن ابن الحاج محمود عبد العال وكان في عمر ألبير أخي وقد استخفه الفرح بجموعنا وهتافنا: تحيا مصر يحيا العدل عندما أصابته الطلقة في قلبه تماماً، رغوة الدم المزبدة الممتزجة برغوة مغبرّة البياض على فمه، دم القلب يسيل ببطء، وعيناه مفتوحتان على الدهشة.

امتلأت الفورد الكبيرة المغلقة برجالنا المربوطين بالسَلَب، لم يكن الصاغ حسين البنهاوي معاون المباحث قد نزل من سيارته المصفحة، وعندما استدار الموكب الحزين انطلقت زغرودة واحدة أولاً ثم تبعتها زغاريد النساء كلهن في صيحة تمرّد مدوية.

وبعد ذلك فإن مذكرة أو عشر مذكرات للمجلس القروي أو للمركز أو للمديرية وحتى للوزارة في مصر، لم تعد تنفع. وسوف تدخل الحكاية دور القضايا والمحاكم ووقْف الحال، لسنواتٍ طوال، ويبقى الحال على ما هو عليه، أي تجفّ الأرض وتكفّ المياه عن الجريان في الترعة التي رويت بالدماء، وتعود للصحراء سطوتها شيئاً فشيئاً، لأن الرمل عند دياب أغلى من الطين.

تتناثر على الغيطان القاحلة أنقاض السماء

العدل؟

أين العدل في أن يموت ألبير طفلاً من غير أن يبدأ حياته حقاً، وأن يسقط حسن محمود عبد العال صريعاً برصاصةٍ من عسكري لا صلة له

به، ويكسر قلب أبيه؟

ما العدل في اغتصاب الأرض ممَن اخضرّت بعرقهم وكدّهم، وفي اغتصاب النساء عنوة؟

ما العدل في أن تموت منّة؟

عندما ذهبت وحدها إلى الطاحونة، في ظهر الجمعة، كان صموئيل يعرف ولكنه لم يجرؤ أن يذهب معها. لم يقل له أحدٌ شيئاً صراحةً، لم يعترض، ولم يوافق صراحةً، كان انكساره كاملاً الآن. خلّف منها خمسة أولادٍ وبنات، مات منهم أبانوب أخيراً، كما كان قد مات أخوة له من قبل بعد ولادتهم بأيام أو بأسابيع، لكنه لم يحس قط أن منّة هي الحبيبة والزوجة، أو حتى بديلة الأمّ. كانت في الصميم غريبةٌ عنه غربةً كاملة. حضور تاوضروس أخيه الأكبر كان قد ظلّله وألغاه، وأمه الست كيريا كانت ساحقةً في كبريائها وصلفها وقسوة حبّها. وجهها الصخريّ الداكن تحتله عينان واسعتان غائرتان في الوقت نفسه، تعطيانها مهابة تشارف أن تكون مخيفة، وكانت وجنتاها ناتئتين بضخامة، تحيط بهما دائماً أطراف الطرحة الزرقاء اللامعة، وشفتاها كبيرتان مائلتان إلى الدكنة وذقنها عريض بارز إلى الأمام بتصميم.

صموئيل الطفل كان يأوي إلى حضنها بصمت كأنما يريد أن يذيب نفسه فيها، لم تكن تَقْبله تماماً، ولا هي رفضته تماماً، لم تقل له قطّ كلمة تدليل أو حبّ، كأنما كلّ حبها الصموت الفخور قد ذهب إلى تاوضروس ثم إلى سالومة ومارينا، وانصب أخيراً في اسطفان الصغير، وكأنما سقط صموئيل - وأبادير - من شبكة حبّها، لكنهما كانا قد وقعا في حبالتها، إلى آخر العمر.

كان الحكم بإدانة منّة قد صدر، من غير أن يُصاغ.

وكأنما لم تكن عشر سنوات كافية لدحض تكرار ما حدث وراء سور الجنينة القبلية.

عبرتْ مَنّة شوارع وحوارى أباهور المحفوفة بأطلال الجدران والأبواب الخشبية الساقطة والحجارة التى نالتها شعاليل النار بلوثات من الهباب الأسود.

أباهور التى بدت خاوية تصفَر فيها رياح الظُهْر الساخنة كانت حافلة بالشهود. كانوا يسيرو بخُطى سريعة، بجانب أنقاض الحيطان وفى ظل أشجار الجميز والنبْق والبلخ التى انكسرت فروعها، فى زعابيطهم وجلابيبهم وعمائمهم، فى البرْد والآلاتس السوداء. يتسللون مجذوبين بقوةٍ لا يعرفون ما هى، نحو الشهادة على مصيرٍ لا يدركون تماماً مآله وإن كانوا يعرفون دوافع القضاء به.

أما هى فكانت تحت برْدتها السوداء ترتدى فستاناً حريرياً يضرب لونه إلى الاحمرار الأرجوانيّ الداكن به فتلة لامعة وتحيط بخصره الضيَق أزرارٌ معدنية متتابعة بلون الكهرمان الفاتح تتسق مع لون عقد الكهرمان الغالى الذى يحيط بجيدها العارى وراء تقويرة الفستان الماكرة التى تنزل حتى منبت الثديين الناهضين بقوة، وأزرار أخرى مماثلة تصعد من خصرها النحيل ممتدة مائلة على الجنبيْن، عن يسار وعن يمين، حتى الإبطين، كأنها سلاسل أو زينة باذخة حول جسم راسخ ومدوّر وثابت، وإن كان ضاوياً ذابلاً تَهَضَمه الحزن والفقدان.

أنا لك يا حبيبى

لك على الدوام

عندما وصلت مَنّة إلى الطاحونة، وكأنما فوجئت بهذا الكيان العالى المدوّر، كأنه قام فجأةً من بين الأنقاض، على غير توقُع، بين طرفة عين وصحوتها، كان باب الطاحونة مردوداً غير مغلق، دفعت لوحة الباب الخشبى الضخم، بصعوبة، صدر عنه صرير احتكاك المعدن والخشب بالحجر الخشن، دهمتها عتمةٌ خفيفة بعد عشوة نور الضُهْر فى الساحة الصغيرة أمام الطاحونة، مازال فيها آثار طحين على الأرض ونثار من حبّات الذرة، صدمتها رائحة نفاذة هى مزيج من حرافة الحلبة المطحونة

ولفح نفثات الكيروسين وزيت التشحيم الزنخ، كان النور الضعيف ينسلّ من النافذة العالية يخترق أعمدة مائلة واضحة الحدود من الغبار المتطاير الهفهاف.

بدت لها الطاحونة خاويةً وفسيحةً وفيها صدى متردد إذ فتحت الباب، وقد خَلَتْ من الفلاّحات حاملات قفف الحبّ والطحين، ولمحت مسيحة مقعياً على قاعدة الماكنة - في يده خرقةٌ مسودّة ملوّثة بالزيت والكيروسين، يمسح بإصرار ما تصورتْ أنه التروس أو السكاكين. كان الموتور الضخم معقد الشكل ساكتاً قابعاً في بئره من القاعدة، كأنه متربص.

انتفضت برعدةٍ هزّت جسمها عندما انتفض الموتور فجأة برعدة الحركة، إذ ضغط مسيحة على ذراع ممتدة منطلقة من جسم الطاحونة، صدرت عنه أصواتُ قعقعةٍ متقطعة لم تلبث أن اتصلت في هدير له إيقاع رتيب، وفي الوقت نفسه دوّت صفارة الطاحونة بصرخاتها المكتومة الرتيبة تدقّ وتصمت، تدقّ وتصمت، بانتظام، وعندما انجابت عن عينيها بهرة الشمس في الخارج، رأت أن وجه مسيحة حليق مجعّد ومشدود على صخور العظام وعلى بئرى العينين اليقظتين الروّاغتين اللتين تدوران باستمرار كأنما تبحثان عن شئ أو تحْذران خوفاً وتحسّباً من عنصرٍ أو كيانٍ مهاجم مترصد، ابتسم لها وحيّاها كأنه نادم ومعتذر عن وجوده نفسه، ابتسامةً طفلّية ودوداً تقريباً، في هذا الوجه المخدّد المشقق وكأن فيه حيرة صبيٍ غرير أمام صرامة قوانين لا يملك بإزائها إلا القبول طائعاً أو راغماً سواء.

ثم رأتهم.

واقفين، منتظرين، وعرفت على الفور أن تسوية الحسابات أمرٌ وشيك، وأنها ليست حسابات الإيرادات والمصروفات، ليس فيها ربح، بل هي خسارة تامة.

هم الثلاثة أنفسهم، زكرى أفندى كبير العائلة، أبوها لَزَمّ، عليه

أساساً أن يظهر عرضه، أحنت الأيام ظهره قليلاً، مازال في البدلة الافرنجي الحرير والكرافته الرمادي المنقطة بدوائر حمراء صغيرة جداً، مازالت فيه مهابة رأس العائلة وكبيرها، جسمه المدكوك الممتلئ قد ازداد ثقلاً ولكنه مازال - حتى وهو واقف ساكن الروع - يتمتع بحيوية مُشعة لا تنهدّ، سوف يناديها باسمها الأصلي، بصوته الخشن الأبحّ، الطيِّب المحمل مع ذلك بدهاءٍ وعزمٍ لا يريم: تعالى يا مادلين يا بُنَيّتي يا بنيّتي، ريعي، هدِى الصهجة اللي زوعاك عاد، ما أنا عاتلت انوّلك السكّة، لكن بَجي مُجَدّر ومكتوب يابنيّتي.

شفيق ديمتري أندراوس ابن عمتها ديماريس الخراز، شاخ الآن بعد عشرين سنة من هجرانه مدرسة الزراعة العليا في مصر والتزامه الدار والأطيان، ربّى كرشاً ضخماً ولُغداً تحت ذقنه، وبعد أن تمزق جسمه في عمليات جراحية متكررة من البواسير للناصور ومن إزالة كيس دهن كبير في الذراع للأعور، من الدكتور ميرعشم الله حكيمباشي المستشفى الميري إلى الدكتور صبحي متى مفتش الصحة وصاحب العيادة المزدحمة دائماً بالأهالي، وجهه الناعم الحليق مازال ممتلئاً مدوّراً ينضح بالنعمة والرفاهية، عيناه تبدوان ناعستين قليلاً تحت الجفنين المنتفخين، مازالت في العينين نزوات اشتهاء غير متحققة، قفطانه الحرير الأخميمي المفتخر سابغ عليه لا يكاد يخفي نتوءات وتعرّجات الجسم الرهل المتراخي.

يبقى أمامها بقطر ابن عمتها الثانية المرحومة زاخورة، لا يكاد يأتي اسمه في ذهنها إلا مقروناً باسم أبيه ولقبه بقطر يعقوب المنقبادي، كأن هذا الاسم نفسه هيكل له أعمدة تحيط به، صامتاً، غير جهم وغير سمح معاً، صلب القامة مازال ومتين الجسم، مازالت خطوط وجهه مستقيمة ومازالت نظرته واثقة متملّكة حتى لو لمحت فيها الآن أثارة من تساؤل وحيرة.

صفارة الطاحونة تدق، والماكنة تهدر وتدور.

فجأةً، شعرها الوحف الغزير الذى انفكّ بعد أن سقط عنه الشال اشتبك بتروس الماكنة وأخذ يتقطع بصوتٍ مكتوم وتنبجس تحته الدماء.

صمتت صفارة الطاحونة وساد أباهور صمت الظُهر الرازح الذى بلا نأمة ولاحس.

لم تشعر بشئ إذ اصطدم رأسها بالموتور الدوّار ولا أحست طعنات التروس وسكاكين الطاحونة، كانت الدفعة الجماعية المفاجئة من المنفَذين الثلاثة ناجعة وفعّالة، لم تكد ساقاها وذراعاها ترتعد تحت الضربات القاطعة بلا هوادة النافذة إلى لدونة اللحم وهشاشة العظْم، عادت مادلين جسداً صراحاً ممزقاً إلى أشلاء متناثرة، أغرقت الدماء قاعدة الموتور المعدنية الصلبة، وظل مسيحة الذى لم ينبس بكلمة ولا طرفت عيناه يمسح الدم بخرقته المبللة بالجاز والزيت، بينما خرج الرجال الثلاثة وردّوا باب الطاحونة الضخم وراءهم.

وقفت الأشباح المتسللة المختمية بالظلال والأطلال وحبست أنفاسها، وفى السكون الثقيل الذى ساد فجأة سمعنا هديل الحمام من برجٍ قديم، رتيباً كالعادة، ومُملاً.

سوف تُقيّد الحادثة قضاءً وقدراً، بينما كانت السيدة مادلين زكرى منقريوس الخراز تقوم بتسوية الحسابات مع شركائها فى ملكية الطاحونة الواقعة بناحية أباهور مركز أخميم، ظهر يوم الجمعة الموافق من شهر كذا هجرية وكذا ميلادية، فقدت توازنها على غير انتظار ولسبب مجهول بينما كانت الماكنة تدور بقوة إذ كان المدعو مسيحة عبد الملاك يجربها بعد أن قضى سحابة النهار يصلحها، وشهد بذلك الشهود وأقفل المحضر على ذلك فى ساعته وتاريخه.

كانوا قد جمعوا ما بقى منها ولفّوه فى بِردتها السوداء، صلّوا عليها فى الكنيسة العتيقة التى حرّموا عليها دخولها بعد ميلاد أبانوب، وحضرت

فيها صلاة تجنيزه ورفع البخور والدعاء له بالنياحة بسلام مع الراقدين.

شاعت الأقاويل فى أباهور وأخميم والكفور والنجوع المجاورة حتى أسيوط شمالاً وقنا جنوباً إنه عندما جاءوا بها إلى التُرب، وقبل أن يصلّى عليها أبونا فيليبوس عند إنزال الصندوق ارتفع من القبر المفتوح ثعبان ضخم ينفث لهباً ويدور برأسه فى كل اتجاه، صرخ اللحّادون: لا تؤذنا.. خذها ولا تؤذنا، فاختفى التنّين، وإذ همّوا بإنزال الصندوق مرة أخرى نهض الثعبان الهائل يفح ويقلّب رأسه، وتقول الإشاعات والهمسات إنها لم تدفن إلا آخر الليل، إذ كلّما حفر اللحّادون قبراً بعد قبر ظهر لهم التنيّن المنتقم، ولم يكن ثمّ إلا حلٌ واحد معروف منذ القدم، أقرب الناس إليها: فوتنة أختها وليديا ومارتا وهيلانة بنات أعمامها، كان عليهن أداء واجبٍ لا مفرّ منه، ضربن بقايا الجثة التى تمزقت شتاير ونتاير، بكل عنف، وهى ملفوفة فى كفنها الأسود، بالشباشب والأحذية وهنّ يبكين بحرارة ويندبنها بصراخٍ يمزق القلب فى حوش المقابر بينما قُرّ الهزيع الأخير من الليل قارس والرياح الباردة تهبّ بعنف.

كانت الشعيرة الطقسية الصارمة قاسية والضربات تقع على قلوب الضاربات وتخلعها.

عندئذ فقط، عند القبر السابع، وجد اللحادون تربته خضراء معشوشبة عليها ندىً صافٍ مُشعّ وقد أينعت فيها زنابق الحقل البيضاء. ونزلت قبرها بسلام.

٢١ يناير ١٩٤٢

حضرة خالنا المحترم الخواجا قلدس

أهديكم تحياتى وأبلغكم سلامى وأبثكم شوقى. لعلك مع العائلة الكريمة بخير تتمتع من الست امرأة خالنا والنجل الكريم وأخويه

بالصحة والسعادة. عزمنا بمشيئه الله على الزواج في يوم الأحد أول فبراير إن شاء الله فيكون لنا أكثر السرور لو تشرفنا بوجودكم مع العائلة معنا بأخميم. أرسلت الوالدة لحضرتكم رسالة فلم يأتى الرد فلعل المانع خير، وهى الآن هنا معى بالإسماعيلية وتهديكم والعائلة السلام.

ختاماً لكم تحياتنا جميعاً مع أطيب تمنياتنا للعائلة ولكم،

بشارة

مهندس بالجيش البريطانى بالبلاّح - الإسماعيلية

مَر هذا الحدث البهيج عندنا دون إثارة لم يكن ألبير قد مات، ولا إيفون، ولم يكن التيفود قد ضرب أسرتنا، كنا فى دمنهور، وكان أبى فى الإسكندرية يأتى إلى دمنهور أحياناً يقضى الليلة معنا ويعود فى الصباح معى إلى شغله فى شارع أنسطاسى وأنا إلى مدرسة العباسية الثانوية فى محرم بيه.

أخميم فى ٢٥ مايو ١٩٤٢

حضرة الوالد المحترم الفاضل الخواجة قلدس

تحية وسلام وشوق واحترام: انشاء الله تكون وجميع من بطرفكم بكل صحة وسرور كنا نود حضوركم فى فرح الاستاذ بشاره وعقبال الباشا الكبير نجلكم النابه و أخواته فى حياتكم إن شاء الله.

لدينا كمية بصل حوالى الخمسة آلاف جوال والحمد لله لا يوجد عندنا الآن مشاكل وغرضى أن أبتدى بتصديرهم فقط أحب أن أعرف رأى حضرتكم هل الانتظار أفضل أم الشحن أفضل وما هو السعر الآن والوارد حتى أكون على بصيرة.

أرجو التكرم بسرعة الرد علينا عن رأيك وعمن تفضلون الشحن

إليه خصوصاً ولم يكن مطلوب لاخيش ولا نقدية ولاخلافه.

وتجدني في انتظار الرد برجوع البوستة مع التكرم بتبليغ سلامي لحضرة الأخ زكي أفندي وكان غرضنا حضوره في الفرح ولكن على كل حال نشكره، وسلامي لحضرة الأخ نجلكم الكريم والست امرأة عمنا وجميع الأنجال. ختاماً تقبل عظيم الاحترام،

المخلص

مرقص سلوانس الخراز

القانون الذي قضى على منّة لا نَقْض له

سلامٌ لك أنت الذي فوق كل إنسان، القانون الذي فوق كل القوانين،

أيها الخفيّ الفعّال.

طريقك هو وحده الطريق ولو كان مفروشاً بالدماء وأشلاء الأبرياء والخطاة.

أيها الحاكم الهادي خُطانا ولو كانت أقدامنا تدوس القلب النابض وتهرسه على الأرض وعلى الزرع الغضّ اليانع.

سلامٌ لك إذ تلقي نورك القاسي على الآفاق، أنت القانون، والقضاء الذي لا مردّ لك، أنت المقتدر النهائي المرشد في الأرض القاحلة قائدنا إلى أرض العدل والانتقام أنت المستريح في الحق أنت الضارب بسيف العقاب كلّ من انتهك شريعتك أنت الساحق كلّ المخادعين والمتوارين خزياً أنت المضيئ كلّ الليالي المظلمة أنت الصلّ الملكيّ الشامخ برأسه فوق كل رحمة وكل خور للقلوب. أنت الساتر وجهك لكن نورك صاعق وما نحن إلا السائرون في إشعاعه الهادي.. لقد أنفذت حكمك.

لا..

لا سلام لك.

أنت المُهلك بالنار وبالسكاكين أنت المكبِّل بالأصفاد الواقف بالمرصاد الدافع بنا إلى الوراء.

لا.

إني أرفضك، أدحضك، أسقطك، وأحلّق بجناحين أقوى من جناحي نسر في سماءٍ أخرى ليست هي ساحتك، سماء الحرية الشاسعة التى لا حدود لها، الحرية وحدها المُحيية.

كانت مادلين قد حملت الطيوب إلى حبيبها لكن حبيبها لم يعرف خبر موتها. لم يكن قد نزل من الجبل، ولم يرسل له أحد من العائلة خبرها في عزلته الإجبارية.

في عهد الأنبا باخوميوس كان في الدير كله إحساس بالاسترخاء وتأجيل الأعمال إلى ما بعد، كان باخوميوس رفيقاً ومتساهلاً، قال البعض إنه كان ضعيفاً وكان مما يؤخذ عليه نزوله للبلد لزيارة بنت أخيه سالومة وزوجها الدكتور ميساك، فلما جاء الأنبا تاوضروس أخذ أهل الدير مأخذ الصرامة والشدة، أنزل عقوبة التوبيخ بالبعض، وأثاب البعض بتقريبه إليه على المائدة، استرجع سطوة الأسقف القادر على المنع والمنح لأن له سلطاناً على الناس وعلى القوات غير المرئية، وأعاد إلى الدير دِقة التنظيم الباخوميّ العريق.

قد يكون الدير الكبير يقع على رابيةٍ من صخر الخيال، على هذا الصخر يقع حضوره القدسيّ الغائم، علامةً على أشواق لا يمكن - ولا يُراد بها - أن تتحقق أبداً: جوعٌ إلى العرفان والإشراق، وعطشٌ إلى الإيمان واليقين حيث لا شبع ولا رِىّ.

جوعٌ إلى معرفة خفايا المحبوب جميعاً، وكل سجاياه منذ كان وإلى

نهاية الزمان.

ماذا وكيف هو - الآن ودائماً - ما كل وقائعه ووقعاته منذ الآن حتى النهاية. ما كلّ خصائصه وطواياه.

عطشٌ ليس فقط إلى بئر سوخار التى استقت منها المرأة السامريّة، فى منتصف النهار وهى بئر يعطش مَنْ يشرب من مائها، بل هو عطش إلى ماءٍ حيّ مهما عَبَّ منه المُحبّ فلا رىً فيه أبداً، أبداً.

فى تلك الأيام كان الأنبا تاوضروس يرقب أغابيوس بعينى الصقر الحارس، دعاه إليه ذات مرّة، فى عز الظهر، قبل صلاة الساعة الثالثة، وقال:

- احترس يا أغابيوس، هأنذا أحذّرك من جانب المحبة التى هى شعارك يا بنيّ. سأحكى لك، أو أكرر لك حكاية لابد أنك تعرفها: كان فى ثياتيرا سيدةٌ أطلق عليها الرب يسوع له المجد - الذى عيناه كلهيب نار - اسم إيزابيل، هى ادعت النبوة وموهبة التعليم، هى فى ظاهرها سيدةٌ فاضلة ولكن فى حقيقتها ساحرة شفتاها تقطران دسماً فيه سمٌ ناقع. شابهت إيزابيل امرأة أخاب، فلها نفس الرذائل، عندك إيزابيل الثالثة التى لن أسميها لك، إيزابيل التى لك، لا لزوجها ولا لأبنائها، عابدة الوثن الجسدى، زانية وقاتلة للروح. سفر الرؤيا قال إن الله وجّه إليها التأنيب لكى تتوب، فلم تتبْ، هل تتوب إيزابيل الثالثة، بعد أن عاقبها الرب؟ ربنا أعلم بنيات القلوب، ربنا غفور. أنت تعرف قصة أبونا أغابيوس فى القديم، وإيزابيل الأخرى القديمة، قصدته وهو لا يعرف أنها راهنت سكان حيّ سيرابيس فى الإسكندرية على أن تقود الراهب أغابيوس إلى قرارة الهاوية، بجمالها وإغوائها، فوضع قدميه فى النار حتى لا يقوم إليها. إيزابيل هذه اهتدت إلى طريق المسيح، إذا لم تكن إيزابيل الثالثة قد تابت فإن العقاب شديد، بل أشد ضراوة مما ضربها الله به.

أوقع الأنبا تاوضروس عقوبة كنسيَة أولى على أغابيوس، ألزمه البقاء فى قلايته لا يبارحها لمدة ثمانية أسابيع، الثمانية هى رمز الاكتمال والتمام، والتزم أغابيوس بالقرار، لم يرفع صوتاً ولم يبد اعتراضاً بل قال: أخطيت يا سيدنا سامحني. وأمضى عزلته فى الصلاة كما تقضى القوانين: السبع صلوات المقررة فى الأجبية، باكر فى التاسعة صبحاً، فى الثانية عشرة ظهراً كانت أقسى صلواته مشقة وأكثرها اضطراباً ومدعاة لمقاومة هواجس الشياطين وأصداء الأصوات الشريرة، ثم الثالثة بعد الظهر، وصلاة المغرب وصلاة النوم، ثم صلاة الستار الطويلة وصلاة نصف الليل حتى الفجر، كان يؤدى الثلاثمائة وخمسين سجدة المفروضة ويزيد عليها، ولكنه كان محروماً من الخروج من القلاية لحضور التسبحة والقداس الإلهى، كان نومه النزر الضنين فى وحدته تحفّه أطيافٌ سوداء وماكانت استعاذته بالعذراء مريم ويسوع الطفل مجديةً فى طرد هذه الزيارات من الشرير.

عندما أتمَ أغابيوس مدة عقوبته وخرج لساحة الدير والمشاركة فى عمل المطبخ، كما كان قد بدأ منذ تسع سنوات فى أيام الأنبا باخوميوس الرفيق بالناس المتضَع المدرك لأحوال القلوب، سمح له الأنبا تاوضروس بالنزول للخدمة فى بيوت الرعية، وهو يعرف ما سوف يلقاه.

وعندما طرق باب بيت صموئيل أفندى لم يسمع صوتها يقول له: ادخل يابونا، وكان قلبه واجفاً وروحه وجلة، كان الأولاد يلعبون تحت شجرة النبق الضخمة، ومسعودة لاحت له عجوزاً مكومة على نفسها لا تكاد ترى ما حولها، تجلس تحت الحائط البعيد.

عرف أنه لم يكن بحاجة إلى أن يسأل أحداً.

ومع ذلك سأل ميلاد، فحدّق إليه الفتى بقوة وغضب، وقال، كما هو متوقع تماماً، باختصار وإدانة: الله يرحمها يا بونا.

استدار أغابيوس من غير غضب ولا بادرة حزن، وخرج من البيت.

لعازر الذى قام من بين الموتى فى عالم الشهوات والاضطراب يعود بعد تسع سنوات إلى الأرض المحرمة وينسلخ عن القطيع الذى يرعاه الأنبا تاوضروس فى الدير، قد ارتفع الآن فى أذنيه صوت الموت بعد أن ضاع منه جسد المحبة، لم يقدر له قط أن يتبع مسيرة سميّه وسلفه العظيم لعازر الذى أقامه حبيبه من بين الأموات لكى ينتهى أسقفاً على قبرص يرعى المؤمنين الأوائل فى فجر المسيحية.

قيل إنه هرطق بكلام عن المحبة والعدالة والحرية فى أحاديثه مع الرعية وفى العظة التى ألقاها يوم الأحد التالى فى كنيسة أباهور.

وقيل إن الإشاعات والروايات ذاعت بأن التنين الذى كان يصعد من القبور يحول دون نزول مِتَة بسلام إلى راحتها الأخيرة كانت فيه ملامح من وجه أغابيوس.

وعندما صعد للدير استدعاه أبونا طانيوس، راعيه القديم، وقال له بصوتٍ واهن إنه ستعقد له محاكمة كنسيّة يرأسها الأنبا تاوضروس وثلاثة من الأساقفة ويحضرها الآباء تاوفيليس وسيداروس وباسيليوس وهو أيضاً، قال: ميتى يا بونا، ردّ عليه: كلْمة مسيحية ما عارف يا ولْيدى، جُريَّب، مش عتعوَج، كَرْبان على إيه عادْ؟ وبعد ما ياجى الخبر أن سيّدنا البَطْرك عرف بانعقاد المحاكمة ولم يعترض. ربنا رحيم ياوليدى. سأل أغابيوس باتضاعٍ وصوتٍ خفيض: طبْ ليه؟ أخْطيت تانى فى إيه؟ قال أبونا طانيوس برفق وعلى مضض، وكأنما على غير اقتناع تام: اشتباه فى هرطقة يا وليدى واشتباه فى خطيّة كبيرة.

صدر حكم المجلس الإكليريكى بتجريد الراهب أغابيوس من رتبة الرهبنة إذ أنه بدأ بالروح وثابَ إلى الجسد، ويُقْضى بحَرْمه، فليكن أناثيما، وفَرْزه من جماعة المؤمنين، ويُخلع عنه الإسكيم واسم الرهبنة ويعود إلى اسمه الأول ويحرم من حقّ الموعظة ويطرد من الدير ولا يحق

له دخول أية كنيسة ولا يحق له التناول حتى يثبت انسحاق قلبه في توبة صادقة نصوح ورجوعه علانيةً عن هرطقاته، وخضوعه وإعلانه اعتناق العقيدة الأرثوذكسية الصحيحة، وينظر في أمره، بعد ثبوت هذه الشروط، وبعد مرور سبع سنوات، فإذا مات قبل انقضاء هذه السنوات وإذا رأت السلطة الكنسية أنه لم يقدم قبل موته ما يبرر رفع الحكم بالفرز والحرم عنه، فإن السلطة الإلهية وحدها هى القادرة على تبرئته أو دينونته، أما السلطة الكنسية فتمنع الصلاة عليه، بعد موته، علانيةً فى الكنيسة، لأن الصلاة على الراقدين هى عن الذين ماتوا فى الإيمان الأرثوذكسى، أما الذين ماتوا فى غير الإيمان أو خارج الإيمان فلا يُصلى عليهم لأنهم ماتوا متلبِّسين بخطيئةٍ مميتة.

قال: القديس يوحنا ذهبىّ الفم قد حرم فى حياته، بمجمعٍ انحاز لرأى الملكة أفدوكسيا التى كانت تعاديه وتسبَّبت فى نفيه، وصدر حكم مجمعى آخر بحلّه من الحرم الأول، بعد وفاته. وهو يُذكر اليوم فى الأنافورا بين مجمع القديسين ومن فمه يطلبون الحلّ فى تحليل الخُدام، من غير مقارنة على أهون وجه، أعوذ بربِّنا من شرّ الصَّلَف، بون شاسع لا يُذرع بينى وبين هذا القديس، لكنه كان أيضاً إنساناً، غير معصوم، مثلنا كلنا، وعرف الغربة والنفى حتى مات، مثلنا كلنا.

قال: صمتُ لا أفتح فمى لأنك أنتَ فعلت

لم يقل: هل حدث هنا استغلال للضعف لتأكيد حقيقة السيطرة من جانب السلطة؟

سؤال لا إجابة له، لأن طريق الإيمان مبهم ليس فيه علامة.

ارتد لعازر الذى جُرِّد من «أغابيوس» اسمه الرهبانى، إلى العالم. ولكن أحداً لم يكن قادراً على تجريده من الأغابى الشاملة فى روحه، المحبة للرب مهما كان فيها من لوعة التساؤل، والمحبة للناس أخوته فى

الخطيئة وأخوته في الحس بفداحة الحبّ والفقدان، والمحبة للمستضعفين في الأرض، أغابيوس لم يغادر لعازر قط، ما كان أحدٌ بمقدوره أن يجرّده من حبّه للمجدلية المضحى بها، حتى بعد انقضائها وإلى أبد الآبدين.

صراعه الآن ليس مع روح العالم فقط، بل مع تنّين ذى رؤوسٍ سبعة لدغته لا تبرأ، سقطت الآن عن عورته ورقة الشجرة ذات الأطراف السبعة، ووقف عارياً كامل البراءة وكامل الإثم أمام الغضب المُطلق.

كانت السماء تنحلّ بضجيج ●

الفصل الثامن عشر

الجَبَل

في صيف ١٩٤٣ وبعد أن نجحت في التوجيهية وكان ترتيبي الثلاثين على مجموع الناجحين البالغ عددهم أربعمائة وتسعة وتسعين في المملكة المصرية كلها حسب شهادة الدراسة الثانوية القسم الخاص الصادرة من وزارة المعارف العمومية، سافرت إلى الإسماعيلية لأبحث عن شغل في الإجازة. حيث كانت هناك وظائف كتابية عند الإنجليز لمن يجيدون اللغة، لم أكن بحاجة ماسة إلى الشغل، بل كانت تلك الرحلة نوعاً من المغامرة لمعرفة أعداء الوطن عن كثب، تلك كانت مفارقةً من الصبي الذى كان يشتعل بوطنيةٍ محتدمة، وسوف يكررها بعد سنتين أو ثلاث، حينما يشتغل - هذه المرة ليعول أسرته بعد موت أبيه - في مخازن البحرية البريطانية في كفر عشرى، القبارى بالإسكندرية. يدخل المخزن الغاص بمعدات الحرب للأسطول البريطاني. ليرسم المطرقة والمنجل ورقم ٤، شارة الدولية الرابعة، على جدرانه ويعمل في المخزن وهو يعلق شارة «الجلاء» بالعربية والإنجليزية على چاكتته الزرقاء التي اشترتها له أمه، برخص التراب، من ملابس «المعونة»، أو لعلها كانت رحلةً للاستكشاف ومعرفة بلدٍ آخر.

أو لعلني سافرت لأحاول أن أخلّص نفسي من فجيعة موت ألبير في الثالث من أغسطس في تلك السنة.

كان الباشمهندس بشارة يشغل وظيفة «مهندس بالجيش البريطاني» في البَلاَّح، الإسماعيلية، بعد أن أتم دراسته في القاهرة، وترك أخميم وإن كان قد عاد إليها ليتزوج فيها.

ولكن الإسماعيلية سحرتني، أنا ابن الحوارى والشوارع المزدحمة بل

المكتظة في غيط العنب أو راغب باشا، أو حتى أخميم أو دمنهور.

كنت أذرع شوارعها الخاوية النظيفة المظللة بالأشجار الوارفة، وكانت إعلانات شراب البرتقال الغازى «كراش» بألوانها الجذابة وكلماتها بالإنجليزية فقط، تحيرنى قليلاً، بعد أن كنت قد قرأت شكسبير ودن ووردثسورث، وترجمت أشعار شيلى وكيتس ولونجفيلو. كانت كلمة crush «إسحق»، «إهرس»، «اكتسح» وشطر حبة البرتقال المقطوعة بفصوصها الهائلة وبذورها الواضحة، تطالعنى مرة بعد مرة، من على الأسوار الحديدية للمعسكرات البريطانية، ومن على البنايات الرشيقة الهادئة التى تبدو خالية من سكانها، وعليها بالحروف اللاتينية أسماء مثل يوركشاير، ديفونشاير، أو سكوتيش كاسل.

جولاتى المنفردة - مع الكلمات والتساؤلات وأحزان الفقدان وأوهام الأهواء الشبقية - تأخذنى حيناً إلى مواقع أرى فيها القناة من بُعد، أو إلى الصحراء النقية من ناحية أخرى، الهواء الجاف البرى وصفارات البواخر العابرة تدوى فجأة فى السكون.

الإسماعيلية ١٦ / ٨ / ١٩٤٣

حضرة الوالد المحترم

أهديك تحياتى الرقيقة وأشواقى الصادقة التى لا مزيد لها. أنتم مع والدتى العزيزة وهناء لعلها تكون الآن أحسن، وكذلك لويزة وإيزيس ورجائى أن تتشددوا ....

وبعد وصلت أمس الإسماعيلية الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ووجدت بشارة أفندى تعبان قليلاً ولكنه تحسن الآن.

وقد كتبت أمس طلب التحاق وذهبت لأقدمه صباح اليوم ولكن وجدت الضابط المختص سافر إلى بورسعيد وسيحضر باكر صباحاً وسنخبركم بما تم فى الأمر.

علمت أن بشارة أفندى أرسل لكم خطاباً موجهاً إلىّ، فأرجو أن تبعثوه لى ثانياً برجوع البوستة ضرورى جداً.

فى النهاية أهديك أرق سلامي مرة أخرى وأشواقى، وأرجو أن تفيدونا بنصائحكم الثمينة ورأيكم الغالى.

تحياتى فى النهاية إلى والدتى وإخوتى

والسلام

ابنكم المخلص

الإسكندرية فى ١٨ أغسطس ١٩٤٣

ولدى العزيز

أبعث إليك أشواقى وأتضرع لله أن يحافظ عليك وينجيك من كل سوء وصلنى جوابك وقد اطمأنيت على وصولكم بسلامة الله ونسأله تعالى يقدم لك بما فيه الخير. عزيزى لم يصلنى جوابات من بشارة أفندى مطلقاً. لغاية تحريره. الست والدتكم وأخوتكم مثلما تركتوهم والله يصبر والدتكم ويدبر أمورها. ومن جهة شغلكم إنكان شئ مرتاح ولم يتعبك ويكون بعزة نفس لابأس ماذا وإلا لله الحمد لا داعى لإهانتك وأرجو توافينى بالأخبار بدون إهمال لكى نكون على طمان من جهتك. بلغ تشكراتى وأشواقى الحارة لحضرة الباشمهندس والست قرينته رومه هانم ونجلهم العزيز نبيل بك.

سلامى وتحياتى للشقيقة العزيزة

ختاماً أدعو لك

والدك

عندما يلزمك نقود فيدْ لإرسال اللازم؟

كان هذا خطابه الأخير

عندما دخلت العنبر الواسع المستطيل الذى يشغله عدد هائل من الموظفين المصريين والشوام والملايطة واليونانيين والعساكر الإنجليز، كان صوت دقدقات الآلات الكاتبة ولغط الكلام في الشغل بلغات مختلفة وحركة القيام والمشى إلى الخزائن والأرفف لوضع وتصنيف بطاقات وملفات وأوراق فى أماكن الأرشيف تثير طنيناً متصلاً.

صحبني العسكرى البكيت الجريجى، كان قد أدخلنى من الباب بعد أن راجع خطاب الاستدعاء الذى وصلنى رداً على طلب الالتحاق بالشغل، وأوصلنى حتى مكتب الكوربرال وكانوا يسمونه الكابران. كان مبتسماً، ممتلئ الجسم في حلته العسكرية، مدوّر الوجه ينديه عرق خفيف ويشوبه احمرار طفيف خاصة فى طرف أنفه الحادّ وعيناه شاهقتا الزرقة، على رأسه كاب طرىّ، وعلى مائدة صغيرة أمامه حوّلها إلى مكتب، تليفون واحد من تليفونات الميدان، وملفات قليلة، أخرج من إحداها ورقة هى الطَلَب الذى كنت قد أرسلته إليه بإرشادات من ابن عمتي المهندس بشارة ديمترى أندراوس.

سألنى الكوربرال الإنجليزى الأسئلة المعتادة، ولاحظت أن لهجته سليمة وتنمّ عن قدرٍ من التعليم لا بأس به، ثم طلب منى أن أتكلم عن نفسي وعن اهتماماتى ولماذا أريد أن أشتغل معهم، فتكلمت بلغة إنجليزية طالعة من الكتب مباشرة، صحيحة تماماً وخالية بحرص، من الأخطاء النحوية، عن دراستي وعن شغفى بالأدب من شكسبير إلى شيلي ومن جوجول إلى ديستويفسكي، وأنني أيضاً أكتب الشعر وأترجمه إلى العربية، قال لى: ماذا تريد أن تعمل هنا؟ قلت: أى شئ. أعنى أى شئ مناسب، ازدادت ابتسامته اتساعاً ومدّ إلىّ يده مصافحاً وقال: واضح أنك من عائلة طيبة ولكنك مؤهّل بأكثر من اللازم لنا هنا، سنتصل بك. وبالطبع لم يتصل بى أحد.

كان هذا اللقاء المباشر الأوّل مع المحتلين المستعمرين الذين كانوا فى

الوقت نفسه يحاربون من أجل الحرية والديمقراطية ولقهر الطغيان الفاشية - هكذا كنت أتصور، بسذاجة إلى حدٍ ما - لقاءً فيه كل عزة النفس كما قال أبي.

أبى

جبل أخميم الشرقى، وطيداً وراسخاً لم تَنل منه العواصف.

أراه، فى تلك الأيام، قوياً، صامداً، قد كسره من الداخل موت ابنه الأصغر ألبير الذى انصبَّ فيه كل حبّ كهولته، مازال يواصل جهاده من أجل لقمة عيشنا التى لم تكن جافة تماماً لكنها لم تكن ناعمة تماماً أيضاً، متشدداً، صبوراً وقد نحل جسمه القوى الصلب، مازال أنيقاً فى ملابسه الصعيدية التى لم يغيِّرها قط، الجلابية الصوف الناعم أو الحرير السكروته، ذات الشقين يضم أحدهما إلى الآخر بحزام صغير وأزرار علوية تحت البالطو الذى اعتراه شئٌ من القدم تفوح منه رائحة رجوليّة فيها مزيج من الكدح والكولونيا والعرَق ونفحةٌ حريفة، طربوشه مازال مكوياً دائماً، حادّ الدوران جافاً ونظيفاً إلى حد الوسوسة.

عندى صورة أخيرة له، اختفى من الصورة الرجل الصعيدى شامخ الوقفة على غرار تماثيل الأسلاف القدامى كما كان يبدو فى صُوره السابقة، مشدود الكفين مفتوح الأصابع على الجنبيْن، هو الآن يستند إلى باب محل المنشاوى، يبتسم ابتسامة مكدودة ولكن فيها ما يشبه التحدى وأكاد أقول ما يشبه السخرية والاستهتار بفواجع متصلة وطعنات مستمرة وحياة مؤلمة ولكن تُنقّطها جلسات الحكايات معنا، مازالت تتدفق بعد السنوات الطوال، على السبرتاية وهو جالس على الشلته، ونحن وقد كبرنا نتحلّق حوله، مع أمى، وهو يصنع قهوته السادة بنفسه فى فسحة البيت، أو عندما يعود من يومه الشاق الطويل

فى الشغل، على الثامنة أو التاسعة ليلاً أو حتى بعدها، أيامها كان ذلك متأخراً جداً، ويتخذ جلسته المسائية على الطبلية العامرة بلذائذ بسيطة وجوهرية، نسيرة الفرخة أو وركها، شقائق البيض المسلوق بصفاره الطازج وبياضه الذى يرفّ ويشف، وقد عصر عليه نصف ليمونة، شرائح الجبن التركى الجاف، ومكعبّات كبيرة من الجبنة البيضاء دسمة الشكل، وعروس السهرة خمسينيَة الكونياك الأصهب المترقرق، له خرير شهىّ مازلت أسمع موسيقاه حتى الآن وهو يصبّه فى كأسه ومازلت أنشقُ فوحة العبق عندما يعزم علىّ بكأس، أنا وأمى وعايدة، وحتى هناء ولويزة وإيزيس تنوبهن شفطة من النكتار السحرى.

كانت صغرى أخواتى عندئذ قد جاءت فى ٢٣ نوفمبر فقط، شهراً واحداً بالضبط قبل موته، لم تكن تبكى كالأطفال بل تنظر إلينا.

فى ذلك الشتاء جاءت الضربة الأولى

كنت فى غرفتى المجاورة يفصلها عن غرفتهم باب زجاجى موارب، من وراء السرير.

سمعت الشهقة وآهة الألم الوجيزة، عندما سارعت إليه كانت أمى تجفف عرقه الذى تصبب غزيراً على الوجه الصخرى الذى بدا أن عظامه قد رقّت. ثم فتح عينيه المرهقتين بحب عظيم وقال بصوت خافت جداً:

- الحمد لله.. أنا بخير.

ونزل فى الصباح للشغل ككل يوم.

فى ليلة ٢٢ ديسمبر كان الليل قد أوغل عميقاً وبارداً، وأنا أقرأ وأكتب شعراً فى غرفتى، وابور الجاز يفحّ وفوقه كوز ماء ليدفئ الغرفة.

صرخت أمى من الغرفة المجاورة: إلحق إلحق أبوك.. هات الإسعاف.

لبست بنطلون البدلة على بنطلون البيجاما، والجاكتة على البلوفر الصوف البيتى، كان برد إسكندرية قارساً ونافذاً للعظم، ونزلت ملهوجاً ملهوفاً لا أدرى ماذا أفعل. كان التاكسى يمضى فى شارع راغب

باشا، متمهلاً، أخذته حتى القسم، ودخلت على النوبتجي الذى استمع إلىّ وطلب الإسعاف بالفعل من تليفون القسم، بعد زمنٍ لا أدرى مداه جاءت العربة الحمراء تدقُّ الجرس وركبت معهم فيها إلى البيت.

صعدت السلّم الضيّق المظلم مع الدكتور المناوب والتمرجي، كان باب الشقة مفتوحاً، أمي وأخواتي البنات واقفات في الفسحة، صامتات، في البيت سكون منذر ورازح.

قالت أمي، بهدوء لا يُحتمل ما فيه من حزن نهائي:

– خلاص، خلاص يابني، أبوك راح.

لم يسقط المكافح العظيم، بل ظل في ميتته شامخاً ومهيباً.

«وفى ظهر يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٤٣، كان صوت جرس الكنيسة المرقسية جليل الوقع، بطيئاً في دقاته الجنائرية التي يأتي إيقاعها من بعيد، يضرب قلبي.

كانت العربة السوداء تقف أمام الباب في شارع ابن زهر، عليها تماثيل الملائكة المذهبة الصغار مبسوطة الأجنحة محنية رؤوسها على التابوت المسجى، وأمامها الخيول الستة، مغماة، مغطاة بأوشحة داكنة الزرقة تنتهي بشراشيب ثقيلة سوداء.

لم أر وجهه في موته

لم أستطع

سارت العربة بحركة وئيدة إلى شارع إيزيس، أمامها بساط الرحمة الأسود يمسك به، من الجانبين، ستة من الشمامسة وأراخنة الكنيسة.

وراء العربة كانوا يسيرون بتمهل، سيارات الأجرة والملاكى القليلة وعربات الحنطور تنساب بنعومة في زحام وسط البلد، تحمل المعلّمين والتجار وكتبة الحسابات والعملاء الذين جاءوا، لتشييع الجثمان، من شارع أنسطاسي وكوم الناضورة والجمرك واللّبان، بالعمائم والطرابيش والبدل والجلاليب والبلاطي، المسابح في الأيدى، والمصاحف الصغيرة

والصلبان الصغيرة لا فرق، فى طوايا الجيوب والقلوب.

مازال الجرس المهيب يوقع على السماء بدقات متباعدة قليلاً عميقة الصدى. هل كانت ترجيعات ناقوس الجناز تصل إلى أخميم؟

مرّ صبى صغير حافى القدمين جرياً من أمام الجناز، وبصق.

هل أنستنى ذلك غيامة الدمع التى تأتينى مرة أخرى الآن؟

لماذا - بسذاجة - أقاوم انهمارها؟

أم هى غيامات المرارة؟

حضرة المحترم ابنى العزيز

أبعث إليك هذه الورقة وقلبى ذائب، ونفسى باكية حزينة لهذه المصيبة الكبيرة التى حُدفت علىّ وعليكم. ولكن أملى فى الله أن يعطينا الصبْر ويعزيكم يا ابنى ويعزينى ويعزى والدتكم أحسن عزاء واذكر يا ابنى هذه مصائب الدنيا كلها شقاء وهذه إرادة الله العلىّ فسلّم أمرك للّه وتشجع والله يكون فى عونك والله يجعلك نسلاً صالحاً مباركاً ويهيئ لك الطريق العدل.

أنتما فى قلبى وقلبى باكى وباكى وحزين على عدم شوفتى أبوك ولكن حمولى وحمولك ثقيلة وثقيلة آه ياويلى، كَمْ وكم.. حِمْل موت شفيق أبو سمير حطمنى وحِمْل أبوك دوّبنى. أنت فى قلبى ومفكرةَ فيك عدد الساعات، وأقول يا ترى عاملين كِيف، وكِيف أحوالك، ولمْ كنت عارفة عنوانك بالضبط وهذا سبب تأخيرى عنك ولكن بابحث جدّ البحث ويعلم الله ياولدى ولا أنام لا ليل ولا نهار: الهموم شويّة وأحوالكم شويّة، والله يتولاكم بعنايته ورعايته الإلهية.

من جهة حضورى لا يِصْعَب عليك يا ولدى الهمّ موجود عندى والناس للآن تبات عندى للعزا والنَصبة من مدة عندى، لأن همّ أبوك وهمّ أبو سمير عندى، والناس تصبح وتبات فى بيتى رجال وستات

العائلة كلهم، هموم وحُمول ثقيلة، ابنى الشابَ الصغير وعَمْلته القاسية، وأخويا وحيدى شقيقى، فالله يعزينا على المصيبة ويسندنا ويقوّينا. فيدنّى هل الوالدة وضعتْ أم لا. وعزيها بالنيابة عنى، إن همَكم على قلبى وأفكاركم فى قلبى لا تغمض عنه عينى.

عمتكم

أم شفيق

قال: وحْش الألم قائم

قال: ومع ذلك فإن مجرد الوجود والحياة حتى بإزاء الوحش، حتى لو لم ينكص الوحش ولم يسقط - مجرد الوجود إنما هو دحضٌ نهائى له، مجرد الوجود عملٌ خُلُقى فى المقام الأول، إدانةٌ للوحش.

مجرد شُرب كوب شاى فى البلكونة المطلة على شارع ابن زهر، وسماع لغط الجيران فى الشبابيك مع هديل الحَمَام فى خُنّ قريبٍ هديلاً منتظماً متصلاً، مجرد أن أشم رائحة بخور وعطارة مع دقّات الزار فى بيت أم فكرى، وأن أسمع صلصلة الترام فى شارع راغب، ونداءات الباعة المانحة.. روبابيكيا.. حَمَار وحلاوة، والانغمار فى وجود الناس المصممين - دون وعيٍ ربما ودون فلسفة - على البقاء على الحياة، وعلى المتعة بها رغم كل شئ، هو إنكار للوحش.

قال: هل هذا صحيح؟

قال: ما معنى هذه الحياة؟

قال: الحياة نفسها، مجرد الحياة، أوجاعها وبهجاتها ونشواتها وعذاباتها.

قال: إننا دُعينا للحرية

حيث روح الحياة هناك الحرية، وفى ظل هذه الروح نحيا، نختبئ حيناً ونظهر للملأ، عراةً ومقدّسين، حيناً آخر، لأن روح الحبّ لا تكفّ

عن الفيضان، حتى لو كان السَجن يحاصرنا، والأصفاد تكَبلنا، ومن حولنا العسكر، ننام ونقوم في وجه الموت، وبذلك نحيا، بالحب نحيا، وبالحرية. بالحب صنعنا مواعيد وصعدنا إلى يمين العرش، لأن الإلهى في الجسد، وتجلياته لا تُحصى فهى كل نأمة وكل حس وكل خاطرة وشاردة، تجسداته لا نهاية لها، فإذا كان الحقّ قد طلب نفسى فإن نفسى لم يكن فيها انصياع له بل هى تحوم حوله كالهامة تطلب الرىّ، لأن طَلَب الحقّ لا ينقطع، ولكن السؤال أيضاً لا ينقطع، لأن الكمال واليقين مستحيلان لا أرضى بأقل منهما، وأعرف المستحيل.

الجبل الشرقىّ فى أخميم لا يتزحزح مهما طوّقت به السحابات وقصفت عليه الرعود والمحن وانهمرت السيول وتقلّبت عليه الحُمُول.

الملكوت هنا والآن. الإلهىّ هنا والآن. وإلى أبد الآبدين مهما انقضى الزمان. هذا إطار اليأس الذى الحب فى بؤرته. ومع الغربة التى لا تريم فإن النعمة ممكنة، ولو أحياناً.

ياليت..!

الإسماعيلية فى ١٩٤٥/٧/٦

حضرة الأخ المحبوب

أهديكم والست الفاضلة امرأة خالنا والأخوات المحبوبات سلاماً وأبلغكم تحياتنا الجزيلة راجياً لجميعكم الهناء.

وصل خطاب حضرتكم بعد غياب طويل وانتظار حار وفى الواقع نحن اعتقدنا أنك نسيت أقاربك وأهلك فقد كنا فى أشد حيرة هل لازلتم والعائلة بإسكندرية أو تركتوها وهل أنتم بمنزلكم القديم أو تركتوه وحتى هذا لا نعلم عنوانه، وبما يعهده الجميع فيكم من حب الدراسة والمثابرة كنا نعتقد أنكم لازلتم بالكلية ولكننا لم نجزم بذلك ولم تتعطف حضرتك طوال المدة الماضية علينا بعنوانك لكى نتكاتب

كما أننا لم نعلم وجودك وعملك وحتى هذه الرسالة نحن فى شك من وصولها لأنكم نسيتم أن تكتبوا عنوانك بداخل الرسالة وربما يكون العنوان مكتوب على ظرف الجواب الخارجي ولكن لدينا بلبل الآن يعبث بالظروف ودائماً رغم المحافظة عليها لأنه يعتقد أن الظرف قليل الأهمية لنا.

طبعاً سررنا جداً لعلمنا بنجاحكم فى الكلية وتقدمكم المطرد ولكن لدينا التباس كيف توفقون بين الدراسة والعمل فى البحرية فى نفس الوقت هل وجودكم بالكلية عن طريق الانتساب أم تقصدون بذلك فى مدة الإجازات فقط أرجو الإفادة.

نحن لا نعلم حالتكم المادية كما أنه لا يمكننا معرفة المعنى الصحيح للقول بأن المسألة لا بأس بها والدنيا كفاح وطبعاً حضرتك من الشباب الراقى والشباب الراقى من شأنه الصراحة وعدم التردد واعتبرنى أخوك تماماً ولا تخجل من شئ وعرفنى إذا كانت هناك متاعب كى أقوم بواجب أنا ملزم بأدائه.

عمتك تركت أخميم وجاءت إلى هنا وهى بخير وتشكرك لرقة شعورك وشعور الست الفاضلة والدتكم وتشكر لكم دعوتكم بزيارة منزلكم الكريم متمنية أن يجعله مفتوح بحسكم نيابة عن أخيها وتقول إنه فى الصيف القادم ربما يكون لنا جميعاً شرف زيارة الإسكندرية لتهنئتكم بالتخرج من الجامعة ولكى يتعارف صغارنا بأخواتكم الصغيرين.

سمير قد نال الشهادة الابتدائية هذا العام وربما يدخل مدرسة سوهاج الأميرية. عائلتنا المكونة من القرينة والوالدة ونبيل وسهير بخير تهديكم والعائلة الكريمة أسمى عبارات التحية والسلام،

بشاره

الإسماعيلية: تقاطع شارعى فاروق الأول وهندنبرج

قال: لا مهرب من الرحمة.

قلت: ولا هرب من اليأس ولا من خيالات القلب المراوغة بأمل صُلب عنيد.

قال: الجسد هيكل للقدسيّ ومثوى للشرير فى الآن معاً بلا انفصال لحظة واحدة.

قال: دم الذبيحة على باب الروح لا ينجى من التهلكة بل الدم المتدفق بالحب داخل البيت وحده فيه منجاةٌ أبديةٌ ولو استغرقت لحظة هاربةً عابرة خاطفةً. القلب سفينة لا تبحر إلا بأشرعة المحبة أغابى إذا كفَت السفينة عن الإقلاع ركد البحر وتصاعدت رائحة آسنة.

قلت: أهذه أصوات الحكمة وثمرات الخبرة؟

قال: ذلك كلام ابن عم حديث، يُزجي وينزلق على السطح.

قلت: بل هذه أصوات اللوعة والحيرة والاحتراق

كانت قد قالت: كم أحب أن أراك، بعد زمان طويل وأنت شيخ مغضّن، وقد أضاء وجهك بالسلام. بينما وجهي منير بحبك وقد شاب شعري أعتز بكل شعرة بيضاء فيه.

قلت: لم يحدث

ومازال القلب نزقاً وليس فيه سلام

فأين الطريق وأين المرسى؟

لا مرسى ولا طريق. عليك أن تقنع بذلك، اللحظة هى أن لا يكون زمان بعد، المآل هو أن لا يكون طريق.

الأبدية تهبّ وتتطاير وتمضى.

الإسماعيلية ٢٧ / ١١ / ١٩٤٥

حضرة الأخ الفاضل المحبوب

أهديكم والست الفاضلة امرأة خالنا وأخواتكم تحياتي وأبلغكم

جميعا تسليماتى القلبية راجياً لكم الصحة والهناء والسعادة.

وصلتنى رسالة حضرتكم وبها اطمأنيت عليكم بعد انتظار طويل وسررنا جداً لهمتكم العالية في استمرار الدراسة بهذا الطريق الذى لا يدل إلا على جدارة وثقة بالنفس وقوة عزيمة يندر وجودها فى الغالبية العظمى من الشباب وطبعاً نحن نشجع فيكم الرجولة الحقة.

عمتكم بخير وهى تدعو لكم دائماً بالتوفيق وبمستقبل باسم جميل ينسيك المتاعب الوقتية الحالية.

ختاماً أرجو لكم وللسيدة الفاضلة امرأة خالى وأخواتك حياة ملؤها الطمأنينة وراحة البال كذلك الوالدة والقرينة والنجل وأخته يهدون جميعكم تحياتهم ويبلغونكم أزكى التسليمات،

بشاره

الإسماعيلية ٣١ مايو ١٩٤٦

حضرة الأخ الفاضل

أهديكم والست الفاضلة امرأة خالنا وأخواتنا المدموزيلات أعطر تحياتنا ونبلغكم أجمل تسليماتنا راجياً لكم جميعاً هناءً مستمراً وصحة كاملة

وصل أمس المقدس مرقص أفندى من إسكندرية يبلغنى بتقصيرى فى الكتابة إليكم والواقع إنى كنت متذكر أنى أرسلت لكم الرد ولكن مادام الأمر كذلك فاعتذر للتأخير فى الرد حتى الآن وأرجو قبول الاعتذار.

ربما نسافر جميعاً إلى سوهاج فى منتصف شهر يونيه ونستمر هناك حتى حوالى ٢٤ يوليه فى مأمورية تختص بعملى الحكومى وسيكون عنوانى مهندس بمصلحة المناجم بأسيوط. نحن فى الواقع نفخر بذكائك وتقديرك للأمور ومعالجة الظروف ونتعشم أن تكون مستمراً فى

استذكارك مطمئناً للامتحان المقبل، ونرجوكم أن تعرفنا موعده.

عمتك المشتاقة إليكم جميعاً تهديكم جميعاً سلامها وأرق تحياتها ونبيل وأخته ووالدتهم يهدونكم جميعاً معى عاطر السلام مع رجائنا جميعاً لكم بأطيب الأمانى.

بشارة

مازال الجبل الشرقى فى أخميم راسخاً وشامخاً لا يتزحزح.

أما جبل المقطم فقد انتقل من موقعه، منذ عشرة قرون، بإيمان شيخ أصلع له لحية بيضاء وضئيل الحجم يحمل على كتفه قربتين للمياه مربوطتين بحبل على كتفه، وبجانبه البطرك افرهام بن زرعة السريانى بابا كرسى الإسكندرية والكرازة المرقسية، بعد أن كان قد اعتكف ثلاثة أيام فى الكنيسة المعلقة للصلاة «ولما كان اليوم الثالث سقط البطرك القديس على الأرض من حزن قلبه وصيامه وتعبه، وغفى غفوة يسيرة فرأى الستّ السيدة الطاهرة مريم وهى تقول له بوجه فرحٍ ما الذى أصابك؟ انزل من ها هنا واخرج من باب درب الحديد الذى يؤدى إلى السوق الكبير تجد إنساناً حاملاً جرة ماء وبعين واحدة يدعى سمعان الخراز ويشتغل بدباغة الجلود». قال له سمعان أن يخرج بالكهنة فى الصباح بالصلبان والمجامر والأناجيل بموكب سائرٍ نحو الجبل. «ولما سجد الكهنة والشعب والقديس سمعان ثم وقفوا، وقف معهم الجبل وانخلع من أساساته وظهرت الشمس من تحته. وصاحبَ ذلك زلزلةً عظيمة.. ولما سجدوا مرة ثانية هبط الجبل ولكن على غير أساساته بل فى موقع مجاور وتكرر ذلك الأمر فى كل سجود وقيام حتى كان المنظر يشيب له شعر الوليد وبهت الخليفة السلطان المعز لدين الله الفاطمى وأمرهم بالكفّ عن ذلك بعد السجدة الثالثة.».

وعندئذ طوى لعازر، الذى لم يعد اسمه أغابيوس، الصفحة ٩٦ من

«تاريخ البطاركة»، المجلد الثانى وقال لنفسه بارك الرب خدمة عبده ساويرس بن المقفع.

تخرجت من الكلية وقد حصلت أخيراً على شهادة التخرج، لا أدرى ماذا أفعل بها، مكتئباً، ليس فى الحدث كله فرح ولا احتفال ولا حسٌ بالتحقق أو الانتصار.

فى الليل بنات آوى بآذانها المنتصبة وأجسامها المرنة مرونةً شريرة وأفواهها الطويلة المسحوبة المنتهية باللون الأسود اللامع المبلل، تحت سماءٍ صافية ممتلئة بالنجوم وثقيلة كالرصاص، تجوس معى كأنها تتعقبنى تصاحبنى وتطاردنى معاً، أتعثر بين أطلال وأحجار، ليس هناك غير ذلك، الدمار قد تمّ والحصار قد استحكم، الناس لم يبرحوا بيوتهم الخانقة، متربصين أو صابرين. لم يتركوها منذ حقبٍ ودهورٍ طويلة.

عندما يحين الأوان سوف يهجر أقاربه أخميم والإسكندرية.

دار فى روحى بخفاء: أخميم تبقى، سوف تبقى، إسكندرية تظل مفتوحة على أفق لا تغلقه حدود ومتصلة بجسم مصر بلا انفصام.

مازال يصعد الجبل الخاوى، بعد ليلة بنات آوى، صخوره الشمّاء ترتفع فجأة هنا وهناك فتحجب عنه نور الشمس ويهبّ به هواء بارد به رائحة تراب قديم. وتنفتح تحته فجأة وديان سحيقة معتمة تكاد تزل قدماه إليها، المغاير وشقوق الأرض الفاغرة، يخيل إليه - فيما يعرف أنها خيالات ولكنها تراوده بغواية لا يستطيع صدّها - أن ثم غابات من الشجر النضر الوارف طرى الورق منعشاً يستروح إليه الصدر المُعنّى، وأن هناك، على البعد، صحيح، ولكن فى متناول السعى الحثيث، آجاماً من النخل السامق ينوس سَعَفه السلِس فى نسمات أنيسة.

يصرخ دون أن يسمع لنفسه - هو نفسه - صوتاً

- صرخت من جوف الهاوية فلم يسمع أحدٌ لى صوتاً، دعوتُ فى ضيقتى فلم يستجب لى أحد، هأنذا أتخبط قادماً إلى الهيكل القدسى ولا أصل، بل أسقط فى وحدة لا أعرف لها قراراً.

أصوات الجبل الغامضة تصل إليه. حفيف الرياح بالحجر، ما يشبه أصداء زئير أو خوار أو صهيل تعود إليه بذكرى الشوارع والحوارى والزرائب فى أخميم وأباهور، تلك كانت أصواتاً أنيسة وحارّة زهمة وخصيبة، عضوية وجسدانية مليئة، أما هذه الأصداء فهى الجفاف والمحل والتهديد.

على ذروة صخر مقابل تفصل بينهما هوّة غائرة، رأى ذلك الذى ظل يخايله منذ الفجر، يتجلى فى هالة بهرة تعشى العين ثم يختفى، ويلوح من جديد ولا يستطع أبداً أن يتحقق من أنه بالفعل يراه وأن ذلك الحضور يبدو ويروح.

فى سطوع الشمس رأى أن هذا الحضور ليس إنسانياً وإن كان أنثوياً، فى هذا المُثول كان شعرها المنسدل يكسو عرى جسدها المتطاير فوق صخور السماء، رأى أن هذا الجسد ممزق، أشلاء غير متصلة لكنها متقاربة متماسكة لا تفصل بينها إلا خطوطٌ مضيئة مشعة ورأى أن لهذا الجسد جمالاً خارقاً أوشك أن يدفعه للبكاء، وعندما اختفى الطيف - أو هو تقلّب فى نور الصبح الباهر - خيل إليه أنه يرى ذلك القميص الحريرى الفضى الذى طالما تمرغ فى طيّاته طلباً للحنان الذى لم يأت إلا بعد أن تعبت قدماه من الصعود على قُنن الجبل وشعابه، ومشارفة السقوط فى هُويّه ووهاده السحيقة، حتى سمع منها كلمة «يا حبيبى» قالتها بلغته هو، بنبرةٍ يعرفها هو فى صميمه، هزت روحه التى كانت قد أوشكت أن تجف، وما أن قاوم نزوعه القديم إلى الدموع حتى خيل إليه أنه يراها تسقط من إحدى صخور الجبل تنهمر حولها دفقات من الحنطة والذرة وحبوب الحقل ورأى خيوط الألم الزرقاء الداكنة تخطط

جسدها المشوق المتنزى بالتمرد حتى فى سقوطه، بينما أزهار عباد الشمس الصفراء تزدهر بسرعة، وتقوم، وتونع، وتتجه برؤوسها المشعة للشمس، ثم تنحنى، وتذوى.

على جانبى مدق ضيق بين كتف الجبل وانحدار الهوة، رأى على يمينه فتحات منقورة فى الصخر تهاوى الزمن بأحجار كانت تسدها وتفتقت أبعاضها عن مغارات ناعمة الأرضية منقوشة الجدران والسقوف - تومض لعينيه ثم تغيض - بصور اللاعبين الطاعمين الشاربين صيادى الأسود والنعام وحاملات القرابين من الخبز والأوز، وفى قلبها النواويس الجرانيت الضخام مسدودة مغلقة الأختام يعرف أن فيها المومياءات المذهبة المكفنة بالطيوب والعطور والنطرون.

وما أن سار صاعداً بصعوبة فى الجبل على المدق الضيق حتى وطأت قدماه بالرغم عنه عظاماً نظيفة داكنة الصفرة وكاد يتعثر بها، وتدحرجت جمجمة فاغرة العينين مقفلة الفكين عن أسنان قوية تبدو بينها فجوات صغيرة جداً. تخبطت الجمجمة، كأنها تصرخ، بالصخور والحصى والحجارة حتى سقطت فى الهوة بارتطامات متعاقبة جافة، وإذ وقف مسحوراً رأى أنها لم تتهشم ولم تتكسر حتى استقرت فى أحد شقوق الأرض، محجراها الخاويان يحدقان إلى أعلى.

انفسحت البرية الموحشة

ارتفعت أمامه على أبعاد متناثرة قوائم مستقيمة العود أو مائلة: اثنى عشر عموداً، لها تيجان مثلثة ودائرية محفورة بنقوش غائرة لصلبان مورقة أو صلبان عنخ مفتوحة العيون، وعلى الأرض بقايا جدار مرسوم عليه السمكتان المتقابلتان بالفم كأنهما يتلاثمان، وإشارات صلبة أو ممسوحة تقريباً، إلى طواويس نال الذبول من غنى ألوانها وغزلان هاربة وعناقيد رخامية تتدلى من الكرمة الوارفة تحلق فوقها بثبات دائم لا حركة فيه طيور مبسوطة الجناحين على المرأة الرؤوم المتكئة على وسائد

الصوان بإيماءة استرخاء نهائى يحيط بها الألفا والأوميجا.

الفتحات الغائرة تحت الرموز قد خلت من ساكنيها وانهال عليها تراب القرون وحجارتها المنقضّة القاضية على البداية والنهاية مُفرغة العيون من مآقيها مجففة العظام نازعة اللحم المتآكل المهترئ الذى نهشه الدود ثم مسحت الصقور والعقبان على الحيوات اللزجة الزاحفة المتورمة بحمرة شاحبة بذيئة ولم يبق الآن إلا الصخور الصلدة غير الناطقة بمعنى ولا بشئ.

وعلى ذؤابة الصخرة المقابلة رأى أمامه، رأىَ العين، وحيد القرن.

دمث النظرة، وديعاً، أبيض ضارباً إلى لونٍ عاجىَ فاتح، قرنه الوحيد الخروطىّ منبثق من وسط جبهته المرقّطة بغدائر عُرْفه السوداء.

فى رؤياه أن وحيد القرن نزل من الصخرة إلى فسحة من الجبل ترقد فيها امرأة بكر طاهرة بنت بنوت، أحنى الحيوان الجسيم هائل الجِرْم رأسه أمام المرأة النائمة بسلام، وضع رأسه، وقرنه الوحيد على حجرها، برفق، بين فخذيها المضمومتين، وعلى الفور هبطت شبكة ضخمة مفتولة الحبال وأحاطت بالجواد الكركدنّ وحيد القرن الذى ارتفع له خوارٌ صهيلٌ خشن ثاقب رددت الجبال أصداء وحشته النهائية.

أوثان الجبل الشرقى فى أخميم ترتجف ويذوب قلبها فى داخلها

الصنم الذى يقف الآن أمامه، شائه المعالم، صلفا، شاهقاً، وجهه الحجرى ممسوح ومنقور، طلّسم لا يقدر أحد أن يعبر منه ولا أن ينفذ من جانبه، سداً غير مرئىَ ما أقواه.. ما أصلب قوامه، متلفع بالسماء لباساً، لا مهرب منه ولا مهرب إليه.

يده اليمنى الممدودة إلى الأمام مكسورة، لكن ذراعه طويلة جسيمة تومض فيها شرايين دقيقة كثيرة حمراء كالعقيق وصفراء كالزمرّد، تهب الرياح حوله بصفير مدوّ لا ينقطع يصمّ الآذان اهتزت أساسات الصخور من ويل الصوت واحترقت شفة صاحب الرؤيا إذ مسها اللهب

المتطاير شرره من عينى الوثن الصاعد إلى عنان السماء. مازال التنين القديم تتقد عيناه بالنار.

ضجيج ضربات موسيقيّة تخبط الجسد ومن الذراع مبتورة اليد تتساقط قطرات قانية تميل إلى السواد ترسم على الصخر الأشهب ما يشبه خماسىَ الكفَ مبسوطة الأصابع على الظَهْر والبطن والقضيب، وعلى الوثن تنسدل مسوح سوداء سابغة، فى يده اليسرى كتابٌ أسود وصليب معقوف.

طلب الوثن الشرير أن يكون أعظم من الكلّ، وأن يضع عرشه فوق الكلّ، وعندما سقط بعد معركته الحاسمة مع السمائيين طُرح إلى الجبل وانكسرت يده اليمنى التى كانت تصدر عنها أنوار مُغوية أعجب من أى نور وبها قوة عاتية لا تقوى عليها حيتان البحر.

ويلٌ لساكنى الأرض والبحر والسهل والجبل لأن الوثن الشرير قائم بينهم وبه غضب دائم لا يهن ولا يغيض.

الجثث المتحللة تتماسك وتقوم من قبورها ترقص حول الوثن العظيم وقد كسرت كل القوانين فى المملكة المضادة حيث يسود وشيش الرياح الغبراء الآتية من بلاد السوائل الكثيفة السوداء نفاذة الرائحة حيث يجول الوحش مدبّب الأسنان بكل عتاده المصفحَ المدرّع الوثاب خاطف التحليق.

منذ ثلاثة سنوات بعد أن فرغت كنيسة أباهور من المصلّين والمعزّين، ولم يعد أبانوب إلا جرحاً لا برء له فى قلب وأحشاء منّة، دخل أولاد الحارة إلى صحن الكنيسة، صرخ بهم عمّ جورجى بولس الأرشيدياكون الأعمى، لكنهم لم يأبهوا به، انفتح الباب العريض تحت الدرجات الثلاث ودخل هواء الشارع وترددت ضحكاتهم وصيحاتهم، جاءت الصبايا مسحن البلاطات الرخام العتيقة بالخيشة من جرادل مملوءة بالماء

العكر يحملها إليهن الأولاد وهم يثرثرون، فى ركن صحن الكنيسة ألواح خشبية قديمة ضخمة مركونة وأحجار ساقطة من الجدار الغربى المتهدم الواطئ والمسدودة ثغراته بطوب لبن رمادى. الأولاد والبنات يشتغلون بجد وهم يضحكون مع ذلك ويجرون وراء بعضهم بعضاً ويتغنون بصوت خفيض معابث أنبا مكاريوس راح الجدس وراجع جاطع راس البرص.

وفى خواء صحن الكنيسة وتحت بابها المفتوح تتردد أصداء الضحك والأغنية المرحة التى لا تعنى ذرة شر.

كان مربوطاً بحبل وثيق الأواصر إلى عامود الصوان الشرقى أصهب اللون وكانت الظلمة الخارجية وصرير الأسنان، الوثن منفى معه فى الظلام تحيط بعنقه سلاسل الذهب والدم والنفط مضروب بسهم نافذ فى صدره الذى يكسوه شعر كثيف أجعد، يقف على حافة الوهاد المتعاقبة بين تلال الصخور الصماء.

أفراس البحر السوداء الضخمة تنبجس عنها أمواج النيل الغاضب، تخوض غمرات أوحال الطين الخصيب فتنطلق السهام النارية من مغارات الجبل الشماء وتنقض عليها من عل.

تخور أفراس النهر جريحة مضروبة ثقيلة وتسوخ بها أرض الطمى تغمرها وتستوى فوقها فإذا هى مسطحة مترقرقة بلا سوء.

فى ليلة الخميس - الجمعة ٢٨ مارس كنت فى محطة السكة الحديد فى سوهاج، عبرت إليها النيل من أخميم، سرت فى الشوارع الخاوية على ضوء المصابيح الكهربية فوق أعمدتها الطويلة، وكانت أعواد الحلفا والهيش فى ساحة المحطة تبدو جياشة حية بما فيها من عنف مكتوم، تنمو على حفافى قضبان السكة الحديد، وتحت سور المحطة

الحجرى، وتتسلق أعمدة الجسر الحديدى المرتفع الذى يمتد فوق المحطة من آخر رصيف إلى الشارع.

كنت قد عبرت جسراً خشبياً ضيقاً على الترعة الصغيرة، خشب الجسر مغطى ببساط أحمر كثيف الوبرة، وجدت أننى أمتطى صهوة جواد فاره أشمَ أتلع العنق بكبرياء، يمشى الهوينى مختالاً على البساط الأحمر، وأنا على ظهره، ثابتاً بلا سرج ولا لجام.

ثم وجدت أننى أجرى وحدى

ساحة المحطة تبدو رملية، وخالية، البلد كلها قد نامت بعد أن غادر آخر قطار محطتها.

لماذا أجرى الآن لألحق به، وأنا أعرف أنه قد مضى، مضى إلى غير رجعة، حمَل الناس ومقاطفهم ولففهم ونسوانهم وزلع المشَ والجبن القديم، تدفقوا على أبوابه وشبابيكه، صفَر القطار ونفَث دخانه الأبيض وصلصلت عجلاته، ومضى.

المحطة خاوية وأنا مازلت أجرى لكى أصل قبل أن يقوم القطار.

لا أصل أبداً

المحطة بعيدة وخاوية.

الزمالك

١٦ مسرى ١٧١٥ - ٢٢ أغسطس ١٩٩٩

الشخصيات الرئيسية

	العمر
١- مرقص البطل في عنفوانه	٣٢
بيته جنب الكنيسة ، مزارع عنده عشرة فدادين	
زوج فوتنه ، حبيب سالومة	
٢- ميساك صاحب الأجزاخانة (الصموت)	٥٠
أولاده من سالومة (ونجت ، وليم ، ونيسه وديع ولسن)	
٣- صموئيل باشكاتب حسابات في المركز (المكسور)	٤٢
أخو سالومة ومارينا وأبادير وتاوضروس ، زوج منه	
يعبر إلى أباهور على حمارته البيضاء	
٤- لعازر الذى أصبح أبونا أغابيوس أخ مرقص (المحب للناس ولله وللمرأة)	٥٢
٥- الراوى طالب وثورى (الحالم الأبدى)	١٥
٦- أبونا فيليبوس كاهن أباهور (أخ منه وفوتنة وسامى ومتياس)	٥٥
٧- أبونا متياس كاهن أخميم (أخ أبونا فيليبوس)	٤٥
٨- أبادير أخ سالومة ومارينا (الشكاك المتسائل)	٢٧
صاحب مكتب جنب المحكمة والمركز	
٩- أبونا تاوضروس أخوهم رئيس الدير (المقاتل)	٥٥
١٠- أبونا باخوميوس رئيس الدير الراحل	٧٥
١١- أبونا تاوفيليس (العارف بالله الإيمان المطلق)	٧٥
١٢- أبونا طانيوس (الزاهد الكاره للناس)	٦٠
١٣- أبونا باسيليوس أمين المكتبة ، ساحر ، أخ هنية	٤٥
١٤- أبونا سيدأروس مسئول المخزن والمزرعة	٥٠
١٥- مصطفى قاسم اسحاق : صديق الراوى (طالب وثورى)	١٦
١٦- زكرى أب فوتنة ومنة وسامى وفيليبوس ومتياس	١٠
(عميد الأسرة) وزوج الجيل - صاحب أملاك وأراض وعمارات	

فوتنة زوجة مرقص (الأمينة) ٢٥

أخت منة أولادها : دانيال وفيرونيا وبشاى وهيلدا

سالومة زوجة ميساك (البريئة) حبيبة مرقص ٣٠

منة زوجة صموئيل (الجدلية) لا عمر لها خالدة حبيبة أغابيوس - بنت أخ

باخوميوس أخت فوتنه بيتها في أباهور أولادها : بانوب، ميلاد، جيد، عزيز، سلوى

مارينا (حبيبة الراوى) أخت سالومة ١٦

ليديا زوجة أبونا فيلبوس أخت مرقص وأغابيوس وجيصر (المريرة) ٤٥

مارتا زوجة متياس أخت ميساك وهيلانة وأجية (الذؤوب العاقلة) ٣٨

أبانوب الطفل ٩

ديماريس أم شفيق وبشارة، زوجة اندراوس (الرحيمة) ٤٥

كيريا أم سالومة ومارينا وصموئيل وأبادير واسطفان، زوجة اسطفانوس الخشاب (المسيطرة) ٨٠

زاخورة أم باسيلوس، هتية، وبقطر وفيبيا وورومة ورفلة، زوجة يعقوب المنقبادى ٨٥

قلدس قلادة أبو أمين، أب ألبير، وعايدة وهناء ولويزة وإيزيس وإيفون،

زوج الست سوسن وأب الراوى

الشخصيات الثانوية

جيصر جواهرجي، محله بين الشونة والاجزاخانة

بقطر صاحب الشونة

رفله افندى مدرس رياضيات بالمرقسية الثانوية وناظر مدرسه سوهاج

شفيق ابن عمة الراوى، زوج فيبا، مزارع ومالك أرض

بشارة مهندس بالجيش البريطانى ثم بمصلحة المناجم والمحاجر، ابن عمة الراوى

(مريوم) ماتاسونى إيرينى رئيسة الدير

محمد بك نبيه	مأمور المركز
توفيق بك خاطر	وكيل النيابة
الدكتور ميرعشم الله	طبيب المركز
الاستاذ يحيى وصفى	معاون الإدارة
ونس افندى سمعان	كاتب النيابة
الدكتور قاسم اسحاق	الطبيب الشرعى
الحاج على الطحاوى	شريك زكرى افندى
الخواجا برتى يعقوب	ناظر الأرض عند زكرى افندى
الشيخ ياسين الجارحى	عمدة ساقلتة
أولاده على واسماعيل وشاهين	
الحاج عوض العشماوى	مستأجر أرض
المقدس صديق بشاى	مستأجر أرض
د. صبحى متى	مفتش الصحة
عم حسين أبو شليب	جزار
عمّ محمد شندى	بقال متوف
المقدس جلبى بلامون	عمدة أباهور
الصول حسن شعبان	مراسلة المأمور
عم بشندى	جزار
عم حنا الله سدره	نساج
الحاج على محمد على	نساج
مجدى رزق الله	نساج

عوض الله بشاى	نساج
الحاج حسين الكاشف	صاحب مصنع نسيج
الصائغ حسين البنهاوى	معاون المباحث
هريدى، ومجلع وحسنين	لصوص الحمير
نجيب حسن دياب	مقاول كبير في نجع الخور
الحاج محمود شعبان الأبيارى	مزارع من نجع الخور
المعلم رؤوف سدره	فلاح من نجع الخور
على بهى الدين	فلاح من نجع الخور
حسن محمود عبد العال	طفل من أهل نجع الخور
المعلم روفائيل اسكندر	جواهرجي في سوهاج
اسماعيل الحمدانى	كاتب وصحفى
أحمد ناجى	سينمائي وابن ذوات
مديحة شكرى	ممثلة
يوسف علوى	ممثل
عباس الوقاد	كاتب
عم زريج	معداوى
جورجى بولس	رئيس شمامسة

الخدم

مسعودة	عند متة
حنينة	عند ديماريس
دميانة	عند ليديا
ورسانة	عند سالومة
معزوزة	عند فيبيا
زينب	عند توفيق بك خاطر
هندية	عند محمد بك نبيه
أم أحمد	عند محمد بك نبيه
مسيحة	ميكانيكى الطاحونة وشغال عند كيريا
رومانى	عند مرقص افندى
خلة	ابن رومانى، عند ديماريس

الرهبان

١- الأنبا باخوميوس	رئيس الدير الراحل
٢- الراهب بطرس	خادمه
٣- الأنبا تاوضروس	رئيس الدير الحالى
٤- الراهب فرج الاشمونى	خادمه
٥- أبونا تاوفيليس	المشرف على المطبعة (محب الله)
٦- أبونا باسيليوس	المسئول عن المكتبة (الساحر)
٧- أبونا طانيوس	المشرف على المطبخ والمطعم (كاره للبشر)
٨- أبونا سيداروس	المسئول عن المزرعة والمخازن
٩ الراهب لوقا	عامل في المطبخ
١٠- الراهب غطاس	عامل في المطبخ
١١- الراهب غبريال	في معمل السلال والقُفف
١٢- الراهب ناشد	في معمل الجلود
١٣- الراهب كيرلس	في المزرعة
١٤- الراهب بنيامين	في المزرعة
١٥- الراهب بسطا	في النجارة
١٦- الراهب خزام	في حظيرة البهائم
١٧- الراهب بسادة	في حظيرة الدجاج
١٨- أبونا أغابيوس	المُحب

ديمتريوس السوّاح

الأولاد

أولاد مرقص وفوتنة	أولاد ميساك وسالومة	أولاد صموئيل ومنة
داتيال	وليم	ميلاد
فيرونيا	ونجت	جيد
بشاى	ونيسة	عزيز
هيلدا	وديع	سلوى
دميان	ولسن	أبانوب

أولاد متياس ومارتا	أبونا فيليبوس وليديا	أولاد قلدس وسوسن
هارون	فوكيه	أمين
موسى	الفونس	عزيزة
أخنوخ	ونجت	منير
حنة	بلانش	(الراوى)
هيلانة	چينيفيان	عايدة
		هناء
		لويزة
		إيزيس
		ألبير
		إيفون
		الصغيرة

معجم مصطلحات

(أ)

«أبانا الذى» : بدء الصلاة الربانية التى تُتلى في كل المناسبات

أباركة : نبيذ القربان، عصير الكرمة، تصنع من الزبيب السلطانى

ايصالية: ترتيل، أشعار موزونة لتمجيد الرب ومدح العذراء والقديسين

أبو غلمسيس: من «كالابسيس» اليونانية، سفر الرؤيا، ليلة سبت النور

إسكيم: ثوب الراهب، عندما يلبسه يؤذن بمغادرته الحياة الدنيا

أوشية : صلاة، الأواشى صلوات أو طلبات لمناسبات مختلفة

أرباع: أربعة تسبيحات تجمع في ليلة واحدة وكانت قديما توزع على أيام الأسبوع

اليعازر: الله عون

أناثيما: يونانية، معناها «اللعنة» الحرم أو القطع أو العزل من الكنيسة

ابروسفارين: الستر الكبير يغطى به الكاهن القربان والنبيذ فوق المذبح ويشير إلى الحجر الكبير الذى وُضع على قبر المسيح.

اولوجيا: لقمة البركة، تقطع من قرص القربان وتوزع عند انتهاء القداس.

أبادير: أبو الكل

أبانوب: أبو الذهب

أباهور: أبو الكنوز (باهور: عين الإله حور)

أغابى: محبة

أغابيوس: حبيب

أنافورا: القُداس

أرسانيوس: نشيط، همام

اسطفان: تاج، إكليل

ايرينى باسى: قبطية، السلام لك

آرى ايهموت: قبطية، تفضل

اسباديقون: القربان المقدس

ارشيدياكون: رتبة رئيس الشمامسة

أراخنة: رؤساء، كبار المسيحيين

أجبية: سجل الصلوات في أوقاتها

أخاب: أحد ملوك اليهود، زوج إيزابيل الوثنية

أغنوصية: ضد «غنوصية» وتعنى اللا يقين والشك فى المسلمات: نفى المعرفة الثبوتية.

(ب)

برامون: يونانية، استعداد أو انتظار العيد، يوم الصوم الأخير قبل عيدى الميلاد والغطاس

بصخة: يونانية عن «فصح» العبرية، معناها عبور، أسبوع الآلام

بطرشيل: من ملابس الأسقف والشماس

برنس: من ملابس الأسقف والكاهن

باخوم: قبطية، مصرية قديمة: عين تمثال الإله

بقطر: النطق القبطى عن فيكتور: منتصر

(ت)

تذاكية: مشتقة من «ثيؤتوكس» والدة الإله، معناهاتسبحة موزونة بدون قافية لوالدة الإله

تيشى بيهموت: قبطية، شكراً

تونية: من ملابس الأسقف والكاهن والشماس

(ث)

ثرونوس: عرش أو كرسى الأسقف

(ح)

يحالل: يبرئ من الخطايا. طقس كنسى هام

(ج)

جلجلثه: موضع الجماجم

جثسيماني: أرامية، معصرة الزيت، حيث سُلم المسيح لجند الرومان

(ذ)

أكصولوجية: تمجيد، تتلى التماجيد المختلفة في المناسبات والأعياد وتذكارات القديسين

(ز)

زنار: يونانية، منطقة أو حزام، الشريط الحريرى على صدر وتحت أبط المعمّد أو

المكرّس شماساً، تشير إلى الارتباط بالمسيح أو بالخدمة.

(س)

سنكسار: كتاب سِيَر الشهداء الأقباط يُتلى منه فصل كل يوم أحد

ساويرس: رجل عظيم

(ش)

شعانين: من «شعنا» العبرية من «أوصنا» اليونانية والقبطية. معناها «خلصنا» يوم أحد السعف، نغمة خاصة للألحان.

شملة: من ملابس الأسقف

الشاروبيم والصاروفيم: (السيرافيم والكروبيم) من المرتبة الأولى في طغمات (طوائف) الملائكة.

السيرافيم: عبرية، معناها كائنات مشتعلة أو «شرفاء» لكل منهم ستة أجنحة.

الكروبيم: ملائكة لها جناحان أو أربع أجنحة وأربعة وجوه، هي وجوه إنسان وأسد وثور ونسر؛ وهي تحمل عرش الله. وفي القداس القبطي أنهم مُمتلئون أعيُناً.

(ط)

طافوس: يونانية، مقبرة

طيلسانة: من ملابس الكاهن

(غ)

غاليليون: يونانية. زيت الفرح، بقايا زيت الميرون، في قداس المعمودية

غنوصيّة: معرفة إشراقية صادرة عن الفيض الإلهي؛ عرفان الحقائق والأسرار الدينية والكونية.

(ف)

فاتيزما: يونانية، عماد أو تنصير، ومنها baptism الانجليزية وما يقابلها

الفريسيون: إحدى الفئات اليهودية وأكثرها تشدداً.

(ك)

كيمي: خيمي: مصر، (مصرية قديمة)

(هـ)

هللويا: عبرية، هللوا لله

هوس: قبطية، تسبيح أو تسبحة

(م)

مار: سريانية، سيد أو رب وتستخدم الآن بمعنى «القديس»

مطانية: يونانية، معناها التوبة أو تغيير الفكر، سجود التوبة والخضوع، تستخدم الآن لانحناء التحية والإجلال

منجلية: الكرسى الذى يوضع عليه الكتاب المقدس الكبير ويُتلى منه في القُداس

ميرون: يونانية، زيت، الزيت الذى يمارس به سر التثبيت أو المسحة المقدسة، وخاصة عند المعمودية والاحتضار، مستخلص من طيوب كفن المسيح وله احتفالات كبيرة عند تجديده.

ميخائيل: عبرية، نظير الإله (إيل).

ميساك: كلدانية، نظير الإله أكو.

الشهور القبطية

الفلاح المصرى يزرع ويقلع حسب الشهور القبطية، وهى الشهور المصرية القديمة، التى يعرفها حق المعرفة .

١- توت : نسبة للإله «تحوت» (إله الحكمة) وهو اسم الحكيم القديم مخترع الكتابة ومقسم شهور السنة المصرية (٤٢٠٠ ق.م) ومثله القبطى : «توت إرو ولا تفوت». ويقابله شهر سبتمبر.

٢- بابه : نسبة لاله الزروع «بتروت» حيث تخضر الحقول ومثله : «إن هاف زرع بابه ما يقاش ولا لبابة» و«زرع بابه يغلب النهابه» «خش واقفل البوابة» وأيضا «كل رمان بابه» ويقابله شهر اكتوبر.

٣- هاتور: نسبة «لهاتحور» إلهة الحب والجمال والسعادة، حيث تكتسى الأرض بالخضرة، ومثله : «هاتور أبو الذهب المنتور» وأيضا : «إن فاتك زرع هاتور، أصبر لما السنة تدور» و«كل موز هاتور»، ويقابله شهر نوفمبر.

٤- كيهك: نسبة لإله الخير (كاهاكا أو اجتماع الأرواح) أو الثور المقدس (عجل أبيس) ومثله «كيهك صباحك مساك، تقوم من فطورك تحضر عشاك» لقصر اليوم، «كل سمك كيهك» ويقابله ديسمبر، وينطق كياك.

٥- طوبة : بالقبطى تعنى «غسل أو تطهير»، وينسب لإله المطر (Tobia) وسميت طيبة (الاقصر) باسمه، ومثله «طوبة تخلى الصبية كركوبة، من البرد والرطوبة»، وأيضا «شهر طوبة أبو البرد والعنوبة» (الألم، و«فتي يا طوبة، ما بليتي عرقوبة» و«اشرب من ماء طوبة» ويقابله يناير وفبراير.

٦- أمشير : نسبة إلى «جن» (Gin) الزوابع لكثرة العواصف الترابية (الخماسين) ومثله : «أمشير أبو الطبل الكبير، وأبو الزعابيب (العواصف) الكتير» وأيضا : «اشتري خروف أمشير»، ويقابله فبراير / مارس.

٧- برمهات : نسبة إلى «بامونت» إله الحرارة (ورمزه الثور المنتصر) وفي المثل : «برمهات روح الغيط وهات قمحات وعدسات وبصلات» ويقال : «اشرب لبن برمهات»، ويقابله مارس.

٨- برمودة: نسبة إلى «موته» (برموتى بالصعيدية) أى «الأفعى» المقدسة إلهة

الحصاد، ومثله: «برمودة دق العمودة» «ولا يبقى في الغيط ولا عُودة» ويقال: «شم وردة برمودة» ويقابلة ابريل.

٩- بشنس: نسبة إلى «خونسو» إله النور والقمر، لأن فيه يطول النهار على الليل، وفي المثل يقال: «بشنس يكنس الأرض كنس» أى ينتهي حصاد الحقول، ويقال: «كُل نبق بشنس» ويقابله مايو.

١٠- بؤونة: أى الحجر نسبة لإله المعادن. ويسمى «باحجر» لسخونة الجو. كقول المثل: «بؤونة تكترفيها الحرارة الملعونة» «في بؤونة لا ينضرب طوب ولا ينعمل مونة» ويقال أيضا: «كل عسل بؤونه» ويقابله شهر يونيو.

١١- أبيب: نسبة إلى «حابي» إله النيل، ومثله: «أبيب طباخ العنب والزبيب» لنضج الفاكهة، «وان أكلت ملوخية في أبيب هات لك طبيب» وأيضا: «كُل تين أبيب» ويقابله يوليو.

١٢- مسرى: أى ابن الشمس ومثلها: «مسرى تجرى فيها كل ترعة عسرة» بسبب الفيضان: «مسرى يعفن الكسرة» بسبب الحر. ويقال «كل عنب مسرى» ويقابله أغسطس.

١٣-النسئ: يعنى في القبطية «الذى يعقب» وفي التقليد القبطى يسمى «الشهر الصغير» ومدته ٥ - ٦ أيام لاستكمال السنة القبطية (١٢ شهر X ٣٠ يوما + ٥ أيام النسئ = ٣٦٥ يوما).

قال ابن زولاق في كتابه «فضائل مصر» وصف بعضهم مصر فقال ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زمردة خضراء، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء. فأما اللؤلؤة البيضاء فان مصر في أشهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء، وأما المسكة السوداء فانها في أشهر بابة وهاتور وكيهك ينكشف الماء عن الأرض، فتصير أرضا سوداء، وأما الزمردة الخضراء فإن أشهر طوبة وأمشير وبرمهات يكثر نبات الأرض وربيعها فتصير خضراء كأنها زمردة، وأما السبيكة الحمراء فإنه في أشهر برمودة وبشنس وبؤونة يتورد العشب، ويبلغ الزرع الحصاد فتكون كالسبيكة التى من الذهب منظراً ومنفعة.

تنويه وببليوجرافيا

الأفكار والرؤى الواردة في هذه الرواية على لسان «الشخصيات» ليست بالضرورة خاصة بالكاتب، ولا بالراوي - مهما تشابها أو تطابقا في مواضع معينة- بل هي محض نتاج تلك «الشخصيات».

وغني عن القول إنه ليس لشخصيات وأحداث ومواقع هذا الكتاب صلة بالواقع، كل شئ هنا خيال صرف مطعم بنمنمة واقعية. وكل ما هو غير ذلك فمن قبيل المصادفة البحتة بما في ذلك شخصية الراوي وأقواله.

أهم المراجع

مجلات ودوريات: وطني، مجلة مدارس الأحد، مجلة صوت الراعي، مجلة المحبة، مجلة مرقس، روز اليوسف، المصور، صباح الخير، الأهالي، الشعب، الاهرام، الأخبار، الجمهورية، الاسبوع، الدستور، وغيرها.

كتب: الكتاب المقدس، العهد القديم والعهد الجديد. ترجم من اللغة اليونانية. بيروت، ١٩٠٩.

- قاموس الكتاب المقدس. نخبة من المؤلفين، مكتبة المشعل، بيروت، ط ٦، ١٩٨١
- الخولاجي المقدس. مكتبة المحبة. د. ت.
- اللؤلؤة البهية في التراتيل الروحية، القمص يوحنا جرجس وجبران نعمة الله. مطبعة السلام، الاسكندرية، ١٩٢١.
- كتاب السنكسار، الآباء القديسين، طبعة ثالثة، مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٧٨.
- بستان الرهبان، آباء الكنيسة القبطية، طبعة ثانية، مطرانية بني سويف، ١٩٧٧.
- كتاب العظات الذهبية، يوحنا فم الذهب، القمص متى جندي المحرقي، مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٥١.
- صلوات الخدمات في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، مكتبة المحبة، القاهرة، د.ت.
- قطمارس آحاد شهر بؤونة، مطرانية الأقباط الأرثوذكس بالمنيا وأبو قرقاص، د.ت.
- مدائح كيهك، مكتبة المحبة، القاهرة، د.ت.
- كتاب المعمودية المقدسة، مطبعة القديس مكاريوس، مصر القديمة، ١٩٢١.
- سر المعمودية، صموئيل زكي نصير، الكلية الاكليركية القبطية الارثوذكسية، البلينا، د.ت.

- الابصلمودية المقدسة، كنيسة مارجرجس، اسبورتنج، الاسكندرية، د.ت.
- اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، القمص يوحنا سلامة، الناشر يونان سلامة المحامي، طبعة ثالثة، القاهرة، ١٩٩٥.
- برسوم العريان وآخرون، الصحافي العجوز، جماعة نشر الثقافة، الاسكندرية، ١٩٣٥؟
- أخميم الراهب صموئيل السرياني، معهد الدراسات القبطية، القاهرة، د.ت.
- صفحة من تاريخ القبط، رسالة مار مينا الخامسة، جمعية مارمينا العجايبي، الاسكندرية، ١٩٥٤.
- رسالة مار مينا الخامسة عشرة، جمعية مار مينا العجايبي، الاسكندرية، ١٩٩٥.
- السلطان الروحي في الكنيسة، مصطلحات ومعارف كنسية، القاهرة، ١٩٩٨.
- رئيس الملائكة ميخائيل، القمص ابراهيم جبره، مكتبة المحبة، القاهرة، د.ت.
- القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية، د. سمير فوزى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩.
- مجلة معهد الدراسات القبطية، معهد الدراسات القبطية، القاهرة ١٩٥٨.
- أوراق العمر، لويس عوض، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٨٩.
- الفن القبطي، د. سعاد ماهر. الجهاز المركزى للكتب الجامعية، القاهرة ١٩٧٧.
- الفن القبطي. القمص يرساب السرياني. مطبعة الأنبا رويس بالعباسية. القاهرة، ١٩٩٧.
- المظاهر الرائعة للفنون القبطية، د. رؤوف حبيب، مكتبة المحبة، القاهرة، د.ت.
- دراسات في العمارة والفنون القبطية، د. مصطفى عبد الله شيحة، هيئة الآثار، القاهرة ١٩٨٨.
- الكنائس القبطية القديمة في مصر، ت. ابراهيم سلامة ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.
- مختصر تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ميخائيل تاوضروس أبسخيرون، مطبعة الأخوة المصريين، القاهرة، ١٩٩٠.
- حضارة مصر في العصر القبطي، مراد كامل، دار العالم العربي، القاهرة، د.ت.
- الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة، الأنبا إيسذروس، مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٦٤.
- تاريخ الرهبنة والديرية في مصر، د. رؤوف حبيب، مكتبة المحبة، القاهرة، د.ت.
- الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار، الأب متى المسكين، دير القديس مقار، وادى النطرون، طبعة ثانية، ١٩٨٤.
- في رحاب المعبود توت، د. سامي جبره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤.

- دير البراموس بين الماضي والحاضر، القس أغسطينوس البرموسي، دير البراموس، ١٩٩٣ .
- ديانة مصر القديمة، أدولف إرمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧ .
- نصوص مقدسة ونصوص دنيوية عن مصر القديمة، كلير لالويت، دار الفكر، القاهرة ١٩٩٦ .
- معجم الحضارة المصرية القديمة، ت. أمين سلامه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦ .
- الآلهة والناس في مصر القديمة، ت. فريد البورى، دار الفكر، القاهرة ١٩٩٧ .
- الناس في صعيد مصر، وينفريد بلاكمان، عين للدراسات، القاهرة ١٩٩٧ .
- الفن الشعبي والمعتقدات السحرية، سعد الخادم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة د.ت.
- Chansons populaires recueillies dans la Haute Egypte, Gaston Maspero, Le Caire D ccccx IV.
- The Coptic Liturgy of St. Basil, Cairo, 1992.
- Coptic Art, P. Leinhert & Landrork, Cairo, s.d.
- Coptic Art & Culture, H.Honderlink (ed), Shouhdy P.H., Cairo 1990.
- Monks and Monasteries of the Egyptian Desert, Otto HF. A. Meinardus, A.U.C. Cairo, 1992.
- The Story of the Copts, Iris Habib el Masri., P. The Middle East Council of Churches, Cairo, 1978.
- The Gnostic Gospels, Elaine Pagels, Vintage Books, N.Y. 1981.
- The Forgotten Books of Eden, Rutherford H. Platt, Jr. (ed.) Bell Bublishing Company, N.Y. 1981.
- The lost Books of the Bible, Belr Publishing Co.. N. Y. 1979.
- The Oxford Annotated Apocrypha, ed. Bruce M.Metyger, Oxford University Press, N.Y. 1965.
- The Coptic Encyclopaedia, Aziz Attia, ed., Macnillanx, N.Y. 1991.
- الخطط المقريزية: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزى، تقى الدين أبو العباس أحمد بن على، طبعة بالأوفست عن طبعة بولاق، الحلبى وشركاه، القاهرة.
- الخطط التوفيقية الجديدة، على باشا مبارك، الهيئة المصرية العامة للكتاب عن طبعة بولاق الجزء ٨، القاهرة ١٩٩٠ .

إدوار الخرّاط

* إدوار الخرّاط (إدوار قلتة فلتس يوسف).
* روائى، وقصاص، وشاعر. اشتغل بالنقد الأدبى والتشكيلى، وعمل بالترجمة، وكتب للإذاعة، وقام بتحرير عدة مطبوعات. ولد فى ١٦ مارس ١٩٢٦ فى الأسكندرية لأب من أخميم فى صعيد مصر وأم من الطرانة غرب دلتا النيل، وحصل على ليسانس الحقوق فى ١٩٤٦ من جامعة الاسكندرية.
* ٤٥ ش أحمد حشمت - الزمالك - القاهرة ١١٢١١.

- عمل أثناء الدراسة، عقب وفاة والده فى ١٩٤٣، فى مخازن البحرية البريطانية فى القبارى بالأسكندرية، ثم مترجماً ومحرراً بجريدة "البصير" فى الأسكندرية، ثم موظفاً فى البنك الأهلى بالأسكندرية حتى ١٩٤٨.
- اعتقل فى ١٥ مايو ١٩٤٨، لنشاطه الوطنى الثورى، فى عهد الملكية، سنتين، فى معتقلات "أبو قير" و"الطور".
- ثم عمل فى شركة التأمين الأهلية المصرية بالأسكندرية حتى ١٩٥٥، ثم مترجماً فى السفارة الرومانية بالقاهرة.
- تزوج فى ١٩٥٨ وله ولدان وأربعة أحفاد.
- فى ١٩٥٩ عمل بمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية ثم فى اتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين حتى ١٩٨٣ واستقال منهما بعد وصوله إلى منصب السكرتير العام المساعد فى كلتا المنظمتين.
- عمل بعض الوقت مستشاراً لرئيس منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية وللأمانة العامة لاتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين، وهو الآن متفرغ للكتابة.
- سافر إلى معظم بلاد أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا، فى رحلات عمل.
- شارك فى إصدار وتحرير مجلة "لوتس" للأدب الأفريقى الآسيوى، ومجلة "جاليرى ٦٨" الطليعية، وعدة مطبوعات لكل من منظمة التضامن الأفريقى الآسيوى واتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين.

- ترجم إلى العربية خمسة عشر كتاباً منشوراً فى القصة القصيرة والرواية والفلسفة والسياسة وعلم الاجتماع ، كما ترجم للبرنامج الثانى فى الإذاعة المصرية عشر مسرحيات طويلة واثنتى عشرة مسرحية قصيرة وكتب له تسعة وعشرين برنامجاً إذاعياً طويلاً ، وشارك في برامج وندوات ثقافية متعددة فيه .
ونُشر له عدد كبير من الدراسات والمقالات والترجمات والأحاديث في المجلات الأدبية المصرية والعربية .
- دُعى أستاذاً زائراً فى كلية سانت أنطونى بأوكسفورد خلال فصل الربيع عام ١٩٧٩ وألقى عدة محاضرات بالإنجليزية عن الأدب المصرى الحديث فى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية جامعة لندن ، ومركز الشرق الأوسط ، وكلية سانت أنطونى ، جامعة أوكسفورد فى عامى ١٩٧٩ و ١٩٨٧ ، وفى نادى الأمم المتحدة فى نيويورك ، ١٩٨٨ .
- شارك فى ملتقى القصة القصيرة ، فاس ، المغرب عام ١٩٧٩ ، وفى ملتقى الرواية العربية ، مكناس ، المغرب ، عام ١٩٨٣ ، وفى ندوة جامعة لندن عن آداب الشرق الأوسط فى أبريل ١٩٨٧ ، وفى لقاء الروائيين الفرنسيين والعرب ، باريس ١٩٨٨ ، وفى عدة مؤتمرات أدبية فى رونده ، والمرية ، ومولينا ، والمرسية ، وطليطلة ، وغرناطة (أسبانيا) وبودابست وتورينو وبرلين وتورنتو ، وقام بجولة أدبية واسعة فى سويسرا وألمانيا فى ١٩٩١ ، وقام بجولة أدبية فى جامعات ييل ، وبنسلفانيا ، وبرنستون ، وكولومبيا (نيويورك) فى الولايات المتحدة الأمريكية، فى ١٩٩٢ . حاضر فى البرتغال وإيطاليا وانجلترا وهولنده وفرنسا .
- قام بتحرير العدد الخاص بالأدب المصرى الحداثى (العدد ١٤) من مجلة "الكرمل" فى ١٩٨٤ .
- مثّل مصر ضيفاً على المؤتمر التذكارى الخامس والستين لنادى القلم الدولي فى هامبورج ١٩٨٦ .
- شارك فى ملتقى قابس (تونس) للرواية العربية فى ١٩٩٢ حيث تقرر أن يكون "ضيف شرف" للمتلقى ، وكان موضع تكريم الملتقى فى ديسمبر ١٩٩٣ .
- شارك فى ملتقى القصة القصيرة فى عمّان (الأردن) عام ١٩٩٣ .

- وفى مارس ١٩٩٤ قام بجولة فى خمس مدن إيطالية (تورينو ، فلورنسه ، ميلانو ، روما ، بارى) وألقى فيها محاضرة عن "اسكندريتى ، ملتقى الثقافات : صور للأسكندرية فى الأدب" .
- فى أكتوبر ونوفمبر ١٩٩٦ ألقى سلسلة من المحاضرات فى معهد العالم العربى بباريس عن "الاتجاهات الحداثية فى فن القص العربى" .
- كما ألقى فى شيكاغو محاضرة عن "طقوس تحدى الموت عند المصريين" وفى نيويورك محاضرة بعنوان "تنويعات على موضوعات السيرة الذاتية" فى نوفمبر ١٩٩٦ .
- قررت روايته "رامة والتنين" فى جامعة باريس عامى ١٩٨٤ و ١٩٨٦ .
- تُرجمت بعض قصصه القصيرة إلى اللغات الأجنبية ، وترجمت روايته "ترابها زعفران" للإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والأسبانية والسويدية واختارتها الكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج "كتاب العام" عن ١٩٩٠ ، وتُرجمت روايته "حجارة بوبيللو" إلى سبع لغات أوروبية .
- تُرجمت روايته "يابنات اسكندرية" إلى الإيطالية والإنجليزية والفرنسية .
- حصل على جائزة الدولة للقصة عام ١٩٧٣ وعلى جائزة الصداقة الفرنسية العربية من فرنسا عام ١٩٩١ ، وعلى جائزة سلطان العويس فى مجال القصة والرواية عام ١٩٩٥ / ١٩٩٦ ، وعلى جائزة كافافيس للدراسات اليونانية عام ١٩٩٨ ، وعلى جائزة الدولة التقديرية للآداب عام ٢٠٠٠ .
- فى عيد ميلاده السبعين أقام له المجلس الأعلى للثقافة فى مصر احتفالية حافلة فى الفترة من ١٩ إلى ٢٢ مارس ١٩٩٦ ، شارك فيها نحو أربعين مبدعاً وناقداً وباحثاً .
- فى نوفمبر ١٩٩٨ رأس لجنة التحكيم الدولية فى مهرجان باستيا لأفلام ثقافة البحر الأبيض المتوسط ، فى كورسيكا

قصص وروايات

١ -	حيطان عالية : مجموعة قصص	القاهرة : الخراط ١٩٥٩
		ط٢ (كاملة) بيروت :دار الآداب ١٩٩٠
		ط٣ (كاملة مع مقدمة ودراسات) الاسكندرية : دار المستقبل ١٩٩٥ .
٢ -	ساعات الكبرياء : مجموعة قصص	بيروت . دار الآداب ١٩٧٢
		ط ٢ بيروت : دار الآداب ١٩٩٠
		ط ٣ - القاهرة: مختارات فصول ١٩٩٤
٣ -	رامة والتنين : رواية	القاهرة : الخراط، ١٩٧٩ - طبعة محدودة
		بيروت .المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠
		ط ٢ - بيروت : دار الآداب ١٩٩٢
		ط ٣ - الإسكندرية : المستقبل ١٩٩٣ القاهرة :
٤ -	اختناقات العشق والصباح : قصص	دار المستقبل العربى ١٩٨٣
		ط ٢ - بيروت . دار الآداب ١٩٩٢
٥ -	الزمن الآخر : رواية	القاهرة : دار شهدى ١٩٨٥
		ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢
٦ -	محطة السكة الحديد : رواية	القاهرة الهيئة العامة للكتاب .و مختارات فصول ١٩٨٥
		ط ٢ - بيروت . دار الآداب ١٩٩٠
٧ -	ترابها زعفران : نصوص اسكندرانية	القاهرة : دار المستقبل العربى ١٩٨٦
		ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩١
٨ -	أضلاع الصحراء : رواية	القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧
٩ -	يابنات اسكندرية . رواية	بيروت . دار الآداب ١٩٩٠
		ط٢ - القاهرة :دار الياس العصرية ١٩٩١
١٠ -	مخلوقات الأشواق الطائرة : رواية	بيروت ، دار الآداب ١٩٩٠
		ط٢ القاهرة :الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢
		ط٣ ، القاهرة: مركز الحضارة العربية ١٩٩٦
١	أمواج الليالى : متتالية قصصية	القاهرة : دار شرقيات ١٩٩١
		ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢
١	حجارة بوبيللو : رواية	القاهرة : دار شرقيات ١٩٩٣
		ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٣
١٣ -	اختراقات الهوى والتهلكة : نزوات روائية	بيروت ، دار الآداب ١٩٩٣
١٤ -	رقرقة الأحلام الملحية : رواية	بيروت ، دار الآداب ١٩٩٤
١٥ -	أبنية متطايرة : رواية	بيروت ،دار الآداب ١٩٩٥

١٦- حريق الأخيلة : رواية — الإسكندرية ، دار المستقبل ١٩٩٤
١٧- اسكندريتي : كولاج قصصي — الإسكندرية ، دار المستقبل ١٩٩٤
١٨- يقين العطش : رواية — القاهرة ، دار شرقيات ١٩٩٧
١٩- تباريح الوقائع والجنون : تنويعات روائية — القاهرة ، مركز الحضارة العربية ١٩٩٨
٢٠- صخور السماء : رواية — القاهرة ، مركز الحضارة العربية ٢٠٠١
٢١- طريق النسر ، رواية — تحت الطبع

شعر

٢٢- تأويلات : سبع قصائد إلى عدلي رزق الله — القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٦
٢٣- لماذا؟ :مقاطع من قصيدة حب (١٩٥٥-١٩٩٥) — القاهرة : دار شرقيات ١٩٩٦
٢٤- ضربتني أجنحة طائرك (قصائد إلى أحمد مرسي) — القاهرة : دار حور ١٩٩٦
٢٥- طغيان سطوة الطوايا (قصائد الإصاتة وقصائد أخرى) — القاهرة : الهيئة العامة لقصور الثقافة (أصوات أدبية)
٢٦- صيحة وحيد القرن (قصائد إلى سامي علي) — القاهرة : دار شرقيات ١٩٩٨
٢٧- سبع سحابات ، دانتيللا السماء — القاهرة ، مركز الحضارة العربية ٢٠٠٠

دراسات

٢٨- مختارات من القصة القصيرة في السبعينات :مع دراسة — القاهرة : مطبوعات القاهرة ١٩٨٢
٢٩- عدلي رزق الله : مائيات ٨٦ : دراسة — القاهرة : عدلي رزق الله ١٩٨٦
٣٠- مائيات صغيرة : دراسة — القاهرة ١٩٨٩
٣١- أحمد مرسي: دراسة ومختارات شعرية — القاهرة ١٩٩٠
٣٢- من الصمت إلى التمرد :دراسات في الأدب العالمي — القاهرة : كتابات نقدية ١٩٩٤
٣٣- "الحساسية الجديدة" :مقالات في الظاهرة القصصية — بيروت : دار الآداب ١٩٩٣
٣٤- "الكتابة عبر النوعية" : دراسة — القاهرة : دار شرقيات ١٩٩٤
٣٥- "عصيان الحلم" :مختارات ودراسات في الشعر — أبو ظبي : المجمع الثقافي ١٩٩٥
٣٦- "أنشودة للكثافة" : في الفن والثقافة — القاهرة ، المستقبل العربي ١٩٩٥
٣٧- مهاجمة المستحيل : سيرة ذاتية للكتابة — دمشق ، دار المدى ١٩٩٦
٣٨- مراودة المستحيل : حوار مع الذات والآخرين — عمّان ، دار أزمنة ١٩٩٧
٣٩- أحمد مرسي شاعر تشكيلي — القاهرة،الهيئة العامة لقصور الثقافة (نقوش)
٤٠- ما وراء الواقع : في الظاهرة اللاواقعية — القاهرة،الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية
٤١- أصوات الحداثة : اتجاهات حداثية في القص العربي — بيروت ، دار الآداب ، ١٩٩٩
٤٢- شعر الحداثة في مصر : دراسات وتأويلات — القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٠

دراسات معدة للنشر :

٤٣- المسرح والأسطورة ، أساطير مسرحيّة

٤٤- "الحلم وزهرة المقاومة" : فى الشعر

٤٥- "من العبث إلى الالتزام" فى الأدب الوجودىّ

٤٦- ملامح اسطورية فى مسرح طاغور

٤٧- مواجهة المستحيل :مقاطع أخرى من سيرة ذاتيّة

٤٨- إيماءات عن الفن التشكيلى

٤٩ المشهد القصصى فى مصر ٢٠٠٠

٥٠- أضواء أخرى على الحساسية الجديدة

٥١- فى الواقعية وما بعد الواقعية

٥٢- فجر المسرح

٥٣- فى التراجيديا اليونانية

كتب مترجمة :

٥٤- الخطاب المفقود : مسرحية أ.ل. كارجيالى — القاهرة : الدار المصرية للكتاب ١٩٥٨ (نفد)

٥٥- الحرب والسلام : ليو تولستوى — القاهرة : الدار المصرية للكتاب ١٩٥٨ (نفد)

٥٦- الغجرية والفارس : قصص رومانية — القاهرة :الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٥٨ (نفد)

٥٧- شهر العسل المر : قصص إيطالية — القاهرة :الهيئة العامة للكتاب ،(كتب ثقافية)١٩٥٩(نفد)

ط٢ القاهرة :الهيئة العامة لقصور الثقافة(آفاق الترجمة)١٩٩٩

٥٨- فارالاكو : رواية غينية ،إميل سيسيه — القاهرة : الهيئة العامة للكتاب(الألف كتاب)١٩٦٢ (نفد)

٥٩- أنتيجون :مسرحية جان آنوى بالاشتراك مع ألفريد فرج — القاهرة : الهيئة العامة للكتاب(الألف كتاب)١٩٦٣ (نفد)

٦٠- مشروع الحياة . دراسة فرانسيس جانسون — بيروت : دار الآداب ١٩٦٧ (نفد)

٦١- ميديا : مسرحية جان آنوى — القاهرة: الهيئة العامة للكتاب(مجلة المسرح)١٩٦٨(نفد)

٦٢- الوجه الآخر لأمريكا : دراسة ميكائيل هارنجتون — بيروت : دار الآداب ١٩٦٨ (نفد)

٦٣- تشريح جثة الاستعمار : دراسة جى دى بوشير — بيروت : دار الآداب ١٩٦٨ (نفد)

٦٤- الشوارع العارية : رواية فاسكوپراتولينى — بيروت : دار الآداب ١٩٦٩ (نفد)

ط٢ - القاهرة: دار الياس العصرية ١٩٩١

٦٥- نحو التحرر : دراسة هربرت ماركوز — بيروت : دار الآداب ١٩٧٢ (نفد)

٦٦- حوريات البحر : قصص أمريكية — القاهرة : دار الهلال ١٩٧٩ (نفد)

ط٢ - القاهرة : شرقيات ١٩٩٥

٦٧- الإسلام والاستعمار : دراسة . — القاهرة : دار شهدى ١٩٨٥

٦٨- الرؤى والأقنعة : قصص مترجمة — أبو ظبى : المجمع الثقافى ١٩٩٥

٦٩- السرير المائدة : شعر پول إيلوار — القاهرة:الهيئة العامة لقصور الثقافة(آفاق الترجمة)١٩٩٧

٧٠- ثلاث زنبقات ووردة : قصص مترجمة — القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩

مسرحيات مترجمة للبرنامج الثانى ، الإذاعة المصرية

٧١- النورس	أنطون تشيكوف
٧٢- سوء التفاهم	ألبير كامى
٧٣- الحصار	ألبير كامى
٧٤- المجانين	ألبير كامى
٧٥- مسافر بلا متاع	جان آنوى
٧٦- بيكيت	جان آنوى
٧٧- عنقاء كثيرة الظهور	كريستوفر فراى
٧٨- سوناتا الشبح	أوجست ستريندبرج
٧٩- انتهت الحرب	ماكس فريش
٨٠- السلام	أريستوفانيس
٨١- الخرب	سول بيلو
٨٢- فى قلب السنين	إريك بيركوفيتشى
٨٣- الأسلاف يتميزون غضبا	كاتب ياسين (مسرح الحيب)
٨٤- الهولندى	ليروا چونز
٨٥- الأقزام	هارولد پينتر
٨٦- الطريق البنفسجى إلى حقل الخشخاش	موريس ميلدون
٨٧- الولد الحالم	يوچين أونيل
٨٨- بعد يوم واحد	چوزيف كونراد
٨٩- كلمات على زجاج النافذة	وليام بتلريتس
٩٠- البروفيسور تاران	أرتير آداموف
٩١- الملك والمتسولة	جوفيند داس
٩٢- العذاب	جوفيند داس

كتب عن المؤلف

١ - يقين الكتابة (حسنى حسن)	القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٦
٢ - جماليات التشظى (السيد فاروق)	القاهرة ، دار شرقيات ١٩٩٦
٣ - ثنائيات إدوار الخراط النصية (أحمد خريس)	عمان ، دار أزمنة ١٩٩٨
٤ - صوت صارخ فى الشوارع (عدة مؤلفين)	القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨
٥ - مغامر حتى النهاية (عدة مؤلفين)	القاهرة ، مركز الحضارة العربية ٢٠٠٠

رسائل جامعية :

1. Thesis for M.A.
- Temporality and the Ontological Experience in the work of Virginia Wolf, "To the Lighthouse" and Edwar Al-Kharrat's "Saffron City" : By Maggie H, Awadalla-May 1989 - American University of Cairo.
2. Mémoire pour maitrise
- Rama wa-t-Tennin, du myth à la mystique, avec traduction de "Mikhil et la Cygne" 1er chapiter de Rama wa-t-Tennin, par Catherine Farhi, Juin 1989, Université de Aix-en-Provence, sous la direction du Pr. Charles Vlal, France.

٣ - السنة الجامعية ١٩٨٩ - ١٩٩٠ ، بحث لنيل شهادة استكمال الدروس الجامعية ، الجوهري أحمد ، الرباط - «الحكي الشعري في رواية رامة والتنين» جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تحت إشراف د. أحمد اليابوري .

٤ - السنة الجامعية ١٩٩٠ - ١٩٩١ ، بحث لنيل شهادة الدراسات التكميلية ، عبد الرحمن الناصر - الوصف في رواية يا بنات اسكندرية» الرباط ، جامعة الخامس ، كلية والعلوم الإنسانية - تحت إشراف د. أ]مد اليابورى .

٥ - ملسنة الجامعية ١٩٩١ - ١٩٩٢ ، جزء من رسالة دكتوراه نالت مرتبة الشرف الأولى ، محمد مهدي غالي - «صور الشكل السيريالي (توظيف معطيات الحلم والأسطورة وتيار الوعى)» . كلية الآداب ، جامعة بنها . (مقتطف من «تطور الشكل الفنى فى القصة المصرية القصيرة .

6 - Thesis for B.A.
- Real and Dream-likein edward Al-Kharrat's Alexendria. By Magda-Lia Bloos, June 1992. Bucharest University, Romania, under Dr. Mioara Roman supeivision.
7 - Thesis for M.A.
- The stream of consciousness ;lechniques in the modern novel: A comparative study of james Joyce's Ulysses and Edwar Al-Kharrat's The Other Time, By NaglaaRoshdy Al- Hawary, 1992. Supervision Prof. Amin Al-Ayouti & Dr. al-Sayed Al-Bahrawi, The English Department.

٨ - السنة الجامعية ١٩٩٢ - ١٩٩٣ ، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة :
شذاق بو شعيب - «تشخيص الخطاب الروائي من خلال الزمن الآخر ورامة والتنين» . كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الإمام محمد الخامس ، الرباط - تحت إشراف الدكتور محمد برادة .

٩ - السنة الجامعية ١٩٩٢ - ١٩٩٣ ، شهادة الكفاءة فى البحث :
الصادق القاسمى «فن القص فى رامة والتنين» - كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الجنوب - صفاقس تحت إشراف د. محمد الباردى.

10Thesis for M.A.

- The Aesthetic Faith in the Self. An Inquiry into James Joyce "A Portrait" , J. P. Sartre"Les Mots" and Edwar al Kharrat "City of Saffron" . by Nashwa Al-kAssry, 1994 Supervision Dr. Ferial Gayonl, A.U.C.

١١ . السنة الجامعية ١٩٩٦ ، رسالة ما جستير في الأدب العربى :

أحمد خريس - "ثنائيات ردوار الخراط النصية ، دراسة في السردية وتحولات المعنى - ، كلية الآداب - جامعة اليرموك إربد الفيوم)

(إربد - الأردن) تحت إشراف د. خليل الشيخ . (صدرت في كتاب عن دار ،أزمنة، عمان الأردن ١٩٩٨) .

12. Thesis for M.A.

- Alexandria and Forms of the Chronotope : A study of Justine. Miramar and Ciy of Salffron, by Ghada El-Koussy, 1997, Superision Prof. Radwa Ashour, Cairon University. The English Departmet.

١٣ - السنة الجامعية ١٩٩٨ - ١٩٩٩ بحث لنيل شهادة الماجستير :

سمية الحسيني - «لغة القص في رامة والتنين» ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، تحت إشراف الدكتور صلاح فضل .

الفهرس

الفصل الأول	:	مارينا	٧
الفصل الثانى	:	مرقص	٣٥
الفصل الثالث	:	باخوميوس	٥٧
الفصل الرابع	:	سالومة	٨١
الفصل الخامس	:	الملاك ميخائيل	١١٣
الفصل السادس	:	الجدلية	١٣٩
الفصل السابع	:	التحقيق	١٦٣
الفصل الثامن	:	المعمودية	١٨٩
الفصل التاسع	:	تراتيل	٢١٩
الفصل العاشر	:	الدير الكبير	٢٤٣
الفصل الحادى عشر	:	أهل الهوى	٢٧٣
الفصل الثانى عشر	:	المعرفة	٢٩٩
الفصل الثالث عشر	:	أحداث أباهور	٣٢١
الفصل الرابع عشر	:	مولد العدرا	٣٤٥
الفصل الخامس عشر	:	البرارى	٣٧٣
الفصل السادس عشر	:	التجسّد	٣٩٣
الفصل السابع عشر	:	الأنقاض	٤١٧
الفصل الثامن عشر		الجبل	٤٣٩

- الشخصيات الرئيسية ٤٦١
- الشخصيات الثانوية ٤٦٣
- الرهبان ٤٦٥
- الأولاد ٤٦٦
- معجم مصطلحات ٤٦٧
- الشهور القبطية ٤٧١
- تنويه وببلوجرافيا ٤٧٣

من قائمة الإصدارات الأدبية

الحضارة العربية ـ إصدار علمي محكم	د. محمود فهمي حجازي
فكر وإبداع .. إصدار علمي محكم	د. حسن البنداري
هاجس الكتابة	د. أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د. أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د. أحمد إبراهيم الفقيه
حقول الرماد	د. أحمد إبراهيم الفقيه
الخطابة عند الخوارج	أحمد بدران
التوجهات النقدية في رواية عودة الروح	أحمد بدران
أثر الإسلام في الأدب الإسباني د. حامد أبو أحمد	د. علي عبد الرؤوف
الوقوف علي الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
عبد الله البردوني ـ حياته وشعره	د. أحمد عبد الحميد
الإنسان والفكرة	أحمد المهنا
قراءة المعاني في بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
مغامر حتي النهاية	إدوار الخراط وآخرون
مسالك الرؤى : قراءة في أعمال خيري عبد الجواد	إدوار الخراط
اللغة والشكل	أمجد ريان
من حديث الشعر والشعراء	د. جميل علوش
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشي
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادي
الصنعة الفنية في التراث النقدي	د. حسن البنداري
جدلية الأداء التبادلي	د. حسن البنداري
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
تقاسيم نقدية	زينب العسال
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
البعد الغائب : نظرات في القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربي في السعودية	شعيب عبد الفتاح
البواكير في القصة القصيرة	شوقي عبد الحميد
الثقافة الشعبية وأوهام الصفوة	د. صلاح الراوي
إنتاج الدلالة الأدبية	د. صلاح فضل

منهج الواقعية في الإبداع الأدبي	د. صلاح فضل
تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي	د. صلاح فضل
محبة النص (دراسات نقدية)	عزازي علي عزازي
التمرد والصعلوك (قراءة جديدة في شعر عروة وعنترة)	عزازي علي عزازي
رحلة الكلمات	د. علي فهمي خشيم
بحثاً عن فرعون العربي	د. علي فهمي خشيم
أعلام في الأدب العالمي	علي عبد الفتاح
هيمنجواي .. حياته وأعماله الأدبية	د. غبريال وهبة
محمد مندور شيخ النقاد	فؤاد قنديل
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدي إبراهيم
الهندسة الصوتية الإيقاعية في النص الشعري	د. مراد مبروك
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
أبو رجل مسلوخة	محمد مستجاب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغني
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديري
مقالات في الحياة والأدب	ممدوح القديري
الرواية في زمن الغضب	ممدوح القديري
الرواية العربية : رسوم وقراءات	نبيل سليمان
يحدث أحياناً	هبة عنايت
إشكاليات التأصيل في المسرح العربي	هيثم يحيى الخواجة
يوسف الشاروني وعالمه القصصي	د. نعيم عطية
معجم أسماء قصص يوسف الشاروني	مصطفى بيومي
عبد الله السيد شرف الذي عرفته	وائل وجدي
في الأدب العماني	يوسف الشاروني
القصة .. تمردا وتطورا	يوسف الشاروني
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
الثلاثية الروائية	د. أحمد إبراهيم الفقيه
الهاجس	أحمد بدران
ظل باب	أحمد محمد حميدة
وقائع غرق السفينة	إدريس علي
واحد ضد الجميع	إدريس علي
المبعدون	إدريس علي

صخور السماء	إدوار الخراط	سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط	شجرة الخلد	سعد القرش
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط	تائهون في الحياة	سعدية البياتي
يقين العطش	إدوار الخراط	شهقة	سعيد بكر
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط	حبيبي يا ناس	سليمان كابو
متى تتزوجني ؟!	أشرف خليل	قطار الساعة ١٢	السيد الشوربجي
حذاء السيد المنسي	أشرف العوضي	أيام هند	سيد الوكيل
عندما تبيض الديوك	أمجد صابر	كف مريم	سعيد سالم
لا أحد يحبك	أماني فهمي	سفر الموت	شاطبي يوسف ميخائيل
همس العاشقين	أمين بكير	الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
حكايات من دفاتر النسوان	أمين بكير	أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد
ألم يخلقها الله امرأة	أمين العزب	الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
مأساة أسرة	أمين العزب	الخرابة	د.عبد الرحيم صديق
الخيول الشاردة	بهي الدين عوض	الغربان لا تختفي أبدا	عبد الفتاح صبري
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني	جسد في ظل	عبد النبي فرج
مطربة الغروب	جمال الغيطاني	الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوي	ليس هناك ما يبهج	عبده خال
المتعبون	جمعة محمد جمعة	لا أحد	عبده خال
دموع إيزيس	حسني لبيب	آخر ما قاله النهر	عز الدين الأسواني
بالمقلوب	د. حمدي عودة	صعيدي صنج	د. عزة عزت
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي	في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه	سراديب	عفاف السيد
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه	إيثارو	د. علي فهمي خشيم
يومية هروب	خيري عبد الجواد	حكاية الشمردل	عمار علي حسن
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد	الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد	جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جدا)	د. فاروق أوهان
حرب أطاليا	خيري عبد الجواد	البحر يغرق	د. فاروق أوهان
حرب بلاد نعنم	خيري عبد الجواد	وجهها وطن	فاطمة يوسف العلي
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد	تاء مربوطة	فاطمة يوسف العلي
التوهمات	خيري عبد الجواد	ينابيع الحزن والمسرة	فتحي سلامة
الطريق والعاصفة	رأفت سليم	شفيقة .. وسرها الباتع	فؤاد قنديل
في لهيب الشمس	رأفت سليم	يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوي
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد	وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
أنا وتورا وماعت	رفقي بدوي	خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة

حب وظلال	كوثر عبد الدايم	الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
ترانزيت	ليلى الشربينى	فوق لهيب الشموع	ممدوح القديري
مشوار	ليلى الشربينى	ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
الرجل	ليلى الشربينى	دم الأبنوس	ناجي الشكري
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى	ويصدأ ماء النهر	ناصر الهلالي
الحلم	ليلى الشربينى	حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
النغم	ليلى الشربينى	الدائرة	د. مجدي إبراهيم
الفتيت المبعثر	محسن الرملي	حكايات مصرية	د. مجدي إبراهيم
المينا الشرقية	محمد جبريل	انا السلطان	د. مجدي إبراهيم
مد الموج	محمد جبريل	قمر اخضر	نهلة السوسو
الخرابة ٢٠٠٠	محمد الشرقاوى	ديسمبر الدافئ	هدى جاد
كوميديا الانسجام	محمد بركة	أيام زمان .. فين انت ؟	د. هشام قاسم
طوفان النار	محمد حافظ صالح	خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
الدكان	محمد سليمان	وانهار الدب الأحمر	ياسر عبد التواب
تل المعافرة	محمد شاكر	قرد حمام	يوسف فاخورى
أشياء لا تموت	محمد صفوت	أنا كنده	ترجمة : رزق أحمد
وداع لم يتم	محمد صفوت	تحولات الجحش الذهبي	ترجمة د.علي فهمى خشيم
العاج	محمد عبد السلام العمرى	الحواس	ترجمة محمد عيد إبراهيم
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمرى	الهايكو - رحلة حج بوزية	ترجمة محمد عيد إبراهيم
جبال من رمل	محمد علي سعد	زهرة الصيف	ترجمة نجاح سفر
لوحة ممنوع	محمد علي سعد	هذه الليلة الطويلة	د. أحمد صدقى الدجانى
حريم .. (أعزكم الله)	محمد الغربى عمران	الدمية والدم	أنور عبد المغيث
ضمائر فى قفص الاتهام	محمد فتحى	الأمل الخالد	د. شوقى سعد
الرقص فى أكفان الموتى	محمد فتحى	الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
الخروج إلي النبع	محمد قطب	عريس لبنت السلطان	محفوظ عبد الرحمن
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين	انشطار التاج (مسرحية شعرية)	محمد أحمد حمد
يا عم يا جمال	محمد الناصر	اللعبة الأبدية .. (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
الحياة الذروة	د. محمد نعيم شريف	احضنوا الشمس/المولود مفقود	محمد كمال محمد
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش	ابن عروس/الفلاح الفصيح	محمد نويس
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش	مملكة القرود	محمود عبدالحافظ
أخى البغل	مكرم فهمى	محرقة سافونا رولا	ميلاد حكيم
اختزال في المسافة والسفر	محمود الورواري	شهيق الحلم	هيثم يحيى الخواجة
الضياع وجبل الأوهام	ممدوح القديرى	أنشودة للبكاء	إبراهيم أبو طالب
الهبوط إلى الجنون	ممدوح القديرى	رويداً باتجاه الأرض	إبراهيم زولى

سبع سحابات (دانتيلا السماء)	إدوار الخراط	على المواجع	على السويدى
قصائد حب من العراق (الميتي والعربي)	إعداد : بثينة الناصري	إضاءة في خيمة الليل	على فريد
مختارات	جليلة رضا	نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
رعشة كأس	جمال إسماعيل مذكور	عطر النغم الأخضر	عمر غراب
من أعلى بمحاذاة الموسيقى	جمال القصاص	سراب القمر	فاروق خلف
لا تدعنى أرتحل	حنان عبد القادر	إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
بدلا من الصمت	درويش الأسيوطى	أحوال الفتى الطائر	فاروق خلف
من فصول الزمن الردئ	درويش الأسيوطى	بيت يمر بالبرارى	فاروق خلف
تماماً إلى جوار جثة يونسكو	رشيد الغمرى	العالم يستبدل ثيابه	فرج أبو شينة
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام	أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
يوميات غجرية عاشقة	رينا عودة	لعنة الأغانى ممكنة	كوثر مصطفى
تصبح علي خير	سعدني السلاموني	الذهب قبل أن أبكى	د. لطيفة صالح
أن أغربنى للداخل	سلمان الشعشاع	آية المستريب	مجدى أبو زيد
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي	الغربة والعشق	مجدى رياض
صلاة المودع	صبرى السيد	مشاعر همجية	محسن عامر
دنيا تنادينا	طارق الزياد	ديوان بدران	د. محمد أبو الفضل بدران
تلف	ظبية خميس	ونس	محمد الحسينى
البحر - النجوم - العشب في كف واحدة	ظبية خميس	غربة الصبح	محمد الفارس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى	حبيبتى والخيل الصغيرة	محمد صلاح الدين
يوم مات زهر الليمون	عبد الله أبو حسين	ليالي العنقاء	محمد محسن
أسفل المر	عبد الله عرايس	لو أنك يا حب تجيء	ناجى عبد اللطيف
حواديت لفتدى	عصام خميس	العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
سيرة الماء	د. علاء عبد الهادى	هذه الروح لى	نادر ناشد
أوراد عاهرة تصطفينى	د. علاء عبد الهادى	أجمل الآلهات تبكى (نصوص)	نداء خورى
راتب الألفة	علوان مهدى الجيلانى	الأمل وأحلام النورس	ياسين الغيل

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. دراسات ونقد وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .

خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

صخور السماء

ما هى «**صخور السماء**» ؟

هل هي الأحلام الراسخة الوطيدة التي تطفو بلا سقوط في سماء الخيال والأشواق؟

أم هي الأسئلة الوعرة التي لا إجابة لها إلا من خلال الفن؟

«**صخور السماء**» تقع فى العمق الصعيدى الشامخ . في أخميم، البلد التي ترجع إليها الأصول العريقة لمؤلفها ، بلدة الإله الفرعوني «مين» إله الخصوبة والشبق وتجدد الحياة في مصر الأبدية الخالدة، مصر التاريخ والآن والمستقبل معاً .

«مين» الذى تنتسب إليه أخميم وصخور السماء معاً هو سلف الإله الإغريقى «بان» إله الموسيقى والنبوءة والحب، إله صخور المغاور والجبال، رمز الكون .

«**صخور السماء**» رواية الخشونة والحنان، العنف ورقة القلب، الاقتحام الوحشي وإنهمار المحبة، النزوع إلى تمجيد الإلهيّ والإنسانيّ معاً بلا انفصال. الشوق إلى المطلق اللانهائي في نفس الوقت الذي تدور فيه صراعات الحياة اليومية ومشكلات العدالة والحرية، حيث تنصهر القوة والدماثة، الواقعي وما وراء الواقعي، السمائي والأرضي، صلابة الرجال والنساء وانهيار الصخور في طوفان الأهواء .

أسئلة تخترق أرضاً غير مطروقة

ليست رواية فولكلورية ولا قبطية ولا صعيدية وليست سيرة ذاتية .

رواية مصرية أساساً ، وإنسانية .

مركز الحضارة العربية